معبد الفجر

يوكيو ميشيما

رواية



بترجمة
كامل يوسف حسين

دار الآداب

معبد الفجر

بحر الخصب - ٣

معبد الفجر

رواية : يوكيو ميشيما

ترجمة : كامل يوسف حسين

دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى
١٩٩٣

القسم الأول

- ١ -

حلَّ موسم المطر في بانكوك. وتشبّع الهواء برذاذ بديع، متواصل. وغالباً ما كانت قطرات المطر تتراقص في شعاع متألّق من سني الشّمس. وتبدّت للعيان، هنا وهناك، انفراجات من الزّرقة. وحتّى حينما كانت السّحب تتجمّع بكثافة بالغة حول الشّمس، فإنّ السّماء كانت تلوح باهرة الزّرقة. وقبيل قدوم عاصفة مطيرة، تنقلب السّماء، فتغدو مكفهرّة على نحو حافل بالنّذر، ومترعة بالتهديد. ويلفّ ظلّ منذر بالشرّ المدينة الّتي تسودها الخضرة والسّقوف الخفيضة، ويتناثر فيها النّخيل.

يعود اسم المدينة إلى عهد عائلة أيوثايا المالكة، عندما أطلق عليها لأوّل مرّة اسم «بان» أيّ مدينة و«كوك» أيّ الزّيتون؛ بسبب أشجار الزّيتون العديدة الموجودة فيها. وهناك اسم قديم آخر، هو كرونج ثيب، أو «مدينة الملائكة». وهذه العاصمة الّتي تقع على ارتفاع أقل من ستّة أقدام فوق مستوى سطح البحر، تعتمد تماماً في المواصلات على القنوات. فعندما تشقّ الطّرق بمراكمة التّربة، فمن المحتّم أن تظهر القنوات. وعندما يتمّ حفر الأرض، في غمار عمليّة بناء دار، تتشكّل البرك على الفور. وتتّصل هذه البرك على نحو طبيعي بالغدران، وهكذا فإنّ هذه «القنوات» تنطلق في كلّ اتّجاه، متدفّقة جميعها إلى المياه الأمّ الّتي تشكّل نهر مينام المتألّق باللّون البنيّ الّذي يميّز بشرة سكّان المدينة.

وتقوم في قلب المدينة مبانٍ أوروبيّة الطّراز، ذات ثلاثة طوابق وشرفات، وأبنية عديدة من القرميد، تتألّف من طابقين أو ثلاثة

طوابق، في المنطقة الّتي يتركّز فيها الأجانب، وقد اجتثّت الأشجار الّتي تحفّ بجوانب الطّرق، والّتي كانت ذات يوم أجمل معالم المدينة، هنا وهناك، في غمار شقّ طريق رئيسيّ، وتمّ بصورة جزئيّة تعبيد بعض الطّرقات. وتشكّل أشجار السنط الّتي تعترض أشعّة الشّمس القويّة مجمعات من الظلّ، على امتداد الطّرق، تكسوها بخُمُر الحداد السّوداء. وبعد عاصفة رعديّة، تدبّ الحيويّة فجأة في أوراق الشّجر المرتجفة في القيظ، وتنتعش، وترفع رؤوسها.

وتذكّر المدينة المرء، من حيث ازدهارها، بمدينة من مدن جنوبي الصّين. وتشقّ زوارق ذات مقعدين لا حصر لعددها طريقها، وقد وضعت ظُلات على الجوانب والمؤخّرة. وفي بعض الأحيان تقاد الجواميس من حقول الأرز القريبة من بانكوك عبر الشّوارع، والغربان ماتزال جاثمة على مؤخّرتها. وهنا وهناك تلتمع في الظلّ البشرة المميّزة لشحّاذ مصاب بالجذام، وكأنّها لطخة قاتمة. وينطلق الصبية عراة تماماً، بينما تستر البنات الصّغيرات عوراتهنّ بقطع مطويّة من المعدن. وتعرض للبيع في السّوق صباحاً فواكه وأزهار مجلوبة من مناطق بعيدة. وأمام المصارف الصّينيّة تتألّق سلاسل من الذّهب الخالص، وقد علّقت كأنّها حصر النّوافذ الّتي تحجب الضّوء.

ولكن عندما يُرخي المساء ستره تُترَك بانكوك للقمر والسّماء المرقّشة بالنّجوم. وإلى جانب الفنادق المزوّدة بأنظمة مستقلّة للإمداد بالتيّار الكهربائي، فإنّ منازل الأثرياء، المزوّدة بمولّدات للتيّار الكهربائي، هي وحدها الّتي تتألّق على نحو بهيج هنا وهناك. ويلجأ معظم النّاس إلى الاستعانة بالمصابيح والشّموع. وتضيء شمعة وحيدة على امتداد اللّيل، في المذابح البوذيّة، في الدّور الخفيضة المترامية على

امتداد النّهر، ويلتمع الطّلاء الذّهبيّ اللّون لأيقونات بوذا وحده على نحو خافت في أعماق المباني المسقوفة بأخشاب الخيزران. وتحترق أعواد بخّور بنيّة، غليظة، أمام التماثيل، ويأتلق ضوء شمعة من الدّور الواقعة على الضفّة المقابلة، ويعترضه بين الفينة والأخرى زورق مارّ، ملتفّ بالظّلام.

في ١٩٣٩ - أي العام الماضي - غيّرت سيام اسمها، رسميّاً، إلى تايلاند.

لا يرجع السّبب في تسميّة بانكوك بفينسيا الشّرق إلى أيّ تشابه خارجي بين المدينتينّ اللّتين لا يمكن مقارنتهما، من حيث التّصميم أو النطاق. وفي المقام الأوّل فإنّ كلاًّ منهما تستخدم فيضاً من القنوات للنّقل المائي، ثمّ إنّ كلاًّ منهما تضمّ كثيراً من الصّروح المقدّسة. فهناك سبعمائة معبد في بانكوك.

تشمخ المعابد البوذيّة، المتعدّدة الطّوابق، عالية عبر الخضرة، وهي أوّل ما يتلّقى نور الفجر، وآخر ما يودّع أشعّة الشّمس الغاربة، متغيّرة مع النّور إلى حشد من الألوان.

يُعَدّ وات بنتشامابوبيت، المعبد المرمريّ الّذي شيّده راما الخامس تشولالونجكورن، في القرن التاسع عشر، أحدث المعابد وأفخمها، على الرّغم من أنّه صرح متواضع.

صعد العاهل الحالي، راما الثّامن، أو الملك أناندا ماهيدول إلى سدّة العرش في عام ١٩٣٥، وهو في الحادية عشرة من عمره، ولكنّه سرعان ما مضى للدّراسة في لوزان. وهو حالياً في السّابعة عشرة من عمره، ومازال هناك، يكرّس نفسه لمواصلة الدّراسة. وفي غيابه تولّى رئيس الوزراء، لوانج فيبون، سلطات مطلقة. وفي الوقت الحالي لا

يقوم البرلمان الشكّلي إلاّ بمهمّة استشاريّة فحسب. وقد اختير نائبان للملك، وكان أوّلهما، وهو الأمير أتشيتو آبار، لا يعدو أن يكون مجرّد واجهة، بينما أمسك الثّاني، وهو الأمير برود بانوما، بمقاليد السّلطة الحقيقيّة.

وغالباً ما كان الأمير أتشيتو أبار، وهو بوذيّ ورع، يزور في أوقات فراغه معبداً أو آخر من معابد المدينة. وذات مساء جرى الإعلان عن عزمه على زيارة المعبد المرمريّ.

كان المعبد الصرحيّ ينتصب شامخاً على ضفّة غدير تحفّه أشجار سنط طريق ناخون باثوم.

فتحت بوّابات المعبد المرمريّ البنّيّة المحمرّة الّتي يحميها زوج من الجياد الحجريّة لها عوارض زخرفيّة تشبه ألسنة لهيب بلّوري أشهب، بأسلوب الخمير القديم. وعلى كلّ من جانبيّ الممشى المستقيم، المرصوف بالحجر، المفضي من المدخل إلى المبنى الرئيسيّ الّذي يحيطه نجيل متألّق الخضرة كالزمرّد، انتصب سرادقان أقيما بأسلوب جاوة التقليديّ الّذي تميّزه أطراف السّقوف المقلوبة إلى أعلى. وقُلّمت أطراف أشجار السنط في المرجة بأشكال دائريّة، وبدت أُسود متدفّقة بالحيويّة والمرح، بيضاء اللّون، على طنف السرادقات، وهي تدهس ألسنة اللّهب.

عكست الأعمدة البيضاء، المنحوتة من المرمر الهنديّ، والمنتصبة أمام المبنى الرئيسيّ مباشرة، والأسدان المرمريّان، الحارسان، والدرابزين الخفيض الأوروبيّ الطّراز، والواجهة المشيّدة من المرمر كذلك، الأشعّة المتألّقة للشّمس الموغلة غرباً، وشكّلت لوحة بيضاء نقيّة أبرزت النماذج الزخرفيّة الثريّة الّتي تتّخذ من اللّونين الذّهبي

والقرمزيّ قواماً لها. خطّطت الأطر الدّاخليّة للنّوافذ، ذات القوس العلويّ المستدقّ القمّة، باللّون القرمزيّ، وأحيطت بألسنة لهب ذهبيّة، منمّقة، تعلو وكأنّها تلتهم النّوافذ. وحتّى أعمدة الواجهة البيضاء زُيِّنت باللّون الذّهبي المتألّق الّذي يعلو حيّات «ناجا» الملتفّة على ذاتها وهي تبرز دونما توقّع من تيجان الأعمدة. وحفّت صفوف من الحيّات الذّهبيّة المرفوعة الرؤوس بالسّقوف المتشامخة باتجاه السّماء، والمؤلّفة من طبقة بعد أخرى من الآجر الصّينيّ الأحمر. وتألّفت أطراف كلّ سقف تابع من ذيول حيّات رفيعة، ذهبيّة اللّون، وكأنّها كعبان مستدقّان في حذاء امرأة، تندفع إلى أعلى، وكأنّها في منافسة، نحو السّماء الزرقاء، إلى عِلِّيين. تألّق كلّ هذا الذّهب، على نحو قاتم للغاية، تحت الشّمس، مضفياً المزيد من البهاء على بياض الحمام الّذي جثم متكاسلاً على امتداد الجَمَلونات.

ولكن عندما أجفلت الطّيور البيضاء، واندفعت فجأة محلّقة إلى رحاب السّماء الضّاربة تدريجيّاً إلى الظّلمة، لاحت في سواد جزئيّات دقيقة من السناج. وكأنّما غدا سناج ألسنة اللّهيب الذّهبيّة، المتكرّرة في زخارف المعبد، طيوراً.

وفي الحديقة بدت أشجار النّخيل السّامقة وكأنّها تحجّرت في دهشة، ولاحت النّافورات الّتي تتّخذ شكل الأشجار، وكأنّها أقواس ترمي بسهام خضرتها أبعد فأبعد نحو السّماء.

مضت النّباتات والحيوانات والمعادن والأحجار والحمرة الهنديّة وقد تداخلت في تناغم واتّساق، تمرح، وكأنّها في حفل سمر في النّور. وحتّى الرؤوس المرمريّة للأسود البيضاء الّتي تحرس المدخل، بدت لأعين الدّنيا جميعها مثل زهور عبّاد الشّمس. وإذ اصطفّت أنياب

منشاريّة تشبه البذور في أشداقها المفتوحة، فقد لاحت وجوهها الأسديّة زهور عبّاد شمس بيضاء، غاضبة.

اقتربت سيّارة الأمير أتشيتو أبار، الرولز رويس، من المنطقة الواقعة أمام البوّابة. وكانت فرقة الشبّان العسكريّة الّتي ارتدى أعضاؤها الزّيّ الرسميّ الأحمر، قد اصطفّت في المرجة، قرب السرادقات، وراحت تعزف على آلاتها، وانتفخت أوداج أعضائها البُنّيّة. وعكست الأفواه المتوهّجة للأبواق بدقّة شخوص الشّبّان في أزيائهم الرسميّة المتألّقة. ولم تكن هناك آلات موسيقيّة أكثر ملاءمة منها تحت الشّمس الاستوائيّة.

تبع خادم يرتدي معطفاً أبيض، ويتمنطق بحزام أحمر، الأمير، رافعاً مظلّة بلون العشب فوق الرأس الملكيّ. ودخل الأمير الّذي كان يضع الأوسمة والنياشين على سترته العسكريّة البيضاء، المعبد، وبصحبته وصيف يتمنطق بحزام أزرق، ويحمل التقدّمات، وعشرة من رجال الحرس الملكيّ.

كانت زياراته تستغرق عادة حوالي عشرين دقيقة. وخلال هذه الفترة درج النظارة على انتظاره، في المرجة، متعرّضين لوقدة الشّمس. وأخيراً تناهى صوت عزف على كمان صيني في الحرم الدّاخلي للمعبد، مختلطاً بقرع أجراس رقيقة، وانتقل التّابع الّذي يحمل المظلّة إلى الدّاخل، ورفعها، وقد اتّصل بطرفها مجمر لمعبد ذهبيّ رقيق، حتّى مستوى كتفه، ووقف أربعة من رجال الحرس يعتمرون قبّعات تشبه أغطية رؤوس الكهنة، وقد تدلّت أطرافها على أقفيتهم، مصطفّين على الدرج الحجري. وكان الدّاخل المحتجب عن الأنظار معتماً للغاية، بحيث لا يستطيع المرء أن يلمح وهج

الشّموع هناك. وتصاعدت الأصوات الّتي ترتّل سوترا، مسرعة، إلى مرحلة تعاظم الصّوت، ثمَّ توقّفت على قرع جرس واحد.

فتح الخادم المظلّة الخضراء، رافعاً إيّاها في إجلال فوق الأمير المغادر المكان، وأدّى رجال الحرس التحيّة العسكريّة برفع سيوفهم. واجتاز الأمير البوّابة مسرعاً، وركب الرولز رويس.

بعد فترة قصيرة انفضّ جمع النظارة الّذين راقبوا رحيل الأمير، وغادرت الفرقة الموسيقيّة العسكريّة المكان. وخيّمت هدأة المساء، في رقّة، على المعبد. ومضى بعض الكهنة الّذين يرتدون ملابس في لون الزعفران، في نزهة إلى ضفّة النّهر، وراح البعض يقرأ، وانغمس آخرون في الحديث. طفت أزهار حمراء ذابلة، وثمار فاكهة متساقطة على سطح الماء، الّذي عكس أشجار السنط المنتصبة على الضفّة المقابلة والسّحب الجميلة الّتي توشّحت في السّماء بالمساء. وغاصت الشمس وراء المعبد، والتفّ العشب بالعتمة. وفي نهاية المطاف احتفظت الأعمدة والأُسود وواجهة المعبد المرمريّة وحدها ببياض مسائيّ آفل.

* * *

وات بو

هنالك يتعينّ على المرء أن يشقّ طريقه عبر الحشود المتدفّقة، وسط المعابد المتعدّدة الطّوابق، المنتمية إلى أواخر القرن الثّامن عشر، والقاعة المركزيّة الّتي شيّدت في عهد راما الأوّل.

شمس متوهّجة. سماء لازورديّة. ورغم ذلك فإنّ الأعمدة الشّهباء، الهائلة، في قاعة المعبد الرئيسي الكبرى، بدت ملطّخة وكأنّها قوائم فيل أبيض.

زخرف المعبد المتعدّد الطّوابق بقطع صغيرة من الخزف الّذي يعكس سطحه النّاعم، المؤتلق، الشّمس. وثمّة في المعبد العظيم الأرجواني اللّون، طبقات بالغة الوضوح من الفسيفساء الزّرقاء وقطع لا حصر لها من الخزف، رسمت عليها أعداد هائلة من الأزهار ذات البتلات الصّفراء والحمراء والبيضاء على أرضيّة أرجوانيّة مزرقّة: سجّادة عجميّة من الخزف تتعملق ناهضة نحو السّماء.

على أحد الجوانب ينتصب معبد أخضر متعدّد الطّوابق. وتتعثّر كلبة حبلى، تتدلّى مترجّرجة في حركة بندوليّة أثداؤها الحمراء الورديّة ذات النّقاط السّوداء، على الممشى المرصوف بالحجر، وكأنّما سحقتها مطرقة الشّمس.

في قاعة النيرڤانا يريح تمثال مذهب هائل لشاكيا موني مضطّجعاً كتلته من الخصلات الذهبيّة على وسادة تشبه الصندوق من الفسيفساء الزّرقاء والبيضاء والخضراء والصّفراء. وتمتدّ ذراعه الذّهبيّة بعيداً لتسند رأسه، وعند النّهاية الأخرى للقاعة المعتمة يتوهّج عقباه الذّهبيان.

لقد طُعِّم باطنا قدميه بعرق لؤلو بديع، وفي كلّ مقطع دائري، وفي مواجهة خلفيّة سوداء رائعة الصّياغة، وباستخدام التطعيم بأصداف متألّقة، قزحيّة اللّون، صُوِّرت ملامح من حياة بوذا، زخرفت كلّها بنباتات الفاوانيا، الأصداف، عناصر تجميل المذابح، قطع صخريّة متميّزة، أزهار اللّوتس النّاهضة من المستنقعات، الرّاقصات، الطّيور الغريبة، الأسود، الفيلة البيضاء، التنانين، الجياد، طيور التّم، الطّواويس، السّفن ذات الأشرعة الثّلاثة، النّمور، وطيور العنقاء.

تتألّق النّوافذ المفتوحة وكأنّها عوارض نحاسيّة مصقولة. وتحت أشجار الزيزفون تمرّ مجموعة من الكهنة، في ثياب برتقاليّة زاهية، وقد تعرّت أكتافهم اليمنى البنّيّة اللّون.

في الخارج، يبدو الهواء ذاته وكأنّما أصابته حمّى استوائيّة. وفوق البحيرة الرّاكدة بين المعابد المتعدّدة الطّوابق، تترامى كتلة الجذور الهوائيّة لأشجار المنجروف الخضراء الملتمعة[1]. ويزجّي الحمام الوقت على جزيرة مركزيّة، ذات صخور طليت باللّون الأزرق. وصوّرت فراشة هائلة على الواجهة الصخريّة، وعلى القمّة انتصب معبد أسود، صغير، جهم، متعدّد الطّوابق.

ومعبد وات فراكيو هو المعبد الحارس للقصر الملكي، وقد اشتهر بتمثاله الرئيسي، تمثال بوذا الزمرّدي.

لم يلحقه ضرر قط، منذ تشييده في عام ١٧٨٥.

تتلألأ جارودا ذهبيّة، نصفها امرأة والنصف الآخر طائر، وعلى كلّ جانب من جانبيها أعمدة مستدقّة الطّرف، مذهّبة، تحت المطر، عند قمّة الدرج المرمريّ. وتتألّق بمزيد من البريق أحجار القرميد الخضراء الحواف، والمكسوّة باللّون الأحمر الصّينيّ، تحت المطر الملتمع.

تكتسي جدران القاعة الرئيسيّة للمهاندابا بسلسلة من اللّوحات الجداريّة الّتي تصوّر أحداثاً من ملحمة الرامايانا.

وبدلاً من راما الورع نفسه، فإنّ هانومان، القرد المتألّه، والابن

(١) ليس الحديث عن الجذور الهوائيّة هنا بغريب، فالمنجروف شجرة استوائيّة تتميّز بظاهرة غريبة هي انبثاق جذور جديدة لها من أغصانها (هـ. م.).

المتوهّج بالحيويّة لإلّه الريح يظهر على امتداد القصّة المرسومة. فالحسناء الذّهبيّة سيتا، ذات الأسنان المؤلّفة من زهور الياسمين، يختطفها ملك الراكشاسا المخيف. ويخوض راما معاركه العديدة بعينين ثابتتين، متألّقتين.

قصور ملوّنة، آلهة في صورة قردة، ومعارك هولات تظهر مقابل جبال صوّرت على طريقة مدرسة جنوبي الصّين، أو بأسلوب لوحات فينيسيا الأولى، القاتمة، الّتي تصوّر المناظر الطّبيعيّة. وفوق المشاهد الريفيّة القاتمة يحلّق إلّه بألوان قوس قزح السّبعة، ممتطياً عنقاء. ويسوط رجل يرتدي ثياباً مذهّبة جواداً يكسوه قماش، ويقبع بلا حراك. وتوشك سمكة هائلة ترفع رأسها فوق البحر على مهاجمة بعض الجنود الّذين وقفوا فوق أحد الجسور. وعلى مبعدة بحيرة ذات لون أزرق شاحب، ويجثم هانومان مجرِّداً سيفه على شجيرة، فيما هو يترصّد جواداً أشهب بسرج ذهبيّ، يمضي وئيداً، في صمت، عبر غابة مظلمة.

- أتعرف الاسم الحقيقيّ لبانكوك؟

- لا، لا علم لي به.

- إنّه كرونج ثيب فرا مهاناكورن أمون لاتاناكوسين ماهنترا شياثايا مافما بوب نوبالا راتشاثاني بريلوم.

- ما الّذي يعينه هذا كلّه؟

- من المستحيل، على وجه التقريب، ترجمته. فالأسماء التايلانديّة تشبه زخارف المعابد في أنّها فخمة بلا ضرورة ومثقلة بالأزهار، ومزخرفة من أجل الزخرفة.

طيّب، إنّ كرونج ثيب تعني تقريباً «عاصمة» وبوب نوبار هي

«الماسة ذات الألوان التسعة» وراتشاثاني تعني «مدينة رحبة» وبريلوم تعني شيئاً من قبيل «بهيجة». وهم يختارون أسماء وصفات مبالغاً فيها، ومترعة بروح المباهاة، ويضمّونها معاً وكأنّها حبّات قلادة.

وفي غمار الردّ بـ «نعم» بسيطة على الملك يقتضي العرف السّاري في البلاد أن تقول: «فرابوت تشاو كا كولاب برومكان سايكراو ساي كلامون». وهو ما ترجمته، على وجه التقريب، «خادمكم المتواضع، المطيع، ينحني إجلالاً لكم يا مولاي!».

مضى هوندا، وقد استكن في مقعد من أسل الهند، يصغي لحديث هيشيكاوا بتفكُّه بعيد عن التحيّز.

كانت شركة منتجات إتسوي المحدودة قد بعثت بهذه الشّخصيّة الموسوعيّة، وإن كانت على شيء من الغرابة، والرّثاثة، الّتي كان صاحبها، دونما شكّ، فنّاناً، في وقت من الأوقات، ليعمل كمترجم ودليل لهوندا. وقد اعتبر هذا الأخير، وكان قد بلغ السادسة والأربعين من العمر، من قبيل المجاملة لنفسه أن يترك الأمور للآخرين، وبخاصّة في بلاد قائظة كهذه.

وقد جاء إلى بانكوك بطلب من شركة منتجات إتسوي. ذلك أنه إذا أبرمت صفقة على أساس القانون الياباني، ونشأ نزاع مع المشتري، خارج الأراضي اليابانيّة، فإنّه على الرّغم من إقامة الدّعوى أمام محكمة أجنبيّة، إلّا أنّها تحسم وفقاً للقانون الدّولي المدنيّ. وفضلاً عن ذلك فإنّ المحامين الأجانب يجهلون، في الأحوال كافّة، القانون الياباني. وفي مثل هذه الحالات تتمّ دعوة مستشار ياباني بارز، لإيضاح الدّقائق القانونيّة اليابانيّة للمحامين المحليّين، والمساعدة على هذا النّحو في تسوية الدعوى.

وكانت شركة منتجات إتسوي قد صدّرت مائة ألف علبة من أقراص كالوس الـواقية من الحمّى إلى تـايلانـد في كانـون الثاني (ينـاير). ومن هذا الإجمالي قُدِّر لثلاثين ألف علبة أن تتعرّض للتلف بتأثـير الرّطـوبة، وفقـدت لـونها، وبـالتـالي فعـاليتهـا. وكـانت العلب تحمـل تـاريـخ الصّلاحيّة للاستخدام بما يتضمّن نقصاً في الفعـالية عقب مـدى زمني معين، ولكن ذلك لم يعد ذا جدوى بعد أن فسدت الأقـراص. ومثل هذه المشكلات المدنيّة كان ينبغي حلّها بـالإحالـة على القـانون الّـذي يتناول عدم الوفاء بـالتعهّد، ولكنّ المشـترين تقدّمـوا باتّهـامات تتعلّق بالغشّ الإجرامي الّذي يقع تحت طائلة قانون العقوبات. وبالـطّبع، فإنّه يتعينّ على شركة منتجات إتسوي، وفقاً للمادة ٧١٥ من القـانون المـدني، أن تتحمّل المسؤوليّـة عن التعويض عن الأضرار النـاجمة عن الإخلال غير النّاجم عن الإهمال، بالنّسبة لأيّ عيب في البضـاعة الّتي توزّعها شركة عقاقير متعاقدة معها تعاقداً فـرعيّاً. ولكنّ المسؤولـين في الشركة ما كـان بمقدورهم القيـام بشيء دون مساعـدة من محام يـاباني قدير مثل هوندا، في موضوعات من هذا النّوع الّذي يتعلّق بالقـانون الدّوليّ المدني.

وقد خصّصت لهوندا غرفـة في «أورينتل أوتيـل» الّذي ينـطق أبناء البلاد اسمه «أورينتن أوتين»، تطلّ على مشهد رائـع لنهر مينـام. وقد هُوّيت الغرفة بمروحة سقف بيضاء كبيرة. ولكن مع قدوم اللّيل كـان من الأفضل الخروج إلى الحديقة الممتدّة على ضفّة النّهر، والاستمتـاع بالنّسائم الأكثر برودة، بصورة نسبيّة، هنـالك. وفيـما هو عـاكف على ارتشاف المشروب المقبِّل مع هيشيكاوا الـذّي أقبل للقيـام بمهمّة دليله هذا المساء، ترك رفيقه يتـولّى إدارة دفّة الحـديث؛ فقد غلبـه التّعب، وحتّى الملعقة أحسّ بأنّها بـالغة الثّقـل، بالنّسبـة لأصابعـه، بل وكـان

تجاذب أطراف الحديث عبئاً أثقل من الملعقة المطليّة بالفضّة.

على الضّفة المقابلة راحت الشمس تغوص فيها وراء وات أرون، معبد الفجر. وملأ وهج مسائيّ يتخلّل كلّ شيء السّماء الرحبة، فوق مجاز الرؤية المسطّح الّذي تتيحه أدغال ثون بوري الّذي لا يكسره إلاّ برجان أو ثلاثة أبراج لها قمم مستدقّة، وتلفّها الظّلال، في مواجهة الأفق. وشأن القطن امتصّت خضرة الغابة الوهج، مغيّرة إيّاه إلى لون زمرديّ حقاً. ومرّت زوارق صينيّة تتحرّك بالمجاذيف، وتجمّعت الغربان بأعداد كبيرة، وهيمن لون ورديّ ملطّخ على مياه النّهر.

ـ الفنّ كلّه يشبه وهج المساء.

قالها هيشيكاوا، راصداً، على نحو ما يفعل دوماً عندما يتأهّب للإعراب عن رأي، الأثر الّذي ستتركه كلماته فيمن يسمعه. وقد أثارت نقاط الصّمت تلك من ضيق هوندا ما يفوق ما أثارته ثرثرة هيشيكاوا المتواصلة.

تبدّى الملمح الجانبي لهيشيكاوا بوجنتيه المتميّزتين باللّون السيامي الدّاكن، والجلد المشدود على نحو شاحب، خلافاً للسياميّين، فقد مضى يتألّق في أشعّة الشّمس الأخيرة الّتي ترامت من الضّفة الأخرى للنّهر.

كرّر قوله:

ـ الفّن وهج مسائيّ هائل. إنّه التقدمة المحترقة لأفضل الأشياء كافّة، في عصر بعينه، وحتّى المنطق الأكثر وضوحاً الّذي انتعش طويلاً في ضوء النهار، يقضي عليه تماماً الانفجار الباذخ المجرّد من المعنى في السماء المتوشّحة بالمساء، وحتّى التّاريخ المقدّر له، فيما يبدو، أن يدوم إلى الأبد يحمل فجأة على إدراك نهايته. ويقف الجمال أمام

الجميع، فيجعل الجهد الإنسانيّ بلا طائل تماماً. وأمام ألق المساء، أمام السّحب المسائيّة المتدافعة، يتداعى كلّ الهراء الّذي يدور حول «مستقبل أفضل» في التوّ. فاللّحظة الرّاهنة هي كلّ شيء، ويمتلئ الهواء بسم لوني.. ما الّذي يبدأ؟ لا شيء. فكلّ شيء ينتهي.

ليس ثمّة شيء له جوهر فيه. وبالطّبع فإنّ للّيل طبيعته الحقيقيّة: اللّبّ الكونيّ للموت وللوجود غير العضويّ. وللنّهار أيضاً كيانه، فكلّ شيء إنسانيّ إنّما ينتمي إلى النّهار.

ولكن ليس هناك جوهر في وهج المساء. فهو ليس إلّا طرفة، طرفة لا معنى لها، ولكنّها تؤثّر في النّفس، قوامها الشّكل والضياء واللّون. انظر!... انظر إلى السّحب الأرجوانيّة! نادراً ما تقيم الطّبيعة مأدبة من لون باذخ كاللّون الأرجوانيّ. وسحب المساء هي إهانة لأيّ شيء متّسم بالاتّساق، ولكن مثل هذه الإطاحة بالانتظام ترتبط، على نحو وثيق، بانكسار شيء ما أكثر تجذّراً بكثير، وإذا ما أمكن مقارنة سحابة النّهار الشّهباء الجليلة بالتشدّد الأخلاقيّ فإنّ هذه السّحب المتمرّدة لا يربطها شيء بالأخلاق.

تتنبّأ الفنون بالرؤية الأعظم للنّهاية، فهي قبل أيّ شيء آخر تمهّد للنّهاية وتجسّدها. والأطباق الرّائعة، والأنبذة الفاخرة، والأشكال الجميلة، والملابس الأنيقة ـ كلّ ألوان التّرف الّتي يمكن أن يحلم بها أحد في عصر بعينه تدفع دفعاً إلى رحاب الفنون. وكلّ الأشياء الّتي تنتمي إلى هذه النّوعيّة كانت شكلاً من أشكال الانتظار. إنّها شكل من خلاله يتمّ في أقصر وقت القضاء على كلّ حياة إنسانيّة وتدميرها. وذلك هو وهج المساء. ولأيّ هدف؟ من أجل لا شيء حقّاً؟

وأكثر الأشياء رهافة، أكثر الأحكام الجماليّة حساسيّة على أدق

التفاصيل ـ وأنا أشير إلى الأطراف الخارجيّة المراوغة على نحو يستعصي على الوصف لواحدة من تلك السّحب البرتقاليّة اللّون ـ إنّما ترتبط بكليّة الاختمار الهائل، وجوانبه الأكثر جوانية يتمّ التّعبير عنها باللّون، ولدى اتّحادها بالجوانب الخارجيّة تغدو وهج المساء.

وبكلام آخر فإنّ وهج المساء هو تعبير، والتّعبير وحده هو وهج المساء.

وفي غماره فإنّ أدّنى شعور إنسانيّ بالخجل والنّشوة والغضب والاستياء يتمّ التّعبير عنه على صعيد سماوي. وفي خضم هذه العمليّة الكبيرة فإنّ ألوان الشؤون الإنسانيّة الدّاخليّة الّتي لا تبدو للعيان عادة، يتم التخارج بها، ونثرها على امتداد السّماء بأسرها. وأكثر ألوان الرّقّة والجسارة مراوغة تنضم إلى «آلام العالم» ويتحوّل الحزن في النّهاية إلى حفل عربيد، قصير الأمد، وتجتذب جميع جزئيّات المنطق الّتي تمسّك بها الناس في عناد خلال النّهار، إلى الانفجار الانفعاليّ السّماويّ الهائل، وإطلاق العنان المدوّي للعواطف، فيدرك النّاس عدم جدوى كلّ الأنساق الفكريّة. وبتعبير آخر فإنّ كلّ شيء يجري التّعبير عنه طوال عشر دقائق، أو خمس عشرة دقيقة على أقصى تقدير، ثمّ ينتهي كلّ شيء.

إنّ وهج المساء سريع، ويتّسم بخصائص الانطلاق السّريع العاجل، وربّما يشكّل أجنحة العالم. وشأن جناحي طائر غرِد ينقلب مكتسياً بألوان قوس قزح، وهو يرفّ بجناحيه مرتشفاً رحيق الزهور، فكذلك العالم يرينا لمحة موجزة من قدرته على التحليق عالياً، ذلك أنّ كلّ الأشياء تطير في وهج المساء مبتهجة، ومنتشية. . . ثمّ تهوي في النّهاية إلى الأرض وتموت.

فيما كان هوندا يصغي، على نحو متقطّع، لكلمات هيشيكاوا، مضت السّماء فوق الضفّة المقابلة تغوص، وئيدة، في رحاب الغسق، تاركة ومضة واهنة على الأفق.

أَوَقَدْ زعم أنّ الفنّ كلّه هو وهج المساء؟ ومع ذلك فهناك ينتصب شامخاً معبد الفجر!

* * *

كان هوندا قد عبر النّهر إلى الضفّة الأخرى، على متن زورق قام باستئجاره، في وقت مبكر من صباح أمس، وزار معبد الفجر.

وقد قام بذلك، على وجه التحديد، عند شروق الشمس، وهو أكثر الأوقات ملاءمة لذلك. وكان الظّلام مايزال مخيّماً، والتقط الطّرف العلوي للمعبد المتعدّد الطّوابق وحده أُولى أشعّة الشّمس الّتي تغذّ المسير نحو الشّروق. وحفلت أدغال ثون بوري، فيما وراء المعبد، بصيحات الطّيور الصاكّة.

وفيما هو يدنو من المعبد أدرك أنّه مكسوّ بما لا حصر له من قطع الخزف الصّينيّ الصّغيرة، ذات الوهج الأحمر، أو الأزرق، وتميّز كلّ طابق بدرابزين، فالدرابزين الموجود في الطّابق الأوّل بنيّ اللّون، وفي الثّاني أخضر، وفي الثّالث أزرق ضارب إلى الأرجوانيّ. وشكّلت الأطباق الخزفيّة الموضوعة هناك زهوراً: مثّلت الصفراء منها القلوب الّتي منها تمتدّ بتلات من الأطباق. وكان لبعضها قلب من كؤوس نبيذ بلون الخزامى مقلوبة، وهنا شكّلت أطباق ذهبيّة بهيجة اللّون البتلات. وتصاعدت سلاسل من مثل هذه الأزهار إلى القمّة. وكانت الوريقات جميعها من الآجر. ومن القمّة تدلّت خراطيم أربعة فيلة بيضاء، على النقاط الأربعة الرئيسيّة.

كـانت تكراريّـة المعبد وفخـامته خـانقتين، عـلى وجـه التقـريب، وأعطى البرج المستدقّ باتّجاه القمّة بألوانـه وألقه وزخـارفه المؤلّفـة من طبقات عدّة، المرء انطباعاً بطبقات عديدة من سياقات حلميّـة، تحوم فـوق الرؤوس. وزيّنت قـواعد الـدّرج الشديـد الانحدار، بكثـافة، بحبـال الزّهـور والرايـات الزخـرفيّة، وزوّد كـلّ طـابق بنقش محـدود البروز لطيـور ذات وجوه بشـريّة. وشكّلت كـلّ هذه العنـاصر معبداً متعـدّد الطّوابق والألـوان، سحق سطحـه ذاته بـطبقات من الأحـلام والتـوقّعات والصّلوات، كـلّ طبقة منهـا مثقلة بـطوابق أخـرى تشبـه الهرم، موغلة في تقدّمها نحو السّماء.

مـع سقوط أشعّـة الفجر الأولى عـلى نهر مينـام، تحـوّلت عشرات الآلاف من قطع الخزف الصغيرة إلى مرايا دقيقة، بمثـل هذه العـدد، أمسكت بعنان الضوء، وتألّق عارماً صرح هائل من عِرْق اللؤلؤ.

عمل المعبد المتعدّد الطّوابق طويلاً كجرس صباحيّ تقرعه الأضواء الثريّة والألوان الصدّاحة المستجيبة للفجـر؛ فقد خلقت لتبعث جمـالاً وقوّة وانفجاراً يشبه الفجر ذاته.

في نور الصّباح الغـريب البنيّ الضّارب إلى الصّفـرة الّذي ينعكس عـلى نحو وردي في نهر مينـام، عكس المعبد صـورته المتـألّقة، مُؤْذِنـاً بمقدم نهار قائظ آخر.

ـ إنّني على يقين من أنّـك زرت ما فيـه الكفايـة من المعابـد. وأمّا اللّيلة فسوف أصحبك إلى مكان مسلٍّ.

قالها هيشيكاوا. وكان هوندا يحدّق شارداً باتّجاه معبد الفجر الّـذي لفّه الظّلام تماماً الآن. وأضاف:

ـ لقـد رأيت وات بو، وكـذلك وات فـراكيو، وعنـدما ذهبت إلى

المعبد المرمريّ كنت محظوظاً إذ شاهدت زيارة نائب الملك له. وصباح أمس شاهدت معبد الفجر. وما من نهاية لزيارة المعابد، إن كنت تهتمّ بذلك، ولكنّي أعتقد أنّك قد اكتفيت.

- إحم. أحسب أنّ الأمر كذلك.

قالها هوندا بغموض، متردّداً في ترك الأفكار الّتي كان مستغرقاً فيها بعمق تتعرّض للمقاطعة.

كان مستغرقاً في التّفكير في يوميّات الأحلام القديمة الّتي كتبها كيواكي، والّتي لم يلق عليها نظرة منذ زمن طويل، ولكنّه جلبها في قاع حقيبته، محدِّثاً نفسه بأنّه قد يقرأها من جديد، للمساعدة في تزجية وقت الفراغ خلال الرّحلة الّتي يقوم بها. وبسبب الحرّ الّذي لا يطاق وشعوره بالتّعب لم تتح له الفرصة للقيام بذلك حتى الآن. ولكنّ الألوان الاستوائيّة، المتألّقة الواردة في وصف حلم قرأ عنه منذ وقت طويل، كانت ماتزال متوهّجة بالحيويّة في ذهنه.

لّما كان هوندا مشغولاً للغاية حقّاً فإنّه لم يقبل الرّحلة إلى تايلاند لأسباب تتعلّق بالعمل بصورة خالصة، ففي خلال دراسته بالمدرسة، وفي سنّ بالغة الحساسيّة، كان قد تعرّف، عن طريق كيواكي، على أميرين سياميّين وشاهد النّهاية الفاجعة لقصّة حبّ تشانترابا، وضياع خاتم الأمير باتاناديد الزمرّدي. وبسبب الإدراك الغامر لكونه مقدّراً له أن يكون مراقباً فقد حفظت الصّورة المضبّبة في ذاكرته، أخيراً، في إطار قويّ ومكين. وقد عقد العزم، منذ وقت طويل، على أنّه لابدّ له من زيارة سيام، ذات يوم.

ومع ذلك فإنّ هوندا، وقد بلغ السّادسة والأربعين، أصبح من ناحية أخرى، شديد الحرص، فيما يتعلّق بأدنى انفعال من انفعالاته.

فقد اعتاد، دونما وعي منه على رصد الخداع والمبالغة في هذه الانفعالات. وقد غرق في التّفكير في أنّ عاطفته الجارفة الأخيرة قد دارت حول إنقاذ إيساو، الفتى الّذي اكتشف أنّه قد تناسخت فيه روح كيواكي، وتخلّى عن عمله في القضاء. ولم يؤدّ ذلك إلى شيء، ولم يعايش إلّا شعوراً محطّماً بالإخفاق أقنعه تماماً بعبث إيثار الآخرين.

بعد أن تخلّى عن مثله العليا القائمة على نزعة إيثار الآخرين، أصبح محامياً أفضل ممّا كان قبلاً. وإذ تجرّد من العواطف فقد نجح في إنقاذ الآخرين، في قضيّة إثر أخرى. ولم يقبل أيّة مهمّة، إلّا إذا كان الموكّل ثريّاً، بغضّ النّظر عمّا إذا كانت القضيّة ممّا يندرج تحت القانون المدنيّ أو الجنائيّ. وازدهرت أحوال عائلته على نحو يفوق ما كانت عليه في حياة أبيه.

ليس المحامون البائسون الّذين يتصرّفون كما لو كانوا الممثّلين الطبيعيّين للعدالة الاجتماعيّة، والّذين يعلنون عن أنفسم باعتبارهم كذلك، إلّا قوماً سخفاء. وكان هوندا يدرك حقّ الإدراك ضوابط القانون، فيما يتعلّق بإنقاذ النّاس. وبصراحة فإنّ أولئك الّذين ليس بمقدورهم توكيل محامين ليسوا مؤهّلين لمخالفة القانون. ولكن معظم النّاس يرتكبون الأخطاء، وينتهكون القانون، بحكم الضّرورة المحض أو الغباء.

وقد أتت أحيان على هوندا بدا له فيها أنّ إعطاء قواعد قانونيّة قياسيّة للغالبيّة الكاسحة من النّاس ربّما كانت أكثر الألعاب الّتي ابتكرتها البشريّة صلفاً. فإذا كانت الجرائم غالباً ما ترتكب انطلاقاً من الضّرورة أو الغباء، أفلا يمكن للمرء الذّهاب إلى القول بأنّ

العادات والأعراف الّتي استنّت على أساسها مثل هذه القوانين تتمّ كذلك بالحمق والغباء؟

بعد حادث عصبة الرّيح الإلهيّة لعهد شوا الّذي انتهى بمصرع إيساو، وقع كثير من الأحداث المنتمية إلى هذا النّوع، ولكن الاضطراب الدّاخلي في اليابان توقّف مع وقوع حوادث ٢٦ شباط (فبراير) ١٩٣٦. وظلّ حادث الصّين الّذي بدأ عقب ذلك بوقت قصير، دونما حسم، حتّى بعد خمس سنوات من القتال. والآن قدم التّحالف الّذي يضمّ اليابان وألمانيا وإيطاليا، قوّة دفع كبيرة، وأصبح خطر نشوب حرب بين اليابان والولايات المتّحدة موضوعاً متداولاً في النقاش.

ولكن بما أنّ هوندا لم يعدّ معنيّاً بمرور الزّمن أو المعارك السياسيّة أو دنو الحرب فإنّه لم يعد يشعر بأيّة انفعالات حيال هذه الأمور. فقد انهار شيء ما في سويداء فؤاده؛ وعلم أنّه لا قدرة له على الإمساك بمقاليد الأحداث الّتي مضت في طريقها كأنّها عاصفة مطيرة هادرة تفرّق كلّ شخص لا حيثيّة له، لاطمة دونما تمييز فقاعات حظوظ النّاس. ولكنّه لم يكن من الواضح، بالنّسبة له، ما إذا كانت كلّ الحظوظ مثيرة للإشفاق في نهاية المطاف. وتمثّل نزوع التّاريخ في المضي قدماً عن طريق تحقيق رغبات البعض ورفض رغبات البعض الآخر. وأيّاً كان المدى الّذي سيصل إليه المستقبل في إثارة الأسى والحزن فإنّه لا يثير بالضّرورة شعور الجميع بخيبة الأمل.

غير أنّه لا يتعيّن على المرء، مع ذلك، أن يفترض أنّ هوندا قد أصبح شخصاً ذا نزعة عدميّة وكلبيّة تماماً. فهو بالمقارنة بما كان عليه في الماضي أصبح مرحاً ومنطلقاً. وتغيّرت إلى حدّ كبير طريقته في الحديث الّتي كان شديد الحرص عليها خلال تولّيه منصب القاضي

وأصبح ذوقه في الملابس أكثر تحرّراً، بل إنّه ارتدى سترة رياضيّة ذات مربّعات زخرفيّة، وشرع يروي النّكات، ويتصرّف بمزيد من رحابة الصّدر. ولكن لم تعد الملاحظات الطّريفة ممّا يطاوع شفتيّه في يسر منذ قدومه إلى هذا البلد القائظ.

أوحى محياه الآن بالمكانة الجليلة الّتي تناسب سنوات عمره. وقد فقد، منذ زمن طويل، الملمح الجانبيّ المحدَّد بوضوح، الّذي كان له في شبابه، وبشرته الّتي كان لها ذات يوم ملمس القطن المغسول، اتّخذت، بعد أن عرف طعم الرّفاه، ملمس الدمقس الصّقيل. ولّما كان يدرك حقّ الإدراك أنّه لم يكن وسيماً قطّ، فإنّه لم يداخله كليّة شعور بالاستياء حيال النّقاب غير الشّفيف الّذي أسدله التقدّم في سنوات العمر على محيّاه.

وفضلاً عن ذلك فإنّه يمسك بمقاليد مستقبله على نحو يفوق في ثقته بكثير ما يستطيعه أيّ شاب. فالسّبب في أنّ الشّباب يثرثرون كثيراً عن المستقبل هو أنّهم لا يمتلكونه. والتملّك بترك الأمور تمضي في أعنتها هو سرّ من أسرار الملكيّة يجهله الشّباب.

وكما أنّ كيواكي لم يؤثّر في الأزمان الّتي عاشها فإنّ هوندا لم يؤثّر في زمنه. ومحلّ العهد الّذي لقي فيه كيواكي حتفه في ميدان معركة العواطف الرومانسيّة، يُقْبل عهد جديد سيلقى الشّباب فيه حتفهم في غمار معارك حقيقيّة. وكان النّذير بمقدم هذا العهد هو مصرع إيساو. وبتعبير آخر فإنّ كيواكي وإيساو، الّذي تناسخت روح كيواكي فيه، قد ماتا ميتتين متباينتين، في ميدانيْ معركة متغايرين.

وهوندا؟ لم يكن فيه مؤشّر واحد للموت! ولم يحدث أن تاق للموت قطّ، كما أنّه لم يحاول تجنّب مَقْدَمِه. غير أنّه الآن وقد أصبح

فجأة هدفاً للسهام النّاريّة الّتي توجهها الشّمس الاستوائيّة المنهّلة عليه عبر النّهار المتطاول، بدت له الخضرة الجميلة الكثيفة الباذخة الّتي تحيط به من كلّ الجوانب وكأنّها يُحْتَمَل أن تكون البهاء المذهل للموت نفسه. قال:

ـ منذ وقت طويل، ربّما كان سبعة وعشرين أو ثمانية وعشرين عامّاً، عندما جاء أميران سياميان إلى اليابان للدّراسة، حظيت بشرف معرفتهما، لبعض الوقت. كان أحدهما هو الأخ الأصغر لراما السادس، الأمير باتاناديد، والآخر هو الأمير كريدسارا، ابن عمّه وحفيد راما الرّابع. ترى ما الّذي يقومان به الآن. لقد علّقت الآمال على رؤيتهما عندما جئت إلى بانكوك، ولكنّه يبدو من قبيل التّجاوز أن أفرض نفسي على أناس من المؤكّد أنّهم نسوني.

ـ لماذا لم تخبرني بذلك من قبل؟

قالها هيشيكاوا، البارز في كلّ ميدان، مسارعاً إلى توجيه اللّوم لهوندا على تحفّظه، وأضاف:

ـ أيّاً كان ما تطلبه فإنّ بمقدوري الوصول إلى حلّ.

ـ طيّب، إذن، أتعتقد أنّه قد يكون بمقدوري رؤية الأميرين؟

ـ لا ينبغي أن أمضي إلى حدّ قول هذا. فعمّهما راما الثامن يعتمد عليهما كثيراً. وهما معه الآن في لوزان. وقد مضى أكثر الأعضاء أهمّيّة في العائلة المالكة إلى سويسرا، والقصر خاوٍ.

ـ يؤسفني سماع ذلك.

ـ ولكن هناك إمكانيّة للقاء عضوة من أعضاء عائلة الأمير باتاناديد. إنّها قصّة طويلة، فصغرى بنات سموّه الملكيّ، وهي طفلة في حوالي السّابعة من العمر، تقيم في بانكوك بمفردها مع وصيفاتها.

وتعدّ المسكينة عمليّاً حبيسة في دارة صغيرة يسمّونها قصر الورديّة.

ـ ولم ذلك؟

ـ سيكــون من قبيـل الإحــراج للعـائلة أن تصحب الـطّفلة إلى الخارج؛ إذ يعتقد أنّها قاصرة عقليّاً. وقـد دأبت منذ تمكّنهـا من المشي عـلى القول: «لست أمـيرة سياميّـة حقّاً، إنّني تنـاسخ لـروح يابـانيّ، وموطني الحقيقيّ في اليابان». وهي ترفض تغيـير قصّتها، أيّـاً كان مـا يقوله النّاس لها. وإذا مـا اعترض أحـد فإنّها تنخـرط في نوبـة غضب عـاصفة. وتقـول الشّائعـة إنّ كلّ المحيـطين بها قـد سايـروا وهمهـا، وجعلوها تصدّق ما تشاء. والوصول إلى لقائها أمـر بالـغ الصّعوبـة، ولكن بمـا أنّ لك صلات بالأميرين الملكيـين فإنّي أعتقـد أنّ بمقدوري القيام بشيء ما، بحسب الكيّفية الّتي سأتّصل بها بالمسؤولين عنها.

- ٢ -

بعد أن استمع هوندا إلى قصّة الأميرة الصّغيرة المسكينة المجنونة، لم يتأثّر على الفور مندفعاً للسّعي إلى لقائها.

عرف أنّها ستكون في متناول يده وكأنّها معبد ذهبيّ صغير متألّق. وكما أنّ المعابد لا تحلّق قطّ إلى البعيد، فقد شعر بأنّ الأميرة بدورها ستكون هنالك على الدّوام. ومن المؤكّد أنّ الجنون في هذا البلد سيكون مثل فنّها المعماريّ، أو رقصاتها المضجرة المتأنّقة الّتي تتواصل في روعتها الخالدة. وحدّث نفسه بأنّه في يوم آخر، عندما تتغيّر حالته المزاجيّة، سيطلب مقابلتها.

ربّما جاء هذا التسويف في أحد جوانبه من الفتور الّذي يعايشه المرء في المناطق الاستوائيّة، وفي الجانب الآخر من إيغاله في العمر. فقد شرع الشّيب يعمّ شعره، وكان يمكن أن تقلّ حدّة نظره لولا أنّه كان لحسن الحظ على شيء من قصر البصر منذ الطّفولة. ومازال بمقدوره تسيير أموره بصورة طيّبة دون الاستعانة بعوينات كبار السنّ.

مكّنه تقدّمه في العمر من استخدام القوانين الّتي علّمته التجربة إيّاها كمقاييس يقيس عليها الأمور، وكان بمقدوره أن يحدّد مسبقاً النتيجة الّتي ستصل إليها غالبيّة المواقف. وبالفعل فإنّه باستثناء الكوارث الطّبيعيّة، لا تقع الأحداث التّاريخيّة، أيّاً كان القدر الّذي تبدو به غير متوقّعة، إلاّ بعد إنضاج طويل؛ فالتّاريخ في تردّده يشبه عذراء في مقتبل العمر، قبل خطبة رومانسيّة. وبالنّسبة لهوندا فقد كانت هناك على الدّوام لمسة من الاصطناع في أيّ حادث يتطابق تماماً

مع رغباته، ويحدث بسرعة تدخـل البهجة في النّفس. ومن هنـا فإنّـه إذا أراد أن يعهد بأعماله إلى قوانين التّاريخ فإنّه من الأفضل بالنّسبة له على الدّوام أن يتبنّى موقفاً متحفّظاً حيال كلّ شيء. وقد شـاهد كثيـراً من الأمثلة الّتي لم يستـطع المرء فيهـا الحصول عـلى شيء أراده، وكان الإصرار بـلا طائـل في نهاية المـطاف. وحتّى الأشياء الّتي كـان حريّـاً بالمرء أن يحصل عليها، لو لم يكن في حالة توق بالغ إليها، أفلحت في الانزلاق بعيداً؛ لأنّ التطلّع إليها كان أكثر ممّـا ينبغي. وبدا الانتحـار معتمداً تماماً على رغبة المرء وتصميمـه. ومع ذلـك فقد اضـطر إيساو إلى قضاء عام بكامله في غيابات السّجن لكي ينفّذه بنجاح.

ورغم ذلك، ولدى التفكـير في الأمر، فـإنّ إقدام إيسـاو على فعلة لاغتيال وانتحاره لاحا كنجمتيْ مساء برّاقتين، نذيرين بحـدوث شيء وسط كوكبات متألّقة من النّجوم، وقد رادا الطّريق المفضي إلى حادث السّادس والعشرين من شباط (فبراير). ومن المؤكّد أنّ القائمين بالاغتيال كـانـوا يـأملون في طلوع الفجـر، ولكنّ مـا أقبـل لم يكن إلاّ اللّيـل. والآن، وأيّاً كانت طبيعة الأزمان، فإنّ ذلك اللّيل أوشك أن ينجـلي، وأقبل صباح خانق متقلقل، صبـاح ما كـان أيّ من أولئك النّـاشطين ليتخيّله.

لقد أثارت المعاهدة الّتي وضعتها اليابان وألمانيا وإيطاليا الغضب في نفوس شريحة من الوطنيين، ونفوس أولئك الّذين يؤيّدون الفـرنسيّين والإنجليـز، ولكنّ الغالبيّـة العظمى من أولئـك الّذين يحبّـون أوروبّا والغرب، بل حتّى الدّعـاة العتيقو الـطّراز لفكرة عمـوم آسيا، سُرّوا بها؛ فاليابان لن تـزفّ إلى هتلر، وإنّما إلى الغـابات الألمـانيّة، ولا إلى مـوسوليني، وإنّمـا إلى مجمع الآلهـة الرومـاني. كان حلفـاً يجمـع بـين

الميثولوجيا الألمانيّة والإيطاليّة واليابانيّة، صداقة بين أرباب الشّرق والغرب الجميلة، الذكوريّة، الوثنيّة.

ولم يخضع هوندا بالطّبع قطّ لمثل هذا التحيّز الرومانسي. ولكن الأزمان كانت، على نحو راعد، الأوقات الملائمة لمثل هذا الاتّجاه، فيما شعر هوندا، وبدا جليّاً أن حلماً ما يتشكّل. والآن، وفيما هو موجود هنا، بعيداً عن طوكيو، أسفرت الرّاحة والدّعة المفاجئتان، على نحو غريب؛ عن الإعياء، ولم يستطع القيام بشيء يحول دون هذا الانغماس في التأمّل فيما مضى من أمور.

لم يكن قد تخلّى عن فكرته، تلك الفكرة الّتي شدّد عليها منذ وقت طويل، في حديثه مع كيواكي الّذي كان في التّاسعة عشرة من عمره: إنّ إرادة ربط المرءِ ذاته بالتّاريخ هي جوهر القصد الإنساني. غير أنّ الخوف الفطري الّذي ساور الفتى الّذي لم يتجاوز عامه التّاسع عشر، على شخصيّته، قد تبيّن أنّه في بعض الأوقات كان بمثابة النبوءة. ولدى إعلان مثل هذا المفهوم، كان هوندا في الواقع يعبّر في ذلك الوقت عن اليأس من تكوينه هو نفسه. وقد زاد هذا الميل مع تقدّمه في العمر، وأصبح أخيراً داء مزمناً. ولكنّ شخصيّته لم تتغيّر قط أدنى تغيّر. واستعاد ذكرى فقرة بالغة الفظاعة من الفصل الّذي يدور حول الجزاءات الثّلاثة[1] في «رسالة عن إثبات الواقع» الّتي كانت بين نصّين أو ثلاثة نصوص بوذيّة أوصت بها رئيسة كاهنات معبد جيشو:

(١) المراد الجزاء في الحياة الرّاهنة، عن أعمال تمّ القيام بها بالفعل، وفي البعث التالي، عن أعمال يجري القيام بها حاليّاً، وفي حيوات لاحقة. (هـ. م.).

إنّ تلذّذ المرء باقتراف الشرّ
مردّه إلى أنّ الشرّ ليس بناضج.

وهكذا فإنّ هوندا استشعر سروراً كسولاً، استوائيّاً، حيال الاستقبال الحافل الّذي لقيه في بانكوك، وحيال ما سمعه، وما رآه، بل وما تناوله، واحتساه. ولكنّ ذلك لم يكن حقّاً برهاناً على أنّه لم يخل من ذنب الأعمال الشّريرة في عمره الّذي دام نحو خمسين عاماً. ومن المؤكّد أنّ شرّه لم يكن ناضجاً كالثّمرة ذات العبق المتأهّبة للسقوط من غصنها من تلقاء ذاتها.

تعرّف هوندا في بوذيّة الثيراڤادا التايلانديّة بمفهومها البسيط عن السّببيّة الموجود في العرف البوذيّ الجنوبيّ على سببيّة قوانين مانو الّتي أثّرت فيه كثيراً وبعمق بالغ في شبابه. وعلى امتدادها تكشف الآلهة الهندوكيّة عن وجوهها البالغة الغرابة. فحيّة «النّاجا» المقدّسة و«الجارودا» الأسطوريّة الّتي يتألّف نصفها من هيكل عملاق والنّصف الآخر من نسر له جسم ذهبيّ ووجه أشهب وجناحان أحمران، والّتي تزيّن طنف المعابد، ماتزالان تحكيان قصص «ناجاناندا»، الملحمة الهنديّة الّتي تعود إلى القرن السّابع، وورع الابن المرتبط بالجارودا يدّعيه لنفسه الإله الهندوكي فيشنو.

منذ قدوم هوندا إلى هذه البلاد، ثار الفضول الفكريّ، الّذي كان يتمتّع به من قبل، وحرص على اكتشاف الكيفيّة الّتي فسّرت بها بوذيّة الثيراڤادا لغز تناسخ الرّوح. وقد كان هذا المفهوم هو الّذي أتاح له فرصة تنمية نزعة عقلانيّة بقيت نصف العمر جانباً.

يقول الفقهاء إنّ الفلسفة الدينيّة الهنديّة تنقسم إلى ستّ مراحل:

١ ـ مرحلة الريجفيدا[1].

٢ ـ مرحلة البراهمانا.

٣ ـ مرحلة الأوبانيشاد الّتي تمتدّ من القرن الثّامن إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وهي مرحلة فلسفة الوعي الذّاتي، أقرّت كمثال

(١) ليس هذا المقطع إلاّ استطراداً آخر من استطرادات ميشيما العديدة الّتي أشرنا إليها في مقدّمتنا للرباعيّة، وكما سبق لنا القول فإنّ مصدر قوّة ميشيما لا يكمن في فهمه للتقليد الفكريّة البوذيّة، وإنّما في إلمامه بالطّقوس الشنتويّة، على نحو ما بدا جليّاً في «الجياد الهاربة». والتقسيم الّذي يقدّمه في المتن لا يعدو أن يكون تبسيطاً مدرسيّاً لا قيمة له، يعكس غير قليل من الخلل في الفهم والتفسير. وكلمة ڤيدا Veda تعني حرفياً «المعرفة المقدّسة». ومن قلب التّراتيل والصّلوات الهنديّة القديمة نبعث أقدم الكتابات الهندوسيّة المقدّسة، وهي السامهيتا (أي المجموعات) وعددها أربع هي الرجفيدا، الساما ـ ڤيدا، ياجور ـ ڤيدا، أتارڤا ڤيدا. وأدبيّات الڤيدا هي أعقد بكثير ممّا يشير إليه هذا التّقسيم الرّباعي والمتن، فكلّ من هذه المجموعات الأربع أضيفت لها فيها بعد براهمانا أو أكثر، وهي بمثابة أطروحات تتضمّن توجيهات عن الاستخدام الطّقوسي الصّحيح لترتيل وصلوات الڤيدا، وبدورها أضيفت إلى البراهمانا الأرانياكا أو «كتب الغابة» الّتي توضح كيف يمكن لمن اعتصموا بالغابات وعجزوا عن تقديم الأضحيات الطقوسيّة أن يقوموا بالاستخدام السحريّ أو الطقوسيّ للتراتيل والصّلوات، وبدورها أضيفت إلى كتب الغابة هذه مناقشات فلسفيّة تطرح الإطار العقلاني لكلّ الأفكار والأعمال، وهي «الأوبانيشاد» الشهيرة. ولأغراض التبسيط عمد الفقهاء إلى النّظر إلى الڤيدا، البراهما، الأوبانيشاد كما لو كانت تشكّل كيانات من الأدب منفصلة عن بعضها، ولكن الهندوس في بعض الأحيان يصنعون مجموعات تخترق هذه الخطوط الفاصلة، فقد يجمعون معاً ١ ـ الريجفيدا ٢ ـ واحدة من البراهمانتين الملحقتين بها، أي الآيتاريا ٣ ـ الآيتاريا أرانكايا المتضمّنة في الأخيرة ٤ ـ اتياريا أوبانيشاد. ويلاحظ أنّ الفقه الهندوسيّ يدرج أخيراً كلّ الأعمال الّتي ذكرناها هنا تحت عنوان الڤيدا، ويشار إلى الأوبانيشاد، بصفة خاصّة، باعتبارها الفيدانتا (ومعناها حرفيّاً: الأجزاء الختاميّة للفيدا). ولمتابعة التفاصيل هنا وفي استطرادات ميشيما المقبلة، وهي عديدة في هذا الجزء من الرباعيّة نحيل القارئ المتخصّص على المراجع التالية: 1 - Noss, John =

أعلى لها وحدة براهما، الأساس المطلق لكلّ الوجود، والأتمن[٢] أو النّفس. وقد ظهرت فكرة دورة المواليد والوفيات ـ السّمساره ـ بوضوح لأوّل مرّة في هذه المرحلة، وعندما ربطت بالمفهوم القائل بأنّ الأعمال (كارما) تفضي إلى نتائج حتميّة، ظهر قانون السببيّة. وبمزاوجة ذلك مع فكرة الأتمن ظهر إلى الوجود نسق فلسفي.

٤ ـ مرحلة انقسام بين المدارس الفكريّة المختلفة.

٥ ـ مرحلة اكتمال البوذيّة الثيراڤاديّة الّتي وقعت بين القرن الثّالث والقرن الأوّل قبل الميلاد.

٦ ـ الأعوام الخمسمائة الّتي أعقبت ذلك، وشهدت نشأة البوذيّة المهاينيّة.

وتتمثّل المشكلة في المرحلة الخامسة الّتي سُنّت فيها قوانين مانو. وقد دهش هوندا، حينما اكتشف في شبابه أنّ مفهوم السّمساره قد طبّق حتّى على التقانين. وقد كانت فكرة الكارما، على نحو ما تظهر في وقت لاحق في البوذيّة، مختلفة بصورة مميّزة عن فكرتها في

B. Man's Religion - Macmillan - N. Y - 1974 P. 75 D. S. B. N. O - 02 = - 388430 - 4.

2 - Hopfe, Lewis M. - Religions of the world - Macmillan - N. Y. 1983 - p. p 166 - 209 - O. S. B. N. O - 02 - 474740 - 8.

3 -Parrinder, Geoffrey - An Illustrated History of the world's Religions - Newnes - London - 1983 p.p 262 - 304 D. S. B. N. 0 - 600 - 33795 - 2.

(هـ. م).

(٢) الأتمن Atman: المراد بها في التقاليد الفكريّة الهندوسيّة، بأبسط المعاني، الذّات الكونيّة الّتي انبثقت منها جميع النّفوس.

(هـ. م).

الأوبانيشاد: ويكمن الفارق في إنكار البـوذيّة لـلأتمن، ذلك أنّ مثـل هذا الإنكار هو جوهر هذه الدّيانة.

وتتجسّد إحدى الخصائص الثّلاث الّتي تميّز البوذيّـة عن الدّيـانات الأخرى في تجرّد كلّ الدّرامات من الذّات أو النّفس. فالبوذيّـة تدعـو إلى القـول بعـدم وجـود النّفس، وتنكـر الأتمن الّتي اعتـبرت المكـوِّن الرئيسيّ في مكوّنات الحياة. انبنى عـلى ذلك أنّ البـوذيّة رفضت فكـرة «الرّوح»، الّتي هي امتداد للأتمن إلى ما بعد هذه الحياة. فالبـوذيّة لا تعترف بالرّوح، باعتبارها كـذلك. وإذا لم يكن هنـاك جوهـر محوريّ يسمّى بالرّوح في الكـائنات، فليس هنـاك، بالـطّبع، شيء من هـذا القبيـل في المادة غـير العضويّـة. ومثلما يتجرّد قنـديل البحـر حقّـاً من العظام، كذلك ليس هناك جوهر متأصّل في صلب كلّ الخلق.

ولكن عندئذٍ يبرز السّؤال الشّائك: إذا كانت الأعمال الطّيّبة تؤدّي إلى وجود طيّب لاحق، والأعمال الخبيثـة إلى وجود خبيث، وإذا كـان كـلّ شيء يعود حقّـاً إلى العدم، عقب المـوت، فما هـو إذن الجـوهـر المتناسخ؟ وإذا افترضنا أنّـه ليس هناك نفس، فـما هو الأسـاس الّذي تبدأ به دورة الموت والميلاد؟

تشكّل الأعوام الثّلاثمائة من البوذيّة الثيراڤاديّة مرحلة قوامها النّزاع والصّراع بـين كثير من المـدارس الفكريّـة، الأمر الّـذي لم يسفـر عن نتيجة منطقيّة مرضية بالنّسبة لمدرسة بعينها. واستشعـر الجميع الحـرج إزاء التناقضات والمفارقات الموجودة بـين الأتمن الّتي تنكرهـا البوذيّـة، والكارما الّتي ورثتها.

وللوصـول إلى إجـابـة فلسفيّـة، يمكن الاقتنـاع بهـا، عــلى هـذا السّؤال، كـان على الإنسـانيّـة، أن تنتـظر المـدرسـة المهـاينيّـة المسـمّاة

باليويشيكي، أو «الوعي وحده». ولكن عندما تطوّرت مدرسة ثيراڤادا سوترانتيكا، تمّ إقرار مفهوم «تعطير البذور» الّذي وفقاً له يظلّ أثر العمل الخير أو الشّرير في وعي المرء، متخلّلاً إيّاه تماماً، كما يتخلّل شذا العطر الملابس، وعلى هذا النّحو يشكّل شخصيّة أو طابعاً. وكانت قوّة التشكيل هذه هي أصل نظريّة السّببيّة، وكان هذ المبدأ هو الإرهاص بأفكار اليويشيكي الّتي جاءت عقب ذلك.

والآن أدرك هوندا ما يكمن وراء الابتسامة الّتي لا تغيب، والعيون الّتي تسكنها الكآبة وقد ميّزت الأميرين السياميّين. وكان ذلك شعوراً بفتور متثاقل ذهبيّ بالنّسائم المهدهدة، تحت الأشجار ـ التجنّب الدّائب لأيّ نسق منطقيّ منظّم. ومحاصرين، وشاعرين بالإعياء تحت الشّمس، مضى أبناء هذه البلاد ذات المعابد الفخمة والزهور والفواكه، يعبدون في إخلاص بوذا، ويؤمنون صراحة بتناسخ الأرواح.

وبغضّ النّظر عن الأمير كريدسادا فإنّ الأمير باتاناديد الذكيّ حظي على نحو مدهش بالذّهن الحادّ الّذي يميّز الفيلسوف. غير أنّ عنفوان عواطفه اكتسح أمامه أيّة نزعة عقليّة متجرّدة من سيطرة الهوى. ومازال هوندا يتذكّر، على نحو متدفّق بالحيويّة، أكثر من أيّة كلمات فاه بها الأمير، مشهده وقد أُغمي عليه في نهاية الصّيف، على مقعد في المرجة في دارة كيواكي الجنوبيّة، لدى سماعه بنبأ وفاة الأميرة تشانترابا، وقد ارتمت ذراعه الّتي لوّحتها الشّمس، متدليّة في عجز من المقعد الأبيض. ولم يستطع هوندا رؤية ما إذا كان وجه الأمير الّذي استقرّ على كتفه قد كساه الشّحوب، ولكنّ أسنانه البيضاء المتألّقة كانت بادية للعيان بين شفتيه المنفرجتين.

تدلّت أصابعه الطّويلة الرشيقة الّتي خلقت لمداعبات الهوى المراوغة، متراخيّة، وقد أوشكت على أن تمسّ عشب الصّيف الأخضر، وكأنّما الأصابع الخمس كلّها تبعث للحظات في الموت المرأةَ المتوفّاة الّتي كانت مناط رغبته.

غير أنّ هوندا خشي أن لا تكون ذكريات الأميرين عن اليابان سارّة للغاية، على الرّغم من أنّ مرور الزّمن يمكن أن يجعلهما يفتقدانها بصورة أكبر. فقد جعلت عزلتهما، والصّعوبات الّتي واجهاها مع اللّغة، والعادات المختلفة، وفقدان الأمير باتاناديد لخاتمه الزمرّدي، وموت الأميرة تشانترابا، من إقامتهما في اليابان شيئاً أبعد من أن يوصف بأنّه ممتع. ولكنّ ما حال دون تفهّمهما تمثّل في نهاية المطاف في الرّوح الحافلة بالتهديد والمضايقة، الّتي اتّسم بها فريق المبارزة في مدرسة النّبلاء. ولم تؤدّ هذه الرّوح إلى تغريب الأميرين وحدهما، وإنّما كذلك إلى تغريب الطّلاب العاديين، مثل هوندا، وكيواكي، والشبّان ذويّ النزعة اللّيبراليّة والإنسانيّة الّذين ضمّتهم جمعيّة شجرة البتولا البيضاء الأدبيّة. ومن سوء الطّالع أنّ اليابان الحقيقيّة لم يكن من السّهل العثور عليها وسط أصدقاء الأميرين، وإنّما كانت أكثر حضوراً وسط أعدائهما، وربّما كان الأميران ذاتهما يدركان ذلك بصورة غامضة. يابان لا تعرف الحلول الوسط، فخورة بنفسها، مثل محارب شاب يرتدي ثوباً من الحرير الأرجواني، ومع ذلك فهي حسّاسة مثل فتى في مقتبل العمر يتحدّى خصمه لخوض العراك، قبل أن يُدفع إلى ذلك بالتوبيخ السّاخر، ويندفع مهاجماً في طريقه إلى مصرعه، قبل أن يقبل الإهانة. لقد كان إيساو مختلفاً عن كيواكي؛ ذلك أنّه عاش في قلب هذا العالم المتطرّف، وآمن بوجود الرّوح.

وإذ كان هوندا يدنو من عامه الخمسين فإنّه يحظى الآن بميزة واحدة: فربّما كان متحرّراً من النّزوع إلى التحيّز. وكان متحرّراً من السّلطة، فقد كان هو نفسه ذات يوم من رموز السّلطة، بل ومن العقل، بعد أن كان يوماً ما تجسيداً للنشاط العقلي.

وحتّى روح فريق المبارزة في العقد الثّاني من القرن، كانت روح شبّان يرتدون الزيّ الرسميّ، وهي روح تخلّلت العصر بأسره. وهوندا الّذي لم يحدث قط أن كان جزءاً من تلك الرّوح، لم يتردّد بدوره الآن وقد علا به العمر، في مطابقة تلك الأيّام المترعة بالشباب، في ذاكرته، مع روح عدوانيّة.

شكّل هذا المزاج الّذي صفا ونقي أكثر من هذا، عالمَ إيساو، وهو عالم لم يشاركه فيه هوندا، في أيّام شبابه، وإنّما رصده من موقع الغريب عنه. ولم يستطع هوندا، وقد لاحظ كيف أنّ عقل إيساو الياباني الشّاب قد دمّر ذاته في غمرة اضطّرابه في عزلة مطلقة، إلاّ أن يدرك أنّ ما سمح له بأن يحيا على النّحو الّذي عاشه كان قوّة الفكر الغربيّ المستورد من الخارج. فالتّفكير غير المخصب يجلب الموت.

وإذا كان المرء يرغب في أن يحيا فإنّ عليه ألاّ يتشبّث بالنّقاء، على نحو ما فعل إيساو. وإنّما على المرء ألاّ يعزل نفسه عن كلّ قنوات التراجع، وعليه ألاّ يرفض كلّ شيء.

لم يجبر شيء هوندا على التعمّق في بحث مسألة اليابان الخالصة الّتي لا يخالطها ما سواها، قدر ما أجبره موت إيساو.

هل هناك من سبيل لمعايشة اليابان بأمانة غير رفض كلّ شيء، غير رفض اليابان المعاصرة والشّعب الياباني؟ أليس هناك من سبيل آخر للعيش غير هذا السّبيل البالغ الصّعوبة، الّذي ينتهي بأن يقتل المرء

ثمَّ يقدم على الانتحار؟ لقد خشي الجميع الردّ، ولكن ألم يقـدم إيساو الدّليل من خلال أعماله؟

لدى التأمّل، يجد المرء أنّه كانت هناك عند أنقى القبائل رائحة الدّم ووصمـة الوحشيّـة. وعلى العكس من الإسبـان الّذين حـافـظوا عـلى ريـاضتهم القوميّـة المتمثّلة في مصارعـة الثّيران، رغم اتّهـامـات محبّي الحيوانات على امتداد العالم، فإنّ اليابانيين عندما عانقت أمّتهم ثقـافة وأخلاقيّات جديدة، في نهاية القرن الماضي، صرفوا جهـودهم للقضاء على العادات البربريّة الّتي درجت عليها أجيال سابقة. وكنتيجة لذلك فإنّ الرّوح القوميّة الأصيلة الخـالصة تمّ إخضـاعها، وراحت طـاقتها تندلع بين وقت وآخر، في انفجارات للعنف، نفّرت النّـاس وغرّبتهم بصورة أكبر.

غير أنّه أيّاً كان القناع المخيف الّذي تتقنّع به الـرّوح القوميّـة فإنّها في حالتها الأصليّة ذات بياض لا سبيل للفساد إليـه. وأدرك هونـدا، في غمرة ترحاله في بلاد مثل تايلاند، بمزيـد من الوضـوح، يفوق مـا كان في أي وقت مضى، بساطة الأشياء اليـابانيّـة ونقاءهـا، مثل مـاء الغدير الصّافي الّذي يمكن أن يلمح المرء عبره الحصى القابع في قاعه، أو أمانة طقوس الشنتو. ولم تكن حياة هوندا مشربة بمثل هذه الرّوح، فقد تجاهلهـا، شأن معـظم اليابـانيين، متصرِّفـاً وكأنّها لا وجـود لها، ومواصلاً البقاء بالهرب منها. وطوال عمره، تفادى الأشياء الأسـاسيّة والبسيـطة: الحـريـر الأبيض، المـاء البـارد الصّـافي، الـورق الأبيض الزجزاجيّ المتدلّي من عصا طارد الأرواح والمرفرف مع النّسيم، الحرم المقـدّس الّذي يميّـزه التّوري، مقـرّ الآلهة في البحـر، الجبال، المحيط الشّـاسع، السّيف اليـاباني بنصله المتـلألئ البالـغ النّقاء والحـدّة. ولا

يقتصر الأمر على هوندا وحده، فالغالبيّة العظمى من اليابانيين الآخذين بمنهاج الحياة الغربيّ لم يعد بمقدورهم أن يطيقوا مثل هذه العناصر المغرقة في محلّيتها.

ولكن إذا كان إيساو الّذي آمن بالرّوح، قد صعد حقّاً إلى عِلّيين ـ وكان هذا مثالاً للسّبب الجيد المؤدّي إلى نتيجة جيّدة ـ إذا كان قد دخل دائرة الموت والميلاد وولد من جديد بشراً سويّاً، فماذا يمكن أن تكون هذه العمليّة؟

الآن، وفيما كان يفكّر هوندا في الأمر، أخذ يتساءل عمّا إذا لم يكن إيساو، عندما عقد عزمه على الموت، قد ساوره هاجس ما حول حياة أخرى. وقد بدا أنّ هناك مؤشّراً ما على هذا. فعندما يكافح إنسان ليعيش حياته على هذا النّحو النقيّ والمتطرّف ألا يقاد على نحو طبيعي إلى افتراض وجود آخر؟

استعاد هوندا ذكرى المزار الياباني، وفي غمرة الحرّ جعلته الفكرة ذاتها يشعر بقطرات من الماء البارد الصّافي على جبينه. وبالنّسبة للزّائر الّذي يرقى الدرج الحجري، فإنّ التّوري الّذي يبدو مجرّد إطار محدّد بشكل جيّد للمبنى الرئيسيّ للمزار، يتجّلى لدى خروجه كما لو كان قد تبدّل إلى إطار للسّماء الزّرقاء الصافية. من الغريب أن يضمّ إطار واحد مزاراً شامخاً من ناحية وسماء زرقاء خاوية من النّاحية الأخرى. بدا شكل التوري كأنّه شكل روح إيساو.

ذلك أنّ إيساو عاش حياة محدّدة على نحو جيّد، تشبه التوري شموخاً وجمالاً وبساطة، وكان من المحتّم أن تمتلئ في نهاية المطاف بالسّماء الزّرقاء الصافية.

أيّاً كان المدى الّذي مضى إليه ذهن إيساو المحتضر، في ابتعاده عن

البوذيّة، فإنّ هذا اللّغز ذاته بدا وكأنّه يشير لهوندا محدِّداً العلاقة بين اليابانيين والبوذيّة. وبدا الأمر كما لو أنّ مياه نهر مينام المثقلة بالطمي ستصفّى من خلال مصفاة من الحرير الأبيض.

في وقت لاحق من اللّيلة الّتي استمع فيها هوندا من هيشيكاوا لقصّة الأميرة، مضى يبحث في حقيبته في غرفته بالفندق، وأخرج يوميّات أحلام كيواكي ملفوفة في حرير أرجواني.

كانت اليوميّات قد قرئت وأعيدت قراءتها، وشرع الغلاف في التداعي. وقد قام هوندا، على نحو مرتبك، ولكن في حرص، بإصلاحه بنفسه. وكان خطّ كيواكي السّريع الموحي بالشباب مايزال نابضاً بالحياة، ولكن لون الحبر شحب خلال الأعوام الثّلاثين الّتي انقضت منذ كتابته.

نعم، تماماً كما تذكّر هوندا. لقد تراءى لكيواكي حلم مترع بالحيويّة عن سيام، أدرجه في اليوميّات بعد وقت قصير من زيارة الأميرين السياميين لداره.

اقتعد كيواكي كرسيّاً وثيراً في قصر لحق الإهمال بحديقته. وكان يعتمر «تاجاً ذهبيّاً، عالياً، مستدقّ الطّرف، مطعّماً بمجموعات من المجوهرات». وفي الحلم كان عضواً من أعضاء العائلة المالكة في سيام.

جثمت طواويس عديدة على العروق الخشبيّة، تاركة فضلاتها الشّهباء تتساقط، وزيّن كيواكي أحد أصابعه بخاتم الأمير باتاناديد الزمرّديّ. بدا «الوجه الجميل لصبيّة صغيرة» منعكساً على سطح الحجر الكريم. لابدّ أنّ ذلك كان وجه الأميرة الصّغيرة، المجنونة، الّتي لم يرها بعد. ومن المفترض أنّ الوجه المنعكس على الزمرّدة بعينيه

المنكّستين كان وجه كيواكي نفسه. وبدا لهوندا الآن أنّ الأميرة هي دونما شكّ روح كيواكي، وقد تناسخت مروراً بإيساو.

لم يكن من غير المتوقّع أن يتراءى له مثل هذا الحلم، بعد استقباله للأميرين السياميين في داره، والاستماع إلى الحكايات الفاتنة الّتي سرداها عن بلدهما. ولكنْ، بعد تجارب عديدة، اضطر هوندا إلى تقبّل الحقيقة القائلة بأنّ حلم كيواكي هو تجلٍ آخر لتناسخ روحه.

الآن غدا الأمر يفرض نفسه بنفسه. فمجرّد التغلّب على مشكلة المنطق الّذي لا يستقيم، فإنّ كلّ شيء يتّسق ويتآلف. لم يقدّر لإيساو أن يبلغ هوندا قطّ، كما أنّ الأخير لم يكتشف ما إذا كان إيساو قد ساورته أيّة هواجس أخرى. وربّما كان إيساو قد حلم كذلك في ليالي سجنه بالفتاة الموجودة في المنطقة الاستوائيّة.

قام هيشيكاوا على تلبية احتياجات هوندا، خلال مكوث الأخير في بانكوك. ومضت القضيّة بشكل طيّب، بفضل جهود هوندا. وكان قد اكتشف خطأً غير مقصود من جانب المشترين.

فوفقاً للمادة ٤٧٣ من القانون المدنيّ التايلاندي، المستمدّ من القانون الأنجلو سكسوني، لا يحتاج البائعون إلى تحمّل المسؤوليّة عن العيوب الموجودة في بضائعهم، في حالة أو أكثر من الحالات التاليّة:

١ ـ إذا كان المشتري مدركاً للعيب، وقت الشراء، أو كان يمكن أن يدركه لو أنّه التزم بملاحظة البضائع بشكل عادي.

٢ ـ إذا كان العيب واضحاً وقت تسليم البضائع، أو إذا قبل المشتري البضائع، دون تحفّظ.

٣ ـ إذا كانت البضاعة قد بيعت بالمزاد العلني.

وفيما أوغل هوندا في تحرّيه للأمر، غدا من الواضح له أنّ المشترين يمكن أن يكونوا مذنبين، بحسب الحالة الأولى أو الثانية. فإذا كان بمقدوره متابعة هذا الأمر والحصول على دليل كاف، فقد يُسقطون الاتّهامات.

وغنيّ عن القول إنّ مسؤولي شركة منتجات إتسوي قد شعروا بالامتنان، وأحسّ هوندا نفسه بالارتياح التامّ. وشعر بالميل إلى أن يطلب من هيشيكاوا المضيّ في تدبير لقاء له مع الأميرة. ولكنّ هيشيكاوا كان شخصاً مضجراً للغاية.

لم يحدث أن ساورت هوندا رغبة قطّ في مصادقة فنّانين، ولم يكن له قطّ صديق يمكن أن يوصف بأنّه فنّان. كما لم يتوقّع أبداً أن يتمّ تقديمه إلى شخص هجر الفنّ في مكان ناء كهذا.

وكان أكثر إثارة للشّعور بالضيق، إذن، أن يكون هيشيكاوا معيّناً كدليل للمسافر لم يعتد التّرحال، دون أن يتردّد لحظة في القيام بكلّ ما يطلبه هوندا. وفضلاً عن ذلك فقد كان يمتلك ناصية كافّة أنواع المداخل الخلفيّة في هذه البلاد، حيثما يكون الولوج عبر المدخل الأمامي مستحيلاً تماماً. كان حقّاً دليلاً رفيع القدر، وكان هو نفسه يعلم ذلك.

ولكنّ هيشيكاوا استبقى ألوان التكلّف غير المقبولة الّتي قد تلصق بفنّان، أيّاً كان ما قدّمه في الماضي من أعمال. لقد كان يعتمد في كسب معيشته على العمل كدليل للمسافرين، ومع ذلك فقد كان في قرارة نفسه يزدري الأشخاص المحافظين على القديم، الّذين يمضي مبجّلاً إيّاهم. وبما أنّ ذلك كان واضحاً بجلاء لهوندا، فقد رفّه عن نفسه بأن يكون الصّورة المجسّدة للشّخص المحافظ الّذي يعتقد هيشيكاوا

أنّه ماثل في إهابه، فراح يتحدّث عمداً عن زوجته وأمّه في اليابان، وعن تعاسته لعدم إنجابه للأطفال. واستمتع بمراقبة هيشيكاوا، وهو يمثّل، دون أن تساوره أيّة شكوك، دور التعاطف معه.

وفي حقيقة الأمر فإنّ الفنّانين الّذين لم يكونوا بعيدين عن النّضج فحسب، وإنّما درجوا كذلك على ادّعاء عدم النّضج كوسيلة غير أمينة للتهرّب من النقد الّذي يوجّه إلى أعمالهم، لاحوا مخلوقات فظيعة بلا حدود لدى مقارنتهم بالافتقار إلى النّضج الخالي من الخداع الّذي أفصح عنه كيواكي أو إيساو. وثمّة فنّانون اجترّوا وراءهم هذا الافتقار إلى النّضج، على امتداد حياتهم... حتّى الثمانينيّات من أعمارهم. وبدا الأمر كما لو أنّهم قد جعلوا من الأقمطة الّتي يلفّون أنفسهم بها بضاعة يتّجرون بها.

وإذا كان هناك ما هو أسوأ فإنّه يتمثّل في أشباه الفنّانين، فغرورهم الّذي لا سبيل إلى وصفه، جنباً إلى جنب مع صياغتهم الخاصّة للخنوع، تنبعث منهما رائحة تميّز الكسالى. وكان هيشيكاوا، ببساطة، حيواناً كسلان يعيش بالتعلّق بالآخرين، ولكنّه راح يتظاهر بأنّه الأرستقراطيّ الأنيق الملول الّذي يحيا في خطّ الاستواء. وقد ضاق هوندا ذرعاً باعتياده القول، وهو في المطاعم، وقد أمسك بقائمة المشروبات الروحيّة في يده: «بما أنّ شركة إتسوي للمنتجات ستدفع الحساب، على أيّة حال...» وقف تلك اللّحظة يمضي في طلب أكثر الأنبذة كلفة. ولم يكن هوندا مولعاً بالنّبيذ على الإطلاق.

وبينما تعلّق هوندا بالأمل في ألّا يوضع قطّ في موضع الدّفاع عن مثل هذا الرّجل فإنّه سيكون من قبيل مجافاة قواعد السّلوك المرعيّة من جانبه، باعتباره ضيفاً، أن يطلب إحلال شخص آخر محلّ دليله.

وفي كلّ مرّة سأل مدير الفرع البدين هوندا فيها بغرفة الانتظار في المحكمة، أو خلال مأدبة عشاء: «هل يؤدي هيشيكاوا مهمّته على نحو طيّب بالنّسبة لك؟» كان يردّ قائلاً: «إنّه رجل قدير للغاية، نعم» مخفياً في كلماته شعوراً معيّناً بالمرارة. وبدا المدير راضياً بأخذ هذا الردّ على علّاته، وتملّك الضّيق هوندا لأنّه لم يقم بمحاولة لقراءة ما بين السّطور.

مكّنت المعرفة الوثيقة بالعلاقات الإنسانيّة الخفيّة في هذه البلاد، وهي العلاقات الّتي تشبه أعشاب الأدغال، الشّديدة الرّطوبة الّتي تتعفّن تحت سطح الخضرة الّذي يتألّق في الشّمس المتّقدة ـ مكّنت هيشيكاوا من تنمية موهبته في تشمّم التعفّن في الشؤون الإنسانيّة، بأسرع من أيّ شخص آخر. وكان ذلك هو مصدر دخله. حيث يرخي أجنحته الذهبيّة القويّة الّتي تشبه أجنحة ذبابة على بقايا طبق المدير.

ـ صباح الخير!

أيقظ هوندا من نوم عميق صوت مألوف تناهى إليه عبر الهاتف الدّاخلي الموضوع إلى جوار فراشه، صوت سمعه كلّ صباح ـ صوت هيشيكاوا.

ـ هل أيقظتك؟ أستميحك عذراً؛ فالنّاس في المحكمة لا يكترثون بجعلك تنتظر عدّة ساعات، ولكنّهم يقيمون الدّنيا ولا يقعدونها إذا لم يلتزم الزوّار بالمواعيد. وقد اتّصلت بك مبكراً لنكون في الجانب الآمن. خذ ما شئت من وقت في حلاقة ذقنك. ماذا؟ طعام الإفطار؟ لا، لا، لا تشغل ذهنك بذلك. طيّب، الحقيقة أنّي لم أتناوله بعد. ولكنّي أستطيع الاستغناء عنه. آه؟ في غرفتك معك؟

طيّب. شكراً جزيلاً لك حقّاً. سأقبل الدّعوة، وأصعد إليك. هل أترك؟ خمس دقائق؟ أم عشراً؟ طيّب، بما أنّك لست سيّدة، فربّما لا يتعينّ عليَّ الحرص على الشكليّات.

لم تكن تلك هي المرّة الأولى الّتي يتناول فيها هيشيكاوا إفطار فندق الأورينتل الفخم، المتعدّد الأطباق، على الطّريقة الإنجليزيّة، في غرفة هوندا.

بعد وقت قصير، دلف هيشيكاوا إلى الغرفة مرتدياً حلّة بيضاء جيدة التّفصيل، من الكتّان، وقد انهمك في التهوية على صدره بقبعة من طراز بنما. ثمّ توقّف متوازناً تحت أجنحة المروحة الضّخمة البيضاء المتحرّكة في تثاقل.

قال هوندا الّذي كان مايزال يرتدي بيجامته:

ـ قبل أن أنسى، بم ينبغي أن أدعو الأميرة؟ هل من المناسب أن أقول لها: سموّك؟

ردّ هيشيكاوا مؤكّداً:

ـ لا، لا! إنّها ابنة باتاناديد، وهو شقيق الملك. ولقبه هو برا أونج تشاو، وعليك أن تخاطبه بالإنجليزيّة بـ «Your Royal Highness» أيّ سموّكم الملكي. وأمّا الابنة فهي مون تشاو، وينبغي أن تدعوها بـ «سموّكِ المبجّلة». على أيّ حال، لا تقلق؛ فسوف أتولّى كلّ شيء.

كان القيظ الدّاهم قد غزا الغرفة بالفعل. وبعد أن ترك هوندا فراشه الّذي بلّله العرق، ووقف تحت دفق ماء الدشّ البارد، أحسّ للمرّة الأولى بالصّباح على بشرته. وكانت التّجربة مثيرة للنشوة على نحو غريب، فهو الّذي لم يتّصل بالعالم الخارجيّ قطّ من غير أن

يـرشحه من خـلال التّفكير العقـلاني، أخذ يحسّ في هـذا الوقت من خلال بشرته. ومن خلالها وحدها يستشعـر الخضرة المتألّقـة للنباتـات الاستـوائيّة، أو اللّون القـرمزيّ لأزهـار أشجار السنط، أو الـزخرف الذهبيّ الّذي يزين المعابد، أو الانتشار المفاجئ لزرقـة الضّوء، ويمكنـه عـبر ذلك فحسب أن يتّصـل بالعـالم من حولـه. وكانت تلك تجـربـة غريبة تماماً بالنّسبة له. الأمطار الـدّافئة والـدشّ الفاتـر. وكان العـالم الخارجي سائلاً ثريّ الألـوان، وبدا الأمـرّ كما لـو أنّه يسبـح فيه عـلى الدّوام. ترى كيف كان يمكن أن يتوقّع هذا كلّه في اليابان.

خـلال انتظار هيشيكـاوا طعام الإفـطار مضى يذرع الغـرفـة جيئـة وذهاباً، وكأنّه أوروبي، ساخراً من لـوحات المنـاظر الـطبيعيّة المبتـذلة المعلّقـة على الجـدار. وعكس كعبا حـذائه الحـديث التلميع زخـارف السّجادة، فيما هو يتّخذ أوضاعاً مدهشة. وفجأة أحسّ هوندا بالسّـأم من اللّعبة الّتي يمثّل فيها هيشيكاوا دور الفنّـان، ويؤدّي هو فيهـا دور المحافظ المتمسّك بالقديم.

التفت هيشيكـاوا، فجأة، وأخـرج علبه صغـيرة مكسوّة بـالمخمل القرمزيّ من جيبه. وقال مسلّماً إيّاها لهوندا:

ـ ينبغي ألّا تنسى هذه! سلّمها مباشرة للأميرة!

ـ ما هذه؟

ـ هديّة؛ فقد درجت العائلة المالكة على ألّا تستقبل قطّ أحداً يصل خالي الوفاض.

فتح هوندا العلبة، واكتشف خاتماً بديعاً محلّى بلؤلؤة.

ـ آه، فهمت. لم أفكّر قطّ في ذلك. شكراً لتذكيري بالأمـر. بكم أنا مدين لك؟

ـ آه، لا شيء. ليس ذلـك ضروريّاً حقـاً. فقـد قلت لشركـة منتجـات إتسوي إنّـك بحاجـة إليها للقـاء مع أحـد أعضـاء العـائلة المالكة. وعلى أيّ حال فقـد يكون المـدير التقـطها بسعـر رخيص من أحد اليابانيّين. لا حاجة بك إلى القلق.

أدرك هوندا على الفور أنّه لا ينبغي أن يطرح المزيد من الأسئلة في الوقت الرّاهن عن ثمن الهديّـة. ولكن لا ينبغي أن يتوقّـع من شركة منتجـات إتسوي أن تغـطّي نفقاتـه الخـاصّـة. لسـوف يـدفـع الثّمن للمدير. وربّما حصل هيشيكاوا منهم على عمولة كبيرة، وسيتعيّن عليه أن يتجاهل ذلك، وأن يدفع الثّمن لوكيل الشركة المحليّ كائناً ما كان الأمر.

ـ طيّب، إذن، إنّني أتقبّل لطفك بامتنان.

قالها هوندا وهـو ينهض ودسّ العلبة الصّغـيرة في جيب السّترة الّتي سيرتديها، سائلاً بصورة عرضيّة:

ـ بالمناسبة. ما هو اسم الأميرة؟

عقّب هيشيكاوا، في اعتداد بالنّفس، قائلاً:

ـ الأميرة تشانترابا. وقد سمعت أنّ الأمير باتانـاديد قـد سمّى ابنته الأخيرة على اسم خطيبة لـه ماتت منـذ وقت طويـل. تشانـترابا تعني «سنى البدر». يا لها من مصادفة، إنّها مجنونة!

- ٣ -

في الطّريق إلى قصر الورديّة شاهد هوندا من نافـذة سيّارتـه بعض الفتيـة المنخرطـين في حركـة يواتشـون، وهم يسيرون مـرتدين أزيـاء رسميّة خاكية اللّون، يشاع أنّها استلهمت طـرازها من قمصـان هتلر السّوداء. وأعرب هيشيكاوا، الجالس إلى جـواره، عن شكواه من أنّ موسيقى الجاز الأمـيركيّة نـادراً ما تسمـع في المدينـة هذه الأيّـام، وأنّ نزعة رئيس الوزراء فيبون الوطنيّة قد أحدثت فيها يبدو أثرها.

كـان ذلك التحـوّل من النّوعيّـة الّتي شاهـدها هـوندا بـالفعـل في اليابان. وكـما أنّ الخمر تتحـوّل ببطء إلى خلّ أو الحليب إلى خثـارة، فـإنّ الأمور الّتي طـال إهمالهـا تتغيّر وئيـداً استجـابـة لقـوى الـطّبيعـة المختلفة. وقد عاش النّاس طويلاً في خوف من حرّيّة تفوق مـا ينبغي ورغبة حسّيّة موغلة في التّطرّف. نضارة الصّباح بعـد مساء امتنـع فيه المرء عن معاقرة الشّراب، والفخر الّـذي يستشعره المـرء لدى إدراكـه أنّ المـاء وحده هـو الضروري، مثل هـذه المسّرات المنعشة والجـديدة شرعت في اجتـذاب النّاس. وكـانت لدى هـوندا فكـرة غامضـة عمّا يمكن أن تفضي إليه مثل هذه الأفكار المتطرّفة. وكان ذلك إدراكـاً ولد من رحم موت إيساو. إنّ سيـطرة الاتّجاه الـواحد عـلى الذّهن تفضي إلى الفساد.

استعـاد هونـدا فجـأة ذكـرى كلمات إيسـاو السكـرى المفتقـرة إلى التماسك، قبل يومين من مصرعه: «بعيـداً إلى الجنوب. . . في طقس حار للغاية. . . في سنى الشّمس الوردي لأرض جنوبيّة. . ». والآن، بعد ثماني سنوات، ها هو ذا يهرع إلى قصر الورديّة للقائه.

كانت فرحته فرحة أرض عطشى ومحمومة تنتظر وابل المطر.

وبدا لهوندا أنّه في معايشة انفعالات من هذا النّوع دفع به وجهاً لوجه مع ذاته الجوانيّة. وفي غمرة شبابه حكم على مخاوفه وأحزانه وعقلانيّته بأنّها جوهره الدّاخلي الحقّ. ولكن شيئاً منها لم يكن حقيقيّاً. وعندما سمع بانتحار إيساو استشعر نوعاً من الإحباط المفاجئ، بدلاً من الألم الحادّ، النّابع من الحزن، ولكن، مع مرور الوقت، تغيّر ذلك إلى سرور حافل بالتوقّع، نابع من لقائه الوشيك له من جديد. وأدرك هوندا في قرارة نفسه أنّه في لحظات كهذه لا تتضمّن انفعالاته عنصراً إنسانيّاً واحداً. وربّما كانت ذاته الدّاخليّة قد حكمتها نشوة فذّة لا تنتمي إلى هذا العالم. لابدّ أنّ الأمر كذلك، لأنّه هو وحده في حالة إيساو قد أفلت من حزن الفراق وألمه.

بعيداً إلى الجنوب... في طقس حارّ للغاية... في سنى الشّمس الوردي لأرض جنوبيّة.

توقّفت السيّارة أمام بوّابة فخمة ترامت وراءها مرجة رحبة. وترجّل هيشيكاوا أوّلاً، وحادث الحارس باللّغة السّياميّة وهو يسلّمه بطاقة زيارة.

استطاع هوندا أن يرى من نافذة السيّارة بوّابة حديديّة من مؤثّرات زخرفيّة متكرّرة، تجمع بين المثمن والسّهم، ووراءها راحت المرجة الخضراء الناعمة تمتصّ بهدوء الشمسَ المتّقدة. ألقت شجيرتان أو ثلاث شجيرات، ذات زهور بيضاء وصفراء، شذبت لتأخذ شكلاً دائريّاً، ظلالها على النجيل.

رافق هيشيكاوا هوندا في اجتيازه البوّابة.

كان المبنى أقلّ شأناً من أن يوصف بأنّه قصر، فلم يَعْدُ أن يكون بناء صغيراً مؤلّفاً من طابقين، له سقف أردوازيّ طلي بلون مصفر شاحب. وباستثناء شجرة سنط كبيرة، على أحد الجانبين، تلطّخ الجدار بظلّها الأسود القاسي، لم يلطّف من وقدة الشّمس الضّاريّة إلاّ المدى الأصفر.

لم يلتقيا بأحد فيما هما يمضيان عبر الطّريق المتمعّج فوق المرجة. وفيما هوندا يدنو من هدفه، وعلى الرّغم من النّشوة الّتي كان يعرف أنّها ميتافيزيقيّة، ساوره شعور كما لو أن وَقْعَ قدميه كان وَقْعَ المخالب الحادّة لوحش من وحوش الأدغال وهو يطارد صيده بأنياب يسيل اللّعاب منها. نعم، لقد ولد لهذه المتعة وحدها.

بدا قصر الورديّة ملتفّاً في حلمه الصّغير العنيد، وعمّق هذا الانطباع شكل المبنى ذاته، فقد كان أقرب إلى صندوق صغير، بلا أجنحة ولا ملاحق. وضمّ الطّابق الأرضي كثيراً من النّوافذ البابيّة، بحيث تعذّرت معرفة المدخل. وقد أحيط كلّ منها بأُطُر خشبيّة منحوتة في شكّل ورود، فوقها مثمّنات من الزّجاج الأصفر والأزرق والأزرق النيلي، تحيط بنوافذ صغيرة زهريّة الشكّل ذات لون أرجوانيّ وخماسيّة البتلات على طراز الشرق الأدنى. وكانت النّوافذ الفرنسيّة المواجهة للحديقة نصف مغلقة.

وحمل الطّابق الثّاني عارضاً من زهور الزّنبق، وشكّلت ثلاث نوافذ تطلّ على الحديقة لوحاً ثلاثيّاً. وكانت النّافذة الوسيطة أعلى من جارتيها، ولكنّها كانت محاطة بورديّات محفورة.

وتألّف المدخل الواقع عند قمّة ثلاث درجات من نافذة فرنسيّة

منفّذة بالتّصميم ذاته. وما إن قرع هيشيكاوا الجرس حتى اختلس هوندا النّظر في حذر عبر لوح زجاجيّ ورديّ صغير. وفي الدّاخل كان كلّ شيء مكتسياً بلون أقحوانيّ قاتم، شأن قاع المحيط.

فتح الباب الفرنسيّ، ولاحت امرأة متقدّمة في السنّ. وخلع هوندا وهيشيكاوا قبعتيهما. وعلى الوجه البنيّ ذي الشّعر الأشيب بأنفه الأفطس، ارتسمت ابتسامة تحيّة، على نحو ودود، بالطّريقة التايلانديّة المميّزة. ولكنّ الابتسامة لم تكن إلاّ تحيّة شكليّة، لا أكثر.

تحدّثت المرأة مع هيشيكاوا للحظات قلائل. وبدا أنّه لم يحدث تغيّر في الموعد الّذي رتّب له.

صفّت أربعة مقاعد أو خمسة في البهو الّذي كان أصغر ممّا يناسب قاعة استقبال. وسلّم هيشيكاوا لفافة للمرأة، وتقبّلتها بعد أن ضمّت كفيها توقيراً. ثمّ فتحت الباب الرئيسيّ ومضت بهما توّاً إلى قاعة استقبال فسيحة.

بعد حر الضّحى في الخارج، أدخلت برودة القاعة الرّاكدة، القابعة منذ وقت طويل، السّرور على النّفوس. ودعي الرّجلان إلى الجلوس على مقعدين صينيّين يجمعان بين اللّونينْ الأحمر والذهبيّ تدعمهما قوائم على شكل مخالب أسد.

خلال انتظار الأميرة، انتهز هوندا الفرصة لفحص الغرفة. ولم يكن هناك صوت إلاّ طنين ذبابة.

لم تكن قاعة الاستقبال تفضي إلى النّوافذ مباشرة. وقد دعّمت قاعة للعب البليارد طابقاً مسروقاً. وكان العرش وحده مزخرفاً

بـإسراف. وفوقـه مباشرة علّقت لـوحة للملك تشـولا لونجكـورن في المنصّة العلويّة. وطليت الأعمدة الكورنثيّة للقاعة باللّون الأزرق مـع تحديدات رأسيّة طعّمت بالذّهب، بينما زيّنت تيجان الأعمدة بـالورود الـذهبيّة عـلى طـريقـة الشّرق الأدنى، بـدلاً من وريقـات الأقنثـوس المألوفة.

لقد كُرِّر نموذج الورديّة الزخرفيّ بتعمّد واضح على امتـداد القصر. وكانت للقاعة المطليّة باللّون الذهبي، والمحدَّدة باللون الأبيض، أعمدة مزخرفة بالورود الذهبيّة اللّون. وتدلّت ثريا هائلة الحجم من وسط السّقف المرتفع، وقد زخرفت كذلك بورود ذهبيّة وبيضاء. وعندما تطلّع هوندا إلى قدميه رأى أنّ السّجادة الحمراء مزخرفة بالورديّة.

كان زوج من أنياب الفيل العاجيّـة العملاقـة وُضِع وراء العـرش ـ زوج متعانق من الأهلة البيضاء ـ هو الزخرفة الوحيـدة التايـلانديّـة عـلى نحو تقليـديّ. وتلألأ العـاج المصقول، المؤثّـر في النّفس، بلون أشهب يميل إلى الصّفرة في العتمة.

اكتشف هوندا لدى دخوله أنّ النّوافذ الفرنسيّـة لا تحتلّ إلا الجـزء الأماميّ من الدّارة، وهو المواجـه للحديقـة الأماميّـة. وكانت النّـوافذ المفتوحة المطلّة على الحديقة الخلفيّـة، وكان يحـول ممرّ دونها، بـارتفاع مستـوى الصّدر فحسب. ومن خـلال النّوافـذ الشماليّـة انسـل نسيم خفيف.

وفيما كانت عيناه تحدّقان باتّجاه النّوافذ، لمح فجأة ظلاً أسود يرفرف بجناحيه، قـرب زجاج النـافذة. فـأخذتـه الرّجفـة؛ إذ كان طـاووساً أخضر. وجثم الـطّائر عـلى عتبة النّـافذة مـادّاً عنقه الـطّويل الـرشيق الّذي يتألّق بلون ذهبيّ مخضر. وحـاكت القمّة المتـألّقة الـرّيش، الّتي اعتلت رأسه التيّاه، الظلّ الرّقيق لمروحة صغيرة.

همس هوندا في أذن هيشيكاوا، وقد استبدّ به الضّجر:

- ترى إلى متى يبقوننا في الانتظار؟

- الأمر كذلك دائماً، وهو لا يعني أيّ شيء، وهم لا يحاولون التّأثير في نفسك، بشكّل خاصّ، بجعلك تنتظر، فلعلّك تعلم الآن أنّك في هذه البلاد لا ينبغي أن تتعجّل الأمور. وفي أيّام الملك أوراتشيد نجل الملك تشولا لونجكورن، اعتاد جلالته أن يدلف إلى فراشه مع انبلاج الفجر وينهض في الأصيل، وساد البطء والتمهّل كلّ شيء، وانقلب اللّيل والنّهار ليحلّ أحدهما محلّ الآخر.

واعتاد وزير شؤون الديوان الملكي الظّهور في حوالي الرّابعة عصراً والعودة إلى داره مع تنفّس الصّبح. ولكن ربّما كان هذا هو أفضل سبيل في المناطق الاستوائيّة، فجمال هؤلاء النّاس هو جمال ثمرة فاكهة، والثّمرة ينبغي أن تنضج متكاسلة، وعلى نحو رشيق، وليست هناك ثمرة مجتهدة.

ضاق هوندا ذرعاً بخطبة هيشيكاوا الّتي همس بها وكانت ضافية شأن كلّ أحاديثه. ولكن قبل أن يستطيع الالتفات بعيداً، لتجنّب رائحة أنفاسه الخبيثة، عادت العجوز إلى الظّهور، وضمّت كفيها في إجلال وأشارت إلى قرب مقدم الأميرة.

تناهى صوت يشبه الفحيح من النّافذة حيث جثم الطّاووس. ولم يكن ذلك هو صوت التّحذير المستخدم في البلاط اليابانيّ القديم للإشارة إلى مقدم أحد أفراد العائلة الأمبراطوريّة، وإنّما كانوا ببساطة يبعدون الطّاووس. وتردّد صوت رفرفة أجنحة، واختفى الطّائر. وشاهد هوندا ثلاث عجائز قادمات عبر الممرّ الشماليّ وقد سرن في صفّ مستقيم محتفظات بمسافة متساوية بينهن. وقادت الوصيفة الأولى

الأميرة الّتي أمسكت كفّ الوصيفة بيد، وباليد الأخرى مضت تداعب عقداً من الياسمين الأبيض. ومع اقتياد الأميرة «سنى البدر» ذات الأعوام السّبعة نحو المقعد الصّيني الكبير القابع أمام نابي الفيل، جثت العجوز الّتي قادت الضّيفين للتوّ عند الباب على الأرض، وانحنت بالطّريقة المسمّاة بـ «الكراب» في لغة تايلاند. وكان من المفترض أنّها تنتمي إلى مرتبة متواضعة.

أحاطت الوصيفة الأولى الأميرة بذراعها، وجلست معها على المقعد الصّيني الرئيسيّ. وأمّا الوصيفتان الأخريان فقد جلستا على مقعدين إلى يمين العرش ويساره. وكانت المرأة الثّالثة الآن بقرب هيشيكاوا. وأمّا المرأة الّتي جثت على الأرض فقد ألفى هوندا عندما أجال ناظريه أنّها اختفت.

قلّد هوندا هيشيكاوا الّذي وقف وانحنى انحناءة عميقة، ثمّ جلس على المقعد الصّيني الّذي يجمع بين اللّونين الذهبيّ والأحمر. وبدت النّسوة قريبات من السّبعين من العمر، ولاحت الأميرة وديعة أمامهنّ بأكثر ممّا هي سيّدة لهنّ.

لم تكن الصّبية ترتدي «البانون» العتيق الطّراز، بل قميصاً خارجيّاً من مادة بيضاء موشّاة بالذّهب، وتنّورة تايلانديّة من القطن المطبوع، تسمّى «باسين» وتشبه السّارونج الماليزي، وقد انتعلت حذاء أحمر اللّون، مزيّناً بالذّهب. وأمّا شعرها فكان قصيراً على الطّريقة التايلانديّة المميّزة. وكانت هذه القصّة التقليديّة بمثابة تكريم لعذارى خورات الباسلات اللاّتي قمن قديماً، وقد ارتدين أزياء الرّجال، بمحاربة جيش من الغزاة الكمبوديين.

لم يفصح محياها الجميل الموحي بالفطنة عن إشارة واحدة إلى

الجنون، وبدا الترفّع في حاجبيها الرّقيقين، المتّسقين، وشفتيها، وجعلها شعرها القصير تبدو أقرب إلى أمير منها إلى أميرة، وحملت بشرتها تأثير لفح الشّمس الذّهبيّ.

كانت المقابلة تعني بالنّسبة لها تقبّل علامات الإجلال من الرّجلين، وبانتهاء هذا راحت تعبث بعقد ياسمينها، وتؤرجح ساقيها على حافّة المقعد المرتفع. وقد نظرت عمداً إلى هوندا، وراحت تهمس للوصيفة الأولى الّتي وبّختها بكلمة واحدة.

بإشارة من هيشيكاوا، أخرج هوندا العلبة القطيفيّة الأرجوانيّة الّتي تضمّ الخاتم ذا اللّؤلؤة. وتمّ تمريرها إلى الوصيفة الثّالثة، ثمّ عن طريق الوصيفة الثانية، إلى الوصيفة الأولى، على التّوالي، وأخيراً استقرّت في يد الأميرة. وبدا الوقت الّذي انقضى والعلبة تشقّ طريقها إلى الأميرة، وكأنّه يفاقم وقدة حرّ الصّيف. وإذ كانت الوصيفة الأولى قد فحصت محتويات العلبة فإنّ الأميرة حرمت من البهجة الطّفوليّة الّتي يثيرها قيامها بفتح العلبة بنفسها.

نحّت أصابعها البنيّة الجميلة، في إهمال، عقد الياسمين، والتقطت الخاتم اللّؤلؤي. وراحت تتفقّده باهتمام لبعض الوقت. واستمرّ هدوؤها غير المألوف الّذي لم يعنِ الانفعال أو الافتقار إلى الانفعال، وقتاً بالغ الطّول، حتّى إنّ هوندا بدأ يحدث نفسه بأنّ ذلك ربّما كان أحد أعراض جنونها. وفجأة، لاحت ابتسامة تشبه فقاعة في الماء على محياها، مفترة عن أسنانها البيضاء، الطفوليّة، غير المنتظمة، فأحسّ هوندا بالارتياح.

أعيد الخاتم إلى العلبة وأُعطي للوصيفة الأولى. وتحدّثت الأميرة للمرّة الأولى بصوت صافٍ موحٍ بالذّكاء، ثمّ انتقلت كلماتها عبر

الوصيفات الثّلاث وكأنّها ثعبان أخضر يتهاوج منتقلاً من فرع إلى آخر في الظلّ الّذي تمسّه الشّمس وتلقيه أشجار النخيل، وبلغت هوندا في نهاية المطاف، بعد أن ترجمها هيشيكاوا. فقد قالت الأميرة: شكراً لك.

طلب هوندا من هيشيكاوا أن يترجم حديثه، وقال:

- كنت عبر وقت طويل معجباً بالعائلة المالكة التايلانديّة، وقد فهمت أنّ سموّ الأميرة الجليلة تحبّ اليابان بدورها. وإذا سُمح لي فإنّني أودّ أن أرسل لها دُمية يابانيّة، بعد عودتي إلى اليابان. فهل ستقبلها؟.

كانت الجمل التايلانديّة الّتي نطقها هيشيكاوا بالغة البساطة، ولكن فيما كانت تمرّر عبر الوصيفتينّ الثّالثة والثّانية، أخذت تزداد طولاً وتعدّداً، وحين نقلت الوصيفة الأولى الفحوى إلى الأميرة بدت الجمل بلا نهاية.

وعندما عادت كلمات الأميرة إلى هوندا كانت مجرّدة من ألق الانفعال أو الجاذبيّة، بعد أن انتقلت عبر شفاه الوصيفات المجعّدة القاتمة. وبدا الأمر كما لو أنّ تعبيرات الأميرة الصّغيرة المتوهّجة بالحيويّة قد تمّ امتصاصها ومضغها، في غمرة هذه العمليّة، من قبل أطقم أسنانهنّ العتيقة، دون أن يتركن إلاّ نفاية كريهة لهوندا.

- إنّهنّ يقلن إنّ سمّوها الجليلة يسعدها أن تتقبّل عرض السيّد هوندا الرّقيق.

وعندئذٍ وقع أمر غريب.

فاجأت الأميرة الوصيفة الأولى، على حين غرّة، ووثبت من المقعد، وقطعت الأقدام الثّلاث الّتي تفصلها عن هوندا، وتشبّثت

بساقيّ سرواله. ونهض هوندا منزعجاً، وصاحت الأميرة، وهي تنتفض، وماتزال على تشبّثها به، وانخرطت في البكاء بصوت عالٍ. وانحنى. وأحاط بذراعيه كتفي الفتاة، المنخرطة في البكاء الهستيريّ.

ارتبكت الوصيفات، فعجزن عن إبعادها، وتكأكأن معاً، ورحن يتهامسنّ فيما بينهنّ، دونما ارتياح، وهنّ يحدّقن فيها.

هتف هوندا بهيشيكاوا الّذي وقف في ذهول:

ـ ما الّذي تقوله الأميرة؟ ترجم!

ترجم هيشيكاوا بصوت حادّ:

ـ يا سيّد هوندا! يا سيّد هوندا! لشدّ ما افتقدتك! لقد كنت رقيقاً معي، ومع ذلك فقد انتحرت دون أن أخبرك بشيء. وقد انتظرت هذا اللّقاء أكثر من سبع سنوات لأعتذر لك. وقد اتّخذت شكل أميرة، ولكنّني يابانيّة حقّاً، وقد أمضيت حياتي السّابقة في اليابان، وذلك هو موطني الحقيقيّ. أرجوك، يا سيّد هوندا، عد بي إلى اليابان!

أخيراً، أعيدت الأميرة إلى الكرسيّ، واستعيد إلى حدّ ما الطّابع اللاّئق بالمقابلة. وتطلّع هوندا، من حيث وقف، إلى الصّبيّة ذات الشّعر الأسود، وكانت ماتزال منخرطة في البكاء، وقد استندت الآن إلى الوصيفة الأولى. واستقرّ في فؤاده دفء الطفلة وعبيرها اللّذان كانا مايزالان يفوحان من ركبته.

طلبت الوصيفات إنهاء المقابلة لأنّ الأميرة تشعر بأنّها ليست على مايرام. ولكن هوندا رجاهنّ، من خلال هيشيكاوا، أن يسمحن له بطرح سؤالين موجزين.

كان السّؤال الأوّل هو:

ـ ما هو العام وما هو الشّهر اللّذان علمت فيه مع كيـواكي بزيـارة رئيسة كاهنات معبد جيشـو على الجـزيرة الـوسطى في بحـيرة دارة آل ماتسوجاي؟

عندما نقل السّؤال إلى الأميرة، رفعت وجنتيها المخضّلتين بالدّمع، من حِجْر وصيفتها، وكأنّها ماتـزال غاضبـة، وردّت إلى الوراء خصلة من خصلات شعرها التصقت بخدّها.

وردّت عن طواعيّة، قائلة:

ـ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٢.

دهش هوندا، في قرارة نفسه، ولكنّه لم يكن على يقـين من أنّها قد حفظت في ذاكرتها شأن لفيفة مصوّرة مضيئة، سجلاً واضحاً ومفصّلاً لوقائع حياتين سابقتين. ولم يكن واثقاً كذلك، عـلى الرّغم من كلمات اعتـذار إيساو الّتي انسـابت ببلاغـة فائقـة، ممّـا إذا كـانت عـلى علم بتفاصيل خلفيّة الأمر وظروفه. وفي حقيقة الأمر فإنّ الكلمات الدّقيقـة قد ندت من بين شفتي الأميرة المجرّدتين من الانفعـال، وكأنّها أعـداد التقطت ورتّبت بصورة عشوائيّة.

طرح هوندا السّؤال الثّاني قائلاً:

ـ في أيّ يوم ألقي القبض على إيساو إينوما؟

بدت الأميرة وكأنّها تغدو أكثر ميلاً إلى النّعـاس، ولكنّها ردّت بـلا تردّد:

ـ أوّل كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٢.

قالت الوصيفة الأولى وهي تنهض من مقعدهـا ضاغـطة بهذا عـلى الأميرة لتغادر القاعة على الفور:

ـ ينبغي أن يكون في هذا الكفاية.

وثبت الأميرة واقفة، وتسلّقت المقعد، وصاحت بهوندا بصوتها الحادّ، فوبّختها الوصيفة الأولى همساً، وفيما الأميرة تواصل الصّياح، تشبّثت بشعر الوصيفة العجوز. وكان من الجليّ أنّها تكرّر الكلمات ذاتها، إذا حكم المرء من تماثل المقاطع الصوتيّة. وفيما أسرعت الوصيفتان الثّانية والثّالثة للإمساك بذراعيها، شرعت تبكي في جنون، وصوتها الصّاك يتردّد صداه مرتدّاً عن السّقف السّامق. وبرزت من بين العجائز اللاّتي حاولن إنزالها أرضاً، ذراعاها النّاعمتان المرنتان ممسكتين بما يصادفهما هنا وهناك. وانسحبت العجائز صائحات ألماً، وازداد صوت الأميرة ارتفاعاً.

ـ ما الّذي قالته؟

قال هيشيكاوا:

ـ إنّها تصرّ على دعوتك إلى القصر المنفرد في بانج با إن، حينما تذهب إلى هناك في زيارة، بعد غد والسيّدات يحاولن منع ذلك، وسيتحوّل الأمر إلى استعراض من نوع ما.

بدأت مناقشة بين الأميرة ووصيفاتها. وأخيراً، أومأت برأسها، وكفّت عن الصّياح.

قالت الوصيفة الأولى، وأنفاسها ماتزال متقطّعة، وهي ترتّب ملابسها الّتي اضطّرب هندامها، متحدّثة مباشرة إلى هوندا:

ـ بعد غد ستمضي سموّها الجليلة بالسيّارة إلى قصر بانج با إن للتنزّه. والسيّد هوندا والسيّد هيشيكاوا مدعوّان للذّهاب إلى هناك. ونودّ كثيراً أن يقبلا هذه الدّعوة. وبما أنّنا سنتناول طعام الغداء هناك، فسوف يكون من المناسب أن يصلا إلى هناك في التّاسعة صباحاً.

وقام هيشيكاوا على الفور بترجمة هذه الدّعوة الرسميّة.

وواصل هيشيكاوا في السيّارة خلال رحلة العودة ثرثرته المتطاولة إلى حدّ السّأم، متجاهلاً حقيقة غرق هوندا في التّفكير. وأفصح الافتقار للاكتراث بالآخرين، وقد عكسه هذا الفنّان الّذي صاغ ذاته على هواه، عن حساسيّته المبتذلة. ولو أنّه ظنّ أنّ الحساسيّة خصلة محافظة لا ضرورة لها، ولو أنّه تمسّك بوجهة النّظر هذه، لتمتّع على الأقلّ بفضيلة التّناسق. ولكن هيشيكاوا كان في حقيقة الأمر يفخر برقّته وحساسيّته في مجال العلاقات الإنسانيّة، وقد ظنّ أنّهما تتجاوزان رقّة الأدلّاء الأخرين وحساسيّتهم.

ـ كان ذكاء منك أن تطرح هذين السّؤالين. لم أتفهّم جليّة الأمر، ولكنّك كنت تضعها موضع الاختبار، لأنّها أفصحت عن صلة وثيقة خاصّة، بتظاهرها بأنّها تناسخ لروح صديقك. أليس ذلك صحيحاً؟

ردّ هوندا بلا حماسة:

ـ تماماً.

ـ وهل كان الردّان كلاهما صحيحين؟

ـ لا.

ـ أكان أحدهما على الأقلّ صحيحاً؟

ـ لا. يؤسفني أنّهما كانا خاطئين.

كذب هوندا لكي يُترك وشأنه. وأخفت نغمة حديثه الموحية باليأس على نحو موات، الخديعة. وعندئذٍ أغرب هيشيكاوا في الضّحك، معتقداً أنّ هوندا قد صدقه القول.

ـ أذلك صحيح! كلاهما خاطئ؟ لقد قالت التّاريخيْن بجديّة بالغة. طيّب، ذلك أمر سيّئ للغاية. لم يكن موضوع تناسخ الأرواح إذن

أمقنعاً للغاية. ومع ذلك فلم تكن بالغ الطّيبة، إذ قمت باختبار مثل هذه الأميرة الصّغيرة الجميلة، وكأنّك تختبر قارئ طالع مدّعياً على قارعة الطّريق. وعموماً فإنّه ليس في الحياة الإنسانيّة لغز. فاللّغز يظلّ باقياً في الفنون فحسب، والسّبب هو أنّ اللّغز لا معنى له إلاّ في الفنّ.

دهش هوندا مجدّداً حيال نزعة هيشيكاوا ذات المسار الواحد. ولمح شيئاً أحمر خارج نافذة السيّارة، وأطلّ خارجاً فرأى نهراً وسط أشجار جوز الهند، ذات الجذوع المؤلّفة من لون أحمر متّقد لهباً. عند حواف الطّرق المتمعّجة، رأى لون أشجار البونسيانة القرمزيّ المدخّن على امتداد ضفّة النّهر، وكانت تموّجات الحرّ ترتجف بالفعل حول الأشجار.

انتقل هوندا إلى مشكلة إمكانيّة الوصول إلى قصر بانج با إن بغير هيشيكاوا، حتّى وإن كان معنى ذلك أنّه سيعجز عن التواصل بالحوار مع الأميرة.

- ٤ -

تحقّقت أمنية هوندا على نحو غير متوقَّع. فقد قال له هيشيكاوا، متفضِّلاً:

- لست في حالة نفسيّة تسمح لي بجلسة أخرى مع الأميرة المجنونة، ولكنّي إذا لم أذهب فسوف تواجه المتاعب، فالوصيفات لا يتحدّثن إلاَّ كلمات قلائل من اللّغة الإنجليزيّة.

وخلافاً لعادته، ردّ عليه هوندا بقوله:

- لسوف أستمتع باللّغة التايلانديّة، كما لو كانت موسيقى، على الرّغم من أنّني لا أفهمها. وإنّي لأوثر ذلك على الضّيق الّذي تثيره الترجمة في كلّ مرّة.

وقد علّق الآمال على أنّ هذا سينهي، بشكل أو بآخر، معاملاته مع هيشيكاوا.

ولسوف يتذكّر هوندا مراراً وتكراراً فيما بعد النّزهةَ البهجية في ذلك اليوم.

لم يكن بمقدور السيّارة أن تقطع إلاَّ جانباً من الطّريق إلى قصر بانج با إن. وأمَّا باقي المسافة فيتمّ قطعها في زورق نزهة مصمّم على الطّراز الملكيّ، ينتقل عبر ممرّ مائيّ مؤلّف من كلّ من النّهر وحقول الأرز الّتي يغمرها الماء. وبين الفينة والأخرى ينهض جاموس ماء من غفوته في أحد حقول الأرز، ويشبّ فجأة فتلتمع في الشّمس مؤخّرته المكسوّة بالطّمي. وعندما التفّ الزّورق حول غابة من أشجار سامقة، ابتهجت الأميرة لمرأى السّناجب العديدة وهي تمضي مسرعة

في هبوطها عن الفروع وتسلّقها إيّاها على امتداد ضفّة النّهر. وفي إحدى المرّات لاح للعيان ثعبان صغير أخضر، منتصب الرأس، وهو يتقافز من غصن خفيض إلى آخر.

ارتفعت القمم الذّهبيّة المستدفة للمعابد فوق الأدغال، وقد طُلي كلّ منها حديثاً باللّون الذّهبيّ بفضل تبرّعات من يعتقدون ببركاتها. وكان هوندا يعلم أنّ الوريقة الذّهبيّة تصنع في اليابان، وتصدّر إلى تايلاند بكمّيات كبيرة.

استعاد، على نحوٍ متوهّج بالحيويّة، ذكرى اللّحظات القلائل الّتي كفّت خلالها الأميرة «سنى البدر» عن ثرثرتها الطّفوليّة المتواصلة، ومالت دونما حراك في مواجهة حافّة الزّورق، محدّقة بعينين شاردتين في الأفق البعيد. وقد اعتادت الوصيفات اللاّتي انغمسنَ في مرحهنّ مثل هذا التصرّف المزاجيّ، من جانب الصّبيّة الصّغيرة، فلم يبدين اهتماماً بها. ولاحظ هوندا على الفور ما كانت ترقبه فاضطرب كثيراً.

أخذت سحابة هائلة، ظهرت من وراء الأفق، تحجب الشّمس. وكانت الشّمس عالية في مسارها، وتعني أن تمدّ السّحابة أطرافها الّتي تشبه المجسّات إلى بعيد لكي تحجبها. وتطاولت السّحابة السّوداء لتحجب الشّمس تماماً، وأفلحت في هذا بشيء من الصّعوبة. وكان الجزء الأكثر ارتفاعاً من السّماء الزّرقاء، فوق قرص الشّمس، أبيض على نحو باهر، مكذّباً الكثافة السّوداء المترعة بالنّذر في المنطقة الأكبر سمكاً. ولم يكن ذلك هو كلّ ما هنالك، فقد جعل الامتداد السّحابة رفيعة للغاية، وأسفر ذلك عن شقّ كبير في القسم السّفليّ منها، وقد تدفّق النّور المؤتلق عبره، وكأنّما كان السّطوع المؤتلق دماً يشخب، بلا انتهاء، من جرح هائل.

اكتسى الأفق البعيد بالأدغال المترامية خفيضةً، وشعّت المقدّمة بخضرة وهّاجة، كما لو كانت جزءاً من عالم آخر، متلقّفة ألق الشّمس الّذي انهلّ من شقّ السّحابة. ولكنّ الأدغال البعيدة الواقعة تحت الجانب السّفليّ الأسود، كانت مثقلة بمطر بلغ من عنف انهماره أنّ الضباب بدا كما لو كان ينهض صاعداً. وتواصل المطر وكأنّه شبكة مترامية من الفطر، وأخذ يلفّ الأدغال المظلمة ببخاره السّديميّ. وبدت شبكة المطر الّتي لم تغطّ إلاّ جانباً من الأفق النّائي، جليّة للعيان بصورة مميّزة، وكان بمقدور المرء أن يرصد الحركة الأفقيّة للقطرات الّتي مضت الريح تجلدها. وبدا المطر الغزير وكأنّه أودع السّجن، وقد تركّز في تلك المنطقة وحدها.

عرف هوندا، على الفور، ما الّذي تتطلّع إليه الطفلة. فقد كانت ترى، في وقت واحد، الزّمان والمكان، وكانت المنطقة الواقعة تحت المطر المنهمر تنتمي بمعنى آخر، إلى مستقبل أو ماض ما تعجز العين البشريّة عن رصده. ولأنْ يكون المرء تحت سماء صافية ويلمح بمثل هذا الوضوح عالماً من المطر، فذلك يعني أنَّ مراحل زمانيّة مختلفة وأماكن متباينة قد تعايشت معاً. وقد سمحت السّحابة المطيرة بلمحة من الهوّة بين الأوقات المنفصلة، وشهدت المسافة الرّحبة المدرجة في الأمر على الفجوة الواقعة بين المكانين. وكانت الأميرة تحدّق في صدع الكون العميق.

كان لسانها الصّغير الأحمر الورديّ، المبلّل يلعق في شرود، ولكن بلهفة، الخاتم اللّؤلؤيّ الّذي أعطاها إيّاه هوندا ـ وكان حريّاً بالوصيفة أن توبّخها لو أنّها لاحظتها. بدا الأمر كما لو أنّ الأميرة الصّغيرة بلعقها اللّؤلؤة تُشهِد على تجلّي مثل هذه المعجزة.

بانج با إن.

أصبح هذا الاسم شيئاً يستعصي على النّسيان.

أصرّت الأميرة على الإمساك بيد هوندا وهي تسير معه، وتجاهلت تجهّمات الوصيفات، وترك هوندا نفسه لليد الصّغيرة الرّطبة تقودها. ومضت به الأميرة الّتي تعرف هذه الأرض حقّ المعرفة، إلى دارة صينيّة، ثمَّ إلى كشك فرنسي وحديقة على طراز عصر النّهضة، وبرج عربيّ، وإلى بقعة وراء الأخرى، وأدخلت هذه المعالم كلّها السّرور على نفسه.

كان السرداق القائم الّذي يتوسّط بحيرة اصطناعيّة فسيحة، جميلاً بشكل خاصّ، وكأنّه عمل فنّيّ أقيم على الماء.

وقد غزيت الدّرجات الحجريّة الواقعة عند حافّة الماء، فيما ارتفع منسوب هذا الأخير، وحجبت الدّرجة السّفليّة في أعماق البحيرة. واكتسى المرمر الأبيض في الماء باللّون الأخضر، من جرّاء الأشنّة. ولفّ عشب مائيّ ذاته متكوّراً، مغطّياً المرمر بفقاعات فضيّة صغيرة. وأرادت الأميرة سنى البدر أن تغمس يديها وقدميها في الماء، ولكنّ وصيفاتها منعنها تكراراً من القيام بذلك. ولم يستطع هوندا فهم كلماتها، ولكن بدا أنّها تعتقد أن الفقاعات، شأن خاتمها، هي لآلئ أرادت أن تجمعها.

عندما أوقفها هوندا هدأت للتوّ، وجلست على الدّرج الحجريّ إلى جواره، وراحت تنظر إلى المصلّى الّذي بدا أنّه يطفو في وسط البحيرة.

ولم يكن مصلّى حقّاً، وإنّما سرداق لا يستخدم إلاَّ كاستراحة خلال رياضة الانطلاق بالزّوارق. وفي الدّاخل كان المكان خاوياً، على نحو

ما يمكن للمرء أن يرى، عندمـا تباعـد هبّات النّسيم مـا بين السّتـائر الصّفراء البرتقاليّة النّاصلة.

كـان المبنى البسيط محاطـاً بجدران من كتـل خشبيّة سـوداء مموّهـة بالذّهب. ومن خلال الفُرج بدت خضرة الشّاطئ الآخـر، والسّحب المتهاوجة، والسّماء المثقلة بالضّوء جليّة للعيـان. وفيها هـوندا يحـدّق في هذه البانوراما، اتّخـذت السّحب الرّائعـة والغابـة الجليّة، من خـلال حـاجز الكتـل الخشبيّة، مظهـر صـورة مؤلّفـة من شرائـح رأسيّـة من الألـوان سامقـة على نحـو غريب. وبـالـطّبـع، كـان سقف السرداق الصّغـير مزخـرفاً إلى حـدّ كبير، إذ إنّـه مشيّـد من أربـع طبقـات من القرميد الصّينيّ، تجمـع بين الأحمـر الطّوبي والأصفـر والأخضر، ومن قمّة رفيعة مستدقّة متألّقة من الذّهب، كانت تخترق السّماء الزّرقاء.

لم يستطع هوندا تذكّر ما إذا كان قد فكّر في الأمر وقتـذاك، أم أنّ رؤية السرداق قد تـزاوجت مع رؤيـة الأميرة، في وقت لاحق. ولكن تحوّلت الكتل الخشبيّة الرشيقة المحيطة بـالسرداق في ذهنه إلى أجسـام من الأبنوس لفتيات راقصـات يتأهبن للحـظة للانـدفاع في الـرّقص، وقد تزيّنّ بكثير من الحلى الذّهبيّة المخرّمة، واعتمرن قبّعاتهنّ المستدقّة الأطراف.

- ٥ -

كلّ الأحداث الّتي يعاد تجميعها، والّتي تقع دونما تـواصل شفـاهي ـ ولاسيّما تلك الّتي لا تبذل خلالها محـاولة خـاصّة لإقـامة صرح هـذا التواصل ـ تصبح بلا جهد لوحات عديدة جميلة منمنمة، تندرج كلّها في أطر ذهبيّة مزخّرفة. وقد انحفر الوقت الّذي أمضاه هوندا في قصر الورديّة، عـلى نحو لا ينسى، في ذاكـرته؛ بسبب تلك اللّحـظات من البهجة الجماليّة. وكان يحدث فجأة أن تنبثق في بعض الأحيان شرائح من مثـل هذه اللّحـظات المضيئـة وتشكّـل لـوحـات مؤقّتـة لـلأمـيرة الصّغيرة: الاستدارة الطّفوليّة ليدهـا الممتدّة إلى الفقـاعات اللّؤلؤيّـة، عـلى الدّرج المغمـور في المـاء، الخـطوط الـدّقيقـة النـظيفـة الّتي تعلو أصابعها وراحتيها، سواد شعرها الفاحم القصير المتهدّل على خـدّها، الأهداب الوطفاء الّتي توشك أن تتّسم بالشّجن، وعلى جبينها الأسمر انعكاس الماء متـألّقاً وكـأنّه عِـرْق اللّؤلؤ بإزاء الأبنـوس الأسود. كـان الوقت ممّا يتألّق فيه الوهج، والهواء في الحديقة يحفل بـطنين النّحـل، والسيّدات المتنزّهات يغلب عليهنّ مزاج مـرح كذلـك. وكان جـوهر اللّحظة كالمرجان جميلاً ومعرّضاً للعيـان. ومع ذلـك فقد اجتمعت في تلك اللّحظات سعادة الأميرة البريئـة الّتي لا تشوبهـا شائبـة، وسلسلة الأحـداث الدّمـويّـة المـترعـة بـالعـذاب، الّتي حفلت بهـا حيـاتـاهـا السّابقتان، وكأنّها السّماوات الصافية المطيرة الّتي تعلو الأدغال النّائية، والّتي شاهداها وهما في طريقهما إلى القصر.

أحسّ هوندا وكأنّه واقف في قلب الـزّمان، في قـاعة هـائلة أزيلت منهـا كلّ الفـواصل. وكـانت قاعـة رحبة تـوحي بالحـرّيّـة ولا تشبـه

المساكن الدنيويّة الّتي اعتاد على الإقامة فيها. هنالـك انتصبت أعمدة سوداء في مجموعات متقاربة، وأحسّ، على وجه التّقريب وكـأنّ عينيه وصوته يمكن أن تبلغ مساحات لا سبيل إليها عادة. وفي هذا الامتداد الكبيـر الّـذي خلقتــه سعـادة الأمــيرة، ووراء حشـد من الأعمــدة السّــوداء، وقف كيـواكي وإيســاو، ووفـرة من الــظّلال الأخـرى، المتناسخة، القابعة بأنفاس لاهثة وكأنّها منخرطة في لعبة الغميضة.

ضحكت الأميرة مجدّداً، وكانت في غمرة لهوها تبتسم على الدّوام. ولكن غالباً ما كانت لثتهـا الرّطبـة، الحمراء الـورديّة، تلتمـع فجأة، عندما تفتر عنها، في ضحك حقيقيّ. وفي كلّ انطلاقة ضحـك كانت تنظر عالياً إلى محيا هوندا.

ولدى وصول الوصيفات العجائز إلى بانج بـا إن، سارعن بتنحيـة الـتزامهنّ بالشّكليّـات جانبـاً. ونسين ليـاقتهنّ المتصلّبـة، وغـرقن في الضّحـك، وانطلقن عَـدْواً في أرجاء المكـان، بمعنويـات عاليـة. وإذ غـاب الالتزام بـالشكليّات فقـد أصبح عمـرهنّ المتقـدّم هـو العنصر الوحيد الباقي من تقيّدهنّ بـالمراسيم. وانهمكن جميعـاً في التقاط ثـمار الكوثل، تماماً مثل ببغاوات شرهة، مجعّدة، تتجمّع حول مـلء كيس من البـذور. وأخذن كـذلك يهـرشن حيثما شعـرن بالـرّغبـة في حـكّ أجسامهنّ، دافعات بأيديهنّ تحت أطراف تنانيرهنّ. ومضين في الثّرثرة بجلبــة، وهنّ يتـمايلن متبخـــترات، في غمـــرة تقليــدهنّ للفتيــات الـرّاقصات. ومـدّت إحدى أولئـك الرّاقصـات المحنّطات بشعـرهـا الأبيض الّـذي يشبه الشّعـر المستعار فـوق وجهها البنيّ، فمهـا الّذي لوّثته ثمار الكوثـل، فاغـرة إيّاه، في انخـراطها في الضّحـك، ورفعت مـرفقيها الحـادّين، دافعة بهـما جانبـاً، وهي ترقص، فـألقت العـظام

الجافّة البادية لذراعيها الخشنتين صوراً حادّة من ظلال بإزاء خلفيّة من السّماء الزرقاء، بطبقاتها الباهرة من السّحب.

تحدّثت الأميرة، وفي الحال تحرّكت السيّدات في نشاط، وأحطن بالطّفلة، واندفعن مبتعدات بها كأنّهن زوبعة، تاركات هوندا المندهش وحيداً. وقد أدرك مغزى تصرفاتهنّ عندما رأى المبنى الصّغير الّذي كان مقصدهنّ. فقد أرادت الأميرة الذهاب إلى الحمّام.

أميرة تمضي إلى المرحاض! أدرك هوندا الإطباقة الحادّة للعاطفة الّتي أخذت بخناقه. فقد تصوّر من قبل أنّ له طفلة صغيرة وأحسّ بشعور الأب نحوها، ولكنّه، إذ لم يقدَّر له قطّ الإنجاب، فقد كان خياله قاصراً على الدّوام. وكانت استجابته للفكرة الجذّابة، المتمثّلة في ذهاب الأميرة الصّغيرة إلى الحمّام إدراكاً حميماً للحم والدّم، وتجربة انفعاليّة جديدة تماماً بالنّسبة له. وتمنّى لو أنّه كان بمقدوره أن يمسك بفخذي الأميرة البنّيّتينْ، النّاعمتينْ، بيديه وهي تتبوّل.

بدت على شيء من الخجل، لبعض الوقت، عقب عودتها، إذ لزمت الصّمت وتجنّبت النّظر إليه.

وبعد الغداء لعبوا بعض الألعاب في الظلّ.

لا يستطيع هوندا الآن أن يتذكّر كيف تواصلت الألعاب. لقد غنّينْ بعض الأغنيات البسيطة الّتي تدفع إلى السّأم مراراً وتكراراً، ولكنّه كان يجهل معناها.

كان بمقدوره أن يتذكّر فحسب ذلك المشهد الّذي وقفت الأميرة فيه متوسّطة المرجة الّتي رقشتها الشّمس، تحت الأشجار، وحولها جلست الوصيفات الثّلاث العجائز على هواهنّ، وقد رفعت إحداهنّ ركبتها، وتربّعت الأخريان. وبدت إحداهنّ وكأنّها تشارك في اللّعبة

لمجرّد أن تكون ودودة. فقد واصلت تدخين طباق ملفوف في بتلات اللّوتس. واحتفظت أخرى بزجاجة ماء مطليّة باللّك، مطعّمة بقواقع الّلآلئ بجانب ركبتها، تحسّباً لاحتياج الأميرة الّتي طالما شكت إليها من الظّمأ.

ربّما كانت للّعبة صلة ما بالرامايان؛ فقد قلّدت الأميرة هانومان، حينما تقلّدت فرع شجرة، وكأنّه سيف، متّخذة وضع شخص أحدب، وأمسكت أنفاسها، على نحو مضحك. وكلّما صفّقت السيّدات وغنّين شيئاً ما، قامت الأميرة بتغيير وضعها. وبإمالة رأسها قليلاً فقد بدت كزهرة رقيقة تومئ للنّسيم العابر، أو كسنجاب يتوقّف ليرفع رأسه وسط رحلاته عبر أغصان الأشجار. وتحوّلت من جديد إلى الأمير راما، وأشارت في جرأة نحو السّماء بالسّيف الّذي أمسكته بذراع قاتمة، رشيقة، ممتدّة من قميصها الخارجيّ الأبيض، المقصّب بالذّهب. وفي تلك اللّحظة، انطلقت حمامة جبليّة مسرعة أمامها، فحجبت بجناحيها محياها، ولكنّها لم تتحرّك. واكتشف هوندا أنّ الشّجرة السّامقة المتطاولة وراءها هي شجرة زيزفون. وأصدرت الأوراق العريضة المتدليّة من أطراف الفروع الطّويلة فوق النّباتات الكابية حفيفاً لدى كلّ لمسة رقيقة من لمسات النّسيم.

ازداد شعور الأميرة بالسّخونة، وبتذمّر بالغ طلبت من السيّدات شيئاً، فتشاورن فيما بينهنّ، ونهضن واقفات، وأشرن إلى هوندا. وغادر الفريق ظلّ الأشجار، وانتقل إلى مرسى الزّورق. واستنتج هوندا أنّهن في طريقهنّ للعودة إلى الدّار، ولكنّه كان مخطئاً، فقد أصدرت السيّدات أمراً إلى النّوتي فأحضر في أعقابه قطعة كبيرة من قماش قطنيّ مطبوع.

أمسكن بالقماش، وانتقلن، على امتداد الشّاطئ بجذور المنجروف

الملتفّة فيه إلى أن وجدن بقعة أكثر انعزالاً. رفعت اثنتان من السيّدات تنّورتيهما، وخاضتا في الماء ممسكتين بطرفي القماش وبسطتاه تماماً، حتّى بلغ الماء مستوى الردف، لصنع ستار يحول دون الرؤية من الشّاطئ المقابل. وصحبت السيّدة الباقية الأميرة الّتي تجرّدت الآن من ملابسها. وانعكس الضوء من الماء على فخذي العجوز الهزيلتينْ.

صاحت الأميرة بابتهاج عندما لمحت أسماكاً صغيرة كانت قد تجمّعت حول جذور المنجروف. ودهش هوندا، إزاء تصرّف الوصيفات وكأنّه ليس موجوداً، ولكنّه افترض أنّ ذلك لابدّ أن يكون بدوره من قواعد السلوك التايلانديّة. فجلس عند جذع شجرة على الضفّة، وأخذ يرقب الأميرة وهي تستحمّ.

لم تكن لتلزم الهدوء قطّ، وإذ أنارتها أشعّة الشّمس المتراقصة، عبر خطوط القماش القطنيّ المطبوع، فقد أخذت تبتسم باستمرار لهوندا، ولم تبذل جهداً لإخفاء بطنها الطّفوليّ السّمين، وهي تنثر الماء على السيّدات، وكانت إذا وبّخنها هربت مبتعدة. ولم تكن مياه النّهر الرّاكدة صافية، فقد اكتست بلون بنّيّ مصفرّ يشبه بشرة الأميرة، ولكن حتّى هذا الماء تحوّل لدى نثره إلى قطيرات شفّافة متألّقة في الضّوء النّافذ من القماش القطنيّ المطبوع.

ما إن رفعت الصّبيّة الصّغيرة ذراعها، حتّى تطلّع هوندا تلقائيّاً، بتدقيق، إلى جنبها الأيسر، عند صدرها الصّغير المسطح الّذي تحجبه ذراعاها عادة. ولكنّه لم ير الشّامات الثّلاث السّوداء الّتي كان يتعيّن أن تكون هناك. وأخذ يحدّق في تلك البقعة حيث أمكنه التحدّيق، إلى أن اغرورقت عيناه، ظانّاً أنّه ربّما كانت الشّامات الخفيفة لا تبين في البشرة التي لوّحتها الشّمس.

- ٦ -

وصلت القضيّة الّتي يتولاّها هوندا إلى نهاية غير متوقَّعة عندما قام المدّعي، وقد أدرك أنّه في وضع لا تحمد عقباه، بإسقاط الاتّهامات فجأة. وكان بمقدوره العودة إلى الوطن على الفور، ولكن شركة منتجات إتسوي أرادت، تعبيراً منها عن امتنانها، أن تقدّم له مكافأة إضافيّة، في صورة رحلة ترفيهيّة. وقد رغب في الذّهاب إلى الهند، وأعرب عن هذه الرّغبة، وردّت الإدارة بأنّ تلك ربّما كانت آخر فرصة تتاح لإنسان للذّهاب إلى الهند، إذ لاحت في الأفق مؤشّرات اقتراب الحرب، ووعد المسؤولون بأن تبذل كلّ مكاتب إتسوي قصارى جهدها لتضمن له أشكال الرّاحة كافّة. وابتهل هوندا ألاّ يترتّب على ذلك، النّوعُ عينه من الاهتمام الّذي فرضوه عليه بتخصيص هيشيكاوا دليلاً له.

بعث هوندا بكلمة إلى أسرته في اليابان. وانغمس، في الحال، في متعة إعداد توقيت برنامجه بمساعدة جدول مواعيد هندي، يوضّح توقيت رحلات سفن بخاريّة لا تسافر بسرعة تتجاوز أربعة عشر أو خمسة عشر ميلاً في السّاعة. وأدرك مستعيناً بخريطة أنّ الأماكن الّتي رغب في زيارتها ـ كهوف أجانتا وبنارس الواقعة على نهر الجانج ـ متباعدة على نحو هائل، بحيث شعر وكأنّه يوشك أن يغشى عليه. ومع ذلك، فإنّ كلاًّ من هذه الأماكن اجتذب الإبرة المغناطيسيّة لرغبته في اكتناه أسرار المجهول بالقدر ذاته من القوّة.

وتراخى عزمه على الاستئذان من الأميرة سنى البدر، إذ ووجه بالضّيق النّابع من اضطراره إلى طلب قيام هيشيكاوا بالتّرجمة بينهما.

وكتب متذرّعاً بالاستعدادات العاجلة لرحلته كلمة شكر على أوراق الفندق، على الرّحلة الخلويّة إلى بانج با إن، وبعث بها إلى قصر الورديّة، عن طريق مبعوث خاصّ، وذلك قبل لحظات من مغادرته.

وتميّزت رحلة هوندا إلى الهند بتجارب مترعة بالألوان، ويكفي مثالاً على ذلك وصف أصيل مؤثّر على نحو عميق في النّفس أمضاه في كهوف أجانتا ومرأى بنارس الّذي يهزّ الرّوح. وفي هذين المكانين شاهد هوندا أشياء بالغة الأهمّيّة، أشياء جوهريّة بالنّسبة لحياته.

- ٧ -

شمل برنامجه رحلة بالسفينة إلى كلكتا، ثمّ السّفر اليوم بكامله بالقطار إلى بنارس الّتي تبعد مسافة ثلاثمائة وخمسين ميلاً، ورحلة بالسيّارة من بنارس إلى مغولسراي، ثمّ يومين بالقطار إلى مانماد، وأخيراً رحلة أخرى بالسيّارة إلى أجانتا.

كانت كلكتا، في أوائل تشرين الأول (أكتوبر)، تضجّ بمهرجان دورجا السّنويّ.

للربّة كالي، أكثر الآلهة حظوة في مجمع الأرباب الهندوسيّ، وتمتّعاً بإجلال خاصّ في البنغال وأسام، أسماء وتجسيدات لا حصر لها، تماماً كما هو شأن زوجها شيڤا، رَبّ الدّمار. والدّورجا هو أحد تجلّيّات كالي، غير أنّ ولعها بالولوغ في الدّماء أقلّ بروزاً فيه. وقد رفعت مجسّمات عملاقة للربّة في كلّ مكان من أرجاء المدينة، وأبرزتها هذه المجسّمات في غمرة قيامها بمعاقبة ربّ جواميس الماء، وقد صُوِّر حاجبان جميلان غاضبان على المحيا الباسل. وفي اللّيل، كانت الجموع ترفع آيات التّوقير إلى المجسّمات النّاهضة، في حدّة، بإزاء الأنوار الباهرة.

تعدّ كلكتا مركز عبادة كالي، مع معبدها المسمّى كاليجات، ويتحدّى النّشاط الدّائر هناك، خلال هذه المهرجانات، الخيال. وفور وصول هوندا إلى المدينة قام بالاتّفاق مع دليل هندي، وبزيارة للمعبد.

جوهر كالي هو «شاكتي»، وهي كلمة معناها الأصلي «الطّاقة». وهذه الربّة العظيمة، أم الأرض، تشعّ على كلّ الربّات، على امتداد

العالم، سُمُوَّها باعتبارها أمّاً، وبهاءها الأنثويّ، وقسوتها المقيتة، وبهذا تغني طبيعتهنّ الربّانيّة. وتُصَوَّر كالي على هيئة الموت والدّمار، ولاشكّ أنّهما العنصران الجوهريّان للشاكتي، وهي تمثّل الوباء والكوارث الطبيعيّة، وقوى طبيعيّة أخرى مختلفة تجلب الموت والدّمار للأشياء الّتي تنبض بالحياة. وجسمها أسود، وفمها أحمر من الدّم، وتُحَلّى الأنياب النّاتئة من شفتيها وعنقها بقلادة مؤلّفة من الجماجم البشريّة وكثير من الرّؤوس الّتي اجتثّت لتوّها. وهي ترقص بجنون على جسم زوجها الّذي يرقد ممدّداً في وهن. وهذه الربّة الظمأى للدّماء تجلب الأوبئة والكوارث، بمجرّد شعورها بالظّمأ، والتقدّمات المستمرّة، في صورة أضحيات، ضروريّة لتهدئتها. ويشاع أنّ التضحيّة بنمر تروي ظمأها لقرن من الزّمان، والتضحيّة بإنسان تروي ظمأها لألف عام.

زار هوندا معبد كاليجات ذات أصيل ممطر شديد الحرارة والرّطوبة. وأمام المدخل تدافعت حشود من النّاس مصدرة ضوضاء هائلة، تحت المطر، بينما راح الشحّاذون، في كلّ مكان، يتوسّلون مطالبين بالصّدقات. كان حرم المعبد صغيراً للغاية، والمعبد نفسه مكتظّاً بالنّاس، وتجمّع حشد منهم حول المزار، بقاعدته المرمريّة، وهم يتدافعون إلى الأمام وإلى الوراء، وقد بلغ من زحامهم أنّه لم يبق موضع لقدم. وتلألأت القاعدة المرمريّة بلون أبيض على نحو خاصّ، ولكنّها تلطّخت بالطمي البنّيّ من أقدام المتعبّدين الّذين كانوا يحاولون التسلّق عالياً، وبرشاشات الزنجفر الّذي يتعيّن أن يوضع على جباههم مع البركات. وبدا ذلك كاضطراب حافل بالتدنيس، ولكنّ الزّحام الخانق تواصل متطاولاً.

راح كاهن امتدّت ذراعه السّمراء خارج المعبد يرسم نقاطاً صغيرة مستديرة من الزنجفر الأحمر على الجباه الّتي مدَّها المتبتّلون الّذين ألقوا بعملات معدنيّة في الصّندوق. وفي الحشد الضّاغط لأولئك الرّاغبين في التجمّل على هذا النّحو، كانت هناك امرأة ترتدي سارياً أزرق اللّون، أغرقه المطر فالتصق بجسمها، موضحاً استدارات ظهرها وعجيزتها، ورجل يرتدي قميصاً من الكتّان الأبيض، كانت رقبته كومة من التجاعيد السّمراء اللاّمعة. وكانوا جميعاً يتدافعون نحو طرف أصبع الكاهن الأسمر، المطليّ باللّون الأحمر. وذكّرت حركاتهم ونوبات نشاطهم وإخلاصهم هوندا بالحشد المصوَّر في لوحة «منح صدقات القدّيس روكو» من إبداع المصوّر أنيبال كاراتشي، أحد مصوِّري المدرسة الانتقائيّة البولونيّة. غير أنّه في الجزء الدّاخليّ من المعبد، الكابي حتى خلال النّهار، ارتجف في ضوء الشّموع تمثال للإلهة كالي، بلسانها الأحمر البارز، وقلادتها المؤلّفة من الرّؤوس المجتزّة حديثاً.

سار هوندا وراء دليله إلى الحديقة الخلفيّة بأحجارها غير المنتظمة وقد أغرقها المطر وشغلت مساحة تقلّ عن أربعمائة متر مربّع. وألفى قلّة من النّاس هناك. وقد انتصب عمودان كأنّهما جانبا بوّابة خفيضة ضيّقة، وعند قاعدتيهما حوض من الحجر المنحوت. وكانت هناك بقعة معزولة تفصلها الفواصل وكأنّها مكان للاغتسال، ثمّ إلى جانبها مباشرة نسخ أصغر منها، ولكنّها تماثلها على وجه الدّقة. وقد بلّل المطر العمودين، وفي الحوض الموجود عند قاعدتيهما بركة دماء، ولطّخت بقع من الدّمار ماء المطر على الأرضيّة الحجريّة. وأوضح الدّليل لهوندا أنّ الموضع الأكبر هو المذبح الّذي يضحّى فيه بجواميس

الماء، وأنّه لم يعد يستخدم. وأمّا النّسخة الأصغر منه فهي الّتي تستخدم للتّضحيّة بالماعز، وبصفة خاصّة خلال المهرجانات المهمّة، مثل مهرجان دورجا. وسوف تذبح ها هنا أربعمائة من الماعز.

عندما تطلّع هوندا إلى مؤخّرة معبد كاليجات، ولم تكن في السّابق بادية بوضوح للعيان بسبب الحشود الملتفّة حولها، وجد أنّ قاعدتها وحدها هي المشيّدة من المرمر الأبيض الخالص، وأنّ المصاطب المركزيّة والمصليّات المحيطة بها مزخرفة بموزاييك مؤلّف من قطع آجر ملوّنة، على نحو متألّق، تشبه آجر معبد الفجر في بانكوك. وقد غسلت الأمطار التّراب عن الزّخارف الزّهريّة الرّائعة والعربسات المؤلّفة من طواويس غاضبة، وتعملقت في تيه الصّروح الملوّنة، على نحو متألّق، فوق الرّكام الملطّخ بالدّم في الأسفل.

تساقطت قطرات كبيرة في رذاذ متقطّع، وخلق الهواء المثقل بالماء لدى حمله إلى الدّاخل دفئاً سديميّاً.

رأى هوندا امرأة لا تحميها مظلّة من المطر تقبل لتجثو في إجلال أمام المذبح الصّغير. وكان لها الوجه المستدير المخلص الذّكيّ الّذي كثيراً ما يجده المرء بين النّساء الهنديّات، في أواسط العمر. وتبلّل ساريها ذو اللّون الأخضر الفاتح بالمطر، وكانت تحمل غلاّية نحاسيّة صغيرة تضمّ ماء مقدّساً من نهر الجانج.

صبّت المرأة الماء على الأعمدة، وأوقدت المشعل الزّيتيّ الّذي يعمل حتّى عندما يكون المطر منهمراً، ونثرت حولها زهوراً قرمزيّة صغيرة من جاوة، ثمّ جثت على الأرض الحجريّة الملطّخة بالدّم، وشرعت في الصّلاة، على نحو محموم. ولاحت للعيان البقعة الحمراء المقدّسة على جبينها، من خلال الشّعر الّذي التصق بتأثير الماء خلال

صـلاتها المـترعة بـالنّشوة، لاحت وكـأنّها بقعة من دمهـا تقـدّمت بهـا أضحية وقرباناً.

تأثّر هوندا بعمق، وفي الوقت نفسه امـتزجت مشاعـره باستفظـاع يستعصي عـلى الوصف قـريب من النّشوة. وفيـما هو يمحص مشـاعره تراجع المشهد المترامي حوله، ولم يبق إلاّ شبـح المرأة الضّـارعة، وقـد تركّز في البؤرة على نحو حادّ، وأوشك أن يكون رهيباً. وما إن أصبح وضوح التفاصيل وشعوره بالفظاعة قاهرين للغايـة، بحيث أنّه شعـر بالعجز عن التّعامل مع أيّ منهما، حتّى اختفت المرأة على حـين غرّة. وظنّ للحـظة أنّه لابـدّ أن يكـون وهمـاً. ولكن لا؛ فقـد رآهـا تسـير مبتعدة، عبر البوّابة الخلفيّـة غير المـوصدة، بعـربساتهـا المصنوعـة من الحـديد. غـير أنّه لم تكن هنـاك صلة بين المـرأة الّتي كانت غـارقة في ضراعتها، والمرأة الّتي كانت تمضي بعيداً.

اقتاد طفل جدياً صغيراً التمعت نقطة قـرمزيّـة مقدّسـة على غـرّته المبلّلة الخشنة الوبرة. وفيما صبّ الماء المقدّس في الحوض، هزّ الجدي رأسه، وتقافز بقائمتيه الخلفيتين، محاولاً الهرب.

ظهر شاب لـه شارب يـرتدي قميصـاً ملطّخاً، وأخـذ الحيوان من الطّفل، وفيما هو يضع يده على عنقه بدأ الجدي يثغو، على نحـو مثير للشفقة، يوشـك أن يبعث في النّفس الضّيق، مضطّربـاً، ومتراجعاً، واضطرب الشّعر الأسـود الّذي يعلو كفله تحت المـطر. ودفع الشّـاب عنق الجـدي عنوة بـين جانبيّ المـذبح، وقـد جعل الـوجه إلى أسفـل غـارساً كتلة خشبيّـة سوداء بينهـما دفعها إلى مـوضعهـا فـوق الحيـوان السّجين. تراجعت الضحيّة بمؤخّرتها، واضطربت في يـأس، وراحت تثغـو، على نحـو يثير الشفقـة. وجه الشّـاب سيفه الهـلاليّ الشّكـل،

وحافته تتلألأ بلون الفضّة تحت المطر، فهوى في رقة، وتدحرج الرأس المقطوع إلى الأمام، والعينان مفتوحتان على اتّساعهما، واللّسان المبيضّ ناتئ على نحو غريب، وظلّ الجثمان على النّاحية الأخرى من جانبي المذبح، ومقدّمته ترتعش في رقّة بينما قائمتاه الخلفيّتان تلطمان في جنون حول صدره. وتدريجيّاً تهافتت الاختلاجات العنيفة، مثل حركات بندول تتقلّص مع كلّ ترجّح، وكان الدّم الّذي انبثق من عنقه قليلاً نسبيّاً.

أمسك القصّاب الشّاب بالجدي المجرّد من الرّأس من قائمتيه الخلفيّتين، وانطلق عدواً عبر البوّابة. وفي الخارج، علّقت الجِدْيان المضحّى بها على خطّافات وقطّعت أشلاء، وأفرغت أجوافها بسرعة. وجثم جدي آخر مجرّد من الرّأس تحت المطر عند قدمي الشّاب. وكانت قائمتاه الخلفيّتان ماتزالان ترتجفان وكأنّه على أعتاب كابوس رهيب. لقد تمَّ اجتياز الخطّ الفاصل بين الحياة والموت الّذي رسم لتوّه بهذه البراعة البالغة ودونما ألم، وبغير وعي على وجه التّقريب، وظلّ الكابوس وحده ليعذّب الحيوان.

كانت براعة الشّاب في استخدام السّيف شيئاً متميّزاً. وكان يتبع بإخلاص، ودونما انفعال، عرف هذه المهنة المقدّسة، وإن كانت مقيتة. وقد تقاطرت القداسة بطريقة طبيعيّة للغاية، كالعرق، من الدّم الّذي يلطّخ قميصه المتّسخ، من أعماق عمق عينيه الصّافيتين، ومن يديه الكبيرتين اللّتين تشبهان أيدي الفلاّحين. ولم يلتفت إليه روّاد المهرجان الّذين اعتادوا هذا المشهد، وجلست القداسة بيديها وقدميها الملطّختين وسطهم.

والرّأس؟ لقد قُدِّم أضحية على مذبح تحميه ظُلّة خشنة واقية من

المطر داخل البوّابة. ونثرت زهور حمراء على المشعل المتّقد تحت المطر، واحترقت بعض بتلاتها. وكانت تلك نار المعبد المكرّسة لعبادة براهما. وقد رتّبت سبعة رؤوس جديان سوداء أو ثمانية قرب النّار، وبدا كلّ منها أحمر مفتوح النّهاية وكأنّه زهرة من زهرات جاوة. وكان أحدها هو الرّأس الّذي كان يثغو قبل دقائق. ولاحت خلفه امرأة، جثمت خفيضة، وكأنّها تحوك في إصرار، ولكن أصابعها السّمراء كانت تنزع بدأب الأطراف النّاعمة الملتمعة من البطانة الدّاخليّة للجلد الّذي كان يكسو أحد الجديان.

- ٨ -

خلال رحلة هوندا إلى بنارس، تداعى إلى ذهنه مراراً وتكراراً مشهد التضحية.

كان مشهداً حافلاً بالضّجيج والحراك، وكأنّه في معرض التأهّب لشيء آخر. وساوره شعور بأنّ طقس التضحية لم ينته هنالك على الإطلاق. ولاح الأمر كما لو أنّ شيئاً قد بدأ، وأنّ جسراً قد شيّد إلى شيء محتجب عن العيان، أكثر قداسة، وأعظم فظاعة، وأرفع سموّاً. وبتعبير آخر فإنّ سلسلة الطّقوس كانت تشبه سجّادة حمراء ممتدّة، فرشت ترحيباً بكائن يستعصي على الوصف، كان آخذاً بالاقتراب.

بنارس هي قدس الأقداس. إنّها بيت مَقْدِس الهندوس. ففي الموضع الّذي يتقوّس فيه نهر الجانج، صانعاً هلالاً رائعاً، ومتقبّلاً ثلوج الهيمالايا الذائبة، المقبلة من حيث يقيم الربّ شيڤا، تقع على ضفّته الغربيّة مدينة بنارس الّتي كانت تدعى قديماً ڤارناسي.

إنّها مدينة مكرّسة لشيڤا، زوج كالي، وقد اعتبرت المدخل الرئيسيّ للفردوس. وهي كذلك مقصد الزوّار الّذين يشدّون الرحال إليها من كافّة أنحاء البلاد. والنّفحة الفردوسيّة تتحقّق على الأرض، من خلال الاستحمام في الماء، عند هذا الملتقى لخمسة أنهار هي الجانج ودوتابابا وكريشنا وجامنا وساراسڤاتي.

وتتضمّن نصوص الڤيدا المقطع التّالي عن التأثير الفعّال للماء:

الماء علاج
الماء يبرئ الجسم من علله

ويملأه حيويّة.
الماء حقّاً شفاء
ويشفي من كلّ الأمراض والشّرور.
وفي مقطع آخر، نقرأ مجدّداً:
الماء مترع بالحياة الخالدة.
الماء حماية للجسم.
الماء يجترح معجزات في الشّفاء.
لا تنسوا قطّ قوى الماء الهائلة؛
فهي علاج للجسم والرّوح.

وعلى نحو ما تجري الإشادة به في هذين المقطعين فإنّ الطّقس النهائيّ من بين الطّقوس الهندوسيّة الّتي تبدأ بتطهير الفؤاد بالصّلاة، وتنقية الجسم بالغسل بالماء، يتمّ القيام به على عدد لا يحصى من الأغواط، والغوط درج ينزل بواسطتها إلى النهر.

وصل هوندا إلى بنارس في الأصيل، ورتّب أمتعته في الحال، واستحمّ في غرفته بالفندق. ثمّ رتّب أمر الاستعانة بأحد الأدلّاء. ولم يساوره شعور بالتّعب، بعد رحلته الطّويلة بالقطار، ووجد أنّ نزعته الفضوليّة، المترعة بالشّباب على نحو غريب، قد دفعته إلى حالة ذهنيّة مرحة، لا يقرّ له معها قرار. وتخلّل سنى الشّمس الخانق كافّة الأرجاء، خارج نوافذ الفندق. وساوره شعور بأنّ بمقدوره، في التوّ واللّحظة، أن يكتنه سرّ هذا السنى، بالاندفاع إلى رحابه.

ومع ذلك فإنّ بنارس كانت مدينة القذارة الشّديدة، جنباً إلى جنب مع القداسة البالغة. فعلى جانبي الأزقّة الضيّقة الّتي لا تنفذ إليها أشعّة الشّمس، تزاحمت حوانيت الأطعمة المقلوة والفطائر

والعرّافين وبائعي الحبوب والطّحين، وصدرت عن المنطقة بأسرها رائحة قويّة لا يخطئها الأنف، مخلوطة بالرّطوبة والمرض. وفيما يجتاز المرء هذه الأزقّة، ويصل إلى الميدان المرصوف بالحجر قرب النّهر، تتجمّع حشود من المتسوّلين المجذومين المتربّصين، وقد أقبلوا من كلّ حدب، كزوّار للمدينة المقدّسة، وها هم الآن يستجدون الصدقات وهم ينتظرون الموت. رفوف من الحمائم. سماء أواخر الأصيل المتّقدة. جلس أحد المجذومين، وقد وضع أمامه علبة من الصّفيح تحتوي على قطع قليلة من النّقود النحاسّية، وقد احمرّت العين الوحيدة الّتي بقيت له وتقيّحت، على حين بدت ذراعاه اللّتان ذهبت أصابعهما كجذعيْ شجرتيْ توت مجتثّين، وقد ارتفعا إلى السّماء الغاربة شمسها.

حفلت المدينة بالتشوّه من كلّ نوع، فقد انطلق الأقزام يجوبون أرجاءها مسرعين، وتراصّت الأجسام وكأنّها كتابة عتيقة لم يكتنه أحد سرّها، وغاب عنها أيّ مغزى مشترك. وبدت مشوّهة، لا بسبب الفساد والتّناثر، ولكن لأنّ الأشكال التعسة الملتوية ذاتها كانت تمجّ بحدّة وباندفاع محموم قداسة تعافها النّفس. وحمل الدّم والبول، وكذلك اللّقاح، آلاف الذبابات السمينة المتألّقة الجامعة بين اللّونين الأخضر والذهبي.

على الجانب الأيمن من المنحدر الّذي يفضي إلى النّهر، ضربت خيمة ملوّنة، وقد حملت شارة مقدّسة، ووضعت جثث ملفوفة في القماش إلى جوار الجمع الّذي مضى يصغي إلى عظة انهمك كاهن في إلقائها.

كان كلّ شيء يجري على غير هدى. وتحت الشّمس تكشّفت

حشود من أكثر حقائق اللّحم البشري قبحاً، بما يواكبها من فضلات بشريّة، ورائحة تعافها النّفس وجراثيم وسموم. وحوَّم كلّ شيء في الهواء وكأنّه بخار يتصاعد من حقيقة واقعيّة مألوفة. بنارس. إنّها قطعة من سجّادة بشعة إلى حدّ التألّق. سجّادة صارخة تفيض على نحو بهيج ليلاً ونهاراً بالمعابد والنّاس والأطفال ـ خمسة آلاف معبد، معابد مكرّسة للهوى، بأعمدة حمراء وجداريّات من الأبنوس الأسود، تصوّر كافّة الأوضاع الممكنة للمضاجعة، دار الأرامل الّتي تنتظر ساكناتها الموت، وهنّ يرتّلن السّوترات ليلاً ونهاراً... سكّان، زوّار، مارّون على عجل، موتى، أطفال كساهم الجدري، أطفال يحتضرون متشبّثين بصدور أمّهاتهم.

انحدر الميدان نحو النّهر مفضياً بالزوّار، على نحو طبيعي إلى أكثر الأغواط أهمّيّة، وهو الّذي يعرف باسم «داسا سقاميدا» أو «التضحية بالجياد العشرة»، إذ تقول الأعراف المتوارثة إنّ براهما قد ضحّى بعشرة جياد ذات مرّة هنالك.

كان النّهر الممتّد بمياهه الوفيرة، المائلة إلى الحمرة، هو نهر الجانج! ومضى الماء الثّمين المقدّس الّذي ملأ الغلاّيات النحاسيّة الصّغيرة، ليصبّ على جباه الورعين والأضحيات في كلكتا، يتدفّق عبر النّهر العريض، أمام عينيْ هوندا، وليمة باذخة على نحو لا يصدّق من القداسة.

كان من المنطقيّ تماماً أن تترع ها هنا، على قدم المساواة، نفوس المرضى والأصحّاء والمشوّهين والمحتضرين بالبهجة الذهبيّة. وكان من المنطقيّ تماماً أن تتضخّم الهوام والذّباب وتلفّها البركة، وأن يمتلئ التّعبير الشّامخ على نحو مميّز والموحي بالمعاني وهو يعلو ملامح الهنود،

أن يمتلئ هنا بـالتوّقـير، بحيث يخلو من المعاني. وراح هـوندا يتسـاءل كيف يمكنه دمج عقله بشمس الغسق المتّقدة، بالرّائحة الّتي لا تطاق، وبنسـائم النّهر الّتي تشبـه أبخرة المستنقـع. كان من المشكـوك فيه أنّ بمقدوره أن يغرس نفسـه في هواء الغسق الّـذي انتشر في كلّ مكـان، مثل نسيج صـوفي غليظ نسج من الأصـوات المرنّمـة، والأجراس الّتي تقرعها الأيدي، وهيمنة الشحّاذين، وأنين المرضى. وقد خشي من أنّ منطقه قد يمزّق هذا النسيج الكامل، شأن حدّ سكّين مرهف.

بدا أنّ من المهمّ تجاهل الأمر، فحدّ سكّين المنطق الّذي نـظر إليه باعتباره سلاحه منذ يفاعته، قد تمّت المحافظة عليه بمشقّة، وذلـك في ضوء الثلمات الّتي أصابته من خلال تجلّي كلّ تناسخ جـديد. والآن لم يعـد أمامـه من خيار إلّا التخـلّي عنـه، دون أن تلحـظه عـين، وسط الجموع العارمة الّتي كساها الغبار والجراثيم.

انتصبت مـظلّات عديـدة، تشبه الفـطر، عـلى الأغـواط لـوقـايـة المستحمين، ولكنّها كانت الآن خاويـة في معظمهـا وقد نفـذت أشعّة الشّمس المائلة للمغيب تحتها، إذ مرّ وقت طويل على موعد الاستحمام الّذي وصل إلى ذروته عند الشّروق. وانحدر الدّليـل نحو الشّـاطئ، وشرع في التّفـاوض مع أحـد النّوتيّـة. فلم يملك هونـدا إلّا الانتظار جانباً طوال المساومة المتطاولة على نحو يدعو للسأم، شاعراً بـالحديـد المحمّى المنصبّ من الشّمس المائلة للمغيب، وهو يلهب ظهره.

في النهاية انطلق الزورق الّذي يقلّه ودليله، مبتعداً عن الشّـاطئ. كان الغوط المعروف باسم داساسڤاميدا يقع، على وجه التّقريب، في وسط الأغواط العديدة، على امتداد الضفّة الغربيّة للجانج. وغالباً ما كانت زوارق النّزهة تنحدر جنوباً لمشاهدة الأغواط الأخرى، ثمَّ تعود

صعداً لتصل إلى الأغواط الواقعة إلى الشّمال من داساسڤاميدا.

تعرَّضت الضفّة الشرقيّة للإهمال على نحو مؤلم، في حين كانت الضفّة الغربيّة تعتبر مقدّسة. وقد قيل إنّ من يقطنون هنالك ستتناسخ أرواحهم في أجسام حمير؛ ومن ثمَّ فقد تجنّب الجميع تلك الضفّة، فلم يكن هناك ظلّ لدار، ولا ترامت في البعيد إلاَّ خضرة الأدغال الخفيضة.

ما إن شرع الزّورق بالانحدار جنوباً حتّى حجبت المباني شمس المغيب الوهّاجة، ولم تفسح المجال إلاَّ لهالة من ألق تلفّ المشهد البديع الّذي شكّلته الأغواط العديدة الباهرة بأعمدتها المتطاولة في المؤخّرة وبالدّور المقامة فوق أعمدة ترفعها عن الأرض. وحده غوط داساسڤاميدا ومن خلفه الميدان سمحا للشّمس الغاربة بالنّفاذ. وكانت السّماء الّتي كساها المغيب تعكس بالفعل لونها الورديّ الهادئ على النّهر، وقد ألقت الأشرعة الماضية لطيتها ظلالاً غسقيّة على الماء.

كان ذلك وقت الألق الغامر الغامض، قبل حلول ظلمة أوّل اللّيل. إنّه وقت يتملّك الضّوء ناصيته، وتتبدّى فيه الخطوط الخارجيّة لكلّ الأشياء بكمالها، وترتسم كلّ حمامة بتفاصيلها ملوّنة، وقت يصطبغ فيه كلّ شيء بلون ورديّ يميل إلى الصّفرة، وقد بدا ناصلاً يهيمن عليه تناسق فاتر بروعة لوحة مرسومة بين الانعكاس على صفحة الماء والوهج في السّماء.

تعدّ الأغواط كيانات كبيرة مناسبة على وجه الدقّة لهذا النّوع من الإضاءة. فهي تتألّف من درج هائلة، كدرج القصور أو المعابد الكبرى، تفضي إلى الماء، ووراء كلّ غوط ينتصب جدار هائل من كتلة واحدة من الصّخر. ولا تعدو الأعمدة والعقود الّتي تشكّل

خلفيّة الغوط أن تكـون أعمدة هـائلة ذات قواعـد وتيجان. وللعقـود نوافذ مصمتة. والدّرج وحده هو الّذي يتمتّع بجـلال مكان قـدسي. وبعض التيجان كورنثيّة الطّراز، بينما البعض الآخر توفيقي تماماً على النّمط المألوف في الشّرق الأدنى. وعلى الأعمدة رسمت خطوط بيضاء يصل ارتفاعها إلى أربعين قدماً، أيّ الارتفاع الّذي وصلت إليـه المياه في كـوارث الفيضان السّنـويّة، ولاسيّما في الكوارث الّتي ذاع صيتها المشؤوم في عاميْ ١٩٢٨ و١٩٣٦. ونتأت فوق الأعمدة المرتفعة عـلى نحو مذهل، عقود مثبّتة من طرف واحد، ومخصّصة لمن يقطنون فـوق الأسـوار، وجثمت صفـوف من أعشـاش الحـمائم عـلى الـدرابـزين الحجري. وتراخت على السّقوف هالة من شمس المغيب أخذ وهجها يذوي تدريجيّاً.

أخذ زورق هوندا يدنو من أحد الأغواط ويعرف بـاسم «كيدار»، وهناك مضى رجل يصيـد السّمك بشبكـة قرب زورقـه. ساد الهـدوء غـوط كيدار، وغـرق المستحمّون النـاحلون، ذوو الأبدان الأبنـوسيّـة وكـذلك المتفـرّجون الـواقفـون عـلى درج الغـوط في تـرتيـل الصّـلاة والتأمّل.

لفت نـظر هونـدا رجل كـان قـد هبط في وسط الـدّرج المـائـل، وأوشك على الاستحمام، ووراءه انتصب صفّ من الأعمدة الحمراء، وفي الـوهج المـتراجع بـدا كـلّ شيء واضحـاً، ومحـدّداً، وصـولاً إلى الشّقوق المزخرفة في تيجان الأعمدة. وكـان يقف في قلب القداسـة، غير أنّه كان موضعاً للتساؤل عمّا إذا كان يمكن وصفه على الإطلاق بأنّـه رجل. فقد كانت المفارقة كبيرة بين بشرته والأجسـام السّوداء للكهنـة الحليقين المحيطين به. كان رجـلاً طويـلاً مهيباً. وقـد لاح أنّه وحـده المتمتّع ببشرة حمراء ورديّة مشعّة.

كان شعر صغير أشيب يعلو رأسه، وأمسك بيده اليسرى مئزراً أحمر قانياً ثقيلاً يلتفّ حول خاصرتيه. وأمّا ما عدا ذلك فكان امتداداً وافراً من العري الأحمر الورديّ المتراخي قليلاً، وبدت عيناه شاردتين على نحو مترع بالنّشوة، وكأنّه لا وجود لأحد حوله، ومضى يحدّق ساهماً في السّماء فوق الضفّة الأخرى. وامتدّت يده اليمنى نحو السّماء في ضراعة، ولاحت بشرة وجهه وصدره وبطنه بيضاء مورّدة نضرة في ضوء الغسق، وعزله نبله تماماً عمّا حوله. ولكن بقايا البشرة السّمراء المنتميّة إلى هذا العالم بقيت هنا وهناك على عَضُدَيْه، أو ظهري كفّيه، أو فخذيه، وقد شارفت على التسلّخ، ولكنّها ماتزال تشكّل بقعاً وآثاراً وخطوطاً. وجعلت هذه البقايا جسمه الأحمر الورديّ المتوهّج يبدو أكثر مهابة. لقد كان مصاباً بالجذام.

دفّ رفٌّ من الحمائم محلِّقاً.

وفيما شرع الزورق في شقّ طريقه صعداً في النّهر انتقل حراك طائر أصابه الفزع إلى الطّيور الأخرى، في التوّ، وأخذ الاصطفاق المفاجئ للأجنحة العديدة هوندا على غرّة، فانتزع انتباهه من خضرة أشجار الزيزفون المترامية، حتّى لتبلغ سطح النّهر بين الأغواط العديدة. وقد قيل إنّ كلّ وريقة تستضيف على امتداد عشرة أيّام روح أحد الرّاحلين توّاً، فيما هي تنتظر مبعثها.

تجاوز الزورق بالفعل داساسقاميدا، ومضى يمرّ بحذاء دار الأرامل، وهي لا تعدو أن تكون بناء شيّد من الحجر الرملي الأحمر، قرب النّهر. وقد زخرفت أطر النّوافذ بفسيفساء تجمع بين اللّونين الأبيض والأخضر، وطلي الدّاخل باللّون الأخضر. وانساب البخور من النّوافذ، وكان بالوسع سماع أصداء الأجراس وتراتيل «الكيرتانا»

وهي ترتدّ عن السّقف وتنداح إلى سطح النّهر. ها هنا تجمّعت الأرامل من أرجاء الهند كافّة، لينتظرن ملاقاة الموت. وإذ هيمن عليهنّ المرض، ورحن ينتظرن الخلاص، المترتّب على الفناء، فقد كانت الأيّام الأخيرة لهنّ في «موموكشو بهافان» أو «دار السعادة» هي أكثر الأيّام سعادة بالنّسبة لهنّ. لقد كان كلّ شيء قريباً على نحو مواتٍ. وكان غوط المحرقة يقع إلى الشّمال مباشرة، بينما ارتفعت فوقهنّ مباشرة القمّة المستدقّة الذّهبيّة لمعبد الحبّ النيبالي، الذي مجدّ فنّ النّحت عليه الأوضاع الألف للمضاجعة.

لاحت لعينيْ هوندا لفافة يكسوها القماش طافية إلى جوار الزورق، ولاحظ أنّ الشّكل والحجم والطّول توحي بأنّها تضمّ جثّة طفل في الثانية أو الثالثة من العمر، وقيل له إنّ الأمر كذلك، على وجه الدقّة.

ألقى نظره على ساعته فألفاها قد تجاوزت الخامسة بأربعين دقيقة. وقد راح الغسق يستجمع قواه. وفي تلك اللّحظة رأى ناراً بوضوح أمامه. وكانت نار محرقة غوط ماني كارنيكا الجنائزيّة.

تألّفت المحرقة الّتي تواجه نهر الجانج من منصّات خماسيّة الطّبقات، تختلف في العرض، وتقوم على قاعدة على الطّراز الهندوسيّ. وتكوّن المعبد من مجموعة من الأبراج ذات ارتفاعات متباينة، تحيط ببرج مركزيّ كبير، ولكلّ مبنى منها شرفة مقنطرة، على الطّراز العربيّ، تأخذ شكل بتلة اللّوتس. ولمّا كان هذا المجمع الهائل البنيّ اللّون ملطّخاً بالدخان، وكان يرتفع على أعمدة صرحيّة، فإنّه كلّما اقترب زورق هوندا منه لاح هيكله الهائل الكئيب الملتفّ بالظّلال نتاجاً لهلوسة مترعة بالنّذر في السّماء. ولكن مجالاً فسيحاً من

الماء المثقل بالطّمي كان مايزال يمتدّ بين الزّورق والغوط. وعلى سطح الماء الضّارب إلى القتام تدفّق طافياً فيض من تقدمات الزهور ـ من بينها زهور جاوة الحمراء الّتي رآها في كلكوتا ـ والبخور كالنفاية، وتلاعبت على سطح الماء الصّورة المقلوبة لألسنة اللّهب المتصاعدة من المحرقة الجنائزيّة.

دفّت، في اضطراب، الحمائم الّتي تأوي إلى الأبراج، مختلطة بالشّرر المنبعث عالياً إلى عنان السّماء الّتي اكتسى أديمها بلون قاتم الزّرقة تمسّه لمسة رماديّة.

انتصب كهف حجري، يعلوه السّخام، قرب الماء، ووضعت زهور أمام تماثيل شيڤا وإحدى زوجاته، وهي ساتي الّتي ألقت بنفسها إلى اللّهب، حفاظاً على شرف زوجها.

حملت زوارق عديدة أكواماً عالية من الحطب جلبت للمحارق الجنائزيّة، وألقت مراسيها في المنطقة فأبعدت زورق هوندا عن قلب الغوط. ووراء النّار المتّقدة على نحو وهّاج، بدا لهب صغير للعيان عميقاً تحت بهو المعبد المقنطر. وكان هذا هو اللّهب المقدّس الخالد الّذي تتلقّى كلّ محرقة جنائزيّة نارها منه.

سكن النسيم النّهري، وجثمت فوق المنطقة حرارة خانقة. وشأن أرجاء بنارس كافّة، ساد الضّجيج، لا الصّمت، ها هنا كذلك، واختلط بالحركة الدّائبة للنّاس، والصيحات، وضحك الأطفال، وترتيل السّوترات. ولم يكن النّاس وحدهم هم الّذين راحوا يستحمّون، وإنّما تبعث كلاب مهزولة الأطفال إلى الماء. ومن الأعماق المظلمة، بعيداً عن النّار، هنالك حيث يغمر الماء أقصى أطراف درج الغوط، لاحت فجأة، واحداً إثر الآخر، الظّهور المتألّقة للجواميس

الّتي تجمعها معاً الصيحات المقرقعة الصادرة عن القائمين على شأنها. وفيما هي ترقى الدّرج مترنّحة، راحت النّيران الجنائزيّة تنعكس على صقال ظهورها المبتلّة بالماء.

في بعض الأحيان، كان دخان أشهب يلفّ اللّهب، وتلوح ألسنة حمراء متقدّة من خلال انكسارات في كثافة الدّخان الّذي يتصاعد إلى شرفات المعبد، ويدوِّم، كأنّه كائن حيّ، في أعماق المبنى المظلمة.

شكّل غوط ماني كارنيكا الحدّ الأقصى في التطهّر، فهو المحرقة العلنيّة المقامة في الهواء الطّلق، الّتي يجري كلّ شيء فيها جهاراً على الطّريقة الهنديّة. غير أنّه كان مترعاً بشيء مقيت يثير الغثيان، هو العنصر المكوّن الحتميّ لكلّ الأشياء الّتي يعتقد أنّها مقدّسة ونقيّة في بنارس. وكان هذا المكان دونما شكّ بمثابة مؤشّر لنهاية العالم.

أسندت جثّة ملفوفة في قماش أحمر إلى منحدر يسير من الدّرجات، غير بعيد عن كهف شيفا وساتي. ولقد غُمرت في مياه الجانج، وهي تنتظر الآن دورها لكيّ يتمّ إحراقها. وأفصح القماش الملفوف حول الجثّة عن كونها لامرأة؛ فقد كان القماش الأبيض يقتصر استخدامه على جثث الرّجال. وراح الأقارب ينتظرون مع كهنة حليقي الرّؤوس، تحت خيمة، ليضطلعوا بواجبهم المتمثّل في إلقاء الزّبد والبخور على الجثّة بعد إشعال المحرقة. وفي اللّحظة عينها وصلت جثّة ملفوفة بقماش أبيض، محمولة على محفّة متّخذة من الخيزران، ومحاطة بكهنة غارقين في تراتيلهم، وبالأقارب كافّة. ومضى كثير من الأطفال وكلب أسود يطارد بعضهم بعضاً. وكما هو ملحوظ في أيّة بلدة هنديّة فإنّ الأحياء جميعاً كانوا يتدفّقون حياة ويحدثون قدراً يعتدّ به من الصّمت.

بلغت السّاعة السادسة. وارتفعت ألسنة اللّهب فجأة في أربعة مواضع أو خمسة. ولمّا كان الدّخان يدفع باتّجاه المعبد فإنّه لم تصل الرّائحة الخبيثة إلى مكانه في الزورق، ولكنّه استطاع رؤيّة كلّ شيء بجلاء.

إلى أقصى اليمين كان الرّماد كلّه يجمع، ويترك، لينساب مع ماء النّهر. ولم يَعُدْ هناك وجود للعناصر الفرديّة المميّزة، الّتي تشبّثت في عناد بكلّ جسم، وعلى هذا النّحو فإنّ رماد الجميع، الّذي اختلط وانحلّ أخيراً في الماء المقدّس، يعود إلى العناصر الأربعة المكوّنة، وإلى رحاب الكون الفسيح. واختلط الجانب الأسفل من كوم الرّماد، على نحو لا مجال معه للفصل بأرض المنطقة الرّطبة، قبل أن ينزلق إلى الجانج. ذلك أنّ الهندوس لا يبنون مقابر.

استعاد هوندا فجأة الرّعدة الّتي اخترمته، في مقبرة أيوياما، عندما زار قبر كيواكي، والشّعور بالفزع الّذي ساوره إزاء يقينه من أن كيواكي ليس موجوداً بالقطع تحت شاهد القبر.

سجيت الجثث في النّار، واحدة إثر أخرى. وفيما كانت الأربطة الّتي تحيط بالجثث تحترق، والأكفان البيّضاء والحمراء تلهتمها النّار، كانت ترتفع ذراع سوداء فجأة، أو تقلقل النّار جثّة، وكأنّما صاحبها يتقلّب في نومه. وأمّا الجثث الّتي توضع على المحرقة أولاً فتتحوّل إلى اللّون الرّماديّ القاتم. ويمكن عبر الماء سماع أزيز يشبه ما يصدر عن إناء به ماء يغلي. ولا تحترق الجماجم بسهولة، فيمضي القائم على أمر الحرق دوماً في مسيرته، دافعاً بسارية من الخيزران، مخترقاً الجماجم التي ماتزال تحترق، بعد وقت طويل من تحوّل باقي الجثّة إلى رماد، وتعكس الأوتار في ذراعيه السوداوين القويتينّ اللّتين تدفعان السّارية

بقـوّة لتخـترق الجـماجم ألسنـة اللّهب، بينـما أصـوات التّهشيم الّتي يحدثها، يتراجع صداها مرتدّاً عن جدران المعبد.

التقدّم الوئيـد لتطهـير الجثّة، إعـادة أجزائهـا إلى العناصر الأربعـة المكوّنة لها... اللّحم البشريّ المقـاوم، ورائحته العبثيّـة المتطاولـة في بقـائها بعـد الموت، شيء أحمـر يتفتّـح في ألسنـة اللّهب، شيء بـرّاق يتقلّب، جزيئات ذروريّة سوداء تتراقص عاليـاً، مع الشّرر النّـاري. كـان هناك حـراك ملتمع في اللّهب، وكـأنّما ثمّـة شيء يجري خلقُـه. ومن وقت لآخر، حينما ينهـار خشب الحريق فجـأة، محدثـاً ضجيجاً، ويختفي جـانب من النّار، يعمـد القائم عـلى أمر المحـرقة إلى تكـويم المزيد من الخشب. ومن حين لآخر، ودونما انتظار، تتقافز عالياً ألسنة لهيب سامقة، حتّى لتوشك أن تلعق شرفة المعبد.

لم يكن ثمّة حزن. ومـا بدا قسـوة، يغيب معها الفؤاد، لم يكن في حقيقة الأمر إلاّ بهجـة خالصـة على نحـو فعلي. فلم يكن السّمسـارة والبعث معتقدين أساسيين فحسب، وإنّما كانا يتقبّـلان بالفعـل كجزء من الطّبيعة الّتي تجدّد نفسها باستمرار أمـام عيني المرء: حقـل القمح والنباتات الّتي تنمو فيه، الأشجار تعطي ثمـرتها. وكـان بعض العون من الأيدي البشريّة ضروريّاً، تمـاماً كـما أنّ الحصاد والـزّرع يتطلبـان تـدخّلاً بشـريّاً. لقـد ولـد النّـاس ليـأخـذوا دورهم في هـذا التقـدّم الطّبيعي.

في الهند، يرتبط مصدر كلّ مـا يبدو مجـرّداً من القلب بنشوة خفيّـة هائلة مخيفة! وقد كان هوندا يخاف من إدراك مثل هذه النّشوة. ولكن بعد مشاهـدة ضروب التطرّف القصـوى الّتي صادفهـا، عرف أنّـه لا ينبغي أن يفيق من الصـدمة أبـداً. لقد بـدا الأمر كـما لـو أنّ بنـارس

بأسرها قد نكبت بجذام مقدّس، وأنّ بصره ذاته قد أصابته عدوى هذا المرض الّذي لا يُرجى شفاؤه.

ولكنّ انطباع هوندا عن رؤية المطلق لم يقدَّر له الاكتمال، حتّى حلول اللّحظة التّالية، وهي لحظة لطمت فؤاده بانفعال بلّوريّ حادّ، قوامه الرّعب.

كانت اللّحظة الّتي التفتت فيها البقرة المقدّسة نحوه.

في هذه المحرقة، كانت هناك بقرة شهباء، وهي من تلك الحيوانات المقدّسة الّتي يسمح لها بأيّ شيء في أيّ مكان بالهند. وكانت البقرة المقدّسة الّتي اعتادت على النّيران، قد دفعها القائم على المحرقة بعيداً، ووقفت خارج مطال ألسنة اللّهب مباشرة أمام بهو المعبد المقنطر الّذي لفّه الظّلام. وفي الدّاخل جثم سواد تامّ، وبدا بياض الحيوان موحياً بالرّهبة، ومليئاً بحكمة سامية. عكس البطن الأشهب ألسنة اللّهب المتقدّة، ولاح كأنّه ثلج بارد من ثلوج جبل هيمالايا، مضى يستحمّ في ضوء القمر. كانت مركباً نقيّاً من ثلج لا سبيل إلى اجتيازه ولحم شامخ في جسم حيوان. وكسا الدخان ألسنة اللّهب، وفي بعض الأحيان كانت الحمرة تسود، ليحجبها من جديد الدّخان المدوِّم.

عند ذاك، على وجه الدّقّة، حوَّلت البقرة المقدّسة وجهها الشّامخ إلى هوندا، من خلل الدخان الغائم المتصاعد من الجثث المحترقة، وتطلّعت إليه مباشرة.

ما إن فرغ هوندا من تناول طعام عشائه في تلك اللّيلة حتّى ترك رسالة مفادها أنّه يرغب في المغادرة قبل فجر الغد، وأغفى مستعيناً بقلنسوة للنّوم.

تجمّعت حشود من التّهاويل والأوهام في أحـلامه. ومسّت أصـابع أحلامه مفتاح نغم لم يسبق لها قطّ أن عزفت عليه، فـأحدثت أصـواتاً غريبة. وشأن مهندس، فحصت كـلّ أركان الكـون القائم حتّى الآن والمعروف لديه. وفجأة لاح جبل ميوا السّـاجي، ثمَّ صخرة المنتهى، وهي صخرة جاثمة، قوامها الفزع، على القمّة الّتي يحيا عليها الآلهة، والدّم يتدفّق من صدع، وتنهض الربّة كالي، وقد برز لسـانها القاني. نهضت جثّـة محترقـة في صورة شـابّ جميل، وقـد خصف على شعـره وأدنى خـاصرته أوراقـاً نقيّة، عـلى نحو متـألّق، من شجرة السكـاكي المقـدّسة، ثمَّ تحـوّل المشهد القـذر عند المعبـد، في التوّ، إلى الـرّحب البارد لمزار ياباني مكسوّ بحصى نظيف. راحت كلّ الأفكار وكلّ الآلهة معاً تدير يد عجلة السمسارة العملاقة. ومضى القرص الهائل، وكأنّه غـمام حلزوني، يـدور وئيـداً، حـامـلاً حشـوداً من النّـاس الّـذين انخـرطـوا، إذ غـابت عن وعيهم آثـار السمسـارة، في السّعـادة، أو الغضب، أو الحزن، أو البهجة، تماماً كأولئك الّذين يعيشون حيـاتهم اليـوميّة، وقـد تجرّدوا كليّـة من الوعي بـدوران الأرض. وكان الأمـر شبيهاً بعجلة حديديّة دوّارة في اللّيل، زيّنت كلّها بالأضواء في حديقة ملاهي الآلهة.

ربّما كان الهنود يعلمون هـذا كلّه. وقد تعقّب هـذا الخوف هـوندا إلى أحـلامه ذاتهـا. وكما أنّ حقيقـة دوران الأرض لا تـرصـد قطّ من خـلال أيّ من حواس البشر، ويكـاد يمكن إدراكها بـالمنطق العلميّ، فـربّما كـان السمسارة والكـارما والبعث ممّـا لا سبيل إلى رصـده، من خلال المنطق والإدراك العاديين، وإنّما من خلال قوّة فائقـة، من نوع ما، منطق حدسي، فائق يتميّز بالدقّة والمنهجيّة، على نحو بالغ. وربّما جعل هذا الإدراك الهنود يبدون فاتري الهمّة للغاية، وشديدي المقاومـة

للتقدّم، ومجرّدين إلى حدّ بعيد من كلّ الانفعالات الإنسانيّة ـ البهجة والغضب والحزن والفرح ـ الّتي تعدّ معايير مألوفة لعجم عود البشر العاديين.

كانت تلك، بالطّبع، الانطباعات التقريبيّة الّتي خالجت مسافراً خدش على وجه التّقريب سطح هذه الأرض. والأحلام غالباً ما تشمل أرفع مستوى للرّموز، وأشدّ الأفكار سوقيّة وابتذالاً. وربّما كان هوندا يتابع في أحلامه عادة قديمة درج عليها حينما كان قاضياً: فقد أطلّت دونما قصد عمليّة فاترة مضجرة. بدت عاداته المهنيّة وشخصيّته شبيهة بلسان قطّة بالغ الحساسيّة للطّعام السّاخن، الأمر الّذي يجبره على أن يقوم، في الحال، بتبريد أيّة عناصر دافئة، وغير محدّدة، وتحويلها إلى طعام مجمّد ذهنيّاً. وربّما كان يستخدم هذه الآليّة الدّفاعيّة، التلقائيّة، القديمة، ذاتها، شأن آخرين كثيرين ممّن يلزمون الحذر على نحو خاص في أحلامهم.

وعلى نحو يفوق بكثير التباس الحلم وغرابته، كان ما رآه في الواقع لغواً أعظم بالنّسبة له، لغزاً راح يرفض بعناد الفهم، أو التّفسير. وعندما استيقظ من نومه، أدرك أنّ حرارة هذه الحقيقة قد راوحت في مكانها بوضوح في جسمه وذهنه. وساوره شعور بأنّه أصابته حمّى استوائيّة.

غير بعيد عن الضّوء المعتم، الصّادر عن المكتب الأماميّ في نهاية بهو الفندق، وقف مرشده الملتحي يمازح ويضاحك خادم الفندق المنوب ليلاً. وتعرّف على هوندا، وهو يدنو في حلّته الكتّانيّة، فانحنى في إجلال، عن بعد.

كان السّبب الّذي دفع هوندا إلى مغادرة الفندق قبل الفجر هو

رؤية الحشود وهي تنتظر لتبتهل مع مشرق الشّمس عند الأغواط.

كرّست مدينة بنارس لمفهوم الواحد من بين الكثيرين، وحدة براهما، الّذي كان ربّاً سامقاً، متجاوزاً، بحكم كونه الواحد الّذي يحتوي الكثيرين. وكان قرص الشّمس تجسيداً لألوهيّته، وكان بهاؤه الربّاني في سمته لحظة إطلال الشّمس فوق الأفق. وقد عوملت مدينة بنارس المقدّسة والسّماء على قدم المساواة في الديانة الهنديّة. وقال بانديت شانكارا ذات مرّة: «عندما وضع الربّ السّماء وبنارس في الميزان، رجحت كفّة بنارس الثقيلة، غائصة إلى الأرض، وعلت السّماء الأخفّ وزناً».

ويرى الهندوس الوعي الأسمى بالربّ السّامق في الشّمس، ويعتبرونها رمز الحقيقة المطلقة. وهكذا، فإنّ بنارس مترعة بالتبتّل والصّلاة لقرص الشّمس. ووعي النّاس يحرّر ذاته من القواعد الّتي تحكم الأرض، وهكذا فإنّ بنارس ذاتها تسمو، من خلال تأثير الصّلاة.

خلافاً للأمس، كان غوط داساسفاميدا يزخر الآن بجموع حاشدة من النّاس، وراحت الشّموع تخفق تحت المظلّات الّتي لا حصر لها، في غبش ما قبل شروق الشّمس. وفي السّماء، فوق أدغال الشّاطئ الآخر للنّهر، تخايلت لمسة موحية بمقدم الفجر الوشيك، تحت طيّات السّحب.

كان النّاس قد وضعوا المقاعد، تحت كلّ مظلّة كبيرة من المظلّات الخيزرانيّة، وزيّنوا الحجر القضيبيّ، رمز شيفا، بالزّهور الحمراء، وراح البعض يخلط مسحوق الزّنجفر في هاونات صغيرة، استعداداً لطلاء جباههم، بعد الاستحمام، وإلى جوارهم راح كهنة مرافقون

يمزجون هذه العجينة بماء الجانج، في أوعية نحاسيّة، كرّست، وبوركت في المعبد. وهبط البعض بالفعل الدرج ليكونوا في الماء لدى ملاقاة الشّروق. وبعد ترديد التّراتيل للماء، الّذي مضوا يحفنون منه بأيديهم، غمسوا أجسامهم بكاملها فيه، على مهل. وراح البعض ينتظر الشّروق، جاثياً تحت المظّلات.

فيما كان ضوء الفجر الأوّل ينتشر فوق الأفق، اكتسى المشهد الممتدّ عند الغوط ملمحاً خارجيّاً ولوناً، وشرعت أردية السّاري الّتي ترتديها النّسوة وبشرتهنّ وزهورهنّ وشعرهنّ الأشيب وإصاباتهنّ بالجرب وأوعيتهنّ النّحاسيّة في الصّراخ بألوان زاعقة، وراحت سحابات الصّباح المعذّبة تغيّر شكلها على مهل، وتتداعى فاسحة السّبيل للنّور الزّاحف. وأخيراً، وبينما لاح طرف شمس الصّباح الزّنجفريّة، فوق الأدغال الخفيضة، ندت على حين غرّة تنهيدة، مترعة بالإجلال، من شفاه النّاس الّذين امتلأ بهم الميدان، حتّى لتوشك أكتافهم أن تحتك بهوندا. وجثا بعضهم خاشعاً.

ضمّ أولئك الّذين كانوا في الماء راحات أيديهم متقابلة، أو فتحوا أحضانهم، ضارعين للشّمس الحمراء الّتي تصاعدت تدريجيّاً لتعرض قرصها كاملاً. وارتمت خلال أبدانهم بعيداً، عبر أمواج النّهر الذّهبيّة المائلة إلى اللّون الأرجواني، فبلغت أقدام الواقفين على الدرج. وتردّدت أصداء ابتهاج عظيم، تصاعدت نحو الشّمس المتألّقة فوق الشّاطئ المقابل. وفي غضون ذلك، تقدّم النّاس، واحداً إثر آخر، إلى النّهر، وكأنّما أرشدتهم يد خفيّة إلى ذلك.

والآن، راحت الشّمس تتألّق فوق الأدغال الخضراء. والقرص القرمزيّ الّذي سمح للعيون بأن تتناهبه، تحوّل الآن، في لمحة عين،

إلى حشـد من الألق الّذي يتـرفّـع رافضـاً أن يمنـح أحـداً حتّى لمحـة عابرة. فقد غدا بالفعل كرة نابضة من اللّهب، مترعة بالوعيد.

وفجـأة، أدرك هونـدا جليّة الأمـر، فقد كـانت تلك هي الشّمس الّتي تراءت على الدّوام لإيساو في حلمه الانتحاريّ!.

قدّر للبوذيّة أن تعرف التدهور، في الهند، في أعقاب القرن الرّابع الميلاديّ. وقد قيل عن حقّ إنّ الهندوسيّة قد خنقتها في غمرة عناقها الودود. وشأن المسيحيّة واليهوديّة في فلسطين، والطاوية في الصّين، كان على البوذيّة أن تعرف النفي من الهند لكيّ تصبح ديانة عالميّة. وكان من الضروري بالنّسبة للهند أن تتحوّل إلى ديانة شعبيّة أكثر بدائيّة. واحتفظت الهندوسيّة على نحو تعوزه الحماسة، باسم بوذا في ركن قصيّ من مجمع آلهتها، حيث تمّ الاحتفاظ به باعتباره التجلّي التّاسع من تجلّيات فيشنو العشرة.

ويعتقد أنّ لفيشنو عشرة تجلّيات: ماتسايا، السّمكة، وكورما، السّلحفاة البريّة، وفارها، الخنزير البريّ، وناراسيمها، الأسد، وفامانا، القزم، وباراشوراما، وراما، وكريشنا، وبوذا، وكالكي. وبحسب ما يقوله البراهمة فإنّ فيشنو قام عن عمد، متّخذاً هيئة بوذا، بإدخال ديانة منشقّة، بحيث يتمّ تضليل معتنقي الهندوسيّة، وعلى هذا النّحو يقدّم للبراهمة فرصة العودة بهم إلى رحاب الدّيانة الحقّة حسب تصوّرهم، أيّ الهندوسيّة.

وهكذا فإنّه، جنباً إلى جنب مع تدهور البوذيّة، تحوّلت معابد الكهوف الواقعة في أجانتا إلى أطلال دارسة، ولم تصبح معروفة للعالم إلّا بعد ذلك باثني عشر قرناً، أيّ في عام ١٨١٩، حينما اتّفق أن مرّت بها وحدة من وحدات الجيش الإنجليزيّ.

وكانت الكهوف الحجريّة السّبعة والعشرون المتّخذة في صخور نهر واجورا قد حُفِرت على ثلاث مراحل: في القرن الثّاني الميلادي،

والقرن الخامس والقرن السّابع، وباستثناء الكهوف الثامن والتّاسع والعاشر والثاني عشر والثالث عشر، فقد اتُخذت معابدَ خلال مرحلة الهينايانا. وأمّا باقي الكهوف فهي تنتمي إلى عهد بوذيّة الماهايانا.

وبعد أن زار هوندا الأرض المقدّسة للهندوسيّة، رغب في التوجّه إلى أطلال البوذيّة الّتي لم يعد لها الآن وجود في الهند.

كانت أجانتا هي مقصده الّذي لابدّ له منه. وبشكل من الأشكال كان هذا قراراً مقدَّراً له.

ودعمت هذه الفكرة الحقيقة القائلة بأنّ الكهوف نفسها، والفندق وما يحيط به، كلّ ذلك كان هادئاً وبسيطاً، إلى أبعد الحدود، ومجرّداً من الجموع الحاشدة.

ولمّا لم تكن هنا تسهيلات للإقامة حول أجانتا، فقد حجز هوندا في فندق بأورانج أباد، وفي ذهنه أن يزور الموقع الهندوسيّ في إلورا إذ لم تكن أورانج أباد تبعد إلاّ ثمانية عشر ميلاً عن ذلك الموقع، بينما كانت تقع على مسافة ستّة وستّين ميلاً من أجانتا.

حجزت شركة منتجات إتسوي لهوندا أفضل غرفة في الفندق، ووضعت أفخم سيّارة رهن إشارته. وأثارت هذه الامتيازات، جنباً إلى جنب مع التّوقير الّذي لزمه السّائق السخيّ حيال هوندا، سخيمة السيّاح الإنجليز النازلين بالفندق. وأحسّ هوندا في ذلك الصّباح، في غرفة المائدة، وقبيل الانطلاق في الجولة الّتي تستغرق اليوم بكامله، بالتّحالف الصّامت المترع بالعداء الّذي وحّد صفوف الإنجليز في مواجهة السّائح الآسيويّ الوحيد. بل لقد تمّ الإعراب عن هذا الموقف صراحة، عندما جلب النّادل طبقاً من اللّحم المقدّد والبيض إلى مائدة هوندا، قبل أن يقدّم الإفطار لأيّ شخص آخر. وعندئذٍ

قام كهل يبدو عليه الصّلف، وله لحية مشذّبة بعناية، وكان ولاشكّ ضابطاً متقاعداً في الجيش، وكان يجلس إلى جوار زوجته إلى المائدة المجاورة، باستدعاء النّادل وتقريعه بحدّة، وفي إيجاز فظّ. وعقب ذلك كان هوندا آخر من قُدِّم له الطّعام.

من شأن مسافر عاديّ أن يشعر في الحال بالامتعاض حيال هذا الموقف، بيد أنّ هوندا كان ممّن يرفضون بعناد السّماح للانزعاج بأن يساورهم حيال التّافه من الأمور. ومنذ زيارته لبنارس، امتدّ غشاء سميك عصيّ على الفهم، فلفّ فؤاده وأخذ كلّ شيء ينزلق ساقطاً بعيداً عنه. ولّما كان التبجيل الّذي عامله به النّادل هو يقيناً نتيجة هبة وفيرة نفحته بها شركة إتسوي، فإنّ مثل هذه الحادثة لم يؤثّر قطّ في الكبرياء المترفّعة الّتي اكتسبها خلال عمله بالقضاء.

وقفت بانتظار هوندا السيّارة السّوداء، الجميلة الّتي نظّفها ولّمعها باجتهاد أكثر من خمسة من العاملين في الفندق ليس لديهم ما يقومون به غير ذلك، وانعكست الزّهور العديدة في الحديقة الأماميّة للفندق على صقال سطحها المتألّق. وإذ ركبها هوندا فقد انطلقت سريعاً، عبر سهول غربي الهند الجميلة.

لم يَبْدُ في المدى الرحب كائن بشري واحد. وفي بعض الأحيان، كانت الأشكال اللّدنة ذات اللّون البّنيّ القاتم للنّمس، تتموّج مضطربة في ماء المستنقع القريب من الطّريق، أو تنطلق مسرعة، عابرة الطّريق أمام السيّارة، أو تتطلّع إليه مجموعة من القردة، من ذوات الذّيول الطّويلة، من بين الأغصان.

استيقظ أمل في النقاء في فؤاد هوندا، فقد كان التطهّر، على الطّريقة الهنديّة، مقزِّزاً للغاية، وكانت القرابين المقدّسة الّتي شاهد

تقديمها في بنارس ماتزال في أعماقه وكأنّها حُمّى تعصف به، فتاقت نفسه إلى حفنة من ماء يابانيّ غير بارد.

أدخل الامتداد الفسيح للسّهول الارتياح في نفسه. ولم يكن ثمّة حقل أرز، أو غيره من الحقول المزروعة، وإنّما سهول لانهائيّة، جميلة، تمتدّ إلى البعيد، وترقّشها الظّلال الزّرقاء القاتمة لأشجار السّنط. وكانت هناك مستنقعات وغدران وزهور صفراء وحمراء، وفوق هذا كلّه، امتدّت سماء متألّقة وكأنّها قبّة هائلة.

لم يكن ثمّة ما هو عجائبيّ، أو متطرّف، في هذا المشهد الطّبيعيّ. وأخذت الخضرة الباهرة تمجّ، على نحو متألّق، شعوراً فاتراً يوحي بالرّغبة في النّعاس. وترك السّهل ذاته أثراً مهدِّئاً في نفس هوندا الّذي سفعت فؤاده ألسنة لهب رهيبة مفعمة بالنّذر. وبدلاً من رشاس دم القرابين، دفّ طائر بلشون، عذري البياض، محلّقاً من الدغل. وأخذ البياض يكتسي، في بعض الأحيان، بالعتمة لدى مرور البلشون أمام الظلّ الأخضر القاتم، ولكنّه سرعان ما كان يلوح بياضاً خالصاً من جديد.

بدت السّحب أمامه في السّماء ملتفّة على نحو رقيق، وومضت حوافها غير المنتظمة بوهج حريريّ. وكانت الزّرقة عميقة لا يسبر لها غور.

وغنيّ عن القول إنّ جانباً كبيراً من الارتياح الّذي استشعره هوندا جاء مع إدراكه أنّه سرعان ما يلج أرضاً بوذيّة، حتّى على الرّغم من أنّ البوذيّة لم يعد لها وجود منذ زمن بعيد.

ومن المؤكّد أنّه بعد أن عايش رمز الكون العجيب والمتنوّع الّذي تمثّله بنارس، فإنّ البوذيّة الّتي يحلم بها كانت منعشة كالثّلج وساوره

بالفعل شعور مسبق بالسكينة البوذيّة المألوفة حيال هدوء السّهول المشعّ نوراً.

غمره الحنين فجأة، فها هو يعود من مملكة صاخبة تهيمن عليها الهندوسيّة المترعة بالحياة، إلى بلاد مألوفة تحفل بأجراس المعابد، أرض حاق بها الخراب، ولكنّها اكتسبت من خلال ذلك الخراب نقاء وطهراً. وفيما عكف على التفكير في بوذا الّذي ينتظر عودته من رحاب المطلق الّذي عايشه في بنارس، شعر بأنّه قد لا يُقدَّر له أبداً أن يتوقّع المطلق في البوذيّة. وفي هدأة العودة إلى الدّار الّتي حلم بها، ساوره إحساس بقرب لا يريم ممّا بدأ يفنى تدريجيّاً. فبعيداً باتّجاه السّماء الجميلة، الزّرقاء على نحو متوهّج، كانت توشك على الظّهور مقبرة البوذيّة ذاتها، رحاب نسيانها. وحتّى قبل أن يراها استشعر بوضوح البرودة المعتمة، وهي تهدّئ ذهنه المتّقد، برودة الكهوف الصخريّة، وشفافيّة الماء هناك.

كان ذلك نوعاً من تهافت القصد. وربّما كان قبح اللّون وتهالك اللّحم والدّم قد دفعاه إلى السعي وراء ديانة أخرى حجّرت نفسها في العزلة. بل إنّ الانقطاع البسيط الخالص قد أوحت به الأشكال الّتي اتّخذتها السّحب في البعيد. إنّه ها هنا وهم الظلّ، وربّما جاء مكافأة من حياة سابقة، في خضرة الأشجار الجميلة الوارفة. وفي عالم الهدأة الصباحيّة المطلقة هذا، وباستثناء الاهتزاز الكسول لمحرّك السيّارة، أخذ مشهد السّهول الرّقيق يتكشّف وئيداً وراء النّافذة، وحمل بثبات وعلى مهل فؤاد هوندا إلى موئله.

بعد انقضاء بعض الوقت، وصلت السيّارة إلى حافّة مسيل يعترض بحدّة امتداد السّهل الفسيح. وكانت تلك هي الإشارة

الأولى إلى أجانتا. وانطلقا بالسيّارة على امتداد الطّريق المتعرّج، الهابط نحو قاع نهر واجورا المتألّق في قرار الممرّ الضيّق كأنّه نصل سكّين.

لقد غصّ المقهى الّذي توقّف هوندا عنده لينال قسطاً من الرّاحة، بالذّباب. وشرع يتطلّع من النّافذة الواقعة أمامه مباشرة، وعبر الميدان، إلى مدخل الكهوف. وساوره شعور بأنّ الدّخول على الفور بدافع من الاستسلام لنفاد صبره من شأنه أن يجور على الهدوء الّذي ينشده. وابتاع بطاقة بريد، وأمسك بقلمه الحبر بيد رطبة، ومضى يمحص برهة صورة الكهوف الّتي طبعت، على نحو غير متقن، على صدر البطاقة.

ومن جديد كانت هنا، كما في بنارس، مسحة من الضّجيج. ووقف حول المكان أناس سمر يرتدون ملابس بيضاء، وقد أطلّ الارتياب من عيونهم. وأخذ أطفال مهزولون يتصايحون في الميدان وهم يبيعون القلائد، كهدايا تذكاريّة، وامتلأ الفراغ بأشعّة صفراء باهرة تصل إلى كلّ زاوية مظلمة. وعلى مائدة في الغرفة المعتمة كانت هناك ثلاث برتقالات معصورة، تهالك عليها الذّباب. وانبعثت من المطبخ رائحة الطّعام المقلي الحريفة. وكتب هوندا اسم زوجته رايي وعنوانها على بطاقة البريد، ولم يكن قد كتب لها شيئاً منذ بعض الوقت، ثمّ أضاف:

«لقد جئت إلى هنا لزيارة المعابد الكهفيّة، في أجانتا. والجولة توشك أن تبدأ. وليس بمقدوري شرب عصير البرتقال الموضوع أمامي لأنّني أرى حافّة الكوب مرقّشة بآثار الذّباب. ولكن لا تقلقي، فأنا شديد الحرص على صحتي. الهند مدهشة حقّاً. آمل أن تستمرّ عنايتك بكليتيك. مع حبّي لأمّي».

أيمكن اعتبار هذه البطاقة رقيقة؟ إنّه يكتب على الدّوام بالطّريقة ذاتها. وقد جعله الحنين والعاطفة اللّذان شرعا في الاحتشاد مثل غيمة في فؤداه، يقرّر فجأة أن يكتب. ولكنّه عندما حاول تجسيد ما يشعر به في كلمات، انقلبت عباراته، على نحو لا سبيل إلى تمييزه، إلى عبارات عاديّة وجافّة.

لسوف ترحّب رابي على الدّوام بعودته، بابتسامتها الهادئة الّتي ارتسمت على شفتيها عند رحيله، مهما كان عدد السّنوات الّتي يتركها فيها وحيدة باليابان. وعلى الرّغم من أنّ شعرها قد يحمل خصلات قلائل أخرى دبَّ إليها المشيب منذ رحيله، فإنَّ المحيا الّذي ودّعه وذاك الّذي سيحيّيه لدى عودته سيتطابقان تماماً، شأن زخرفين متطابقين على ردني كيمونو يستخدم في المناسبات الرسميّة.

جعلت لمسة من متاعب الكلية الّتي تعاودها، الصّورةَ الجانبيّة لوجهها تبدو غامضة وكأنّها صورة بدر يلوح في نور النّهار. وبدت له هذه السّيماء الآن، وهو يتذكّرها، أكثر ملاءمة للتصوُّر في الذّاكرة منها للرؤية في الواقع. وبالطّبع فإنّه ما من أحد يمكنه أن يكره امرأة كهذه. واستشعر في قرارة فؤداه ارتياحاً عميقاً وهو يكتب بطاقة البريد، فأخذ يعرب عن شكره بقوةٍ ما تستعصي على التسمية. وكان ذلك ارتياحاً يختلف كليّة عن تأكّد المرء من أنّه موضع حبّ.

بعد أن كتب البطاقة دسّها في جيب السّترة الّتي كان قد خلعها، وهبّ واقفاً، فلسوف يرسلها بالبريد من الفندق. وفيما هو ينطلق عبر الميدان الّذي غمرته الشّمس، تبعه الدّليل منحرفاً عنه قليلاً وكأنّه موكّل باغتياله.

نقبت الكهوف الحجريّة السّبعة والعشرون، في نقطة وسيطة، في

الصّخور المطلّة على نهر واجورا، حيث تراكمت طبقات عديدة من النّباتات الشّائكة. وبدءاً من النّهر فإنّ المنحدر يأخذ بالإيغال تدريجيّاً في الانحدار، ماضياً من الصّخور إلى النّجيل، ثمَّ يغدو صخرة جرفيّة تكسوها غيضة أشجار. وربط ممشى صخريٌ أشهبُ المداخلَ بالكهوف.

كان الكهف الأوّل هو «الشايتايا» أو المعبد. وكانت هناك أطلال أربعة معابد وثلاثة وعشرين «فيهارا» أو مسكن للرّهبان. وكان الكهف الأوّل واحداً من المعابد الأربعة.

وعلى نحو ما توقّع تماماً، كانت للهواء داخل الكهف برودة الفجر الغائم. ولاحت جليّة للعيان أيقونة كبيرة لبوذا، في مختلى يتوسّط المكان، فبدا الشّكل النّاعم السّطح جالساً في وضع زهرة اللّوتس، في الانعكاس الصّادر عن المدخل الّذي انسلّت منه حزمة من الضّوء في مساحة ممسحة للأقدام. ولم يكن هناك ما يكفي من الضّوء لإنارة الجداريّات المرسومة على السّقف والجدران المحيطة بالزّائرين. وأخذ الشّعاع المنبعث من المصباح النقّال الّذي أمسك به الدليل، ينتقّل مهتزّاً هنا وهناك، وكأنّه خفاش من ضوء يحوّم حول الكهف. ومضت تصاوير مزيج غير متوقّع من الرّغبات الدنيويّة تلتمع مراراً وتكراراً أمام النواظر.

بدت نسوة نصف عاريات اعتمرن تيجاناً ذهبيّة، وقد التفّت سارنجات ملوّنة صول أردافهنّ، في أوضاع مختلفة في بقعة الضّوء. وكانت غالبيتهنّ تمسك بسوق زهور اللّوتس. ولاحت وجوههنّ جميعاً متشابهة كوجوه الأخوات. وكانت الأعين البالغة الطّول والمائلة، نصف مغمضة، وقد تقوّست فوقها أهلة من الحواجب، وخفضت الخياشيم المنفرجة قليلاً من برودة أنوفهنّ المستقيمة المترفّعة. وبدت

الشفّة السّفلى شهوانيّة، بينما لاح الفمّ مطبقاً وكأنّه قُيِّد عند الطّرفين. وذكّر كلّ شيء هوندا بما سيكون عليه وجه الأميرة سنى البدر في بانكوك، عندما تشبّ عن الطّوق. ويكمن الفارق بين هؤلاء النّسوة والأميرة الصّغيرة بوضوح في أجسامهنّ النّاضجة. فقد كانت نهودهنّ عناقيد من الرّمان النّاضج توشك على الانطلاق، وتهدّلت حولها قلائد من الذّهب الرّفيع والفضّة والأحجار الكريمة وكأنّها ياسمين يتدلّى على ثمرة متشبّثاً بها. وكانت بعضهنّ مضطجعات، وقد لاحت ظهورهنّ مفصحة عن التقوّس المتحلّب شهوة في أردافهنّ، وكشفت بعضهنّ عن بطون شهوانيّة وافرة يكاد يغطّيها سارنج قصير. وانهمكت بعض النّسوة بالرّقص ولاحت أخريات في غمرة النّزع الأخير. وفيها انتقل ضوء المصباح من بقعة إلى أخرى، مصحوباً بثرثرة الدّليل الّتي لا تتوقّف وهو يردّد كلماته المعهودة، اختفت النّسوة، واحدة وراء أخرى في رحاب الظّلام.

وبينما كان هوندا يخرج من الكهف الأوّل غيّر سنى الشّمس الاستوائيّة، وكأنّه جرس يقرع بعنف، الجداريّات في الحال إلى أوهام. وإذ يتأمّل المرء الأمر، في ضوء النّهار، يساوره شعور بأنّه قد زار الكهوف في ذكرى طال نسيانها. والشيء الوحيد الّذي صوّر الواقعيّة هو نهر واجورا الّذي مضى يتألّق في الأسفل، ومشهد الصّخور الجديبة.

وكالمعتاد، ضاق هوندا بثرثرة الدّليل اللّامباليّه. وهكذا ترك الآخرين يمضون قدماً، وظلّ وحيداً، لبعض الوقت، في أطلال فيهارا المهجورة، وقد تجاوزه الدّليل في برودة، وتجاهله تماماً السّياح الآخرون.

مكّنه غياب كلّ شيء من أن يطلق العنان لخياله المحلّق. وقد خدم الفيهارا هذا الغرض بشكل جيّد. فلم تكن هناك أيقونة ولا جداريّة، وإنّما أعمدة غليظة سوداء فحسب، تنتصب على جانبي الكهف كليهما. وانتصب منبر في قلب مُخْتَلٍ مظلم على نحو خاصّ، بينما امتدّت مائدتان حجريّتان كبيرتان من المدخل إلى الخلفيّة. وانسرب الضّوء إلى الدّاخل، وبدا كما لو أنّ الكهنة قد نهضوا لتوّهم ليتنشقوا الهواء العليل في الخارج، تاركين المائدتين الحجريتين اللّتين يستخدمونهما للدراسة وتناول الطعام على السّواء.

أراح غياب اللّون ذهن هوندا، على الرّغم من أنّه عثر بعد البحث بعناية على بقعة من طلاء أحمر ناصل، في موضع صغير منخفض، في المائدة الحجريّة.

أكان هنا شخصٌ غادر المكان لتوّه؟

ومن عساه يكون؟

وقف هوندا وحيداً، في برودة الكهف. وأحسّ كما لو أنّ الظلّمة حوله شرعت تتهامس فجأة. وأيقظ فيه خواء الكهوف المجرّد من الزّخرف واللّون ربّما للمرّة الأولى منذ قدومه إلى الهند، شعوراً بوجود عجائبيّ. فما من شيء كان أكثر واقعيّة، على نحو مترع بالحيويّة، بالنّسبة لجَلَده ـ وهو برهان جليّ على وجود حديث العهد ـ من الحقيقة القائلة بأنّ هذا الوجود قد تقلّص وفني وانقضى. لا، بل هو وجود شرع بالفعل يتشكّل وسط رائحة العفن الفطريّ الّتي كست كلّ حجر في الكهف.

اعتراه انفعال يشبه الّذي يساور الحيوان. كأنّه مزيج من النّشوة والقلق طالما استشعره حينما كان شيء ما يتشكّل في ذهنه، وكان ذلك

هـو انفعال الثّعلب الّـذي يقترب من الضحيّـة، على مهـل، بعـد أن يكون قد اشتمّ رائحتها من بعيد. ولم يكن على يقين من جليّة الأمر، ولكن يد ذاكرتـه المحلّقة بعيـداً أحكمت قبضتها عليـه، بالفعـل، في قرارة ذهنه، فامتلأ فؤاده بمشاعر التوقّع.

خرج من الفيهارا، وشرع بالسّير في النّـور الخارجيّ نحـو الكهف الخامس. كان الدّرب يشكّل قوساً عريضاً، وامتدّ مجاز ضيّق أمـامه، وترامى الممشى الواقع أمام الكهـوف متداخـلاً ما بـين بعض الأعمدة المنتصبـة في الصّخـور. وكـانت الأعمـدة مبتلّة، إذ كـانت تقـع وراء شـلاّلين. وكـان هونـدا يعرف أنّ الكهف الخـامس قـريب، فتـوقّف ليلقي نظرة عبر الوادي على سلسلة الشّلالات الصّغيرة.

اعترض مسيل أحد الشلاّلين فانهالت مياهه عـلى سطح الصّخـر، بينـما انهال الشلاّل الآخـر في مسيل فضيّ لا يعـرف الانقطاع. وكـان كلّ منهما ضيّقاً تنهال مياهه من ارتفـاع شاهق. وتـردّد بجلاء، مـرتّداً عن الصّخور القريبة، صوت الشلاّلات المنحدرة مياهها عبر الصّخور ذات اللّون الأخضر المصفرّ لنهر واجورا. وباستثناء التّجاويف المعتمة الّتي تشكّل مداخـل الكهوف، كـان كلّ شيء وراء الشـلاّلين، وعـلى جانبيهما، متألّقاً: أجمات أشجار السّنط ذات اللّون الأخضر الفـاتح، الزّهور الحمراء، المطلّة على حوافّ الماء، السّنى المتألّق، المتلاعب على الشلاّلين، وقـوس قزح الّـذي تشكّل في الغـمام: ورفّت منداحـة إلى أعلى وأسفل فراشات صفـراء عديـدة، وكأنّها تتشبّت بـالخطّ المستقيم لنظرة هوندا المحدِّقة وهو يرقب الماء.

تطلّع هوندا إلى قمّة الشلاّلين فدهش لارتفاعهما المذهل. فقد كانا من الارتفـاع بحيث أحسّ بمشـاعـر من يحيـا في عـالم ينتمي إلى بعـد

آخـر. وكـانت خضرة الصّخر عـلى جـانبيهـا قـاتمـة بفعـل الأشنـة والسّرخس، ولكنّها كانت عند القمّة خضرة فاتحة. وكانت هناك أيضاً بعض الصّخور الجرداء، وبدا ألق الخضرة النّباتيّة ونعومتهـا وكأنّهما لا ينتميان إلى هذا العالم. وانطلق فتى أسمـر يرعى المـاشية هنـاك. وفي الأعالي، في السّماء المطلقة الزّرقة نهضت وفـرة من السّحب المتوهّجـة في فوضى رائعة.

كان ثمّة صوت، بيد أنّ التجرّد التامّ من الأصوات انعقد لـه لواء الهيمنـة. وما إن ران الصّمت حتّى تنـاهى إلى مسمع هـونـدا صـوت الشلّالين. وسحره التنقّل على التّوالي بين السّكون وخرير الماء.

تاق إلى الوصـول إلى الكهـف الخامس، حيث كـان الماء يتـلاطم، ولكن شعوراً بالرّهبة أمسكه في موضعه. وبدا من اليقيني تقريباً أنّه ما من شيء ينتظر هناك. ومع ذلك فقد تهاوت كلمات كيواكي المحمـومة الهاذية في ذهنه وكأنّها قطرات ماء:

ـ سأراك من جديد، إنّي أعرف ذلك، تحت الشلّالات.

كـان قد اعتقـد، منـذ ذلـك الحـين، أنّ كيـواكي كـان يشـير إلى شلّالات سانكو على جبـل ميوا. ولـربّما كـان الأمر كـذلك. غـير أنّه خـطر لهونـدا أنّ الشلّال المـطلق الّذي قصـده لابدّ أن يكـون هـذين الشلّالين في أجانتا.

- ١٠ -

كانت السّفينة «البحار الجنوبيّة» التّابعة لشركة إتسوي للملاحة المحدودة، وقد غادر هوندا الهند على متنها، سفينة شحن مزوّدة بست قمرات. وكان الموسم المطير قد انتهى فأخذت السّفينة تشقّ طريقها عبر خليج سيام الّذي ترامى ممتدّاً في غمرة نسيم الرياح الموسميّة الشماليّة الشرقيّة. وبعد أن مرّت بالقرب من باكنام، عند مصبّ نهر مينام، مضت صعداً في النّهر باتّجاه بانكوك باحثة عن مدّ مناسب. ولاحت السّماء، بلا مطر، في هذا الثّالث والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر)، في زرقة الخزف.

أحسّ هوندا بالارتياح لعودته إلى المدينة المألوفة، من أرض تحفل بمثل هذا الوباء. فقد صفا ذهنه، ولكنّه حمل على كاهله وقراً ثقيلاً من الانطباعات المخيفة عن رحلته، وظلّ منحنياً على حاجز ظهر السّفينة العلويّ، على امتداد الرّحلة، والوقر يثقل ضاغطاً بعمق في طيّات فؤاده.

مرّوا بمدمّرة تابعة للبحريّة التّايلانديّة، غير أنّه لم يكن ثمّة أثر لحياة بشريّة على امتداد الضفّة الهادئة الّتي كستها أشجار جوز الهند، والمنجروف، وأدغال القصب. وإذ شرعت السّفينة آخر الأمر بالاقتراب من مقصدها، وفيها بانكوك إلى اليمين، وثون بوري إلى اليسار، فقد لاحت للعيان، على ضفّة ثون بوري، الدُّور العالية المرفوعة على قوائم، وفوقها سقوف اتُّخِذت من سعف النّخيل، وبدت جلود فلاحي البساتين السّمراء تحت وريقات الشّجر المتألّقة، وهم

عاكفون على العناية بأشجار الموز، والأناناس، وجوز الجندم، وغيرها من الفواكه.

احتشدت أشجار جوز التّامول الّتي يؤثرها السّمك المتسلّق، في أحد أركان البساتين. وتذكّر هوندا، عندما لمحها، الوصيفة العجوز الّتي كانت تمصغ التّامول الملفوف في وريقات الكيما، وقد صبغت فمها باللّون الأحمر. لقد حظر فيبون ذو الميول التحديثيّة استخدامه بالفعل. ويبدو أنّ السيّدات العجائز قد ألقين عنهنّ كآبة الخضوع لهذا القيد بمضغ جوز التامول، بعيداً عن العاصمة، في بانج با إن.

غدت القوارب الّتي تدفع بالمجاذيف، والمحمّلة بالماء، أكثر عدداً. وفي النّهاية، شكّلت قلاع السّفن التجاريّة، والعابرة للبحار، غابة تترامى في البعيد. وكان ذلك هو خلونج تواي، مرفأ بانكوك.

أضفت الشّمس الغاربة ألقاً غريباً على الماء المثقل بالطّمي، وجعلته يبدو بلون الورد المحترق، وأضافت المزيد من التقزّح اللّوني إلى البقع الزيتيّة، الأمر الّذي ذكّر هوندا بالسّطح النّاعم لبشرة المجذومين الّذين رآهم مراراً وتكراراً في الهند.

وفيما كانت السّفينة تدنو من الرصيف، تعرّف هوندا على مدير فرع شركة منتجات إتسوي البدين، واثنين أو ثلاثة من الكتبة، ومدير نادي اليابان، ووراءهم هيشيكاوا وقد بدا كما لو كان يختبئ وسط النّاس الّذين يلوّحون بقبّعاتهم مرحّبين. وساوره على الأثر شعور بالاكتئاب.

ما إن نزل هوندا إلى البرّ حتّى انتزع هيشيكاوا حقيبة الأوراق من جانبه، قبل أن تتاح الفرصة لكتبة شركة إتسوي للقيام بذلك، وتصرّف بخنوع واجتهاد لم يسبق لهما مثيل.

ـ مرحباً بعودتك، يا سيّد هوندا، أسعدني أن أراك تبدو في خير حال على هذا النّحو. لابدّ أنّ الرّحلة إلى الهند كانت شديدة الوطأة عليك.

لم تبد هذه التحيّة مهذّبة للغاية، بالنّسبة لمدير الفرع. وهكذا تجاهل هوندا التعقيب عليها، وأعرب عن شكره للمدير.
ـ أدهشتني دقّة الترتيبات الّتي أعددتها في كلّ مكان، خلال الرّحلة. فشكراً لك. لقد سافرت على نحو ما يسافر ملك متوّج.
ـ إنّك الآن تعرف حقّ المعرفة أنّ إتسوي لن يوقفها شيء من نوع قيام بريطانيا وأميركا بتجميد أرصدتنا.

في السيّارة الّتي مضت تنهب الطّريق إلى فندق الأورينتل، لزم هيشيكاوا الصّمت، ممسكاً بحقيبة الأوراق، في المقعد المجاور للسّائق. بينما انطلق المدير يتحدّث عن تدهور مشاعر الرأي العام في بانكوك، خلال فترة غياب هوندا، ونصحه بالحرص لأنّ الجمهور الّذي هيمنت عليه الدّعاية الإنجليزيّة والأميركيّة، قد غدا شديد العداء لليابانيين. وشاهد هوندا، من نافذة السيّارة حشوداً من الفقراء لم يكن يراها عادة، وهي تتدفّق منداحة في الشّوارع.
ـ مع انتشار الشّائعات عن غزو وشيك من جانب الجيش الياباني، وتدهور النّظام المحليّ، أقبل عدد هائل من اللاّجئين إلى بانكوك، من حدود شبه جزيرة الهند الفرنسيّة.

وأمّا الاقتضاب العمليّ، على الطّريقة الإنجليزيّة، من جانب إدارة الفندق، فلم يطرأ عليه أدنى تغير. وبعد أن استقرّ هوندا في غرفته واستحم بالماء البارد، شعر بأنّه أفضل حالاً.

كان الفريق المصاحب للمدير ينتظر، في البهو المواجه للحديقة،

انضمام هونـدا إليه لتنـاول طعام العشـاء. وقد جلس أعضـاؤه تحت المروحة الكبيرة البطيئة الدوران الّتي كانت الخنافس ترتطم بهـا أحيانـاً محدثة ضجيجاً.

وفي طـريق هونـدا من غرفتـه إلى الأسفل، لاحظ متـأمّلاً السّلوك المتّسم بـالصّلف من بعض مَنْ يُـطْلَق عليهم لقب السّـادة المهـذّبـين اليابانيين، في جنوبي آسيا، وهم جماعـة أخذ يـذكّر نفسـه بأنّـه ينتمي إليها هو أيضاً. لقد كانوا محرومين تماماً من أيّة سمة محـرِّرة، ومقرِّبـة من الخلاص.

مضى يتساءل: لماذا؟ ولسوف يكون من الملائم بصورة أكـبر القول إنّه في تلك اللّحظة أدرك هـوندا، حقّـاً، وللمرّة الأولى، قبحهم... وقبحه أيضاً. كـان من الصّعب تصديق أنّهم هم أنفسهم يـابانيُّـون، كأولئك الشبّان الرائعين من أمثال كيواكي وإيساو.

كان ملبسهم ببدلهم الكتّانيّة الإنجليزيّة الرّائعة وربطات أعناقهم، يخلو من اللّوم. ومع ذلك فقـد كان كـلّ منهم يستروح الهـواء بتعجّل أبعـد ما يكـون عن الرزانـة والـوقـار، وقـد تـدلّى من أيـديهم الخيط اليابانيّ، بخرزته الوحيدة السّوداء المرتبطة بالمروحة. وراحت الأسنان الـذهبيّة تلتمـع لدى ابتسـامهم، كما كـانوا جميعـاً يضعون عـوينات. وانهمك الرّجل الأوّل في الحديث، بتـواضع زائف، عن واقعـة ترتبط بعمله، ومضى مرؤوسوه يصغون للقصّة القديمة الّتي سمعـوها مـرّات عديدة، وهم يومئون برؤوسهم مردّدين تعليقـاتهم الأزليّة: «ذلـك ما أدعوه بالشّجاعة الحقيقيّة... الإقدام الحقيقي» وانغمسـوا في النميمة عن النّسـاء المتسكّعات، وامكـانيّـة نشـوب الحـرب، ثمّ تحـوّلـوا إلى التّهامس عن صلف العسكريين. وكان كـلّ شيء يتردّد بنغمـة ترتيـل

السّوترا المتكرّر الّذي لا يعرف التوقّف في المناطق الاستوائيّة، ومع ذلك فقد حفل بحيويّة مثيرة. وعلى الرّغم من فتور الهمّة الّذي عايشوه في أعماقهم على الدّوام، وبرغم توقهم لحكّ ظهورهم، وتقاطر العرق منهم فقد أرغموا أنفسهم على الجلوس باستقامة متصلّبين، مستعيدين بين الفينة والأخرى، في ركن قصيّ من وعيهم، مباهج اللّيلة الماضية، بما صاحبها من خوف من مرض سرّيّ تصحبه قروحٍ تشبه سوسنات المستنقعات الحمراء اللّون. وربّما كان الأمر راجعاً إلى تعب هوندا، من جرّاء رحلته، ولكنّه لم يتعرّف إلى نفسه باعتباره واحداً منهم، عندما نظر قبل دقائق قلائل في المرآة، في غرفته، فلم يَرَ إلاّ انعكاس صورة رجل في السّادسة والأربعين من العمر، انغمس ذات يوم في مسائل الحقّ، ثمّ أخذ يكسب عيشه من الشّوارع الخلفيّة للعدالة، صورة وجه لرجل عاش أكثر ممّا يجب.

مضى يحدّث نفسه، متشبّثاً بأطراف الثّقة الّتي استردّها سريعاً وهو يهبط الدّرج المكسو بسجّادة حمراء، بين المصعد والبهو: «إنّ قبحي هو قبح خاصّ. وعلى أيّة حال فإنّني رجل انتكاسيّ يميل إلى العودة للعدالة، ولست كهؤلاء التجّار».

* * *

في تلك اللّيلة، وبعد ارتشاف عدّة أقداح من النّبيَذ في مطعم اشتهر بتقديم المأكولات الكانتونيّة، وأمام هيشيكاوا، قال المدير بصوت عال لهوندا:

ـ يشعر هيشيكاوا على نحو فظيع بالقلق لما سبّبه لك، من المتاعب، ومن جرحه شعورك. ويبدو أنّه شديد الحساسيّة، في هذا الأمر، فبعد رحيلك مضى يحدّثني، كلّ يوم، عن مدى شعوره بما اقترف من

خطأ، وكيف أنّ الأمر يقع على كاهله. إنّه يوشك أن يكون عصابيّاً في هذا الصدد. أعرف أنّ له نقاط ضعفه، ولكنّي عهدت إليه بمهمّة قضاء أمورك لأنّه مفيد للغاية. ويخامرني شعور بالمسؤوليّة عن أيّ إحساس بعدم الارتياح قد يكون ساورك. لسوف ترحل في غضون أربعة أيّام أو خمسة ـ فقد حجزنا لك مقعداً على متن طائرة حربيّة ـ وقد بذل هيشيكاوا الكثير من الجهد لتحقيق ذلك. وهو يقول إنّه سيبذل قصارى ما في وسعه لإرضائك. وسوف أطلب منك، يا سيّد هوندا، أن تتحلّى بالكرم، وأن تسامحه وتتقبّل خدماته في المدّة الباقية من إقامتك هنا.

تحدّث هيشيكاوا، على الفور، من الجانب الآخر من المائدة، وكأنّه يناشد هوندا:

ـ سيّدي، أرجوك أن تعنفني كما تشاء، فقد أخطأت.

قالها، وحنى رأسه حتّى أوشك أن يمسّ المائدة.

أوقع الموقف الشّعور البالغ بالكآبة في نفس هوندا.

كان من الممكن تفسير كلمات المدير على نحو يبيّن معه أنّه مايزال على اعتقاده بأنّه اختار دليلاً سياحيّاً جيّداً لهوندا، ولكن بالحكم من خلال موقف هيشيكاوا فلابدّ أنّه من الصعب إلى حدّ بعيد إرضاء هوندا، وأنّه إذا غيّر دليله فإنّه سيريق ماء وجه هيشيكاوا. ومن هنا فإنّه لم يكن هناك أمام هوندا ما يمكن القيام به إلاّ ترك هيشيكاوا يبتلع شعوره بالهوان ويواصل العمل معه طوال الفترة الباقية حتّى رحيله. وكان خير سبيل لتحقيق هذا هو التّظاهر بأنّ الخطأ في كلّ شيء يقع على كاهل هيشيكاوا. وهكذا فإنّ هوندا لن يناله رشاش من هذا الأمر.

شعر هوندا بالحنق لحظة، ولكنّه أدرك في اللّحظة التّالية أنّه لن يكون في صالحه أن يرفض الاقتراح الّذي تقدّم به المدير، فلا يمكن أن يكون هيشيكاوا قد اعترف من تلقاء نفسه بأمثلة فعليّة لارتكابه الأخطاء. وفضلاً عن ذلك فإنّه عاجز فطريّاً عن إدراك السرّ في أنّه كان مكروهاً. غير أنّه من المحتم أنّه قد أحسّ بأنّه كذلك، ولابدّ أن يكون تقليبه الأمر بطريقته القاصرة، قد قرّر القيام بشيء ما للتخفيف من تردّي وضعه. ولابدّ أنّه قد جعل المدير يقف في صفّه، بحيث يقول ما قاله من أمور تفتقر إلى الحساسيّة.

كان بمقدور هوندا أن يغتفر للمدير البدين افتقاره للحساسيّة، ولكنّه ما كان باستطاعته اغتفار تلاعب هيشيكاوا، الصّفيق المتّشح بالحساسيّة البالغة الّذي عمد إليه لدى شعوره باستياء هوندا.

غمره، فجأة، شعور بالرّغبة في العودة إلى الوطن، في اليوم التّالي بالذّات. ولكن تغيير البرنامج عند هذا المنعطف سيفسّر بجلاء باعتباره خطّة صبيانيّة للانتقام، تعود إلى كراهيّته لهيشيكاوا. وأدرك أنّه ليس أمامه خيار آخر، ذلك أنّه بإظهاره للسّماحة في البداية غدا مجبراً على أن يكون أكثر سماحة الآن.

طيّب. كان كلّ ما يستطيع عمله هو معاملة هيشيكاوا وكأنّه آلة صمّاء. وقد احتجّ، باسماً، بأنّ اعتذار المدير لا ضرورة له أبداً، وأنّه خلال الأيّام القليلة المقبلة سيعتمد كليّة على هيشيكاوا في مساعدته في شراء الهدايا، والبحث عن الكتب، والقيام بالترتيبات اللاّزمة لزيارة قصر الورديّة لوداع الأميرة. وأحسّ بالرضا، على الأقلّ حيال خداعه الممتاز المتمثّل في إخفائه، على نحو حاذق، مشاعره الحقيقيّة عن المدير.

تغيّر موقف هيشيكاوا بالفعل.

لقد اصطحب هوندا أوّلاً إلى مكتبة رتّبت فيها على نحو متناثر، مثلما هو الحال في متاجر باعة الخضر الّتي توشك أن تخلو ممّا يباع، كتب ذات أغلفة ورقيّة غير متقنة الطّبع، باللّغة الإنجليزيّة، أو التّايلانديّة، فوق منصّة للعرض. وفي السّابق كان هيشيكاوا يقوم بازدراء بمناقشة مستوى الثّقافة التّايلانديّة، ولكنّه ترك هوندا يختار دون أن يتلفّظ هو بكلمة واحدة.

لم يستطع العثور على أيّة كتب تتناول البوذيّة الثيرافاديّة التايلانديّة، وكان الأَوْلى ألاّ يجد أيّة كتب بالإنجليزيّة عن السّمسارة والتناسخ. ولكنّه اجتذبه ديوان محدود الصّفحات، صدر، فيما يبدو، على نفقة صاحبه، مطبوعاً على ورق رديء النّوعيّة، وقد حال لون غلافه الأبيض، فضرب إلى البنّي، وتجعّدت أطرافه، من تأثير تداوله بين الأيدي. وقرأ المقدّمة المكتوبة بالإنجليزيّة فأدرك أنّ الدّيوان مجموعة قصائد نظمها، بعد وقت قصير من الثّورة البيضاء الّتي نشبت في تمّوز (يوليو) ١٩٣٢ شابّ شارك، على ما يبدو، في الثّورة. وقد أعرب الشّاعر عن خيبة الأمل الّتي أعقبت الثّورة الّتي كان على أتمّ الاستعداد للتضحية بحياته من أجلها. وبالمصادفة فإنّ الديوان كان قد صدر في العام الّذي أعقب موت إيساو. وفيما هوندا يقلب الصّفحات أدرك، من خلال المادّة المطبوعة النّاصلة، أنّ إنجليزيّة الشّاعر كانت بعيدة عن الكمال:

منذا كان بوسعه أن يعرف؟
أنّه من تضحيات الشّباب المكرّسة للمستقبل
لن تبرز إلاّ هوام الفساد.
منذا كان بوسعه أن يعرف؟

أنّه في الحقول الّتي تتناثر فوقها الحطام الّتي وعدت يوماً بميلاد جديد.
لا تبرعم إلاّ نباتات السّخيمة والشّوك.
سرعان ما تمدّ الهوام أجنحتها الذهبيّة،
والرّيح الّتي تجتاح الأعشاب ستنشر الطّاعون.
وفي فؤادي يتجلّى العشق الّذي أكنّه لأرضي،
أكثر حمرة من أزهار السّنط تحت المطر،
فجأة، بعد العاصفة، على الطّنف، الأعمدة، والدرابزينات
يتناثر عفن الطغيان الأشهب.
وحكمة الأمس تلفّ بالغيوم في حمامات الريح المترفة
ويُحْجَب ثوريّ الأمس في محفّة من الدّمقس الموشّى.
لن يطرأ ماهو أفضل،
في إقليميْ كابين وبتاني،
حيث الخضرة الوارفة لشجر الكمثرى المزهر وخشب الورد والمانيفان،
والياسمين المتسلّق والورد ذي الأشواك والقرنفل يحفّ الدروب،
حيث الشّمس والمطر ينحدران على الأدغال الكثيفة،
كما لو أنّه، في بعض الأحيان، وطئ قطيع من الفيلة في سعيه للماء
عظامي تحت أخفافه.
لن يطرأ ماهو أفضل من
قيامي، بيديّ هاتين، بانتزاع هلال زوري القاني
المتألّق في الشّجيرات النديّة النّامية في حمى الأشجار العملاقة
منذا بوسعه أن يعرف؟
منذا بوسعه أن يعرف؟

إنّي أغنّي أنشودة حزينة

أثّرت قصيدة اليأس السياسيّة هذه تـأثيراً عميقـاً في نفس هونـدا، وحدَّث نفسه بأنّه ليس بمقدوره العثور على ما هو أفضل منهـا لتهدئـة روح إيسـاو. أليس الأمر كـذلـك؟ لقـد لقي إيسـاو حتفـه، دون أن يفجّر الثّورة الّتي حلم بها طويلاً، ولكن لا شكّ في أنّه كان حـريّاً بـه أن يعايش شعوراً أعظم بخيبة الأمل، لو أنّ الثّورة قد وقعت. مـوت في النّجـاح، موت في الفشـل ـ لقد كـان الموت هـو الأسـاس الّـذي قامت عليه أعمال إيساو. ولكن قدر الإنسان التّاعس أنّه ليس بمقدور المرء انتزاع نفسه من الزّمان. والقيام دونما انفعال بمقارنة موتين، عنـد منعطفين مختلفين، بهدف اختيار أحدهما أو الآخر. وليس بمقدور المرء الاختيار، عن طريق إعطاء أولويّة متعادلة لموتٍ بعد معايشـة الشّعور بخيبة الأمل في أعقاب قيام ثورة، ولموتٍ يسبق معايشة هذا الشّعور. فلئن مـات المرء قبـل أن يعـاني من خيبـة الأمـل، فسـوف يغـدو من المستحيل الموت بعد هذه المعاناة، والعكس صحيح، فلئن مات المـرء بعد معايشة الشّعور بخيبة الأمل، فإنّ الموت قبل هذه المعايشة يغـدو محالاً. ومن هنا فإنّ كلّ ما يستطيع المرء القيام به هو أن يتخيّل نفسـه في الميّتين، في المستقبل، ويختار الميتة الّتي يأمره حدسه بـاختيارهـا، وقد اختار إيساو الموت قبل أن يستـطيع الشّعـور بخيبة الأمـل أن يضرب أطنابه. وقد أفصح اختياره الرؤيويّ عن حكمة الشّباب الصّافية الّتي تمتّع بها إنسان لم يتولَّ قطّ أدنى مقاليد السّلطة السياسيّة.

ولكنّ الشّعـور بخيبـة الأمـل واليـأس ـ الّـذي يشبـه رؤيـة المـرء للجانب الآخر من القمـر ويهيمن على الثّـوريّ الّذي كلّل بـالنجاح ـ يجعـل من الموت مجـرّد مهرب من بـرّيّة مـوحشة هي أسـوأ من الموت ذاته. ومن هنا فإنّه أيّـاً كان الإخـلاص الّذي واكب مـوت الشّاعـر،

فمن المحقّق أنّه يتعينّ النّظر إليه باعتباره انتحاراً مرضيّاً وقع في أصيل ثورة مترع بالإعياء.

ولهذا السّبب أراد هوندا أن يهدي هذه القصيدة السياسيّة لإيساو. فإيساو لقي على الأقلّ مصرعه وهو يحلم بـالشّمس، ولكنّ الصّباح في هـذه القصيدة نكـأ جرحـاً، متقيّحاً، تحت قشرة متصـدّعة. غـير أنّ خيطاً لانهاية له امتدّ بين موت إيساو الجسور واليأس الكامن في هـذه القصيدة السياسيّة، وقد اتّفق أنّ كـلا الأمرين وقعـا في الفترة ذاتهـا. وربّما كان يمكن العثور على الأفضل بعينه والأسـوأ بذاتـه، على أجمـل الأوهام وأقبحها عن المستقبل الّذي ضحّى النّاس بحياتهم من أجله، في المكان نفسه. وأمّا ما هو أكثر إثارة للفزع فهـو أنّهما ربّما كـانا شيئـاً واحداً. فما حلم بـه إيساو ومـا كان عـلى استعداد لتقـديم حياتـه من أجله تعينّ أن يكون اليأس الّذي وجد تعبيراً عنـه في هذه القصيـدة، ذلك أنّه كلّما كانت بصيرته أكثر اتّساعاً وعمقاً كان موته أصفى.

كان هوندا يعلم يقيناً أنّه مال إلى رؤية الأمور على هذا النّحـو لأنّ الهند قد سحرته بِرُقْيَتها السحـريّة. فقـد فرضت عـلى تفكيره سـطحاً متعدّد الطّبقات، شأن بتـلات اللّوتس، وما عـادت تتركـه يفكّر عـلى نحـو بسيط ومباشر. وربّمـا كانت المـرّة الّتي أقدم فيهـا بـإرادتـه عـلى الاستقالة من سلك القضاء ليساعد إيساو ـ وعلى الرغم من أنّـه حرّكـه في هذا الاتّجاه بقوّة شعوره بالندم على عدم تمكّنه من مساعـدة كيواكي ـ المنـاسبـة الأولى والأخـيرة ـ في حيـاتـه ـ الّتي كـان فيهـا محبّـاً للغـير، ومكرّساً نفســه له بمـزيد من التّصميم. ومـع ذلك، وعـلى الرّغم من جهـوده، فإنّـه لم يتمكّن من الحيلولـة دون مصرع إيسـاو العبثيّ. ولم يبق أمـامه بعـد ذلك إلاّ أن يقلب أفكـاره عن التّناسـخ إلى عكسها، وأن يـرى مستقبله خارج إطـار السّمسارة. وقـد كانت الهنـد، الهنـد

الرّهيبة، هي الّتي أسقطت الإيماءة الأخيرة إلى هوندا الّذي وجد أنّه من الصّعب على نحو متفاقم أن يستشعر الانفعالات «الإنسانيّة».

وسواء في غمرة النجاح أو الفشل فإنّ الزّمن سيفضي، عاجلاً أو آجلاً إلى الشّعور بخيبة الأمل. ولئن بقي الإدراك المسبق لخيبة الأمل تلك هو إيّاه لا غير، فإنّه يغدو مجرّد نزعة تشاؤميّة. والأمر المهمّ هو التصرّف بناء على هذا الإدراك المسبق، حتّى من خلال الموت. ولقد حقّق إيساو ذلك على نحو رائع. فمن خلال التحرّك وحده يمكن أن يرى المرء عبر الأسوار الزجاجيّة الّتي شيّدت عند مقاطع مختلفة في مسيرة الزّمن، أسواراً زجاجيّة لا سبيل إلى اعتلائها بالجهد الإنسانيّ، ولكن يمكن الرؤية عبرها من الجانبين، على السّواء. وفي الرّغبة المتلهّفة، في التّوق، في الأحلام، في المثل العليا، يغدو الماضي والمستقبل متعادلين في القيمة والنّوعيّة، ذلك أنّهما متساويان.

وكان سؤالاً يُطرح عمّا إذا كان إيساو قد لمح مثل هذا العالم، في لحظة موته. ولم يعد بمقدور هوندا أن يبعد عن ذهنه، الآن وهو يوغل في العمر، ما إذا كان سيكتشف ما يتعيّن عليه أن يواجهه في لحظة موته. فمن المؤكّد، على الأقل، أنّه في تلك اللّحظة نظر إيساو الكائن وإيساو الّذي سيوجد أحدهما في عيني الآخر مباشرة. وبهذه البصيرة أدرك إيساو الكائن روعة المحتجب على الجانب، وتطلّعت عيناه هناك عبر هذا الجانب. بمزيد من التّوق. ومن المؤكّد أيضاً أنّ إيساو الكائن قد استبصر مجد إيساو المستقبل، وتطلّعت عينا إيساو الآتي إلى الوراء، بمزيد من الحنين نحو الكائن البريء الّذي لم يعايش بعد هذا المجد. وبالمرور عبر وجودين لا سبيل إلى عيشهما من جديد، تواصل الإيساوان، من خلال السّور الزّجاجي. وقد أشار الشّاعر السّياسي

إلى الصّلة الخالدة بين الشّاعر الّذي استشعر الحنين إلى الموت، بعد أن شقّ طريق الحياة، والشّاب الّذي مات رافضاً أن يشقّ هذا الطّريق. ولو أنّ ذلك كان صحيحاً، فما الّذي آل إليه ذلك الّذي رغبا فيه بتلك الشدّة البالغة، كلّ بطريقته الخاصّة؟ وكانت نظريّة هوندا الّتي لم تتغيّر منذ عهد الشّباب أنّ التّاريخ لا يمكن دفعه قُدُماً بملء اختيار البشر، وإنّما الطبيعة الجوهريّة للإرادة البشريّة قوامها أن تغدو منغمسة في التّاريخ.

وراح يتساءل: كيف يمكنه أن يهدي هذه القصائد، وهي أنسب هديّة، إلى روح إيساو؟

هل من الأفضل أن يعود بالكتاب إلى اليابان، ويقدّمه عند قبره؟ لا، فقد كان يعلم تمام العلم أنّ قبر إيساو خالٍ.

من المؤكّد أنّ خير سبيل هو إهداؤه إلى الأميرة الصّغيرة الّتي زعمت صراحة أنّها إيساو وقد بعث من جديد. لسوف تكون الرّسول الأسرع الّذي يمكن الاعتماد عليه أكثر من غيره. لقد غدا هوندا الآن حامل الرّسائل السّريع الخطو، الّذي يمضي مجتازاً سور الزّمن.

ولكن مهما كان مدى ذكائها فهل يمكن أن تفهم طفلة في السّادسة من عمرها اليأس الكامن في مثل هذه القصائد؟ وعِلاوة على ذلك فإنّه فيما اتّخذ تناسخ إيساو مثل هذا الشّكل الواضح هذه المرّة، عانى هوندا من مرارة الارتياب، ثمّ إنّه لم يستطع رؤية الشّامات الثّلاث الصّغيرة على جسم الأميرة الجميل الأسمر، حتّى في رابعة النّهار.

وبعد أن قرّر هوندا أن يحمل مع الدّيوان، على سبيل الهديّة، سارياً هنديّاً من نوع رائع، طلب من هيشيكاوا الاتّصال بقصر الورديّة. فتمّ إبلاغه بأنّ الأميرة ستستقبله في قاعة الملكات، في قصر

تشاكري الّذي ستفتحه خصّصياً له، لأنّه مغلق، منذ بعض الـوقت، بسبب غياب الملك.

غير أنّ الوصيفات وضعن شركاً صارماً، فخلال رحلته إلى الهنـد، راحت الأميرة تنتظر بقلق عودته إلى تـايلانـد، مصرّة على أنّها سـوف تصحبـه إلى اليابـان لدى عـودته. وقـد أعربت عن شكـواهـا من أنّ وصيفاتها لم يقمن بشيء استعداداً للرّحلة، فهدّأن من روعها بالتّظاهر بالقيام بالترتيبات. ومن هنا فـإنّهنّ يرغبن في ألّا يشـير هونـدا، خلال المقـابلة، إلى رحيله، وأهمّ من ذلك إلى مـوعد ذلـك الـرّحيـل، وأن يتظاهر بأنّه سيواصل البقاء في تايلاند.

- ١١ -

أطلّ اليوم التّالي الّذي كان مقرّراً أن يرحل هوندا فيه إلى اليابان، صافياً على نحو بديع. لكنّ الريح ركدت؛ فغدا الجو شديد الحرارة.

مرَّ هوندا وهيشيكاوا قرب مقرّ الحرس الملكي، في حوالي السّاعة التّاسعة، تلبية لموعد الاستقبال الّذي حدّدت السّاعة العاشرة موعداً له، وهما يعانيان أشدّ العناء بتأثير ربطة العنق والسّترة.

شيّد القصر الّذي صمّمه مهندس معماري إيطالي، في عام ١٨٨٢، في عهد الملك تشولا لونجكورن، وكان من حيث الطّراز مزيجاً رائعاً من الطّرازين الباروكي الجديد والسيامي.

تألّقت في معالم القصر واجهة مركبة، على نحو مذهل، توشك أن ترحل في رحاب الهلوسة، تنتصب في مواجهة السّماء الاستوائيّة الزّرقاء. وأيّاً كان مدى إيغال الطّراز في الطّابع الأوروبي فإنّ الواجهة المتألّقة والمزخرفة، على نحو مفرط، كانت لها تلك السّمة المتوهّجة والخانقة الّتي تميّز فنّ العمارة الاستوائيّ الآسيويّ. وكانت فيلة برونزيّة تحمي قاعدة الدّرج المرمريّ المتصاعد في رشاقة، إلى اليمين واليسار. وكان المدخل الرئيسيّ على غرار البانثيون في روما. وضمّ المثلّث الهائل الذي يعلو الأقواس صورة ملوّنة للملك تشولا لونجكورن. وحتّى في ذلك الموضع كان الطّراز أوروبيّاً باروكيّاً جديداً على نحو خالص، تميّزه النّقوش البارزة، المرمريّة، والذّهبيّة. ولكن فيما نظرة المرء تتصاعد إلى الطّابق الّذي يعلو ذلك، فإنّه يرى جناحاً على الطّراز

السيامي شامخاً في قلب بهو مُعَمَّد يتألّف من أعمدة مرمريّة، ورديّة، كورنثيّة الطّراز. وكان السّقف يشبه رقعة الشّطرنج، ولونه يراوح بين الأحمر الدّاكن والذّهبيّ، على أرضيّة بيضاء، والبناء كلّه يبرز على نحو مؤثّر وكأنّه برج سفينة، وقد حمل شعار عائلة تشاكري المالكة، وهو الشّمعدان الزّيني. وشمخت الطّوابق العلويّة، حتّى قمّة البرج الذّهبيّ، في شكل أهرام من السّقوف المتشابكة والمتداخلة ذات الطّابع السيامي الأصيل، باللّونين الأحمر والذّهبيّ، وأحجار القرميد المزخرفة عند الحواف تشير إلى السّماء الزّرقاء، وكأنّها الأكتاف الّتي ترفعها الرّاقصات عالياً. ولاح أنّ الجوهر الحقيقيّ الكامن وراء قصر تشاكري هو سحق القاعدة المكينة، الباردة على نحو عقلانيّ والأوروبيّة الطّراز تحت وطأة الأحلام الملكيّة الاستوائيّة ـ المركّبة على نحو متزايد، والملوّنة دونما داعٍ.. وهي تبعث على الجنون. وبدا الأمر كما لو أنّ كابوساً مستدقّ الطّرف، له مخالب حادّة، وأجنحة ذهبيّة وحمراء متألّقة، قد جثم فوق جذع ملك متشامخ، بارد، أبيض.

توقّف هيشيكاوا، ومسح العرق عن وجهه المرفوع عالياً، وقال:

ـ أيفترض أن يكون هذا جميلاً؟

ـ سواء أكان جميلاً أم لم يكن، فما الّذي يعنينا منه؟ لقد دعينا لرؤية الأميرة فحسب.

أخاف جفاف هوندا غير المتوقّع، في التّو، هيشيكاوا الّذي تطلّع إليه وقد ارتسم الخوف في عينيه. ولم يفه بالمزيد. وأحسّ هوندا بالأسف لأنّه لم يستخدم هذه الوسيلة الفعّالة منذ بداية زيارته لبانكوك.

همس ضابط الحرس الّذي كان بمثابة دليل لهما، مفضياً بأنّه كان من قبيل العناء البالغ، بالنّسبة لهم، أن يفتحوا القصر المغلق منذ

زمن طويل، لا لشيء إلاّ للترفيه عن الأميرة، المتقلّبة المزاج. واستجابة لغمزة من هيشيكاوا سارع هوندا إلى دسّ مبلغ مناسب في جيب الضّابط.

ما إن فتحت الأبواب الهائلة حتّى تبدّت للعيان قاعة معتمة، اصطفّت على أرضها الفسيفسائيّة المرقّشة ذات الأسود والأبيض والرّماديّ، قرابة عشرين مقعداً أبدعت على نمط الروكوكو وجعلت حوافها من خشب الماهوجني. وحملت وصيفة مألوفة المظهر عن الضّابط مسؤوليّة إرشادهما، ومضت بهما إلى باب كبير يقع إلى اليمين وقد امتدّت وراءه قاعة من قاعات القصر حسنة الإضاءة، مرتفعة السّقف على طراز أوروبيّ محض، وقد تدلّت منه الثريّات، وامتدّت فيها موائد من المرمر الإيطاليّ مزخرفة بنقوش زهريّة، ووضعت حولها مقاعد من طراز لويس الخامس عشر، تجمع بين اللّونين الأحمر والذهبيّ.

علّقت على الجدران لوحات بالحجم الطّبيعيّ، لزوجات الملك تشولالونجكورن الأربع وللملكة الأمّ. وأوضح هيشيكاوا أنّ ثلاثاً من الزّوجات كنّ شقيقات. وقد رسمت اللّوحات جميعها بالأسلوب الفيكتوري، بريشة مصوّرٍ غربيّ، وكشفت وجوههنّ عن تكامل الفنّان، وشجاعته الرّهيبة، وأكاذيبه المجرّدة من الحياء، وختله، وإخلاصه، وتملّقه ـ كلّ ذلك تعايش مثلما تتعايش الأمواج والرّمال، عند حافّة الماء، في هامش الواقعيّة. وعادلت الرّشاقة شبه الكئيبة الّتي تليق بعائلة مالكة، النزعةَ الشّهوانيّة الجاثمة الّتي توحي بها بشرة موضوعات اللّوحات الدّاكنة، وضبّب الإحساس الاستوائيّ بالملابس والخلفيّة، دونما قصد، الصّورة السّطحيّة الّتي تبدو واقعيّة، وكساها بطابع خيالي.

كانت الملكة الأمّ، ثيب سيرين، امرأة أرستقراطيّة اكتسبت الحكمة، ووشّي محياها بالكبرياء الوحشيّة القائمة على نحو يفوق الأخريات. وسار هوندا على مهل، وهو يفحص بدقّة كلّ لوحة يمرّ بها، وعلم من هيشيكاوا أنّ الزّوجة الأولى، الملكة بريفافيم هي صغرى الشّقيقات الثّلاث. وبعدها جاءت الملكة سوينج واتانا، ثمّ الأخت الكبرى، الملكة سونانثا. وبدا أنّه من المسلّم به لدى الجميع أنّ الأخت الكبرى هي أكثرهنّ جمالاً.

علّقت صورة الملكة سونانثا في أحد أركان القاعة، وقد بدت شبه محتجبة وسط الظّلال. وبدت فيها واقفة إلى جوار نافذة، وقد ارتاحت إحدى يديها على مائدة، وفي الخارج كان بوسع المرء أن يرى السّماء الزّرقاء الغائمة، وقد امتلأت بسحب السماء، فيما ناءت أغصان البرتقال بالثمار.

على المائدة وضعت مزهريّة على شكل برعم وردة، مجزّعة السّطح، تضمّ زهرة لوتس صغيرة، وإلى جوارها إبريق من الذّهب وكؤوس للشّراب. وبدت قدما الملكة الجميلتان الحافيتان تحت طرف ردائها الذّهبي. ومن إحدى كتفيْ سترتها الورديّة تدلّى شريط زيني ممتدّ، والتمع وسام كبير على صدرها، وأمسكت بمروحة من العاج. وعكست شرابة المروحة والسجّادة معاً وهج المساء القرمزيّ.

أذهل محياها الصّغير، البالغ الجاذبيّة، هوندا. ومن بين اللّوحات الخمس حمل هذا المحيا، على نحو ما، شبهاً ملحوظاً بمحيا الأميرة سنى البدر، فقد كانت هناك الشفتان النّاضجتان المكتنزتان عينهما، والعينان اللّتان تحملان شيئاً من القسوة، والشّعر القصير. وتلاشى الشّبه بعد أن حدّق في اللّوحة لبعض الوقت. ولكن بعد برهة زحف

هذا الانطباع، وكأنّه الغسق، عائداً من ركن من أركان القاعة، فاقتنع من جديد بالشّبه ـ الأصابع الصّغيرة السّمراء السّريعة الحركة الّتي تمسك بالمروحة، اليد المقوّسة الّتي ترتاح على المائدة، وأخيراً العينان والشفتان الّتي كانت طبق الأصل لنظيرتها في محيا الأميرة. ولكن فيما يغدو الشّبه أوضح ما يكون، فإنّه، مثل السّاعة الرّمليّة، يشرع في الانزلاق مبتعداً، على نحو لا سبيل إلى مقاومته.

في تلك اللّحظة فتح باب داخلي، ولاحت الوصيفات العجائز الثّلاث وقد اصطحبن الأميرة. توقّف هوندا وهيشيكاوا في موضعهما وانحنيا انحناءة عميقة.

بدا أنّ ذلك الأصيل في قصر بانج با إن قد أذاب جليد أفئدة الوصيفات، إذ لم تستوقف إحداهنّ الأميرة وهي تنطلق مسرعة نحو هوندا، وقد ندت عنها صيحة فرح عارم. ومثل حمامة تلتقط حبّات متناثرة انهمك هيشيكاوا في ترجمة الدّفق المنهمر من الكلمات الّتي انسابت على لسانها:

ـ كانت رحلة طويلة... وكنت وحيدة. لماذا لم تكتب لي كثيراً؟ أيّهما بها عدد أكبر من الفيلة... تايلاند أم الهند؟ لست أريد الذّهاب إلى الهند، بل أريد العودة إلى اليابان.

ثمّ التقطت الأميرة يد هوندا ومضت به إلى ركن أمام لوحة الملكة سونانثا.

قالت، متباهيّة:

ـ هذه هي جدّتي.

تطوّعت الوصيفة الأولى بالإيضاح، قائلة:

ـ لقد وجّهت سموّ الأميرة الجليلة الدّعوة إلى السيّد هوندا لزيارة

قصر تشاكري لأنّها أرادت خصّصياً أن تريه هذه اللّوحة الجميلة.

ـ إنّني لم أرث من الملكة سونانثا إلاّ جسمي، وأمّا فؤادي فقد أقبل من اليابان، ولذا فإنّ عليَّ حقّاً أن أترك جسمي هنا، وفؤادي وحده ينبغي أن يعود إلى اليابان. ولكن يتعينّ عليَّ للقيام بذلك أن أموت. ولذا فإنّني سأضطّر إلى أن أصحب جسمي معي، مثل طفلة تصحب دميتها المفضّلة. أتفهم ما أعنيه يا سيّد هوندا؟ فذاتي الجميلة الّتي تراها ليست حقّاً إلاّ الدمية الّتي أحملها معي.

ونظراً للطّريقة الصّبيانيّة الّتي تحدّثت بها، فلابدّ أنّها قد تحدّثت على نحو يقلّ في تعقيده عمّا ترجمه هيشيكاوا، ولكن فيما كانت تتحدّث أثّر صفاء عينيها الجادّتين في فؤاد هوندا، حتّى قبل أن يفهم ما تقوله.

ـ هناك دمية أخرى.

قالتها الأميرة دون أن تكترث، كالمعتاد، بما يعتقده الكبار، وتركت جانب هوندا، وتحرّكت مسرعة إلى وسط القاعة، حيث اتّخذ ضوء الشّمس شكل نوافذ تغطّيها أعمدة متصالبة. وتابعت بناظريها في وقار امتداد المعترشات الزّاحفة، ثمَّ الزّهور بشكلها الزّخرفيّ الزّهريّ المعقّد، وكانت هناك انقطاعات في الزّخرفة، على المائدة الّتي كان صدرها يكاد يصل إليها، وواصلت حديثها وكأنّها تردّد أنشودة:

ـ هناك دمية أخرى، تبدو مثلي تماماً، في لوزان. ولكنّها أختي الكبرى، وهي ليست دمية حقّاً، فجسمها تايلاندي، وكذلك فؤادها. إنّها مختلفة عنّي، فأنا يابانيّة في الحقيقة.

تلقّت السّاري وديوان الشّعر بابتهاج، ولكنّها اكتفت بتصفّح صفحات قلائل من الدّيوان، دون أن تواصل النّظر فيه، وأوضحت

إحدى الوصيفات، على نحو يشي بالاعتذار، أنّ الأميرة لا تستطيع بعد القراءة باللّغة الإنجليزيّة. وهكذا فإنّ اختيار هوندا لم يحقّق الهدف منه.

وبناء على إلحاف الأميرة فقد تحدّث هوندا لبعض الوقت عن رحلته إلى الهند، وسط الطّابع الرسميّ المتصلّب الّذي تتّخذه القاعة. ولاحظ الدّموع والحزن في عيني الأميرة وهي تصغي إليه منتشية، وشعر بتأنيب الضّمير حيال فكرة إخفاء نبأ قرب رحيله عنها.

أخذ يتساءل عن الوقت الّذي سيتمكّن فيه من رؤية الأميرة مرّة أخرى. فمن المؤكّد أنّها ستنضج لتغدو امرأة بالغة الجمال، ولكن قد لا تتاح له فرصة رؤيتها أبداً. وربّما كانت تلك هي فرصته الأخيرة. وقد يختفي سريعاً من ذاكرتها لغز التّناسخ وكأنّه ظلّ فراشة تعبر بستاناً استوائيّاً غمره الأصيل. ربّما كانت روح إيساو الّتي أترعت بالأسى والنّدم، من جرّاء خوض غمار الموت، دونما كلمة وداع لهوندا، قد استعادت شفتي الأميرة الصّغيرة المجنونة، لتقدّم اعتذاراً ودفاعاً عن نفسها. وكان من الأيسر على هوندا أن يغادر بانكوك معتقداً هذا.

ازدادت عينا الأميرة تدريجيّاً تندياً بالدّمع، فيما كانت تصغي للقصص الّتي شرع هوندا يرويها. ولابدّ أنّ هاجساً ينذر برحيله قد ساورها. وكان قد تخيّر بعناية طرائف مسليّة تناسب الأطفال ليحكيها لها، ولكنّ الحزن، في عينيها، مضى يزداد غوراً.

كان هوندا ينطق في كلّ مرّة جملة فيترجمها هيشيكاوا، مضيفاً إليها إشارات بيديه. وفجأة اتّسعت عينا الأميرة دهشة، ورمقت

الوصيفات بغضب هوندا الّذي لم يخطر بباله ما كان يجري.

فجأة، أطلقت الأميرة صرخة صاكّة، وتشبّثت بهوندا، فنهضت الوصيفات، وحاولن انتزاعها بعيداً عنه، ولكنّ الطّفلة ألصقت وجنتها بساقيه وانخرطت في البكاء بصوت عالٍ.

لقد تكرّرت دراما الزّيارة السّابقة. وأخيراً، أفلحت الوصيفات في إبعاد أحدهما عن الآخر، وأشرن لهوندا بمغادرة القاعة. وفيما هيشيكاوا يفسّر هذه الإشارة لهوندا، أوشكت الأميرة الباكية على التشبّث به من جديد، فانطلق مسرعاً وسط الموائد والمقاعد، والصبيّة تجدّ في أثره، والوصيفات يتعثّرن وراءها وهنّ يطاردنها من ثلاث جهات. وتهاوت المقاعد من طراز لويس الخامس عشر مرتطمة بالأرض، وتحوّلت قاعة القصر إلى ما يشبه ساحة للعب الغميضة.

وبعد لأيٍ حرّر هوندا نفسه، واجتاز مسرعاً القاعة الأماميّة، وهبط الدّرج المرمريّ إلى المدخل الوسيط. وهنالك تردّد في المغادرة النّهائيّة، وهو يصغي للصرخات الحادّة الّتي راحت الصبيّة تطلقها، فيتردّد صداها مرتدّاً عن سقف القصر العالي. قال هيشيكاوا مستحثّاً إيّاه:

- الوصيفات يُهبْنَ بنا أن نمضي مسرعينْ لسوف يعتنين بها بشكل من الأشكال. فهيّا بنا!.

اندفع هوندا مسرعاً عبر الحديقة الأماميّة الفسيحة وهو يتصبّب عرقاً.

قال هيشيكاوا لهوندا الّذي كان مايزال يلهث، عندما شرعت السيّارة في الانطلاق:

- إنّني آسف. لابدّ أنّ الأمر قد أدهشك.

ردّ هوندا، محاولاً التّخفيف عن نفسه، بتجفيف عرقه بمنديل أبيض كبير:

ـ لا، فهو يحدث في كلّ مرّة.

ـ لقد قلت للأميرة إنّك أردت العودة من الهند بالطّائرة، ولكنّك لم تستطع الحصول على مقعد في طائرة حربيّة.

ـ لقد قلت ذلك حقّاً.

وأوضح هيشيكاوا، في برودة، وقد بدا بجلاء أنّه لا يساوره شعور بالذّنب:

ـ لقد قمت بترجمة سيّئة في ذلك الموضع. فلم أفكّر في الأمر، وأبلغتها بالحقيقة. قلت لها إنّك عائد إلى اليابان، ولكن لّما كنت ستستقلّ طائرة حربيّة فإنّه لم يكن بوسعك الحصول على مقعد لها، وهكذا فليس بمقدورك أن تصحبها معك. وذلك هو السرّ في أنّها أحدثت تلك الضجّة. وتوسّلتْ إليك ألاّ تذهب، أو أن تصحبها معك. وبدت الوصيفات في أشدّ حالات الغضب لأنّك لم تفِ بوعدك. والخطأ كلّه يقع على كاهلي، ولست أعرف كيف أعتذر لك.

- ١٢ -

كان النّقل الجويّ المنتظم بين اليابان وتايلاند قد استُهِلّ منذ عامّ، أي ١٩٤٠، ولكن بعد أن بدأت اليابان بإرسال المراقبين إلى الهند الصينيّة للسيطرة على طرق الإمداد لشيانج كاي شيك، لم يعد أبناء الهند الصينيّة يقاومون، وافتتح خط جويّ جنوبي جديد، مروراً بسايجون، جنباً إلى جنب مع النمط القائم بالفعل، والممتدّ من تايبيه إلى بانكوك، مروراً بهانوي.

كان هذا الخط خطّاً مدنيّاً تديره شركة الخطوط الجويّة لليابان العظمى. ولكن شركة منتجات إتسوي اعتبرت استخدام الطّائرات الحربيّة عملاً أكثر حيطة، في نقل الزوّار المهمين. ولم تكن هذه الطّائرات توفّر أكثر الرّحلات بعثاً للشّعور بالرّاحة، ولكنّها كانت سريعة، وتستمدّ قوّتها من محرّكات ممتازة. وفضلاً عن ذلك فإنّ الطّائرة الحربيّة تُشْعِر أصدقاء المسافر الّذين قد يحضرون إلى المطار لاستقباله أو وداعه بأنّهم في جولة رسميّة، وتظهر في الوقت نفسه مدى تأثير شركة إتسوي ونفوذها في الدّوائر الحربيّة.

أحسّ هوندا بالأسف لمغادرته المناطق الاستوائيّة. وعندما تلاشت المعابد الذهبيّة، في محيطها الغابي النائي، شرعت إمكانيّة الوقوع على مؤشرات للتناسخ هناك تبدو وكأنّها حكاية شعبيّة، أو حلم. وبسبب صغر سنّ الأميرة الشّديدة فإنّ الأمر كلّه قد لا يتجاوز أنشودة أطفال، على الرّغم من البراهين العديدة الّتي توافرت له. فهو لم يعرف قصّة حياتها، ولا عنصر السّبب والنتيجة في البداية المفاجئة للأميرة، ولا كيف ستكون نهايتها، على نحو ما أتيح له أن يعرف في حالتيْ كيواكي

وإيساو. وقد شاهد أحداثاً في حياة الطّفلة الصّغيرة فحسب، وكأنّه يرقب الدفق الزهري الغريب في مهرجان يمرّ أمام عينيْ مسافر مترعتين بالفضول.

ما أغرب أن يكون حتّى اجتراح المعجزة قد اقتضى العادي والمألوف! وفيما كانت الطّائرة تقترب من اليابان، أدرك هوندا بارتياح أنّه عائد إلى الروتين اليوميّ المألوف، وأنّه قد أفلت من معجزة هوندا بنارس. لقد فقد، أخيراً، لا عمليّة الاستنباط المنطقي وحدها، بل فقد كذلك معياراً لمشاعره. لم يساوره شعور خاصّ بالأسى لتركه الأميرة، كما لم يحسّ بالضيّق، أو بأيّ انفعال آخر حيال الضبّاط الّذين انغمسوا على متن الطّائرة في نقاش محتدم عن الحرب المقبلة.

من الطبيعي أنّه أسعده أن يرى زوجته في المطار، وعلى نحو ما توقّع فقد أحسّ بأنّ هوندا الّذي غادر اليابان، وهوندا الّذي عاد إليها، قد اندمجا على الفور في إهاب الشّخص الّذي لم يعرف التغيّر سبيلاً إليه. وشكّل محيا زوجته النّاعس الأبيض المتورّم بعض الشيء عنصراً مساعداً في إحداث هذا الاندماج، واختفى الفاصل الزّمني بين مرحلتيه هاتين، وبدا أنّ الجرح الغائر المفتوح الّذي أحدثته رحلته الهنديّة قد اختفى، دون أن يخلف وراءه أثراً.

وقفت زوجته في مؤخّرة جمع الأصدقاء الّذين أقبلوا لاستقباله وقد أزالت الشّال الكابي في تدرّجه اللّوني عن كتفيها.

ـ مرحباً بعودتك.

انحنت له محيّية، دافعة تحت أنفه بخصلات شعرها المألوفة الّتي تعيد تصفيفها بنفسها بعد كلّ تموّج دائم تقوم بعمله في دار للتجميل لا ترتاح لأسلوبها في تمويج الشّعر. وفاح من شعرها ذلك العرف

الخاصّ الّذي يوحي باستخدام مادّة كيمياويّة بعينها.

ـ الأمّ بصحة جيّدة، ولكن اللّيالي أصبحت أشد بـرداً، ولم أرد أن تصاب بنوبة برد. وهي تنتظر، بصبر نافد، في الدّار.

أحسّ هوندا بدفق من الشّعور بالحنان والرّقة عندما تحدّثت رابي عن حماتها من غير أن يطلب منها ذلك، إلاّ أنّه لم تكن في صوتهـا لمسة توحي بالاضطرار إلى الحديث. ها هي الحياة قد عادت من جديد إلى ما ينبغي أن تكون عليه تماماً.

قال هوندا وهما في طريقهما إلى الدّار بالسيّارة:

ـ أريدك أن تمضي إلى متجر كبير بأسرع مـا يمكن، ربّما غـداً، وأن تبتاعي دمية.

ـ طيّب.

ـ لقد وعدت أميرة صغيرة قابلتها في تـايلانـد بأن أرسـل لها دميـة يابانيّة.

ـ دمية عاديّة لها قصّة شعر طفلة صغيرة؟

ـ أصبت. فلست أظنّ أنّي سـأرسـل دميـة كبـيرة. . . دميـة بهـذا الحجم.

قـالها هـوندا مـادّاً يديـه أمـام صـدره وبـطنـه، ليشـير إلى الحجم المطلوب. وكان للحظات قلائـل قد فكّـر في إرسال دميـة على شكـل صبيّ رمزاً لتناسخ روح فتى، ولكنّه حدَّث نفسه بأنّها ستبدو غـريبة، وقرّر العدول عن ذلك.

وقفت أمّـه لاستقبالـه في دهليز الـدّار، في هونجـو، وقد أحكمت لفّ كتفيها المحنيتين في كيمـونو حـريريّ مخـطّط. وكانت قـد صبغت شعرها الّـذي قصّته قصيـراً فغدا فـاحم السّواد، ومـرّ ذراعا نـظارتها

الذّهبيّة فوقه. . وحدَّث هوندا نفسه بأنّه سيقترح عليها، ذات مرّة، ألا تضع النظّارة على هذا النّحو، ولكن أيّاً كان الوقت الّذي يخطر بباله فيه أن يقترح عليها هذا فإنّه لا يبدو الوقت المناسب أبداً.

سار بصحبة أمّه وزوجته على الأرض الّتي كسيت بالحصر إلى الغرفة الدّاخليّة لداره الرّحبة المألوفة الّتي كانت الآن معتمة وباردة. وأدرك أنّ طريقته في السّير تشبه طريقة أبيه الرّاحل، حينما كان يعود إلى داره.

ـ أحسست بالارتياح كثيراً لتمكّنك من العودة قبل اندلاع الحرب، فقد كنت قلقة عليك.

قالتها أمّه الّتي كانت يوماً عضوة شديدة الحماس في العصبة الوطنيّة النسائيّة، وراحت تلهث وهي تمضي عبر الدّهليز الّذي اكتسحته لفحات رياح اللّيل الباردة. ولقد كانت العجوز تخشى الحرب.

بعد استراحة دامت يومين أو ثلاثة أيّام، استأنف هوندا رحلته إلى مكتبه في مبنى مارونوتشي، وبدأت أيّامه الحافلة، وإن غمرها السّلام. وسرعان ما أيقظ الشّتاء اليابانيّ ذهنه الّذي حاكى طائراً شتائيّاً موسميّاً ـ ومن الطّبيعي أنّه لم ير ذلك الطّائر، في جنوب شرقي آسيا ـ كركياً هاجر من جديد إلى الخليج المتجمّد لفؤاده، لدى عودته إلى اليابان.

في صبيحة الثّامن من كانون الأول (ديسمبر) أقبلت زوجته إلى غرفة النّوم لإيقاظه، وقالت في هدوء:

ـ آسفة لإيقاظك قبل الموعد المعتاد.

ـ ماذا هناك؟

ـ اندلعت الحرب بيننا وبين الولايات المتّحدة، وقد أعلن ذلك توّاً عبر المذياع. . .

قالتها رابي ونبرة الاعتذار لإيقاظه في مثل هذا الوقت المبكر لاتزال ترافق صوتها.

في ذلك الصباح، وبتأثير الانفعال حيال الأنباء الّتي أذيعت عن الهجوم على بيرل هاربور، لم يستطع أحد في المكتب العكوف على العمل. ودهش هوندا للضحك المتواصل، والخالي من الشّعور بالمسؤوليّة الصّادر عن الفتيات في المكتب، وأخذ يتساءل عمّا إذا لم تكن النّساء على علم بطريقة للتّعبير عن ابتهاجهنّ الوطنيّ غير القيام بذلك من خلال النّشوة الحسيّة.

حلّ موعد تناول طعام الغداء. وناقش العاملون بالمكتب إمكانية الذّهاب معاً إلى ميدان القصر الإمبراطوريّ. وبعد السّماح لهم بالانطلاق، أغلق هوندا المكتب، وانطلق وحيداً للقيام بجولة الأصيل، فقادته خطاه، من تلقاء ذاتها، نحو الميدان الواقع أمام القصر الإمبراطوري.

بدا أنّ الجميع في منطقة مارونوتشي قد خطرت لهم الفكرة ذاتها، فازدحمت الجادّة العريضة بالمارّة.

حدّث هوندا نفسه، متفكّهاً، بأنّه الآن في السّادسة والأربعين من العمر، ولم يبق شيء من الفتوّة أو القوّة أو العاطفة الخالصة سواء في كيانه البدنيّ أو الروحيّ، ولربّما تعيّن عليه، في غضون عقد من الزّمان، أن يستعدّ لمواجهة الموت، وربّما كان أكثر من محتمل ألاّ يلقى حتفه في الحرب. لم يكن قد تلقّى تدريباً عسكريّاً، وحتّى لو كان قد تلقّاه، فليس هناك مجال لخطر استدعائه إلى الميدان.

كان كلّ ما عليه هو أن يقبع في موضعه، ويصفق للأعمال الوطنيّة

التي يقوم بها الشباب. وهكذا فقد انطلقوا لقصف هاواي! كان عملاً متألّقاً أبعدته سنّه عنه تماماً.

ولكن هل الأمر متعلّق بالسّن وحدها؟ لا. فلم يكن مؤهّلاً أساساً لأيّ تحرّك بدنيّ.

شأن الآخرين جميعاً، عاش هوندا من خلال الاقتراب من الموت خطوة فأخرى، ولكنّه لم يكن يعرف أيّ سبيل آخر، ولم يسبق له قطّ أن انطلق عَدْواً. وذات مرّة حاول إنقاذ حياة رجل، ولكنّه لم يحدث قطّ أن كان في موقف تمسّ فيه الحاجة إلى جهود شخص آخر لإنقاذه. فقد كان يفتقر إلى الطّابع الّذي يجعل من الممكن إنقاذه. ولم يسبق له أن دفع الآخرين إلى الشّعور بأزمة وشيكة، بحيث يحسّون بأنّهم مجبرون على مدّ يدهم بالعون، ومضطرون إلى محاولة إنقاذ ذلك الشيء المحدّد، المجيد، الّذي يتربّص به الخطر.

لسوف يكون من قبيل المبالغة القول بأنّه شعر بالغيرة من الانفعال الّذي ثار حول الهجوم على بيرل هاربور. فقد أصبح أسيراً للاقتناع الأنانيّ، والكئيب، بأنّ حياته ستنتهي من الآن فصاعداً على نحو قاطع، ولن يقدّر له قطّ أن يحقّق العظمة. ولكن هل رغب في ذلك حقّاً في غمار حياته؟

ومن ناحية أخرى، فإنّ كلّ الأعمال المتألّقة والبطوليّة تلاشت أمام هلوسة بنارس. ترى هل يرجع ذلك إلى أنّ لغز التّناسخ قد طغى على ذهنه، وسلبه شجاعته، وجعله يدرك عبث كلّ الأعمال الجسورة، وعلمه في النّهاية أن يسخّر معرفته بالفلسفة من أجل حبّ الذّات؟ وشأن رجل يسير عند حواف وهج المفرقعات النّاريّة، أحسّ

هـوندا بـأنّ ذهنه ينكمش في عنف من مـرأى مثل هـذه الاندلاعـات الجماعيّة المفاجئة المحتدمة.

كـان يمكن رؤية الأعـلام الصّغيرة من بعيـد والأيـدي تلوّح بهـا، وسـماع صيحـات «يحيـا الإمـبراطـور» وهي تـدوّي أمـام القصر الإمبراطوريّ. فاحتفظ هوندا في الميدان المرصوف بالحصباء بمسافة لا بـأس بهـا، تفصله عن المتـظاهـرين. ولاحظ عن بعـد لـون العشب الذّاوي الّذي يكسـو ضفّتي الخندق المحيط بـالقصر، واللّون الشّتائي الجهم الّذي كسا أشجار الصّنوبر. ومرّت به فتاتان ترتـديان سـترات العمـل في المكاتب الـزّرقـاء اللّون وكـانتـا ضـاحكتـين وقـد أمسكت إحـداهما بيـد الأخرى، وانـطلقتا مسرعتـين نحـو الجسر الممتـدّ عنـد مدخل القصر، وقد التمعت أسنانهما البيضاء وتألّقت رطبـة باللّعـاب تحت أشعّـة الشّمس. أحدثت الشّفـاه الشّتائيّـة الجميلة المقوّسـة الّتي ندت عنها ضحكات الفتاتين شقّاً مؤقّتاً جذّاباً دافئاً في الهواء الصّافي، وهمـا تمرّان قـرب هونـدا. ولابدّ أنّ الأبـطال في الـطّائـرات القـاذفـة يحلمون أحياناً بمثل هذه الشّفاه، على وجه الدقّة. فالشّباب دومـاً على هذا الحال، يسعـون إلى الأكثر صـلابة، ومـع ذلك يجتـذبهم الأعظم رقّة. ترى أيمكن أن يكون الموت هو الأعظم رقّة الّذي يسعـون إليه؟ لقد كان هوندا نفسـه ذات يوم شـابّاً واعـداً، ولكنّه لم يكن بـالشّاب الّذي يجتذبه الموت.

تحوّل الفراغ المـرصوف بـالحصى، والممتدّ تحت شمس الشّتـاء، في عيني هـوندا إلى ميـدان رحب قاحـل، وعادت متـوهّجة إلى ذاكـرتـه اللّقطة الّتي تضمّها الصورة الحاملة عنوان «في جوار معبـد توكـوري: صلاة على أرواح ضحايا الحرب»، وكان كيواكي قد أطلعه عليها قبل ثلاثين عاماً، وأخذت الآن تطغى بقوّة فائقة على المشهد الممتدّ أمامه،

واحتلّت في النّهاية وعيه بأسره. لقد كانت تلك نهاية حرب، وها هي ذي بداية حرب أخرى. وعلى أيّة حال فقد كان ذلك وهماً حافلاً بالنذر.

تحدّرت الجبال هوناً، وقد لفّها الغمام، لتسمق على مراحل متتابعة إلى يسار الصورة، بعيداً عن السّهل الرحب الذي وقف فيه الجنود. وأمّا إلى اليمين فقد شمخت، في البعيد، ترقشها أجمات الأشجار، لتتوارى في الغبار الأصفر الّذي خيّم على الأفق. وهنا امتدّت بدلاً من الجبال مجموعات من الأشجار تزايد طولها مع انتقال العين يميناً، وأطلّت سماء مصفرّة عبر الفواصل القائمة بينها.

تلك كانت خلفيّة الصّورة. وأمّا في القلب فقد انتصب جليّ التّفاصيل النّصب الخشبيّ غير المطلي، والمذبح الّذي علته الأزهار وتموّجت في الرّيح أطراف القماش الأبيض الّذي يكسوه، وأحاط به ألوف الجنود وقد نكسوا الرؤوس.

رأى هوندا الصّورة بوضوح بالغ. ومن جديد عادت إلى وعيه الأصوات الصّارخة «يحيا الإمبراطور» والأعلام المتموّجة. وتركت الرؤية في فؤاده حزناً يستعصي على الوصف.

- ١٣ -

خلال الحرب، كرَّس هوندا وقت فراغه بكامله لدراسة السّمسارة والتناسخ، واستشعر متعة في البحث الـدّائب عن الكتب العتيقة الّتي تعـالج هـذين الموضـوعين. ومـع اطّراد التـدهور التـدريجيّ في جودة الإصدارات الجديدة، زادت الرّفاهية المضمّخـة بالغبـار، الّتي ينبعث الشّعـور بهـا في متـاجـر الكتب المستعملة، خـلال الحـرب. فهنـاك فحسب تتوافر عن طواعيّة المعـرفة وممـارسة هـواية تتجـاوز العصور. وبالمقارنة بالزّيادة في تكلفة كلّ شيء فإنّ ثمن كلّ من الكتب اليابانيّـة والغربيّة ظلّ منخفضاً.

حصل هوندا على معلومات غزيـرة من هذه المجلّدات الّتي حفلت بنظريات غربيّة عن دورات الحياة وإعادة البعث.

وقـد نسبت إحدى هـذه النظريّـات إلى فيثـاغـورس، الفيلسـوف الأيوني المنتمي للقرن الخامس قبل الميـلاد. ولكن أفكاره عن دورات الحياة قد تأثّرت بالأسرار الأورفيّة الّتي اجتاحت بلاد الإغريق بأسرها في القرنين السّابع والسّادس قبل الميلاد. وقد تطوّرت الدّيانة الأورفيّة بدورها من عبادة ديونيزوس الّتي أشعلت نيران الجنـون، على امتـداد القرنين اللّذين سبقا ذلك، وحفـلا بالحـروب والاضطرابـات. وتشير الحقيقـة القائلة بـأنّ الإله زيـوس قد جـاء من آسيا، وانـدمج بـالأمّ الأرض وطقوس الزراعة، على امتـداد بلاد الإغـريق، إلى أنّ الاثنين قـد استمـدّا من مصـدر واحـد حقّـاً. ومـازال شخص الأمّ الأرض المتوهّج بالنّشاط يحيا في إهاب كاليجاتي الّتي رآها هونـدا في كلكوتـا. وأمّـا ديونيـزوس فقد جسَّـد دورة حياة الـطّبيعـة الّتي تجلّت في أرض

تراقيا الشّماليّة. لقد وصل مع بداية الشتاء، ومات في ذروته، وبعث مع الرّبيع. وأيّاً كان الشّخص المتدّفق حياة وشهوة، الّذي قد يتزيا ديونيزوس في إهابه، فإنّه يظلّ تجسيداً لأرواحِ الغلال الشّابة الّتي لا يعدو أدونيس أن يكون واحداً منها، شباب يتسمون بالجمال، ويلقون حتفهم قبل الأوان. وكما أنّ أدونيس قد اتّحد، على نحو لا سبيل إلى الشّك فيه، بأفروديت، فإنّ ديونيزوس قد اتّحد على النّحو ذاته بالأمّ الأرض، في طقوس صوفيّة تؤدّى في كثير من البلاد. وفي دلفي قدِّس ديونيزوس مع الأمّ الأرض، وما الإله الرئيسيّ في عبادة ليرنا الصّوفيّة إلّا السّلف المقدّس لكلّ منهما.

لقد جاء ديونيزوس من آسيا. وتضرب عبادته الّتي جلبت معها السُعُر، والانغماس في الملذّات الحسيّة، وأكل لحوم البشر، والقتل العمد، جذورها في آسيا، وقد طرحت مشكلة بالغة الأهمّيّة، هي مشكلة الرّوح. ولم يسمح اشتداد تدفّقات هذه الدّيانة بشفافيّة العقل ولا بالشّكل المتماسك والجميل لأيّ من الإنسان أو الله، فقد كانت ديانة تهاجم خصب الحقول الإغريقيّة في الجمال الأبولونيّ لتلك الحقول، وكأنّها سرب من الجراد تظلم من جرّائه السّماء، وتحتجب الشّمس، ويبيد الحقول ويلتهم محاصيلها. ولم يستطع هوندا إلّا أن يقارن ذلك بالتّجربة الّتي خاض غمارها في الهند.

كلّ ما هو مقيت ـ الفسوق، الموت، الجنون، الوباء... كيف تأتى أن تغوي كلّ هذه الأشياء فؤاد الإنسان وأن تستدرج الرّوح إلى الخارج؟ ولمَ يتعينّ على الرّوح أن «توجد» متخلّية عن مستقرّاتها السّهلة، المعتمة، الهادئة؟ ولمَ يأبى الفؤاد الإنسانيّ أن يقع في رحاب السّكون الهادئ؟

ذلك هو ما وقع في التّاريخ وللأفراد. ولئن لم يتحرّك البشر على

هذا النّحو، فذلك مردّه إلى أنّهم قد شعروا يقيناً بأنّه ليس بمقدورهم المساس بكمال الكون. . ومخمورين، شعثاً، ممزِّقين ثيابهم، كاشفين عن عوراتهم، والدّم يشخب من اللّحم النيء في أفواههم، لابدّ أنّ البشر قد شعروا بأنّهم بمثل هذه الأعمال يمكنهم أن يخدشوا سطح ذلك الكمال.

كانت تلك حقّاً هي التّجربة الرّوحيّة للحماسة الدّينيّة، أي كون المرء عامر النّفس بالله، والخروج من النّفس، وهي التّجربة الّتي قام الأورفيون بالارتقاء بها، وإضفاء الطّابع الطّقوسي عليها.

وشكّلت تجربة الخروج من النّفس ما حوَّل الفكر الإغريقيّ إلى مفهوم السمسارة والبعث. وكانت «النّشوة» هي أعمق مصدر نفسيّ للبعث.

تقول الميثولوجيا الأورفيّة إنّ ديونيزوس قد أطلق عليه اسم ديونيزوس زاجريوس، وكان زاجريوس هو ابن زيوس وبرسفونيه، ابنة الأمّ الأرض، وكان الابن الأثير لدى أبيه، وكان من المقرّر أن يكون خلفاً له، وحاكماً للكون، في المستقبل. ويقال إنّه عندما وقع زيوس، أي السّماء، في هوى برسفونيه، أي الأرض، حوَّل نفسه إلى ثعبان هائل، دالاًّ بذلك على جوهر الأرض، لكي يبادلها الحبّ.

وقد أثار حبّه لتلك الفتاة سخيمة زوجته هيرا. فاستدعت التيتان القابعين تحت الأرض، وقام هؤلاء بإغواء الوليد، زاجريوس، مستخدمين لعبة لتحقيق هذا الغرض. وما إن تمَّ أسره حتّى قتل، ومزّق إلى أشلاء، وطهي، والتهم التهاماً، وقدّمت هيرا القلب وحده لزيوس. وبدوره أعطى زيوس القلب لسيملي، وولد ديونيزوس جديد.

وفي غضون ذلك استشاط زيوس غضباً من فعلة التيتان، فهاجمهم بـالرّعـد والبرق، وعنـدما حـاق الدّمـار بهم تماماً، ولد الإنسـان من رمادهم.

وهكـذا فقد أُعـطي البشر الـطّابـع الشّريـر الّـذي كـان للتيتـان، وامتلكوا في الوقت نفسه العناصر الجديرة بالإلّه، وقـد نقلت عبر لحم زاجريوس الّذي التهمه التيتان. وبناء على هذا فـإنّ الأورفيين ذهبـوا إلى أنّ الإنسان ينبغي أن يعيد ديونيزوس، بالخروج من ذاته، وإعادة تكـريس أصله القدسي، عن طـريق عبـادة ذاتـه. ويتـواصـل طقس الوليمة المقدّسة في الطّقس المسيحي الخاصّ بالقربان المقدّس.

ويبـدو أنّ الموسيقي أورفيـوس الّذي قتلتـه نساء تـراقيا، ومـزقنـه أشلاء، قد أعاد تجسيد موت ديونيزوس. وأصبح موته وبعثـه وأسرار هاديس مبادئ أورفيّة مهمّة.

وبما أنّ الأرواح الهائمـة الّتي غادرت أجسـامها عن طـريق الخروج من النّفس، كـان من المعتقد أنّها قـادرة على القيـام بالاتّصـال لـوقت قصير بأسرار ديونيزوس، فقد كان البشر يدركون بـوضوح الانفصـال بـين الجسم والـرّوح. فلقـد تشكّـل لحمهم من رمـاد التيتـان المـترع بالشرّ، وعانقت روحهم عطر ديونيـزوس الخالص. وفضـلاً عن ذلك فإنّ المذهب الأورفيّ علّم أنّ المعاناة الأرضيّة لا تنتهي بالموت الحسيّ. فالرّوح الّتي تبـارح جسمها تجـد نفسها مضـطرة، بعد ذلـك، لقضاء بعض الـوقت في هاديس، قبـل أن تعود إلى الـظّهـور عـلى الأرض، وتتناسخ في جسم إنسان آخر، أو حيوان. وهكذا كـان مقدّراً عليهـا أن تنطلق في «دوائر الحياة» الّتي لا نهاية لها.

والرّوح الخالدة، وهي أصلاً قـدسيّة، يتعـينّ عليها أن تمضي عـبر هذا الدّرب المظلم؛ بسبب خطيئة الجسم الأصليّة، أيّ قتـل التيتان

لزاجريوس. وحياة الإنسان على الأرض تضيف المزيد من الخطايا، وهي تجدّد نفسها. وهكذا فإنّ البشر عاجزون دوماً عن الإفلات من المعاناة، في غمار دورة حياتهم. والإنسان لا يبعث، بالضرورة، في هيئة بشريّة، وإنّما بحسب جسامة خطاياه، فقد يبعث في صورة حصان، أو خروف، أو طائر، أو كلب، أو حيّة قدرها أن تزحف في التّراب.

وقد تمسّك الفيثاغورسيون الّذين وصفوا بأنّهم خلفاء الأروفيين، وعزي إليهم القيام بتطوير النظريّات الأورفيّة، بالمبادئ الفريدة الخاصّة بالبعث السّمساري والنَّفَس الكوني.

واستطاع هوندا أن يرصد أثراً للمبدأ الأخير في مفهوم الملك ميليندا عن الحياة والرّوح، وكان قد تأمّل طويلاً في الفسلفة الهنديّة. كما حمل شبهاً بالنّزعة الصّوفيّة للشنتويّة القديمة.

ولدى مقارنتها بالمرح الّذي يوحي بأجواء الحكايات الشعبيّة وتتضمّنه مجموعة «الجاتاكا»، وهي مجموعة حكايات مستمدّة من الحيوات المختلفة الّتي عاشها بوذا، في صميم البوذيّة الثيرافاديّة، فإنّ نظريّة البعث الغربيّة الّتي اتّشحت بسواد الكآبة الأيونيّة، أصابت هوندا بالكآبة، على الرّغم من الحقيقة القائلة بأنّهما جاءا من مصدر واحد. ومن هنا فإنّه مال إلى أن يعير أذناً صاغية لهرقليطس الّذي ذهب إلى القول بأنّ كلّ الأشياء تواصل التغيّر[١].

(١) أليس طريفاً حقّاً أن يشير ميشيما الّذي كان مولعاً بالفكر والأدب الإغريقيين، إلى أنّ هوندا، في غمرة اهتمامه بفهم التناسخ، أعار أذناً صاغية لهرقليطس، بينما يعلم كلّ من يهتمّون بالفلسفة اليونانيّة أنّ الشّذرة الحادية والثّمانين لهرقليطس نصّها الحرفي: «(عن فيثاغورس) كبير الغشّاشين». ويقول الشرّاح إنّ هيرقليطس اعتبر فيثاغورس كبيراً للغشّاشين، على وجه الدّقّة، لأنّه يقول بتناسخ الأرواح؟! (هـ. م.)

تمتزج الحماسة الدّينيّة والخروج من النّفس في فلسفة الوحدة الانتقاليّة الّتي تقول بأنّ الواحد هو الجميع، وأنّ الواحد مستمدّ من الجميع. وفي المساحة الّتي تتجاوز الزّمان والمكان تختفي الذّات، ويسهل تحقّق الوحدة مع الكون، ويستطيع الإنسان أن يصبح كلّ شيء من خلال هذه التجربة الإلّهيّة. فالإنسان والطّبيعة والطّير والحيوان والغابات الّتي تصدر أوراق أشجارها الحفيف تحت لمسات النّسيم والغدران الّتي تتألّق بقشور السّمك والجبال المتوّجة الهام بالسّحب والبحار الزّرقاء المرقّشة بالجزر ـ كلّها بوسعها أن تفصل ذواتها عن وجودها المرتبط بالأرض، وأن تتوحّد في تناغم. ولقد كان مثل هذا العالم هو الّذي تحدّث عنه هرقليطس.

الأحياء والموتى
الأيقاظ والنيام
الشّيوخ والشّباب هم جميعاً واحد
فعندما يتغيّر الأوّلون يصبحون الأخيرين
وحينما يتحوّل الأخيرون من جديد يصبحون الأوّلين.
الإله هو النّهار واللّيل
الإله هو الشّتاء والصّيف
الإله هو الحرب والسّلام
الإله هو الخصب والمجاعة
فهو يتحوّل إلى أشياء عديدة.
النّهار واللّيل واحد
الطّيبة والخبث واحد
والبداية والنّهاية واحدة في الدّائرة.

تمثّل هذه الشذرات سمو فكر هرقليطس، وعندما اطّلع هوندا

عليها خطف سناها بصره، وشعر بنوع من الانعتاق، ولكنّه لزم في الوقت نفسه الحذر، خوفاً من أن ينحّي بأسرع ممّا ينبغي الكفّين اللّتين غطّى بهما عينيه المبهورتين، وكان مردّ ذلك إلى أمر محدّد، هو خشيته من أن يصاب بالعمى. وثمّة أمر آخر، فقد شعر بأنّه مايزال أقلّ نضجاً في حساسيّته وأفكاره من أن يتقبّل مثل هذه الإضاءة الّتي لا تعرف الحدود.

- ١٤ -

لهذا السّبب أشاح هوندا بناظريه بعض الوقت، وركَّز على دارساته لنظريّات السّمسارة والتّناسخ الّتي جرى إحياؤها في إيطاليا، في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

لقد آمن توماسو كامبانيلا، وهو راهب عاش في القرنين السّادس عشر والسّابع عشر، بنظريّة عن دورة الحياة والتّناسخ. وقد لقي هذا الفيلسوف المهرطق المتمرِّد الترحيبَ من فرنسا، بعد أن قضى تسعة وعشرين عاماً في السّجن. وهناك عاش سعيداً ومكرّماً للغاية، خلال السّنوات الأخيرة من عمره. وعندما ولد لويس الرّابع عشر، أهدى إليه أطروحة، زعم فيها أنّ الميلاد الملكي برهان على صحّة نظريته عن التّناسخ.

تعلّم كامبانيلا النّظريّة البراهميّة الخاصّة بالسّمسارة والتّناسخ، من بوتيرو، وفي رحابها اكتشف أنّ الأرواح تتناسخ، حتّى في القردة، أو الفيلة، أو الغربان. ومستعيراً الاعتقاد الفيثاغورسي بخلود الرّوح والتّناسخ، عرّف سكّان عمله الرئيسيّ الموسوم «مدينة الرّوح» بأنّهم ينبغي أن يكونوا: «رجال حكماء قدموا من الهند أصلاً، ليتجنّبوا تخريب المغول وفظائعهم». ودعاهم «براهمة فيثاغورسيين»، غير أنّه ترك اعتقادهم بالسّمسارة ملتبساً. وذهب إلى القول بأنّه بعد الموت لا تمضي الرّوح الإنسانيّة إلى الجحيم أو المطهر أو النّعيم.

ويقال إنّ ديوانه الموسوم «سوناتات قوقازيّة» يشير على نحو غامض إلى السّمسارة، وقد أعرب في هذه القصائد عن مشاعر الأسف: «ليس بمقدوري الاعتقاد بأنّ من شأن موتي أن يجلب التحسّن

للبشريّة، وفي غالب الأحوال فإنّه حتّى إذا أمكن تجنّب البؤس، فإنّ الشرّ يزدهر على نحو يتجاوز ما كان عليه في السّابق. إنّ الحواس الإنسانيّة تواصل الحياة إلى الأبد، بعد الموت، ومثل هذه الحواس تنسى المعاناة الّتي خاضت غمارها أثناء الحياة في رحاب هذا العالم. وإذا كنّا لا نستطيع حتّى أن نعرف ما إذا كانت حيواتنا السّابقة قد أُمضيت في عذاب أو في سلام فكيف سنعرف أيّ شيء عمّا بعد الحياة؟»

وفي مفارقة مع الابتهاج العارم الّذي شاهده هوندا في بنارس، فإنّ الأوروبيّين الّذين كتبوا عن التناسخ، أثار شعورهم بالاكتئاب ما في هذه الحياة من ضرّاء وحزن. وفضلاً عن ذلك فإنّهم لم يسعوا إلى الفرحة، فيما بعد هذا العالم، وإنّما كان كلّ ما ينشدونه هو النسيان.

ومن ناحية أخرى فإنّ الفيلسوف المنتمي إلى القرن الثّامن عشر جيوفاني باتيستا ڤيكو، المعارض العنيد لديكارت، قد تحمّس للقول بالتّناسخ والعودة إلى الأبديّة، وجعلت منه شجاعته ونزعته الكفاحيّة في خوض غمار صراعه، سلفاً لنيتشه الّذي كان يؤمن بالآراء ذاتها. وقد قرأ هوندا بسرور فقرة من أعمال ڤيكو أشاد فيها باليابانيّين، باعتبارهم شعباً ذا نزعة بطوليّة، على الرّغم من أنّه لم تتوافر له إلاّ معرفة بعيدة عن الوضوح باليابان. «يرثي اليابانيّون البطل، على نحو ما كان الرّومان يفعلون في عهد الحروب البونيّة، وهم لا يعرفون الخوف في الأمور الحربيّة، ويتحدّثون لغة مشابهة للّغة اللاّتينيّة».

وقد فسّر ڤيكو التّاريخ من خلال مفهومه للعَوْد. وذهب باختصار إلى القول بأنّ كلّ حضارة تصل إلى مرحلتها النّهائيّة «بوحشيّة مقصودة» تعدّ أسوأ بكثير من «الوحشيّة الطّبيعيّة» الّتي كانت تتّصف بها في السّابق. وهذا النّوع الأخير من الوحشيّة يعني السّذاجة

النّبيلة. وأمّا النّوع الأوّل فيشير إلى خبث متّسم بالجبن، وإلى نزعة احتيال دفينة. وهكذا فإنّ «الوحشيّة المقصودة» أو «الوحشيّة المتحضّرة» ينبغي بالضّرورة أن تفنى، بعد قرون من التقدّم، وذلك من خلال تجدّد «الوحشيّة الطّبيعيّة».

وساور هوندا شعور بأنّ مثالاً على هذا يمكن العثور عليه في تاريخ اليابان الحديثة القصير.

لقد آمن ڤيكو بنظام الكون على نحو ما تطرحه الكاثوليكيّة، ومع ذلك فقد كان قريباً من نظريّة السّببيّة من خلال الكارما. وقال على نحو لاأدريّ: «إنّ الإلّه الخالق يشكّل مع المخلوق كيانين منفصلين. وسبب الوجود وجوهر الأشياء مفرد في كلّ كيان، ومن هنا فإنّ المخلوق هو كيان مختلف تماماً عن الألوهيّة، فيما يتعلّق بجوهره».

وإذا ما اعتقد المرء أنّ المخلوق ـ ذلك الّذي يبدو كياناً ـ هو دراما وذات كونيّة، وإذا ما اعتبر أنّ سبب وجود المخلوق هو الكارما، فإنّ الخلاص يغدو، إذن، تحقيق كيان الخالق في بُعْد آخر.

وذهب ڤيكو في لاهوته إلى القول بأنّ الخلق الربّاني قد تغيّر «داخليّاً» إلى المخلوق و«خارجيّاً» إلى المادّة. وهكذا خلق العالم في الموعد المناسب. وقال كذلك إنّ بمقدور الرّوح الإنسانيّة، باعتبارها انعكاساً للإلّه، إدراك مفهوم اللاّتناهي والأبد، وإنّها خالدة. إنّها لا تقتصر على الرّوح، وينبني على ذلك أنّها ليست محدودة ولا مقيّدة بالزّمان. ولكنّه لم يقدّم إجابة على السّؤال الّذي يدور حول السّبب في أنّ الكيان الّذي لا يعرف القيود ولا الحدود، تقيّده أشياء محدودة، وزعم أنّ هذا أمر لا سبيل إلى معرفته. ولكن تلك هي النقطة الّتي ينبغي أن تبدأ عندها حكمة نظريّة السّمسارة والتّناسخ.

ولـدى التأمّـل في الأمر فـإنّه من المـدهش أن لا تـرفض الفلسفـة الهنديّة، وهي تشـدّد بإصرار عـلى قوّة المعـرفة، الخيـالَ ولا الأحلام، وأن لا تتطوّر قطّ نزعتها اللاّأدريّة الخاصّة.

عندما اكتشف هوندا أنّ تراثاً غريباً عن البعث قد تناقله في وهن مفكّرون قلائل منعزلون، حدَّث نفسه متفكّهاً بأنّه كان من الطّبيعي تماماً أن يبدو الملك ميليندا الّذي حكم شمال غربي الهند، في القرن الثّاني قبل الميلاد، وقد نسي كليّة الفلسفة الفيثاغورسيّة المنتمية إلى بلاد الإغريق، عندما التقى بالحكيم ناجا سينا، وأمطره بالأسئلة. وقد كان عظيم الاهتمام، ومتشكّكاً في الوقت نفسه، في النظريّات البوذيّة، الأكثر عمقاً، والمتعلّقة بالسّمسارة وتناسخ الأوراح.

يستهّل الجزء الأوّل من كتاب «أسئلة الملك ميليندا»، على نحو ما يظهر في الترجمة اليابانيّة لمجموعة المبادئ البوذيّة، بالوصف التّالي لعاصمة ملك ذلك الحاكم:

«على هذا النّحو تناهى إليَّ ما سمعت: في أحد الأقاليم الّتي استوطنها الإغريق، كانت هناك مدينة يقال لها ساجارا، وهي مركز عظيم للاتجار والتّجارة الخارجيّة، وتتميّز بجبال أرجوانيّة ومياه صافية وحدائق وغابات وحقول، وتشكّل جنّة طبيعيّة على الأرض تسرّ النّاظرين، وأهلها مخلصون في تمسّكهم بالدّين. وفضلاً عن ذلك فإنَّ أعداءهم طردوا جميعاً بعيداً، فلا يساورهم أدنى شعور بالافتقار إلى الأمن، أو الوقوع تحت طائلة القهر. وقد أحيطت قلعة الملك بالتحصينات وبكثير من الأبراج والبوّابات الجانبيّة الهائلة الّتي يخلع مرآها القلوب، وبأسوار شهباء سامقة، وخنادق عميقة، وتكاملت الحراسة المتوافرة لها. وصمّمت ميادين المدينة وتقاطعات طرقها وأسواقها على النّحو الأكثر ملاءمة، وامتلأت المتاجر، المزيّنة على نحو جميل، بعروض تجارة ثمينة لا حصر لها. وتضفي عدّة مئات من

المستشفيات الّتي تعالج النّاس بلا مقابل جلالاً وعظمة على المدينة، بينما شمخت ألوف من الدّور والقصور السّامقة وكأنّها جبال الهيمالايا مطاولة للسّحب. وفي شوارع المدينة تتبدّى جموع النّاس، ويلوح الرّجال كأشجار الصنوبر والنّساء كالأزاهير، جنباً إلى جنب مع رجال دين ومحاربين ومزارعين وتجّار وأقنان، وأناس من كلّ الطّبقات، وينطلقون في جماعات.

ويكرم المواطنون وفادة الفقهاء والمعلّمين المنتمين إلى الأديان والمذاهب كافّة. وهكذا فإنّ ساجارا تبدو موئلاً للحكماء والدّراسين من كلّ الاتّجاهات. وكذلك في الشّوارع يقف بين متجر وآخر تجّار ملبوسات جاهزة، ذات مقاسات صغيرة وكبيرة، يتعاملون بأقمشة منسوجة في بنارس، يطلق عليها اسم «خوتمباري» وكلّ أنواع الملابس والمنسوجات الأخرى، وينوع عبير فوّاح من سوق الزّهر والبخّور فيطهّر هواء المدينة. وثمّة متاجر أخرى تتعامل باللآلئ وغيرها من الجواهر الّتي يغوص من أجلها الغوّاصون في البحر بالسّلع المصنوعة من الذّهب أو الفضّة أو النّحاس أو الحجر. ويبدو الأمر كما لو أنّ المرء قد خطا وسط منجم للجواهر، يخطف الأبصار، ثمّ إنّه عندما يتّجه المرء نحو منعطف آخر يجد متاجر رحبة للحبوب والأدوات المنزليّة تمتلئ ببضائع لا تقدّر بثمن، ويعثر على متاجر لجميع أنواع المأكولات والمشروبات والفطائر، فليس ثمّة ما ينقص المدينة. وباختصار فإنّ ساجارا تنافس أوتارا كورو في الثّراء، ويضاهي ازدهارها ازدهار أراكامندار، «مدينة السّماء».

وإذ كان الملك ميليندا شديد الثّقة بالنّفس، بارعاً في فنّ الخطابة، فقد ازدرى الهنود باعتبارهم من سقط المتاع الثّقافي. وقد التقى للمرّة

الأولى في هذه المدينة المجيدة الّتي تسلب اللّب بالحكيم ناجاسينا الّذي كان حكيماً يفوق الملك ذكاء وصفاء ذهن.

سأله الملكُ الحكيم قائلاً:

- أيّها الحكيم، عندما أدعوك ناجاسينا، فمن عسى تراه يكون ناجاسينا على وجه الدّقّة؟

ردّ الحكيم بسؤال:

- وماذا تظن أنّ ناجاسينا يمكن أن يكون؟

- أيّها الحكيم، أظنّ أنّ الحكيم هو ما يوجد داخل جسم، أنّه حياة أو روح تدخل ذلك الجسم كريح أو نَفَس.

ذكّرت إجابة الملك هوندا بنظريّة فيثاغورس الخاصّة بالنَفَس الكونيّ، أيّ أنّ كلّمة النَفْس في اللّغة اليونانيّة القديمة كان يراد بها «النَّفَس». وإذا كانت النَفْس الإنسانيّة نَفَساً، فإنّ الإنسان يستمدّ تماسكه من الهواء وهكذا فإنّ الكون بأسره يتماسك بفعل الهواء والنَفَس. وقد كانت تلك هي النظريّة الأيونيّة الخاصّة بالفلسفة الطبيعيّة.

سأل الحكيم الملك عن السرّ في أنّ نَفَس من ينفخ في محارة أو ناي أو قرن لا يعود بعد إخراجه قطّ، ومع ذلك فإنّ من يخرجه لا يموت. فعجز الملك عن الردّ، وعندئذٍ أدلى ناجاسينا بقول أشار إلى الفارق الأساسيّ بين الفلسفة اليونانيّة والفلسفة البوذيّة:

- إنّ الرّوح ليست نَفَساً. وهذا الأخير، إذ يستنشق أو يطرد، لا يعدو أن يكون طاقة الجسم الكامنة، أو القوّة.

شعر هوندا، على الفور، بأنّ بمقدوره التنبّؤ بالحوار الّذي سيعقب ذلك، وهذا الحوار يظهر بالفعل في الصّفحة التالية من ذلك الكتاب المشار إليه.

«سأل الملك الحكيم قائلاً:

ـ أيّها الحكيم هل يبعث أيّ أحد وكلّ أحد بعد الموت؟

ـ البعض يبعثون، والبعض لا يبعثون.

ـ أيّ نوع من النّاس عساهم يكونون؟

ـ أولئك الّذين ارتكبوا الخطايا سيبعثون، وأمّا من تجرّدوا من الخطايا، واتّسموا بالنّقاء، فلن يبعثوا.

ـ أتراك ستبعث أيّها الحكيم؟!

ـ لئن التصقت في فؤادي بالحياة، فسوف أبعث عندما أموت، ولئن لم يقدّر لي ذلك فلا مبعث لي.

ـ فهمت.

وانطلاقاً من هذه النّقطة اتّقدت رغبة متوهّجة في التعلّم في فؤاد الملك ميليندا. وراح يطرح بإلحاف سؤالاً بعد آخر، عن السّمسارة والتّناسخ، ولاحق الحكيم بالانقضاض التحقيقيّ الرأسي المتضمّن في المحاورة الإغريقيّة، مطالباً بالبرهان على «انعدام النَفْس» الّذي تقول به البوذيّة والسّؤال المتعلّق بالسرّ في أنّ البشر الّذين لا يملكون «نَفْساً» يمضون عبر السّمسارة، والجوهر الّذي يخضع لقانون السّمسارة. ذلك أنّه إذا كانت السّمسارة تحدث من خلال سياق قوامه الأسباب والنتائج ويؤدّي فيه السّبب الجيّد، من خلال المكافأة، إلى نتيجة جيّدة، والسّبب السّيئ إلى نتيجة سيّئة ـ فلابدّ أنّ هناك جوهراً مضيفاً، خالداً، مسؤولاً عن الأعمال السّببيّة. ولكن الأتمن، أو النَّفَس الكونيّة التي اعتُرف بها في أيّام «الأوبانيشاد» وأُنكرت تمام النكران في تعاليم الأبهيدارما تميّز المدرسة الّتي ينتمي إليها ناجاسينا. وبسبب المذهب وبسبب جهله بالنّظام التفصيلي لمدرسة «الوعي وحده» الّتي تطوّرت فيما بعد، اكتفى ناجاسينا بالردّ قائلاً:

ـ ليس هناك موضوع سمساري كالجوهر.

ولكن هوندا رأى جمالاً، لا سبيل إلى وصفه، في المثل الّذي ضربه ناجاسينا لشرح السّمسارة والتناسخ، وهو مثل الشّمعة النحيلة المقدّسة الّتي لا يظلّ لهبها على حاله في المساء، وعند انتصاف اللّيل، وفي الفجر، ومع ذلك فإنّه لا يختلف بالمثل، وهو يواصل اتقاده على الذبالة نفسها طوال اللّيل. فالوجود الكارمي للفرد ليس وجوداً جوهريّاً، وإنّما هو مجرّد تتابع لظواهر مشابهة للّهب.

وهكذا علّم ناجاسينا أنّ الزّمان هو وجود السّمسارة ذاته، بالطّريقة الّتي ناصر بها تقريباً الفلاسفة الإيطاليّون هذه الفكرة بعد ذلك بقرون عديدة.

لم يكن إلاّ أمراً طبيعيّاً أن يختار الملك ميليندا كاهناً بوذيّاً كرفيق في هذه المحاورات. ذلك أنّ الحاكم، بحكم كونه أجنبيّاً، مستبعد بالضّرورة من رحاب الهندوسيّة. فقد كانت هذه الدّيانة ترفض على نحو تعسفيّ مَنْ وُلد خارج نظام الطّوائف الهندي، سواء أكان ملكاً أم لم يكن.

وكان هوندا قد صادف للمرّة الأولى كلمتي «السّمساره» و«التّناسخ» منذ ثلاثين عاماً في دار كيواكي ماتسوجاي، حيث قام، بعد سماعه عظة رئيسة دير جيسو، بقراءة «قوانين مانو» في الترجمة الفرنسيّة الّتي أنجزها لوي ديلانشامب. وقد أورثت هذه القوانين الّتي سنّت بين القرن الثّاني قبل الميلاد والقرن الثّاني بعد الميلاد، فكرة السّمسارة الّتي تكرّست في بداية القرن الثّامن قبل الميلاد في «الأوبانيشاد» بما تتضمّنه من إيمان بوحدة براهما والنّفس الكونيّة. وجاء في نصّ «البريهادا رانياكا أوبانيشاد» ما يلي:

«حقّاً إنّ من يأتي عملاً طيّباً يصبح خيّراً، ومن يقترف عملاً سيّئاً يصبح شريراً، فالمرء يغدو نقيّاً من خلال نقيّ الأعمال، ويسودّ وجهه من خلال الآثام. ولهذا يقال: إنّ الكائن البشريّ يتركّب من الكاما، أو الرّغبة، والمرء إذ يتّبع الكاما إنّما يخلق الإرادة، وباتّباعه الإرادة يخلق الكارما، ومن خلال الكارما تكون السّمسارة».

وباستعادة أحداث الماضي فإنّ تجربة هوندا في بنارس ربّما كانت مقدّرة قبل وقوعها، منذ ذلك اليوم الّذي عرف فيه قوانين مانو وكان في التّاسعة عشرة من عمره. فهذه القوانين تضمّ كلاًّ من الّذين

والأخلاق والعرف والقانون، ابتداءً من خلق السّماء والأرض، وانتهاء بالسّمسارة. وخلال حكم البريطانيّين للهند سمحوا، عن حكمة، باستمرار العمل بهذه القوانين، باعتبارها قواعد عمليّة بالنّسبة للهندوس القاطنين هناك.

وبعد قراءة ثانية للقوانين تمكّن هوندا للمرّة الأولى من وضع يده على أصل الابتهاج والعبادة اللّذين شاهدهما في بنارس، فقد قرأ في الفصل الأوّل الهائل وصف ميلاد براهما، الجدّ الأعلى للعالم بأسره، وفيه أنّ إلهاً وجد على نحو عفوي قد طرد عماء الظّلمة، وبدأ في التألّق. وفي البداية، خلق الماء وغرس بذرة فيه، فنمت البذرة، وأصبحت بيضة ذهبيّة. وبعد ذلك بعام كسر البيضة، ومنها ولد براهما. وكان الماء الّذي غذا الإله هو ماء بنارس.

يصنّف مبدأ التّناسخ، المتضمّن في قوانين مانو، البعث الإنسانيّ باعتباره ينقسم على وجه التّقريب إلى ثلاثة أنواع. ثلاث طبيعات تحكم أجسام كافّة الكائنات ذات الحسّ: الحكمة (ساترافا) وهي بهيجة وجليلة ومترعة بالعواطف النقيّة المتألّقة، وتبعث في صورة إله. الجهل (راجاس) وهو يحبّ المشاريع الخاصّة بالأعمال، وبعيد عن الجسم، ويميل إلى اتّباع الأعمال الخبيثة، ومدمن على الملذّات الحسيّة، ويبعث في صورة إنسان. الغضب (تاماس) وهو يتّبع حياة الولوع والتحلّل والقذارة والقسوة وعدم الإيمان والشرّ، ويبعث في صورة حيوان.

وتُدْرَج التعدّيات الّتي تجلب التّناسخ في صورة حيوانات، بصورة تفصيليّة: إنّ قاتل البراهمي يَلِج جسم كلب أو خنزير أو حمار أو جمل أو بقرة أو ماعز أو خروف أو غزال أو طائر، والبراهيمي الّذي يسرق

مـالاً من براهمي آخـر يُبعث ألف مرّة في صـورة عنكبوت أو حيّـة أو سحليّة أو حيوان مائيّ، ومن يقتحم فراش شخص نبيـل يُولَـد مائـة مـرّة في هيئة عشب أو شجـيرة أو كرمـة أو حيوان لاحـم. ومن يسرق الحبـوب يصبح جـرذاً. وسارق العسـل يصبح قـرادة خيل. وسـارق الحليب يُـولَد في هيئـة الطّير. ومختلس النّبـات يصبح كلبـاً، وسـارق اللّحم يُبعث في هيئـة الكونـدور، وسارق اللّحم الـدّسم يغدو طـائر غاق. وسارق الملح يتنـاسخ في صـورة صرّار اللّيل. وسـارق الحريـر يصبح حجلاً. وسارق الكتّان يُبعث ضفدعاً، ولصّ القطن يغدو تمّاً، وسارق البقرة يغدو إجوانة، ومختلس البخور يتحـوّل إلى فأر مسـك، ولصّ الخُضَر يغـدو طاووسـاً، وسارق النّـار يصبـح بلشـونـاً، ولصّ الأثاث يعسوباً، ولصّ الجواد نمراً، وخاطف المـرأة دبّاً، وسـارق الماء وقواقاً، ومختلس الفاكهة قرداً.

استندت البوذيّة الثيرافاديّة التايلانديّة، مع ذلك، إلى المبادئ السّاذجة المتعلّقة بـ «الجاتاكا» أو «قصص الميلاد» في مجموعة المبادئ البوذيّة الجنوبيّة الّتي احتفظت بالكثير من طابع نصوص بالي الأصليّة، بل لم يكن من الأمور الغريبة بالنّسبة لشاكياموني، الّذي لم يقترف تعدّياً وهو في صورة بوذيساتفا في حيواته السّابقة، أن يبعث في هيئة جرذ أو تمّ ذهبي.

لم تُعْرَف في اليابان التّعاليم الجنوبيّة المعمول بها في تايلاند إلاّ في أواخر القرن التّاسع عشر. وفي غضون ما يتراوح بين مائة عام ومائتين بعد موت بوذا، انقسمت هذه التّعاليم إلى مدارس عديدة، يطلق عليها عادة المذاهب الثيرافاديّة الثمانية عشر. ومازالت تعاليم هذه المذاهب الّتي جلبها ماهيندا إلى سيلان في عهد الملك أشوكا في القرن الثّالث قبل الميلاد، سارية هنالك، وفي بورما، وتايلاند، وكمبوديا.

وفي مجموعة المبادئ الثيرافاديّة المكتوبة في بالي، فإنّ الضوابط الدقيقة المطروحة في قسم الـ «فينايا» أو «الأحكام» ماتزال تنظّم حياة للكهنة السياميّين اليوميّة. ويخضع الكهنة لمائتين وخمسين وصيّة، وأمّا الكاهنات فيخضعن لثلاثمائة وخمسين وصيّة.

وحرص هوندا على تعلّم المزيد عن المفهوم التايلانديّ عن السّمسارة والتّناسخ، وكيف يختلف عن مبدأ اليويشيكي الّذي يعزو وجود العالم الخارجيّ إلى التصوّر الجواني، وما هي طبيعة خصائص هذا المفهوم. وأيّاً كان ما تؤمن به الأميرة الصّغيرة فإنّ هوندا أراد أن

يعرف ما هي الأفكار عن السّمسارة الّتي يؤمن بها الكهنة الموجودون في كلّ مكان من بانكوك بأرديتهم الزعفرانيّة. وانكبّ على القراءة.

وهكذا اكتشف أنّ مبادئ المذاهب الثيرافاديّة الثمانية عشر تضرب جذورها في مدرسة الأبهيدارما الّتي انتمى إليها الحكيم ناجاسينا الّذي دارت المحاورات بينه وبين الملك ميليندا. وأمّا فيما يتعلّق بانتشار «أسئلة الملك ميليندا» فإنّ بعض الباحثين يذهب إلى القول بأنّ هذا العمل ربّما جرى تدوينه في شمال غربي الهند، حيث كانت هناك في ذلك العهد مستعمرات إغريقيّة، وفيما بعد انتقل باتّجاه الشّرق وصولاً إلى إقليم مجادا، حيث نقل إلى لغة بالي. وفي نهاية المطاف، ومع إضافة بعض المواد، وصل إلى سيلان، وانتشر منها إلى بورما وتايلاند متحوّلاً إلى الـ «الميليندا بانها» المنتمية إلى مجموعة المبادئ التايلانديّة.

وقد نفترض على هذا النّحو أنّ ذلك المفهوم التّايلاندي المحدّد للسّمسارة هو، على وجه التّقريب، المفهوم الّذي دافع عنه ناجاسينا. والمعتقد الرئيسي لهذا المذهب هو أنّ الجوهر الكارمي الّذي يسبّب السّمسارة هو الفكر أو الإرادة. وهذا يتّسق مع «الأجاماس»، وهو قريب للغاية من الفكر البوذيّ الأوّليّ. ويذهب أتباع هذا المذهب إلى القول بأنّه فيما يتعلّق بالتّحفيز فليس هناك أساساً خير أو شرّ في البشر، أو المادة في العالم الخارجي. وما يجعلهم أخياراً أو أشراراً هو، على نحو كامل، من نتاج الذّهن أو الفكر أو الإرادة.

لا بأس بالأمور، حتّى هذا الشّوط. ولكن في غمرة تفسير «انعدام النَّفْس أو «الأناتمن» تمضي مدرسة الأبهيدراما انطلاقاً من الحقيقة القائلة بأنّ العالم الماديّ بأسره هو «أفياكريتا» أو «غير قابل للتسجيل» سواء باعتباره خيراً أو شراً ـ فهو محايد. تصوّر على سبيل المثال عربة

تجرّها الجياد. فعلى الرّغم من الحقيقة القائلة بأنّ كلّ مكوّنات هذه العربة هي مكوّنات ماديّة بسيطة، فإنّها يمكن أن تتحوّل إلى أداة للجريمة إذا ما دهس السّائق رجلاً ولاذ بالفرار. وهكذا فإنّه، لّما كان الذّهن والإرادة سببين لاقتراف التعدّيات وللكارما، فإنّ الإنسان بصفة أساسيّة «بلا نفس» أو «أناتمن». غير أنّ الفكر ينطلق بآلة من الجسم ويفرز السّمسارة والبعث من خلال الأسباب الكارميّة الستّة: العاطفة، الغضب، الآراء الخاطئة، اللاّمبالاة، اللاّغضب، الآراء الصّائبة. إنّ الفكر هو سبب السّمسارة، ولكنّه ليس الجسم المتنقّل. وما يمكن أن يكونه هذا الجسم لا يتمّ إيضاحه على الإطلاق، والضّوء الراهن المشتعل خلال مساء المرء الأخير في هذا العالم هو سنى ميلاد حياة أخرى يرتبط بها هذا الضّوء.

ولدى إمعان هوندا في التأمّل بدا له أنّه يفهم، على نحو أفضل، ما لابدّ أنّه دائر في خلد الأميرة التايلانديّة الصّغيرة.

مع كلّ موسم مطير تفيض أنهار بانكوك، وتختفي على التوّ الفواصل بين الطّريق والنّهر، وبين النّهر وحقول الأرزّ. وتغدو الطّرق غدراناً، والأنهار جادّات رحبة. وكان من المألوف يقيناً، حتّى في ذهن طفلة صغيرة، أنَّ فيضاً من الأحلام ينداح ليغزو الواقع، وأنّ الماضي والمستقبل إذ يحطّان حواجزهما يفيضان متدفّقين إلى هذا العالم. وإذ تطلّ الأطراف الخضراء لشتلات الأرزّ من الحقول الغارقة في ماء الفيضان، ينساب ماء النّهر والحقل معاً تحت شمس واحدة، ويعكس تجمّعات سحب الصّيف ذاتها.

وبالمثل فإنّ فيضاناً من الماضي والمستقبل ربّما وقع في اللاّوعي من ذهن الأميرة سنى البدر، وربّما كانت الظّواهر المعزولة المنتمية لهذا

العالم، مثل جزر ترقّش الامتـداد المائيّ الشّـاسع الّـذي يعكس القمر بجـلاء بعد هـطول المطر، هي أصعب الأمـرين على التصـديق. لقد انهارت الجسور، وتبدّدت كلّ الفواصل، وشرع الماضي يتحدّث بملء حرّيّته.

- ١٨ -

ساور هونـدا الآن شعور بـأنّ في مقدوره العـودة بيسر إلى نظريّـة اليـويشيكي الّتي أثارت حـيرته البـالغة في شبـابه. فقـد كان بمقـدوره استيعاب نسق البوذيّة المهاينيّة الّذي يشبه كاتـدرائيّة بـاذخة، بعـد أن أتيح له العون المتمثّل في اللّغز الجميل الّذي تركه وراءه في بانكوك.

ورغم ذلك فإنّ مبدأ اليويشيكي كان هيكلاً دينيّاً ـ فلسفيّاً هـائلاً، عـلى نحو بـاهر، قـدّمت البـوذيّـة من خـلالـه، بعـد أن نفت الأتمن والـرّوح، إيضاحـاً شديـد الدّقّـة والإحاطـة بالتّفـاصيـل للتعقيـدات النـظريّة الّتي تـدور حول الكيـان المنتقل في غمـرة البعث والتّناسـخ. وشـأن معبد الفجـر فإنّ هـذا الإنجـاز الفلسفيّ المـركّب، عـلى نحـو شامخ، كان يخترق المدى الرّحب لسماء الصّبح الزّرقاء الّتي كـانت في ذلـك الوقت الغـامض الّذي يسبق الشّروق تحفـل بالـرّياح النـديّـة، وبالضّياء المؤتلق.

لقـد أوضح مبـدأ اليويشيكي، في نهايـة المـطاف، التّنـاقض بـين السّمسارة والأنتمن، وهي معضلة استعصت على الحـلّ طوال قـرون عديدة: ما هو الكيان الّذي ينتقل من حياة إلى أخرى؟ ما هو الكيان الّذي يتحرّر في جنّة الأرض النقيّة؟ ماذا عساه يمكن أن يكون؟

لقــد استخـدمت في البــدايـة الكلمــة السّنسكـريتيّــة المقــابلة لليـويشيكي، وهي «فيچنابتيمـاتراتا»، أيّ «الـوعي وحـده»، للمـرّة الأولى في الهند من قبل أسانجا. وقد كانت حياة أسانجـا شبه غـارقة في الأساطير بحلول الوقت الّذي أصبح فيه اسمه معروفـاً في الصّين، في بـداية القـرن السّادس، وذلـك من خلال «التشينـج كانـج هسين

لون» أو «رسالة الفجراريشي». وتضرب نظريّة اليـويشيكي جذورهـا في سوترات المهايانا أبهيدارمـا، وكما سنـرى فإنّ «جـاثا» أو «مقـطوعة شعريّة» في هذه الكتابات تشكّل لبّ أفكـار اليويشيكي. وقـد أوضح أسانجا مبادئ اليويشيكي بشكل منسّق في عمله الرئيسيّ وهو «المهايانا سامبا ريجراها شاسترا» أو «مجوعة من رسائل المهايانـا». ومن المهمّ أن نلاحظ أنّ الأبهيدارما هي كلمة سنسكريتيّة تشير إلى الجزء الأخير من المعتقد البوذيّ الّذي يضمّ السّوترات والأحكام والرّسائـل المدرسيّـة، وهو عمليّاً مرادف للرّسائل المدرسيّة.

إنّنـا نمضي على نحـو معتاد في أداء مهـامنـا في الحيـاة، من خـلال التشغيل الذهنيّ لما يسمّى بالحـواس الست: البصر، السّمع، الشمّ، الذّوق، اللّمس، الذّهن. ولكنّ مـدرسة اليـويشيكي كرّست حـاسّة سابعة هي «الماناس» الّتي تنطبق، في أوسع معانيها، عـلى كلّ القـوى الذهنيّة الّتي تدرك النّفس والهويّة الفرديّة. ولكنّها لا تتوقّف عند ذلك الحدّ، وإنّما تدعو هذه المدرسة إلى مفهوم «ألايـافاجينـانا» أو «الـوعي المـطلق». وإذا يـترجم الألايـا بـاللّغـة الصّينيّـة بمـا مفـاده «الـــوعي المخزَّن»، فإنّه يختزن بعيداً جميع «بذور» العالم الظّاهري.

الحياة إيجابيّة ونشطة. ووعي الألايا يؤدّي مهمّته، وهذا الوعي هو ثمرة كلّ المكافآت، وهو يخزّن كـلّ البذور الّتي تشكّـل نتائـج النشاط بأجمعه. وهكذا فإنّ كون المرء حيّاً يشير إلى أنّ الألايا نشط.

وهـذا الوعي في حـراك وتغيّر دائم، وكـأنّه شـلّال أشهب مزبـد. وبينما الشلّال بادٍ لأعيننا عـلى الدّوام، فـإنّه ليس هـو ذاته، وإنّمـا هو يتغـيّر، بين لحـظة وأخرى، فثمّـة مـاء جـديـد يتسـاقط بـلا انتهـاء، متدفّقاً، مندفعاً، باعثاً أبخرته الغائمة عالياً.

وعمد فاسوباندو إلى التوسّع في نظريّة أسانجا، فذكر في عمله الموسوم «تريمشكافي جناتيكاريكا» أو «المدائح الثّلاثين لليويشيكي» أنَّ: «كلّ شيء في تغيّر دائم، مثل سيل منهمر». وقد كانت تلك هي العبارة الّتي سمعها هوندا من شفتي رئيسة دير جيشو العجوز، وواصلت استقرارها في صميم فؤاده، وذلك على الرَّغم من أنّه لم يكن في ذلك الوقت على تمام الصّفاء مع نفسه، بسبب كيواكي.

وفضلاً عن ذلك فإنّ هذه الفكرة كانت مرتبطة برحلته إلى الهند، وبذكرى الشلّالين المنحدرين من ارتفاع هائل إلى نهر واجورافي أجانتا، والتدفّقات الّتي لطمت ناظريه لحظة خروجه من «الفيهارا» والشّعور الّذي ساوره بأنّ أحداً قد غادر المكان لتوّه.

وفي تلك الشلّالات الّتي ربّما كانت الأخيرة والمطلقة في أجانتا انعكست الصّورة المرتدّة كأنّما عن صقال مرآة، لشلّال سانكو في جبل ميوا، حيث التقى هوندا بإيساو للمرّة الأولى، وبالشلّال الكائن في حديقة ماتسوجاي، حيث التقى برئيسة الدّير العجوز.

الآن غرست في وعي الألايا كافّة بذور النّتائج كلّها. لا نتائج الحواس السّبع الّتي تحدّثنا عنها ونشاطها خلال الحياة، ولا نتائج الأنشطة الذهنيّة فحسب، وإنّما غرست فيه كذلك بذور الظّواهر الفيزيائيّة الّتي هي موضوعات مثل هذه الأنشطة الذّهنيّة. ويطلق على عمليّة غرس البذور في الوعي اسم «التعطير» على نحو مشابه لعمليّة تخلّل البخور للملابس، وهي العمليّة الّتي يشار إليها باسم «شوجي كونجو» أو «تعطير البذرة».

وستختلف عمليّة التصوّر، بحسب ما إذا كان المرء ينظر إلى وعي الألايا باعتباره نقيّاً، أو محايداً، أو غير ذلك. وإذا ما اعتبر محايداً فإنّ

القـوّة الّتي تولـد السّمساره والتّنـاسخ ينبغي أن تكـون قـوّة خـارجيّـة كارميّة. وكلّ الإغراءات، كـلّ الأشياء الّتي في العـالم الخارجيّ، كـلّ أوهام الحواس، من الحاسّة الأولى حتّى السّابعة، تمـارس نفوذاً، عـلى نحو لا يتوقّف، على الألايا من خلال قوّة الكارما.

ووفقاً لمبدأ اليويشيكي فإنّ بذور القوّة الكارميّة ـ البذور الكارميّة ـ هي أسباب غير مباشرة أو «كارما إضافيّة» ووعي الألايا ذاتـه هو كـلّ من الكيـان المنتقل والقـوّة المولِّـدة للسّمسارة والتّنـاسـخ. وقـد ذهب أسانجا إلى القول بأنّ هذه الفكرة ستفضي إلى النتيجة المنطقيّـة القائلة بأنّ وعي الألايا ذاته ليس نقيّاً تمام النّقاء، وأنّه حيال كـونه مـزيجاً من الماء والحليب، إن صحّ التّعبير، فإنّ مكوّناته المغشوشة أو الزّائفة تولِّـد عـالم الوهم، بينـما يجلب الجانب النقيّ الاستنـارة وستتجسّد الجـذور الكـارميّة للشرّ والخـير، الّتي يضمّها مستقبـلاً، وذلك بحسب مـا إذا كانت مكافأة على أعمال خيّرة أو شريرة في الماضي. وهـذا هو الفـارق بـين مبادئ مـدرسة الـيويشيكي ومبادئ مـدرسة الكـوشـا، إذ تشـدّد الأخيرة على القوّة الخارجيّة للكارما. وقد طـوّرت مدرسـة اليويشيكي مفهومها الفريد عن هيكل العالم، القائم على الفكرة القائلة بأنّ بذور وعي الألايا تولِّد هذا الوعي، وتشكّل القـانون الـطّبيعي (مثلما تودّي الأسباب إلى نتائج) وأنَّ هذه البذور تنتج من خـلال البذور الكـارميّة القانون الأخلاقيّ (الأسباب المختلفة تؤدّي إلى نتائج مختلفة).

وهكذا فإنّ وعي الألايـا هو ثمـرة جزاء الكـائن الواعي، والسّبب الأساسيّ للوجود بـأسره. فعلى سبيـل المثال، يعني تجسّـد وعي الألايا الخاصّ بإنسان ما وجود هذا الإنسان.

وعلى هذا النّحو فإنّ وعي الألايا يصنع أوهـام العالم الّـذي نعيش

فيه. وجذور المعرفة بأسرها، إذ تعانق موضوعات الإدراك كافّة، تجعل هذه الموضوعات تتجسّد. والعالم يتألّف من الجسم العضويّ وجذوره الخمسة[1]، والعالم الطبيعي أو الماديّ، و«البذور»، أيّ الطّاقة الّتي تجعل العقل والمادّة بأسرهما يتجسّدان. والنَفْس الّتي تعتقد بإصرار أنّها واقعنا، والرّوح الّتي نفترض أنّها تواصل الوجود بعد الموت، إنّما يولدان معاً من وعي الألايا الّذي هو خالق كلّ الظّواهر، ومن هنا فإنّهما يعودان معاً إلى هذا الوعي، وقد خضع كلّ شيء للتصوّر.

ومع ذلك فإننا إذا فكّرنا بحسب اصطلاح اليويشيكي «الوعي وحده» في موضوعٍ ما باعتباره موجوداً بالفعل في العالم، وافترضنا أنّ كلّ شيء ليس إلاّ نتاجاً للتصوّر، فإنّنا نخلط بين الأتمن، أو النّفس الكونيّة، وبين وعي الألايا، ذلك أنّ الأتمن في ظلّ ظروف معيّنة هو كيان متواصل، ولكنّ وعي الألايا هو «دفق من انعدام النَفْس» لا يتوقّف.

ويحدّد أسانجا في عمله الموسوم «مجموعة من رسائل المهايانا» ثلاثة أنواع من «التعطير» تتعلّق بتلك البذور الّتي تسبّب تجسّد عالم الوهم، بعد التعطير بوعي الألايا.

والبذرة الأولى هي بذرة الاسم.

فعندما نقول على سبيل المثال إنّ الوردة زهرة جميلة، فإنّ الدّلالة «وردة» تميّزها عن الزّهور الأخرى. وللتيقّن من مدى جمالها نمضي إلى

(١) يقصد بالجذور الخمسة الأعضاء الخمسة للحواس، أي العينين والأذنين والأنف واللّسان والجسم، باعتبارها جذوراً لعمليّة المعرفة.

(هـ. م.)

وردة، ونحيط علماً بمدى اختلافها عن الأزهار الأخرى. إنّ الوردة تتجلّى لنا باعتبارها «اسماً»، ويستنهض المفهوم الخيال، وعندما يتّصل الخيال بالموضوع الحقيقيّ فإنّ عبيره ولونه وشكله يجري تخزينها في الذّاكرة. أو أنّه من الممكن أنّ جمال الزّهرة الّتي رأيناها دون أن نعرف اسمها قد دفعنا إلى أن نرغب في الحصول على المزيد من المعلومات عنها، ولدى سماعنا اسم «الوردة» فإنّنا نتصوّرها. وهكذا فإنّنا نتعلّم المعاني والأسماء والكلمات وموضوعاتها، وكذلك العلاقات الّتي تربط بينها. وليست كلّ الأشياء الّتي نتعلّمها بالضرورة أسماء جميلة، كما أنّها ليست على الدّوام معاني دقيقة، ولكن كلّ شيء نحوزه بالإدراك والتفكير كان مودعاً منذ زمن سحيق في الذّاكرة، وهو يستحضر ظواهر العالم.

والبذرة الثانية هي بذرة الارتباط بالنَّفْس.

عندما يؤدّي الضّرب السّابع من ضروب الوعي الثمانية، «المناس»، إلى أن تظهر، في إطار وعي الألايا، النّزعة الأنويّة بتمييزها بين النّفس والآخرين، وأن تشدّد هذه النزعة على النّفس الفرديّة المطلقة، وبقيامه بالفعل بتحريك ضروب الوعي الستّة الأخرى فإنّه يؤدّي إلى سلاسل من عمليّات «تعطير النَّفْس». وما كان بوسع هوندا إلاّ أن يعتقد أنّ كلاً من تكوين ما يسمّى بالوعي بالنّفس أو بالذّات في العصور الحديثة وكذلك مغالطة الفلسفة الأنويّة يضربان جذورهما في هذه البذرة الثانية.

والبذرة الثالثة هي بذرة الترايلوكايا

و«الترايلوكايا» تعني «العوالم الثلاثة»، والمراد بها عالم الوهم بأسره، وهو يتألّف من الرغبة الحسيّة والشكل وغياب شكل الرّوح النقيّة.

واللوكايا تمثّل السّبب. وهذه البـذرة، وهي سبب العوالم الثـلاثة الّتي قوامها المعاناة والـوهم، هي بذرة الكـارما نفسهـا. ويعتمد اختـلاف المصائر وجزئيّة السّعـادة أو البؤس على المـزايا أو المثـالب الموجـودة في هذه البذرة.

وهكذا فإنّه من الجليّ أنَّ ما يهاجر وينتقل في السّمسارة والتّناسخ، مـا ينتقـل من حيـاة إلى الحيـاة الّتي تعقبهـا، هـو دفق غيـاب النَّفْس السّريع النّابع من وعي الألايا.

- ١٩ -

ولكن كلّما تعلّم هوندا المزيد عن نظريّة اليويشيكي ازداد اضطراراً إلى أن يعرف كيف تسبّب وعي الألايا في تجلّي عالم الظّواهر. ذلك أنّه بحسب مفاهيم اليويشيكي فإنّ السّبب والنتيجة المعتمدين على الألايا يحدثان في وقت واحد، في لحظة بعينها، ومع ذلك يتمّان بالتّناوب. وبالنّسبة لهوندا الّذي لم يكن بمقدوره التّفكير في السّبب والنّتيجة إلّا من خلال سياق زمني، بدا من الصّعوبة البالغة استيعاب هذه الفكرة عن السّبب والنّتيجة الخاصّين بوعي الألايا، وهما يحدثان على نحو متزامن، وإن يكن متعاقباً. غير أنّه كان من الواضح أنّه في هذا المفهوم يكمن الفارق الأساسيّ بين تفسير الكون من جانب المهايانا (بما في ذلك مدرسة اليويشيكي) وتفسير البوذيّة الهينايانيّة له.

كان عالم البوذيّة الثيرافاديّة شبيهاً بموسم المطر في بانكوك، حينما يمثل النّهر ومسطّحات الأرزّ والحقول مدى غير محدود، ولا يعرف الانقطاع. ولابدّ أن الفيضانات الموسميّة قد حدثت في الماضي أيضاً، وستقع في المستقبل كذلك. وشجرة الفونيكس بزهورها القرمزيّة اليانعة في الحديقة كانت هناك أمس، وستكون هناك بلا شكّ غداً. وإذا كان من المؤكّد أنّ الوجود يتواصل، لنقل بعد وفاة هوندا، فإنّ من المؤكّد بالمثل أنّ ماضيه سيتواصل في يسر ممتدّاً إلى المستقبل في تناسخات متكرّرة. وتقبُّل العالم دونما تساؤل، على نحو ما هو عليه، وسهولة الانقياد الاستوائيّة الطبيعيّة المقترنة بالأرض الّتي تتقبّل الفيضان، ذلك من الخصائص المميّزة للقائلين بالثيرافاديّة. فهم يذهبون إلى أنّ وجودنا يتواصل انطلاقاً من الماضي، عبر الحاضر، إلى

المستقبل. والماضي والحاضر والمستقبل تشبه المياه البنيّة في نهر تحفّ به أشجار المنجروف بجذورها السطحيّة، ويتواصل انسيابها وئيداً فاتراً. ويُدعى هذا المذهب بنظريّة الوجود الدّائب في الماضي والحاضر والمستقبل.

وخلافاً لهذا فإنّ البوذيّة المهايانيّة، وبصفة خاصّة مدرسة اليويشيكيّ، فسّرت العالم باعتباره دفقاً يهمي وتيّارات سريعة تنداح، أو شلّالاً أشهب، هائلاً، لا يتوقّف أبداً. ولمّا كان العالم يقدّم شكل الشلّال فإنّ السّبب الأساسي لذلك العالم وأساس إدراك الإنسان له هما شلّالان. وليس هناك برهان قاطع على الوجود في أيّ من الماضي أو المستقبل، واللّحظة الرّاهنة، وهي وحدها الّتي يمكن ليد الإنسان أن تلمسها ولعينه أن تراها، حقيقيّة. ومثل هذا المفهوم للعالم تنفرد به البوذيّة المهايانيّة، فالواقع موجود في الحاضر وحده، ولا وجود للماضي ولا للمستقبل.

ولكن لماذا يتعينّ أن يسمّى هذا واقعاً؟

إذا كان بمقدورنا أن نتعرّف زهرة نرجس بأن نراها بأعيننا، وأن نلمسها بأيدينا، فإنّ هذه الزّهرة ومحيطها المباشر، على الأقلّ، موجودان في لحظة الرؤية واللّمس.

هذا القدر يمكن تأكيده.

ولكن إذا كنّا نائمين، وإذا كانت هناك نرجسة في مزهريّة، إلى جوار وسادتنا، خلال اللّيل، فهل بمقدورنا أن نبرهن على وجود النّرجسة في كلّ لحظة خلال نومنا؟

وهكذا فإنّه إذا اقتلعت أعيننا، وبترت آذاننا ولساننا، وجدع

أنفنا، وإذا ما فارقنا جسمنا، وانقطع وعينا، فهل يواصل عالم النّرجسة ومحيطها الوجود؟

لكنّ العالم لابدّ أن يوجد!

وقد يؤكّد الوعي السّابع، أو الماناس، العالم أو ينكره، وهو ما يعتمد على ارتباطه بالنَّفْس. وبمقدور هوندا أن يقول إنّه لما كان هناك نفس ومادامت هذه النّفس تواصل الإدراك، حتّى بعد فقدان الحواس الخمس جميعها، فإنّ حوله قلمه الحبر، المزهريّة، زجاجة الحبر، الدورق الزجاجي الأحمر يعلوه تصالب إطار النّافذة، مشكّلاً قوساً رقيقاً، يعكس ضياء النّهار، نسخته من «موجز القوانين»، مثقّلة الورق، المكتب، عارضة الحائط، الصّور المؤطّرة ـ عالمه الّذي كان امتداداً جيد التّرتيب لهذه الأشياء الصّغيرة. أو أنّه قد يقول إنّه مادام الوعيّ الذّاتي (النَّفْس) موجوداً ويدرك، فإنّ العالم لا يعدو أن يكون ظلّاً ظاهريّاً، انعكاساً لإدراكات الذّات، ومن ثمّ فإنّ العالم لا يعدو أن يكون عدماً. وهكذا فإنّ الذّات ستحاول بصلف وكبرياء أن تعامل العالم باعتباره عالمها، وكأنّه كرة جميلة تتقاذفها.

لكنّ العالم لابدّ أن يوجد!

ومع ذلك فإنّه لكي يوجد لابدّ أن يكون هناك وعي يفرزه، يجعله يوجد، يجعل النّرجسة توجد، يضمن وجود هذه الأشياء، في كلّ لحظة. وهذا الوعي هو وعي الألايا، الدّائم الوجود، مثل النّجم القطبي المتّقد في كلّ لحظة، خلال اللّيالي الطّويلة الحالكة، الّذي يجعل مثل هذه اللّيالي توجد، في حقيقة الأمر، ويضمن ـ بلا توقُّف ـ الواقع والوجود.

لكنّ العالم لابدّ أن يوجد!

وحتّى إذا زعمت ضروب الوعي وصولاً إلى الوعي السّابع أنّ

العالم لا وجود له، أو حتّى على الرّغم من أنّ الحواس الخمس قد قضي عليها تماماً، وأنّ الموت قد وقع، فإنّ العالم سيوجد، مادام الألايا موجوداً، وبما أنّه موجود فإنّ كلّ الأشياء على قيد الوجود.

ولكن ماذا لو أنّ الألايا فَنِي فناء مطلقاً؟

لكنّ العالم لابدّ أن يوجَد!

وبناء على هذا فإنّ الألايا لا يفنى أبداً. وكما هو الحال في الشلّال، فإنّ ماء كلّ لحظة مختلف عن ماء اللّحظة الأخرى، ومع ذلك فإنّ الدّفق يتواصل منهمراً في حراك دائب.

وهكذا فإنّ وعي الألايا يتدّفق على نحو خالد، ليجعل العالم يوجد.

ذلك أنّ العالم، مهما كان الثّمن، لابدّ أن يوجد!

ولكن لماذا؟

لأنّه من خلال وجود العالم فحسب ـ عالم الوهم ـ تتاح للإنسان فرصة الاستنارة.

وهكذا فإنّ كون العالم واجب الوجود هو المستلزم الأخلاقي المطلق. وهذا هو الردّ الفائق من جانب وعي الألايا على السؤال عن السبب في وجوب وجود العالم.

وإذا كان وجود العالم ـ عالم الوهم ـ هو المستلزم الأخلاقي المطلق فإنّ وعي الألايا الّذي يفرز الظواهر كافّة هو أصل ذلك المستلزم الأخلاقي. ولكن ينبغي أن يقال إنّ كلاً من العالم ووعي الألايا، أو الألايا وعالم الوهم الذي يلد الظواهر يعتمد على الآخر. ذلك أنّه إذا لم يوجد الألايا لم يوجد العالم، ولكن إذا لم يوجد العالم حُرِم الألايا من السّمسارة والتّناسخ اللّذين يشكّل الألايا نفسه فيهما الجوهر المنتقل، ويوصد للأبد الطّريق إلى الاستنارة.

وهكـذا فإنّـه من خـلال هـذا المستلزم الأخـلاقي الأسمى يعتمـد الألايـا والعالم أحـدهما عـلى الآخر، فـوجود وعي الألايـا يعتمد عـلى ضرورة وجود العالم.

ومع ذلك فإنّ الحاضر المباشر هو وحده الواقـع، وإذا كان المـرجع المطلق الّذي يضمن الـوجود اللّحـظي هو الألايـا، فإنّ ذلـك الألايا الّـذي يجلب كلّ ظـواهر العـالم، يوجـد عند نقـطة تقـاطـع الـزّمـان والمكان.

وقد استطاع هـوندا أن يـدرك، ولو بصعـوبة، أنّـه ها هنـا ولدت نظريّة اليويشيكي الفريدة الّتي تقول بأنّ السّبب والنتيجة معاً متزامنان ومتعاقبان.

والآن، لابـدّ لكي تكون النـظريّة البـوذيّة أصيلة، من أن يـوجـد برهان عـلى أنّها جزء من تعـاليم جوتـاما بـوذا. وقد وجـدت مدرسـة اليويشيكي ذلك البرهان، عـلى وجه الـدّقّة، في «الجـاتا» التّـالية الّتي تُعَدّ أكثر السوترات الواردة في المهايانا أبهيدارما صعوبة.

الدارما بأسرها مختزنة في الوعي،
والوعي مختزن في الدارما بأسرها.
الاثنان يصبحان سببين متبادلين،
وعلى الدّوام، نتيجتين متبادلتين.

وقد فسّر هوندا هذه الفقرة، باعتبـارها تعني أنّـه، بحسب قانـون السّبب والنتيجة المتواصلين المميّـز لوعي الألايـا، فإنّ العـالم المرصـود عند مقطع لحظي من الحاضر قد يوصف بأنّه مقسّم إلى شرائح، مثل خيارة مقطّعة إلى شرائح لحظيّة من الحاضر، قابلة للرصد إحداهـا إثر الأخرى.

إنّ العالم يولد ويموت في كلّ لحظة. وتبدو في كلّ تقاطع لحظيّ ثلاثة أشكال من الولادات والميتات اللّانهائيّة. والشكل الأوّل هو «البذور تنتج العالم الحاضر» ثمّ «العالم الحاضر يُعطِّر البذور وأخيراً «البذور تنتج البذور». وهو الشكل الّذي فيه تسبّب البذور تجسّد العالم الحاضر، ومن الطبيعي أن يتضمّن قوّة دفع من الماضي. فهناك أثر ممتدّ من الماضي. والشكل الثاني يظهر عالم الحاضر في أثناء «تعطيره» من خلال بذور الألايا، ويصبح ظواهر مستقبليّة. ومن الطبيعي أنّ القلق حيال المستقبل يلقي بظلاله، ولكن هذا لا يعني أنّ كلّ البذور يتمّ تعطيرها من خلال الحاضر وتنتج ظواهر الحاضر، بل يعني أنّ بعض البذور، على الرّغم من تعطيرها، تحلّ محلّها بذور أخرى فحسب. وهذا البعض من البذور هو النّوع الثّالث من البذور. وأسبابها ونتائجها هي وحدها الّتي لا تقع على نحو متزامن، وإنّما تتبع سياقاً زمنياً.

والعالم يظهر نفسه من خلال هذه الأشكال الثلاثة، وكلّ شيء يحدث في حاضر لحظيّ.

ولكن البذور الأولى والثانية تولد من جديد على نحو متزامن، وتؤثّر إحداها في الأخرى، وتفنى معاً. والتقاطعات اللّحظيّة الّتي ترثها هذه البذور وحدها، تُنَحّى جانباً، فيما تتحرّك البذور من مقطع إلى آخر. وهيكل العالم البشريّ يتكّون من شرائح نحيلة من اللّحظات، ذات عدد لامتناه، يخترقها سيخ بذور وعي الألايا. والشّرائح النّحيلة الّتي تمثّل العدد نفسه من اللّحظات يتمّ اختراقها وتنحيتها جانباً، في الوقت نفسه، في كلّ شريحة دقيقة من الزّمن.

والدّمسارة والتّناسخ لا يتمّ إعدادهما خلال العمر، إذ هما يبدأن

عند الموت فحسب، وإنّما هما يجـدّدان بالأحـرى العالم في كـلّ لحظة، من خلال إعادة الخلق والتدمير اللّحظيين.

وهكـذا فإنّ البـذور تسبّب تفتّح زهـرة الوهم الهـائلة هذه المسـمّاة بـالعالم في كـلّ موضـع من مواضـع الزّمن، وتتخـلّى عنها في اللّحـظة نفسها. ولكن تتابع البذور التي تنتج البذور يقتضي العـون من البذور الكارميّة حسبما قلنا. وهذه البذور الكارميّة تأتي من «تعطير» الحـاضر اللّحظي.

والمعنى الحقيقيّ لليويشيكي هو أنّ العالم بأسره يتجلّى الآن في هذه اللّحظة عينها. ولكن هـذا العالم اللّحـظيّ يموت في اللّحـظة نفسها، ويبدو عالم آخر على نحو متزامن. والعالم الّذي يتجلّى لحظة يتحوّل في اللّحظة التالية، وهكذا يتواصل التحـوّل. فكلّ شيء في العـالم بأسره هو وعي الألايا.

- ٢٠ -

عندما وصل تفكير هوندا إلى هذا الحدّ اتّخذ كلّ شيء حوله مظهراً غير متوقّع.

واتّفق في هذا اليوم أنّه دُعي إلى دارة في شوتو بمقاطعة شيبويا، لأجل قضيّة امتدّت طويلاً، وأخذ ينتظر في قاعة الاستقبال في الطّابق الثاني من الدّارة. لم تكن هناك أماكن مؤقّتة للإقامة، وعندما كان المدّعي يجيء إلى طوكيو لأمور تتعلّق بالدّعوى فإنّه كان ينزل في دار ثريّ ينتمي إلى المنطقة الّتي بها بلدته. وقد ترك مالك الدّار طوكيو إلى كارويزاوا، تجنّباً للغارات الجويّة.

وجرى السّير في الدّعوى على مهل، بحيث استغرقت وقتاً كبيراً. وقد أطلقها من عقالها، في حقيقة الأمر، قانون تمّ إصداره في عام ١٨٩٩، ويعود أصل النّزاع ذاته إلى ما بعد أيّام الإصلاح، أي قبل عدّة عقود. وكانت الحكومة هي المدّعى عليها في هذه القضيّة، بل لقد تغيّر اسم المدّعى عليه من وزير الزّراعة والتّجارة إلى وزير الزّراعة والغابات، وذلك مع إعادة تنظيم مجلس الوزراء. وقد غطّى المحامون الّذين مثّلوا المدّعي عدّة أجيال. والآن إذا قدّر لهوندا الّذي عهد إليه بهذه القضيّة، أن يكلّل بالفوز، فإنّه وفقاً للاتفاق الأصلي ستكون أتعابه عن القضيّة ثلث الأرض الّتي ستعود إلى المدّعي. غير أنّه لم يكن يتوقّع أن ينتهي النظر في القضيّة خلال حياته.

وهكذا فإنّه جاء إلى هذه الدّارة في شيبويا لا لشيء إلّا لتزجية الوقت، متّخذاً العمل ذريعة في هذا الصدد. وفي حقيقة الأمر فإنّه

جاء متوقّعاً الحصول على الأرزّ المبيض والدّجاجة اللّذين يحضرهما موكله عادة كهديّة من الرّيف.

لم يكن الموكل الّذي تعينّ أن يكون قد وصل منذ وقت طويل، موجوداً، ولاشكّ في أنّه كان يواجه صعوبة في الوصول بالقطار.

كان ذلك الأصيل من أصائل شهر حزيران (يونيو) شديد الحرّ، على نحو لا يناسب زيّه المدني وطاقيه، ولذا فقد فتح النّافذة العالية، المستطيلة الشكل، ذات الطّراز الإنجليزيّ، ووقف بجوارها ليتنسّم بعض الهواء. ولمّا كان يفتقر إلى الخبرة العسكريّة فإنّه لم يستطع حتّى اليوم التّعامل مع طاقيه، على نحو مناسب، فراحا ينزلقان عن ساقيه ويتجمّعان حول ربلتيه، الأمر الّذي جعله يشعر لدى سيره بأنّه يجر حول ساقيه حقيبة مسافر إلى مزار دينيّ. وقد طالما خشيت زوجته رابي أن يشتبك الطّاقان المتهدلان بالسيّارات، فيجرّانه جرّاً.

تسرّب العرق من خلال المواضع المتضخّمة في الطّاقين اليوم. وقد احتفظ الزّي الصيفيّ المتألّق على نحو يفتقر للذّوق، وقد صنع من نسيج قطنيّ، بكلّ تجعيدة تعرّض لها، وعلم هوندا أنّ ظهر سترته لابدّ أن يكون قد تغضّن متحوّلاً إلى تجعّدات شوهاء من جرّاء الجلوس، ولكن كان من العبث محاولة تمسيد التجعّدات للتخلص منها.

كان بمقدوره أن يرى من النّافذة كلّ ما يمتدّ وصولاً إلى منطقة محطّة شيبويا وهي تسبح في سنى حزيران (يونيو). ولقد نجت المناطق السكنيّة في المنطقة المجاورة، فلم تمسّ تقريباً، ولكن المنطقة الممتدّة من سفح الهضبة، وصولاً إلى المحيط، كانت أطلالاً حديثة القصف، ترقشها المباني الإسمنتيّة نصف المدمّرة. ولم يكن قد مرّ على الغارات

الجـويّة الّتي اكتسحت المنـطقة، أكـثر من أسبـوع، إذ وقعت في ليلتي الرّابع والعشرين والخـامس والعشرين من أيّار (مـايو) ١٩٤٥، وهمـا اللّيلتان اللّتان قام فيهما ما إجماليه خمسمائة طائرة من طراز بي ـ ٢٩ بقصف مختلف المناطق السكنيّة في طوكيو بالقنابل الحارقـة. ومازالت الـرّائحة المقيتة الّتي خلفها الحريق الهائل باقية، وذكرى المشهـد الجحيمي تمتدّ ماثلة للعيان في وضح النّار.

اختلطت الـرّائحة الّتي تشبـه رائحة محـرقة للجثث بـروائـح أكـثر ألفة، مثل الـرّوائح المنبعثـة من المطابـخ، أو من نار تضرم في الهـواء الطّلق، وخالطتها الرائحة النفّاذة الكريهة للمواد الكيماويّة، عـلى نحو مـا هو الحـال في مصانـع الأدوية أو الآلات. وكـانت رائحـة الحـطام المحترق مألوفة، بالفعل، بالنّسبة لهوندا. ومن حسن الـطّالع أنّ داره في هونجو لم يمسّها شيء بعد.

كان بمقدوره عـلى الدّوام أن يسمـع، في الطنـين المعدني المتـواصل للقنابل وهي تهوي عبر السّماء المتّشحة باللّيل في الأعالي الطنـين الّذي تعقبـه الإنفجارات وانـدلاع النـيران شيئـاً غـير إنسـاني، شيئـاً يشبـه أصـوات نساء يهتفن في مـوضـع مـا من السّـماء. وقـد أدرك في وقت لاحق أنّ مـا كان يسمعـه ليس إلاّ صرخـات أولئـك الّـذين سقـطوا ضحيّة القصف.

وسط الحـطام المحـترق، كسـا الصـدأ البقـايـا، وظلّت السقـوف المسحوقة على حالهـا، وانتصبت في كلّ مكـان أعمدة ذات ارتفـاعات مختلفة، مثل الأوتاد المسودّة، والرماد يتهاوى منها متراقصاً في النّسيم.

التمع هنا وهناك شيء ما، عـلى نحو بـاهر ـ وغـالباً مـا كان ذلـك بقايا ألواح الزّجـاج المتناثـرة، والأسطح الـزّجاجيّـة المحترقـة الملتفّة،

وقطع الزجاجات المهشّمة الّتي تنعكس عليها أشعّة الشّمس. وقد لملمت هذه الشّظايا الصّغيرة كلّ ما استطاعت من ضياء حزيران (يونيو). ولمح هوندا للمرّة الأولى ألَقَ الحطام.

امتدّت في جلاء القواعد الإسمنتيّة للدّور، تحت الجدران المتهاوية. وأضاءتها شمس الأصيل، مرتفعة كانت أم خفيضة. ولهذا السّبب اكتسب الحطام بأسره مظهر نموذج مقولب لصفحة من صحيفة. ولكنّ الدّرجة السّائدة كانت اللّون البني المحمرّ الفاتح الّذي يميّز المزهريّة، لا عدم الاستواء الرمادي الكئيب الّذي يميّز النموذج المقولب لصفحة من صحيفة.

لم يكن هناك إلاّ القليل من الخضرة، إذ كانت المنطقة في معظمها ذات طابع تجاري. وظلّت منتصبة في موضعها، بطول الشّوارع، بعض الأشجار نصف المحترقة.

كان لكثير من مباني المكاتب المدمّرة نوافذ تجرّدت من زجاجها على هذا الجانب، وكان بمقدور المرء أن يرى من خلالها الضّوء منعكساً على صقال الزجاج في الجانب البعيد، وقد اسودّت أطر النّوافذ ربّما بتأثير السناج الّذي راكمته ألسنة اللّهيب المندلعة.

كانت منطقة منحدرة، ذات شبكة معقّدة من الشّوارع الخلفيّة، على مستويات مختلفة، وقد أفضت الدّرجات والسّلالم الخرسانيّة، الّتي بقيت، إلى الفراغ، على نحو ما يمكن توقّعه. فلم يبق شيء فوقها أو أسفلها، وفي ميدان الحطام أيضاً لم تكن هناك نقطة بداية، ولا اتّجاه وإنّما سلالم منتصبة في اتّجاهها القديم.

ساد الهدوء كلّ شيء. ولكن كانت هناك تقلقلات واهنة، وأخذت الأشياء ترتفع على مهل. وعندما حدّق بناظريه بدا الأمر كما

لـو كان هلوسـة تشرع في إطـارهـا الجثث الّتي عـاثث فيهـا الحشرات والهوام فساداً، في التقلقل من موضعها. ولم يكن ذلك إلاّ رماداً طاله النّسيم، فـأخذ يهبّ في كـلّ مكان. كـان هناك رمـاد أشهب، وآخـر أسـود، وامتدّ بعض الـرّماد عـبر النّسيم على جـدار متـداعٍ واستقـرّ هنالك. رماد قشّ، رماد كتب، رماد من متاجر كتب مستعملة، رماد من حـانوت لصنـع الألحفـة، يـطفـو منفـرداً، متـداخـلاً عـلى نحـو عشوائيّ، متنقّلاً، مراوحاً في مكانه على وجه المنطقة المدمّرة.

التمعت منطقة في طريق أسفلتي على نحو كاب، بتأثير الماء المتدفّق من ماسورة رئيسيّة محطّمة.

بدت السّماء رحبـة على نحـو غريب، وسحب الصّيف بيضـاء بلا شائبة.

كـان هذا هـو العالم الّـذي تجلّى لحـواس هونـدا الخمس، في تلك اللّحظة عينها. وكانت مدخّراته الوفيرة قد مكّنته من ألاّ يقبل إلاّ تلك القضـايـا الّتي تنـاسبـه، خـلال الحـرب، وبـدت دراسـة السّمسـارة والتّنـاسخ الّتي شغلت تمـاماً وقت فـراغـه وكـأنّمـا أريـد بهـا أن تحقّق الغرض المتمثّل في جعل هذا الدّمار جليّاً. وكان القـائم بالتـدّمير هـو هوندا نفسه.

بدت بانوراما الدّمار الهائلة الممتدّة أمام ناظريه وكأنّها نهاية العالم، ولكنّها لم تكن النّهاية ذاتها، ولا البداية أيضاً. كان عالماً يعيـد استيلاد ذاته، في هدوء، بين لحظة وأخـرى. وقد قبـل وعي الألايا، دون أن يعترضه شيء هذا المدى من الحطام الضّارب إلى الحمرة باعتباره عالمـاً واحداً، متخلّياً عنه في اللّحظة التالية، ومتقبّلاً على النّحـو ذاته عـوالم أخرى يزداد عمق لون الدّمار فيها، مع كلّ يوم ينقضي، مع كلّ شهر يمرّ.

لم تسيطر عاطفة ما على هوندا وهو يقارن هذا المشهد بالمدينة على نحو ما كانت. وعندما لمحت عيناه الانعكاسات البرّاقة الصّادرة عن شظايا الزجاج المهشّم في الحطام، وخطف البريق بصره لحظة، عندئذٍ فقط أدرك بيقين حواسه أنّ الزجاج، بل الحطام بأسره، سيختفي في اللّحظة التالية، ليفسح المجال لحطام آخر. لسوف يقاوم الكارثة بكارثة، وسيتعامل مع التحلّل والخراب اللاّنهائيين بدمار أشدّ تعاظماً وشمولاً، على نحو فوريّ. نعم، لابدّ أن يدرك بذهنه الدّمار الشّامل والحتميّ لحظة بلحظة، ويعدّ لمذبحة مستقبل تكتنفه الشكوك. غمره شعور بالابتهاج، إلى حدّ الارتجاف، بتأثير هذه الأفكار المجدّدة للنشاط، الّتي اكتشفها من خلال مبدأ اليويشيكي.

- ٢١ -

عندما انتهى حديث هوندا مع موكّله، حمل هداياه وانطلق إلى محطّة شيبويا. وكانت قد راجت أنباء عن قصف واسع النّطاق قامت به الطّائرات من طراز بي ـ ٢٩ لأوساكا. وتردّدت، مؤخّراً، شائعات سائدة بأنّ غربي اليابان هو الآن الهدف الرئيسيّ. وبدا أنّ طوكيو تنال فترة راحة مؤقّتة.

فكّر هوندا في السّير مسافة أبعد، مادام النّهار لم يلملم نوره بعد. وعلى قمّة تلّ دوجين لاحت دارة الأمير ماتسوجاي، السّابقة.

وبحسب معلومات هوندا فإنّ عائلة ماتسوجاي قد باعت ثمانين هكتاراً من إجمالي قطعة الأرض الّتي تملكها، ومساحتها مائة وعشرة هكتارات، إلى شركة هاكوني العقاريّة المحدودة، في أوائل العشرينيّات. ولكن نصف المبلغ الّذي تمّ الحصول عليه، في ذلك الوقت، فُقِدَ بعد وقت قصير، عندما انهارت المصارف الخمسة عشر الّتي أودع فيها. وسرعان ما قام ابن العائلة بالتبنّي، وهو شخص مسرف إلى حدّ التّلف، بالتخلّص من الهكتارات الثّلاثين الباقية، وأصبح معروفاً أنّ الدّار الحاليّة الّتي تقيم فيها عائلة ماتسوجاي دار عاديّة، شيّدت على مساحة تقلّ عن هكتار واحد. وكان هوندا قد مرّ بالسيّارة قرب بوّابة الدّار، ولكنّه لم يدخلها، إذ فقد الآن صلته تماماً بالعائلة. وقد ساوره، على نحو غامض، شعور بالفضول يدفعه إلى معرفة ما إذا كانت الدّارة قد اختفت أم لا في غمار الغارة الجويّة الّتي وقعت خلال الأسبوع الماضي.

كان الطّريق الّذي يخترق مباني تلّ دوجين المحترقة، قد جرى

تطهيره بالفعل، ولم يشكّل الارتقاء صعوبة حقيقيّة. وكان بمقدوره أن يرى، هنا وهناك، المواضع الّتي شرع النّاس يقيمون فيها، وذلك في ملاجئهم البسيطة الواقية من الغارات الجويّة، وقد سقفوها بكتل الأخشاب نصف المحترقة وقطع من ألواح الزّنك. اقترب موعد تناول طعام العشاء، وارتفع الدخان من مواضع إشعال نار الطهو. وراح أحدهم يملأ وعاء من ماء يتدفّق من وصلة محطّمة في ماسورة مياه. وامتلأت صفحة السّماء بالوهج المسائي الجميل.

من قمّة المنحدر، وحتّى الجادّة العلويّة، كانت منطقة مينامي دايرا ـ داي جزءاً من حيازة عائلة ماتسوجاي المؤلّفة من مائة وعشرة هكتارات. فقد قسّمت الضيعة السّابقة مؤخّراً إلى قطع صغيرة من الأرض، ولكنّها الآن غدت من جديد طللاً شاسعاً، لا يعرف الانقطاع، واستعادت مرّة أخرى تحت السّماء المسائيّة الرّائعة النّطاق الكبير الّذي كان لها في الأيّام الخوالي.

كان المبنى الوحيد الّذي ظلّ قائماً ينتمي إلى مفرزة من الشّرطة العسكريّة، وقد مضى الجنود الّذين التفّت شارات مميّزة على أذرعهم يغادرون المبنى ويلجونه على نحو لا يعرف الكلل. وتذكّر هوندا على نحو غائم أنّ هذا المبنى كان ذات يوم ينتصب غير بعيد عن ضيعة ماتسوجاي. وفي اللّحظة التالية تعرّف بصورة يقينيّة وراء المبنى على الأعمدة الحجريّة الخاصّة ببوّابة ماتسوجاي.

ومن البوّابة، بدا الهكتار الباقي بالغ الضّآلة، ذلك أنّ الحيازة قُسِّمت بين كثير من الدّور المخصّصة للإجارة. ولاح كلّ من البركة والتلّ الصناعي في الحديقة تذكارين مصغّرين بائسين بالنّسبة للبحيرة الّتي كانت ذات يوم شيئاً رائعاً، والجبل المَكْسُوّ بأشجار القيقب،

وقد كانا يميّزان الضيعة القديمة. ولم يكن هناك سور حجريّ في الخلف، وقد احترق السّور الخشبيّ، وامتدّت المناطق المجاورة المدمّرة تحت مدى الرّؤية، وصولاً إلى مينامي دايرا ـ داي. وأدرك أنّ هذه البقعة من الأرض هي نتاج ردم البحيرة الّتي كانت تترامى في السّابق إلى البعيد.

كانت جزيرة تحتلّ ذات يوم قلب البحيرة، وكان يصبّ فيها شلّال ينحدر من الجبل الّذي تكسوه أشجار القيقب. وقد عبرها هوندا ذات مرّة وصولاً إلى الشلّال بالزورق مع كيواكي، ومن هناك تعرّف قوام ساتوكو الّتي كانت ترتدي كيمونو فاتح الزّرقة. وكان كيواكي في ميعة الصّبا، وكان هوندا بدوره مايزال في مقتبل العمر، وربّما أكثر شباباً ممّا تستطيع ذاكرته أن تعي.

أعيدت ضيعة ماتسوجاي إلى وضعها الريفيّ بفعل القصف العشوائيّ الكلّي التدمير، وتغيّرت معالم الأرض، ولكن على امتداد الرّحب المترع بالكآبة، كان مايزال بوسع هوندا أن يحدّد موضع البحيرة والمزار والدّار الرئيسيّة والجناح الغربي الطّراز والممشى الواقع أمام المدخل.

ولكن تحت السّحب المترامية الّتي كساها المساء بردائه، بدت شظايا الزنك الملتوية وألواح الأردواز المحطّمة والأشجار المجتثّة والزجاج المنصهر والألواح الخشبيّة الطويلة المحترقة ومداخن المدافئ المعرّاة المنتصبة، وحيدة مثل الهياكل العظميّة، وبدت الأبواب الملويّة الّتي أخذت شكل المعينّ ـ مصطبغاً بحمرة قاتمة، صدئة. ولاحت كلّ تلك الأشكال الغريبة، وقد انهارت وتمدّدت على الأرض، شيئاً يتحدّى المألوف، ويشبه نباتات قرّاص نامية في الأرض. وفاقمت من

الطّابع الـرهيب للمشهد الشّمس الغـاربة الّتي أضفت عـلى كلّ شيء ظلّاً مميّزاً.

بدت الشّمس لوناً قرمـزيّاً يتـوهّج بـه كيمونـو حريـريّ، ولاحت السّحب خيوطاً زغبة، تجميليّة، تتنـاثر حـول الكيمونـو. وقد تغلغـل اللّون في قلب السّحب، وشعّت حوافّها المتـوهّجة كخيـوط الذّهب. ولم يكن هوندا قد رأى من قبل قطّ السّماء بهيّة على هذا النّحو.

تبيّن هوندا، فجأة، وسط الأطـلال المتراميّـة، شبح امـرأة جالسـة عـلى حجر من أحجـار الحـدائق لم تمسّـه يـد التّـدمـير. وقـد حـوّلت الشّمس الغاربة ظهر سرواها الـلّامع إلى حـدّ ما والمصنـوع من قماش كيمـونو حـريريّ أرجـوانيّ شاحب، إلى لـون النّبيذ. وكـان شعـرهـا الأسود اللّامع المعقوص على الطّريقـة الغربيّـة، مبّتلاً، ولاح هيكلهـا المتهـالك غـارقاً في العـذاب. وقد بـدت وكأنّها منخـرطة في البكـاء، ولكنّ النّحيب لم يكن يهـزّ كتفيها، وبـدا أنّها تعـاني كـذلـك، ولكن ظهرها لم يشر إلى ما يوحي بـانفطار القلب. كـانت تجلس منحنية إلى الأمـام وكأنّها قـد تحجّرت، وقـد طال جمـودها أكـثر بكثير ممّـا يحـدث لشخص غارق في التّفكير. واستنتج هوندا من بريق شعـرها أنّها ربّمـا كانت في أواسط العمر، ولعلّها مالكة إحدى الدّور القائمـة هناك، أو قريبة لها.

أدرك أنّـه سيتعيّن عليـه أن يعرض عليهـا المسـاعـدة إذا كـان قـد أصـابها مصـاب أعجزهـا. وفيما هـو يدنـو منها لمـح حقيبة يـد سوداء وعصا، كانت قد وضعتهما إلى جوار الحجر الّذي اقتعدته.

وضع هوندا يده عـلى كتفها، وهـزّها بحـذر، فقد خشي أن ينهـار كيانها متحوّلاً إلى رماد إذا هو استخدم أي قسط من القوّة.

تطلّعت إليه المرأة على نحو مائل فأفزعه وجهها. ومن الفرق الظّاهر عند خط حافّة الشّعر غير الطّبيعي أدرك أنّ الشّعر الأسود ليس إلّا شعراً مستعاراً. وبدا اللّون الحادّ في أرجوانيّته، الّذي طلت به شفتيها مفارقاً للذرور الّذي كست به في ثقل بشرتها لتخفي التّجاعيد وما دون عينيها، وقد وضع على طريقة البلاط العتيقة الطّراز، فبرزت شفتها العليا، كما لو كانت منقاراً، وبدت شفتها السفلى صغيرة. وتعرف محيا تاديشينا، تحت القناع العتيق، على نحو لا يوصف.

قال هوندا، دونما تفكير:

ـ أنت السيّدة تاديشينا. ألست كذلك؟

قالت تاديشينا:

ـ من عساك تكون؟

وأضافت:

ـ لحظة من فضلك!

سارعت إلى استخراج عويناتها من صدرها. وكان بوسعه أن يرى تاديشينا الأيّام الخوالي في غمرة محاولتها الماكرة لكسب الوقت، بفتح ذراعي عويناتها، ووضعها فوق أذنيها. وحاولت مسرعة رصده بحجّة أنّها بحاجة لعويناتها لكي ترى.

لكنّ الحيلة لم تكلّل بالنّجاح، فحتّى بالاستعانة بالعوينات لم تر العجوز أمامها إلّا رجلاً غريباً. وللمرّة الأولى، طغا عل محياها شعور بعدم الارتياح وتحيُّز أرستقراطي عتيق ـ برودة غير مبالغ فيها تعلّمت عبر السّنين كيف تتحكّم بناصيتها بحذق. وهذه المرّة تحدّثت بلهجة رسميّة متصلّبة:

ـ لابدّ أن تعذرني، إذ فقدت ذاكرتي مؤخّراً، ليست لديّ فكرة حقّاً. . .

ـ إنّني هوندا، قبل ثلاثين عاماً كنت زميلاً ليكواكي ماتسوجاي، في مدرسة النّبلاء، وقد اعتدت التردّد على الدّار طوال الوقت.

ـ آه، أيّها السيّد هوندا. ما أحسن أن أراك! لست أدري كيف أعتذر لك. . . آسفة لعدم تعرّفي إيّاك. نعم، أيّها السيّد هوندا، حقّاً. إنّك تبدو تماماً على ما كنت عليه في شبابك. آه، يا له. .

وضعت ردن ردائها مسرعة على عينيها. كانت دموعها في الأيّام الخوالي موضع شكّ على الدّوام. وأمّا الآن فقد اختلط الذّرور الموضوع تحت عينيها في التوّ بدموعها، وبدا مثل حائط أشهب في المطر، وانهمر فيض وافر، على نحو آلي تقريباً، من عينيها الغائمتين. وكانت مثل هذه الدّموع الوفيرة التي تشبه وعاء ماء مقلوباً، والّتي لا علاقة لها أبداً بالفرح ولا بالحزن، أكثر قابليّة بكثير للتصديق من دموعها قبل ثلاثين عاماً.

ومع ذلك فقد كانت شيخوختها منافية للعقل. فعلى بشرتها، كان بمقدور هوندا أن يلمح تحت ذرورها الأبيض الثّقيل طحلب التّداعي الّذي يكسو جسمها بكامله. ورغم ذلك فقد رصد ذهنها الفذّ وهو يعمل بانضباط كساعة تصدر تكّاتها في جيب رجل ميّت.

سألها هوندا:

ـ أمر طيّب أن تبدي في خير حال. كم تبلغين من العمر الآن؟

ـ بلغت الرّابعة والتّسعين هذا العام. ويصعب عليّ السّماع قليلاً، ولكنّني بخلاف ذلك في صحّة جيّدة، وليس لديّ ما أشكوه، وساقاي قويّتان، وبمقدوري التجوّل وحدي بالاستعانة بعصاي. وعائلة ابن أخي ترعاني، ولا تحبّ أنْ تراني أخرج وحيدة، ولكنّي

لست أكترث حقّاً بموعد موتي ولا بمكانه، ولذلك فإنّني أحبّ الخروج بقدر استطاعتي مادام بوسعي القيام بذلك. ولست أخشى الغارات الجويّة على الإطلاق، ولئن أصابتني قنبلة أو احترقت، فإنّني سأموت دونما ألم وبغير متاعب أسبّبها لأحد. قد لا تصدّق الأمر، ولكنّي أشعر بالحسد حيال الجثث الرّاقدة عند حوافّ الطّرق في هذه الأيّام. وعندما سمعت بأنّ منطقة شيبويا قد احترقت، في غمرة القصف، مؤخّراً، تعينّ عليَّ أن أرى موقع ضيعة ماتسوجاي، فتسلّلت من دار ابن شقيقي. ترى ماذا كان يمكن أن يقول الأمير والأميرة لو كانا على قيد الحياة ورأيا هذه الأوضاع؟ لقد كان من حسن حظّهما أن ماتا قبل أن يعرفا شيئاً من هذا البؤس.

ـ من حسن الحظّ أنّ داري لم تحترق بعد، ولكن هذا الشّعور نفسه يساورني حيال أمّي. ويسعدني أنّها ماتت واليابان ماتزال تقف في صفّ المنتصر.

ـ آه، يا إلهي! رحلت أمّك أيضاً عن عالمنا.. يؤسفني أشدّ الأسف سماع ذلك، لم يكن لديّ علم بالأمر...

لم تكن تاديشينا قد نسيت مجاملات أيّامها الخوالي الرّقيقة، والخالية من الانفعال.

ـ ما الّذي صار إليه أمر آل أياكورا؟

ما إن طرح هوندا هذا السّؤال حتّى ساوره، على الفور، شعور بالنّدم على ذلك. وكما توقّع فقد تردّدت العجوز بصورة ملحوظة. غير أنّها حينما كانت تفصح عن أيّ انفعال واضح يفتقر ذلك الانفعال عادة إلى الإخلاص، ولا يعدو أن يكون مجرّد مظهر تستعين به.

ـ نعم، بعد التحاق الآنسة ساتوكو بسلك الكهنوت، تركت آل أياكورا، ومنذ ذلك الحين حضرت تشييع جنازة النّبيل أياكورا

فحسب. وأمّا النّبيلة فمازالت على قيد الحياة، حسبما أعتقد، ولكنّها، بعد وفاة زوجها، باعت الدّار في طوكيو ولحقت بأقارب لها في شيشجاتاني في كيوتو. وابنتها...

أحسّ هوندا بخفقان قلبه، فما ملك إلاّ أن تساءل:

ـ هل قدّرت لك رؤية الآنسة ساتوكو يوماً؟

ـ نعم، لقد رأيتها ما إجماليه ثلاث مرّات، بعد الجنازة. وكانت على الدّوام رقيقة معي لدي زيارتي لها، بل إنّها دعتني لإمضاء اللّيل في المعبد. إنّها رقيقة وكريمة للغاية...

نزعت تاديشينا عويناتها المضبّبة، وأخرجت مسرعة من ردن ردائها منديلاً ورقياً خشناً فوضعته على عينيها لبعض الوقت. وحينما أبعدته كانت هناك حلقة قاتمة في الموضع الّذي تساقط منه الذّرور.

قال هوندا مرّة أخرى:

ـ الآنسة ساتوكو بخير إذن؟

ـ إنّها بخير حقّاً. و ـ ترى كيف عساني أقول ذلك؟ ـ أكثر جمالاً، وأشدّ صفاء من ذي قبل، وحسنها يزداد جلالاً كلّما تقدّمت في العمر. أرجو أن تزورها يوماً يا سيّد هوندا! قم بذلك! ولسوف يسعدها أن تراك.

استعاد هوندا، فجأة، ذكرى تلك الرّحلة بالسيّارة، في منتصف اللّيل، من كاماكورا إلى طوكيو، وحيداً مع ساتوكو.

لقد كانت امرأة رجل آخر، ولكنّها كانت طاغية الأنوثة، على وجه التّقريب، وقت ذاك.

كانت قد ساورها هاجس الأمور الّتي ستحدث في نهاية المطاف، وأعربت عن استعدادها لها في غمرة الإعداد لتلقّيها. وتذكّر هوندا،

بتـوهّج نـابض بالحيـاة، وكـأنّمـا حـدث ذلـك أمسِ ، تلك اللّحـظة البهيجة، قبيل الفجر، عندمـا شكّلت نافـذة السيّارة إطـاراً لصورتهـا الجـانبيّـة، وأوراق الشّجـر تنـداح إلى البعيـد مسرعـة، في خلفيّـة الصّورة.

عندما عاد إلى الواقع من جديد، كان وجه تاديشينا قد فقد ادّعاءه الاحـترام والتّبجيل، فـأخذت تـدقّق النّظر فيـه وكأنّها تعجم عـوده. وأحاطت التّجاعيد الّتي تشبه الخـطوط في الحريـر المزخـرف، بخطوط مترابطة بشفتيها اللّتين تتّخـذان شكل القـوس، ولكن فمها انجـذب الآن إلى أسفل عند كلّ طرف من طرفيه، فيما يشبه الابتسامة. وفجأة، وفي العينـين اللّتـين تشبهـان بئـرين عتيقتـين في منبسـطات من ثلج - تحرّك البؤبؤان أفقيّاً، بلمسة من الغنج القديم.

- لقد كنت تهواها، أليس كذلك؟ لقد عرفت ذلك.

أجفل هوندا، من جراء الآثار الباقية من غنج تـاديشينا، أكـثر من إجفاله تعبيراً عن الاستياء، حيال مثل هذا الحدس بعـد هذه السّنـين الطّويلة. ولتغيير المـوضوع تحـوّل بأفكـاره إلى الهدايـا الّتي تلقّاهـا من موكله، فقد خطر بباله أن يعطيهـا جانبـاً منها، أي بيضتـين ودجاجـة صغيرة.

أعربت تاديشينـا عن بهجتها المجـرّدة من الختل، وعن تقـريرهـا، على نحو لم يتوقّع أن تبادر إليه:
- آه، يا إلهي! بيض! ما أغرب رؤية البيض في هذه الأيّام! أحسّ بأنّني لم أر بيضة منذ سنين! يا للسّماء، بيض!

جعلت آيـات الشّكر المتـطاولة المعقّـدة الّتي أعقبت ذلك، هـوندا يعتقد أنّه لم يكن يُقدَّم للعجوز طعام لائق. وقد زادت دهشته عندمـا

أخرجت ثانية البيضة الّتي كانت قد نحتها جانباً في سلّة مشترياتها، فرفعتها في مواجهة السّماء المتّشحة بالغيب، وقالت:
ـ بدلاً من أخذ هذه إلى الدّار ـ لابدّ أن تعذرني وتغتفر لي سوء مسلكي ـ فإنّي أودّ أن ألتهمها هنا..

فيما كانت العجوز تتحدّث، نظرت آسفة إلى البيضة في مواجهة السّماء الّتي أخذت الظّلمة بأكنافها، فاستكنت في أصابعها العتيقة، المرتعدة، بينما السّنى المتراجع يمسّ قشرها الرّقيق البارد.

مضت تاديشينا تداعب البيضة بعض الوقت. وكانت الضّوضاء في المنطقة قد خمدت، وما كان يصل إلى الآذان إلاّ الصّوت الواهن المنبعث من بشرتها الخشنة، وهي تحتكّ بها.

تجاهل هوندا بحثها عن ركن حادّ تستطيع صدع القشرة عليه، فقد تردّد في مساعدتها على القيام بعمل كان على نحو ما عرضة للاعتراض عليه، وقد كسرت البيضة على نحو غير متوقّع في حذقه، على حافّة الحجر الّذي اقتعدته. وجالبة إيّاها بعناية إلى فمها، حتّى لا تفقد شيئاً من محتواها، رفعت وجهها تدريجيّاً وصبّت المحتوى بين جانبي طقم أسنانها الصناعي المفتوح في مواجهة السّماء المتّشحة بالمغيب. بدت للعيان، للحظة خاطفة، الاستدارة الباهرة لمحّ البيضة وهو يمرّ بشفتيها، وصدر عن بلعومها صوت ابتلاع مترع بالعافية.
ـ يا إلهي! هذا هو الطّعام المغذّي الأوّل الّذي أتناوله منذ فترة طويلة للغاية. إنّي أحسّ بالانتعاش، وأشعر وكأنّما عاد إليّ حسن شبابي. قد لا تصدّق ذلك، يا سيّد هوندا، ولكنّي كنت حسناء شهيرة في شبابي.
كانت لهجتها في الحديث قد غدت، فجأة، صريحة.

ثمّـة وقت في النّهـار يعقب الغسق مبـاشرة، عنـدمـا يكـون الخط الخارجيّ لكلّ شيء محدَّداً بشكل بالغ. وقد حلّت تلك اللّحظة، على وجـه الدّقّـة. الحواف المجـرَّحة لعـروق الخشب في الحطام، وحـداثة الصدوع في الأشجار الممزّقة، وألواح الزنك الملتوية وبريكاتها الضّئيلة من ماء المطر ـ كـلّ شيء بدا متـوهّجاً بـالحياة، عـلى نحو يـوشك أن يكـون مقيتاً. ولم يكن ثمّـة ما تلمحـه العين، في أقصى الغـرب، إلاّ خطّاً أفقيّاً قرمزيّاً بين مبنين أو ثلاثة مبانٍ محترقة جلّلها السّواد. وبدت كذلك نقاط من اللّون القرمزيّ من نوافذ المباني المـدمَّرة. وبـدا الأمر كما لو أنّ أحدهم قد أضاء مصباحـاً أحمر في دار مهجـورة خاويـة على عروشها.

ـ كيف يسعني أن أشكـرك؟ لقـد كنت دومـاً رجـلاً رقيق القلب، ومـازلت عطوفـاً للغايـة. ليس لـديَّ مـا أعـطيـك إيّـاه، ولكن عـلى الأقلّ. . .

تلمّست تاديشينا داخـل حقيبتها وكـأنّها ضريرة. وقبـل أن يتمكّن هـوندا من إيقـافها، كـانت قد أخـرجت كتابـاً مجلّداً عـلى الـطّريقـة اليابانيّة، ودسّته في يده.

ـ عـلى الأقلّ، أريـد أن أعطيـك هذا الكتـاب. لقد اعـتززت بـه دائماً، وحملته معي. إنّه سوترا مؤثّرة، أعـطاني إيّاهـا كاهن لـردّ الأذى والمرض، وأنا سعيدة للغاية لمقابلتك، ولتمكّني من الحديث معك عن الأيّام الخوالي. قد تخرج في أيّام الغارات، وهناك حمّيات سيئة كثيرة. ولكنّك إذا حملت هذه السّوترا معـك، فمن المؤكّد أنّـك ستتجنّب أيّة كارثة. وأودّ أن تحتفظ بها رمزاً لتقديري إيّاك.

رفع هوندا الكتاب عالياً بإجلال، للإعراب عن شكـره، ونظر إلى العنوان الّذي يعلو الغلاف. وكان يكاد يُقرأ في الضّوء الغارب.

كـان الكتاب هـو «المهاميـورفيديـاراجني» أو «سوتـرا ملك حكمـة الطّاووس الذّهبي العظيم».

- ٢٢ -

منذ ذلك الحين، لم يكن بوسع هوندا، إلاّ بمشقّة، السيطرة على رغبته في رؤية ساتوكو. ولكنّه كان يعلم أنّ الدّافع إلى ذلك جاء، في جانب من جوانبه، من ملاحظة تاديشينا بأنّها ماتزال على جمالها. فقد كان يخشى، خشيته للموت، أن يرى «طللاً للجمال» يشبه أطلال المدينة.

لكنّ الموقف، على صعيد الحرب، أخذ يتدهور يوميّاً، وكان من الصعب الحصول على بطاقات السّفر بالقطار، ما لم تكن للمرء صلات بالجيش، وكانت الرّحلة المترفة شيئاً لا سبيل إلى بلوغه.

فيما كانت الأيّام تنقضي، فتح هوندا كتاب «سوترا ملك الطاووس» الّذي أعطته تاديشينا إيّاه. ولم تكن قد أتيحت له من قبل قطّ فرصة قراءة أيّة سوترات بوذيّة، ممّا يحجب عن عامّة النّاس.

كانت الفقرات الافتتاحيّة تقدّم إيضاحات وقواعد لاستخدام الكتاب، ذلك ببنط صغير يوشك ألاّ يكون مرئيّاً.

وابتداءً، فإنّ ملك حكمة الطّاووس قد احتلّ المرتبة السّادسة من الطّرف الجنوبيّ لبلاط سوسديزي في «ماندالا الرّحم». وبما أنّه قد عزيت إليه قوّة إنجاب كلّ البوذات، فإنّه يُدعى كذلك بـ «ملك الطّاووس، منجب كلّ البوذات».

عندما عاد هوندا إلى الوثائق البوذيّة الّتي كان قد جمعها حتّى ذلك الحين، وجد أنّ ذلك الربّ قد ضرب جذوره بوضوح في عبادة شاكتي الهندوسيّة. ولمّا كانت طقوس عبادة شاكتي موجّهة إلى كالي،

زوجة شيفا، أو إلى دورجا، فإنّ تمثال الربّة الظّامئة إلى الدّم، الّـذي رآه في كـاليجات في كلكتـا، كان حقّـاً النّموذج الأصـلي لملك حكمة الطّاووس.

وحينـما اكتشف ذلك أصبحت السّـوترا الّتي وصلت إليـه مصادفـة ذات أهمّيّـة بالنّسبـة لـه عـلى نحـو مفـاجئ. وإلى جـانب استخـدام «الـزاراني»[1] والمانـترا في الطّقـوس البوذيّـة السـرّيّـة، فـإنّ العبـادات الهندوسيّة قد غزت عالم البوذيّة باللّجوء إلى أنواع التحوّلات كافّة.

وكان من المعتقد أصلاً أنّ «سوترا ملك حكمة الطاووس» تعويـذة قالها بـوذا، وافترض أنّها تبعـد الثّعابـين أو تشفي التسمّم النّاجم عن اللّدغات.

وجاء في «سوترا الطاووس»:

«عندما كان شخص يدعى كيشو، لم تتمّ بَعْدُ رسامته كاهناً، يعـدّ مـادة ملتهبة لإضرام النّـار لتسخين المـاء اللاّزم لحـمّام الكهنـة، جـاء ثعبان من أسفل شجرة غريبة، ولدغ أصبع قدمه اليمنى، وغشي عليه فهوى إلى الأرض، وارتفع بؤبؤاه، وطفا الزّبد على فمه. مضى أناندا إلى حيث كان بوذا، وقـال: «كيف يمكن شفاؤه؟» وعنـدئذٍ ردّ بـوذا، قائلاً: «إذا أمسكت بسوترا تعويذة ملك حكمة الطاووس، تـاثاجـاتا العظيم، وأمسكت بالكاهن كيشو بين ذراعيك، وأدّيت إشـارات اليد المناسبة، وأنت ترتّل المانترا، فـإنّ السمّ لن يحدث ضـرّاً. ولن يوقـع السيف ولا العصا جرحاً. وستبعد كلّ الكوارث».

(١) الزاراني dharani المقصود بها الصياغات السّحرية.

(هـ. م.)

وقد عرفت هذه السّوترا بأنّها لا تزيل سمّ الثّعابين فحسب، وإنّما كلّ الحمّيات والجروح وجميع الآلام وألوان المعاناة. وستكون مجرّد تلاوتها كافية، والتّفكير وحده في ملك حكمة الطاووس من شأنه أن يبعد كلّ المخاوف والأعداء والمصائب. ومن هنا فإنّه خلال العهد الهاييني كان يُسمح لكبير توجي وكبير كهنة معبد نينا المنتمي إلى العائلة الإمبراطوريّة بأداء الطّقوس البوذيّة السرّيّة لهذه السّوترا. وخلال مثل هذه الطّقوس كانت الصّلوات الخاشعة ترفع آياتها تجنّباً لكلّ المواقف المحتملة، من الكوارث الطّبيعيّة إلى ضربة الوباء والمخاض العسير.

وبدا ملك حكمة الطاووس في التصاوير شخصاً فائق الجمال، متألّقاً وكأنّه تجسيد للطاووس ذاته، ومختلفاً أعظم الاختلاف عن صورة كالي الدمويّة الّتي كانت نموذجه الأصلي، بلسانها المتدلّي وقلّادتها المضفورة من الرؤوس المجتثّة.

وقيل إنّ صياغته السحريّة تقلّد صيحة الطاووس: كا ـ كا ـ كا ـ كا ـ كا ـ كا ـ كا ـ كا ـ كا ـ كا ـ كا ـ كا ـ كا ـ والمانترا: ما يو كيتسو را تاي شا كا تعني «تحقّق الطاووس». وحتّى الإيماء باليد الخاصّة، الّتي يطلق عليها «إشارة بوذا المنجب، ملك حكمة الطاووس» والّتي يتمّ القيام بها بضمّ اليدين ظهراً لظهر، وقد ضُغط على الإبهامين والأصبعين الصّغيرين معاً، كانت في وقت واحد وصفاً وتقليداً لجلال الطاووس. وقد مثّلت هذه الإيماءة شكل الطاووس. فالأصبعان الصّغيران هما الذّيل، والإبهامان هما الرّأس، وباقي الأصابع بمثابة الرّيش. وصوّرت الطّريقة الّتي تتحرّك بها الأصابع الوسطى السّت، فيما التعويذة تُتلى، طاووساً يتهادى.

امتدّت سماء هنديّة زرقـاء وراء ملك الحكمة عـلى عرش طـاووسه الـذهبيّ. سـماء استـوائيّـة، بسحبهـا المؤثّـرة في النّفس، وضجـرهـا الأصيلي، ونسماتها المسائيّـة، وكلّها أمـور ضروريّة لنسـج خيوط وهم بديع تأخذ الألوان بأكنافه.

يشاهد الطاووس الذهبيّ مواجهة وقد وقف في ثبات على قائمتيه، ومدَّ جناحيه، وحمل ملك الحكمة على ظهره، وحماه بنشر ذيله الـرّائع الّذي يشبه المروحة، والّذي حلّ محلّ هالة نورانيّـة. وجلس الملك في وضـع زهـرة اللّوتس عـلى زهـرة لـوتس بيضـاء وضعت عـلى ظهـر الـطاووس. وأمّا أذرعـة الملك الأربع فقـد أمسكت الأولى منهـا عـلى اليمين بزهرة لوتس متفتّحة، والثّانية بثمرة كارما، على شكل خوخة. وأمّا الأولى إلى اليسار فقـد بسطت فـوق الفؤاد، وراحتها المرتفعة إلى أعلى تدعم ثمرة الحظّ الحسن، وأمسكت الثانية بذيـل طاووس مؤلّف من ثلاثين ريشة.

أطلّ ملك الحكمة بمـظهر رحيم، وقـد بدا جسمـه جميلاً للغـاية، وتألّقت البشرة الّتي شفّ عنها رداء حـريريّ بجـواهر رائعـة، كالتّـاج الّذي اعتمره، والقـلادة الّتي تحلّى بهـا عنقه، والقـرطين المتـدلّيين من أذنيه، والأساور الّتي حلّت رسغيه. واستكان سأم فاتـر على الجفنـين الثّقليين، نصف المغمضين على العينين، وكأنّما استيقظ الإلّـه لتوّه من قيلولة الظهيرة. وربّما كان من شأن إمطار شآبيب رحمة لانهـائيّة وإنقاذ أناس بلا حصر أن يخلق في نفس المرء شعوراً مشـابها للنّعـاس الفاتـر الّذي اكتشفه هوندا في المنبسطَات المتألّقة الرّحبة في الهند.

وفي مفارقة لهذه الصّورة الشّهباء، والكئيبة على نحو مطلق، كانت ريشات الطاووس المترامية الّتي تحاكي الهالة القدسيّـة متعدّدة الألـوان

على نحو باهر. ومن بين ريش كلّ الطّيور فإنّ ريش الطاووس هو الأقرب في الدّرجة إلى سحب المساء. ومثل ماندالا بوذيّة سرّيّة تعيد تنظيم كون فوضوي فتحيله إلى كون مرتّب، فإنّ الرّيشات مثّلت التّنظيم الممنهج لفوضى الألوان الصّاخبة الّتي تشاهد في سحب المساء، وطابعها المتحوّل، وتلاعب الضّوء عليها، في زخارف هندسيّة ومنتظمة. الذهبي، الأخضر، الأزرق القاتم، الأرجواني، البنّي ـ مثل هذا البهاء الغسقي كان، رغم ذلك، يشير إلى نهاية وهج المساء، حينما يختفي قرص الشّمس الغاربة نفسه عن الأبصار.

كان ريش الذّيل يفتقر إلى اللّون القرمزي وحده. ولو أنّه كان هناك طائر مثل الطاووس القرمزي، ولو أنّ ملك حكمة الطاووس قد جلس عليه، وقد انتشر الذيل حتّى أقصى امتداده، لما كان إلّا الربّة كالي نفسها.

قرَّ في يقين هوندا أنّ مثل هذا الطاووس لابدّ أن يكون قد تجلّى في السّحب المسائيّة في السّماء، فوق الأطلال، حيث التقى تباديشينا.

القسم الثّاني

- ٢٣ -

قالت جارة هوندا الجديدة:

ـ لقد غرست بعض أشجار السّرو الجميلة. وكان المكان هنا في العادة قفراً أجرد.

كانت كيكو هيساماتسو امرأة مهيبة الطّلعة.

بدا أنّها توشك على الاقتراب من الخمسين من العمر، ولكن وجهها الّذي يتردّد أنّها أجرت عمليّة جراحية تجميليّة له، احتفظ بفتوّة وسيمة ومتألّقة على نحو مفرط. كانت واحدة من أولئك اليابانيّين الاستثنائيّين، الّذين يمكنهم أن يتجاذبوا أطراف الحديث من دون مراعاة للشكليات، سواء مع رئيس الوزراء يوشيدا أو مع الجنرال مكارثر. وقد مضى وقت طويل على طلاقها من زوجها. وهي في الوقت الحالي ترتبط برجل مدلّه بحبّها، هو ضابط أميركيّ من قوّات الاحتلال، يعمل في المعسكر الواقع عند سفح جبل فوجي. وقد قامت بإصلاح دارتها الّتي طال إهمالها في نينوكا بمنطقة جوتمبا، وهي تأتي إليها في إطار موعد، بين حين وآخر، أو كما قالت: «لتكتب على مهل ردوداً على رسائل أهملت طويلاً». ودارتها هذه تقع إلى جوار دارة هوندا.

احتفل هوندا، في ربيع عام ١٩٥٢، بعيد ميلاده السّابع والخمسين. وللمرّة الأولى في حياته امتلك دارة ريفيّة، وقد دُعي الضّيوف من طوكيو لحضور حفل افتتاح الدّارة، الّذي كان من المقرّر أن يقام في اليوم التّالي، وقد جاء بنفسه، قبل ذلك بيوم، ليشرف

على الاستعدادات، ووجّه الدّعوة إلى جارته كيكو لكي تتفقّد الحديقة الّتي بلغت مساحتها ما يزيد على نصف فدّان.

قالت كيكو وهي تخطو فوق المرجة الّتي بلّلها الثّلج الهشّ، رافعة حذاءها ذا الكعب العالي المستدقّ الطّرف، وكأنّها طائر من طيور الماء:

ـ كنت أتطلّع إلى إكمالك دارك وكأنّها داري. لقد غُرس هذا النّجيل في العامّ الماضي، وما أجود تجذّره في الأرض! لقد غرست الحديقة أوّلاً، ثمّ مضيت على مهل في إنشاء الدّار. ولا يمكن أن يفعل هذا إلاّ عاشقٌ حقيقيّ للحدائق. ـ لم يكن لديَّ مكان أقيم به، ولذا مضيت جيئة وذهاباً من جوتمبا لأنجز الدّار.

قالها هوندا، وقد بدا وكأنّه بوّاب باريسي، في سترته الصّوفيّة المحبوكة الّتي انتسلت قليلاً، وقد لفّ لفاعة حريريّة حول عنقه اتّقاء للبرد.

كان هوندا يستشعر شيئاً من عدم الارتياح مع النّساء اللاّتي من نوع كيكو وقد عشن حياة الرّفاه. وبدا الأمر كما لو أنّ الأنظار تتناهب هَوانَ شأنه الهوان النّاجم عن إنفاقه حياته في الدّرس والانكباب على العمل، وها هو ذا الآن يحاول فجأة مع مقدم الشّيخوخة أن يتعلّم كيف يسترخي وينال قسطاً من الرّاحة.

إنّ وجوده هنا مالكاً لدارة ريفيّة قد أمكن تحقيقه بمادّة قديمة في قانون لا يدري بوجوده إلاّ القلّة، قانون صدر بمرسوم إمبراطوري في ١٨ نيسان (إبريل) ١٨٩٩ تحت عنوان «حول عودة الأراضي والغابات والحقول المملوكة على مستوى الأمّة».

في تمّوز (يوليو) ١٨٧٣ صدر مرسوم للإصلاح الزّراعي،

ومضى المسؤولون الحكوميون من قرية إلى أخرى، محاولين التأكّد من ملكيّة قطع عديدة من الأرض. وقد أنكر المالكون، في ضوء خوفهم من فرض ضرائب عليهم، ملكيتهم لمساحات معيّنة. وهكذا فإنّ عدداً كبيراً من المساحات المملوكة لأفراد والأراضي المملوكة للقرى على المشاع أصبحت رسميّاً بلا صاحب، وحُوِّلت إلى ملكيّة الحكومة.

وبعد ذلك بوقت طويل، وفي ضوء الأصوات المتذمّرة المفعمة بالنّدم والرّفض، صدر عامّ ١٨٩٩ قانون تنصّ مادّته الثانية على أنّ من يتقدّمون بطلبات لإعادة الأرض إلى حوزتهم يتعيّن عليهم أن يثبتوا ملكيتهم السّابقة لها، وذلك بتقديم وثيقة على الأقلّ من سبع وثائق. وإحدى هذه الوثائق تدعى «وثيقة الدّولة». وتنصّ المادّة السّادسة من هذا القانون على أنّ كلّ الإجراءات القانونيّة المتعلّقة بالموضوع هي من اختصاص محكمة الدّعاوى الإداريّة.

وقد رفع كثير من مثل هذه الدّعاوى في تسعينيّات القرن الماضي. ولكن المحكمة لم تكن تسمح بنظر الدّعوى إلاّ مرّة واحدة، ودون إتاحة فرصة لاستئناف حكمها. وبما أنّه لم يكن هناك نصّ يحدّد الإشراف على عمليّة التقاضي، فإنّ كلّ شيء كان يتمّ إنجازه بمزيد من التمهّل.

في أيّ قرية صودرت أراضيها المملوكة على المشاع بسبب كذبة أطلقت بوحي اللّحظة، كانت «الأوازا» أو الدّائرة الإداريّة تصبح هي المدّعي في الدّعوى الإداريّة. وحتّى لو ضُمّت القرية إلى بلدة، فإنّ في وسع الأوازا أن تطالب بالملكيّة، وتظلّ «جهة مالكة».

وفي حالة قرية معيّنة، في منطقة ميهارو، في مقاطعة فوكوشيما، رفعت دعوى في عام ١٩٠٠ مضى فيها المدّعي والحكومة على مهل،

وعلى امتداد خمسين عاماً تغيّر المدَّعى عليه من وزير الزّراعـة والتّجارة إلى وزير الزّارعـة واستثمار الغـابات، ولقي المحـامون المسؤولـون عن متابعة هذه الدّعوى حتفهم واحداً بعـد آخر. وفي عـامّ ١٩٤٠ وصل وفـد من المنطقـة الّتي تقع فيهـا القريـة المدّعيـة، إلى طوكيـو، لمقابلة هوندا الّذي كان قد أصبح بالفعل محـامياً مـرموقـاً، وأودعوا القضيّـة الدّاعية لليأس بين يديه.

وقد انتهى هذا الجمود الّذي دام خمسـين عامـاً، من خلال هـزيمة اليابان في الحرب.

فوفقاً للدّستور الجديد الّذي وضـع موضـع التنفيذ في ١٩٤٧، تمّ إلغـاء المحـاكم الخـاصّـة، ومن ثمّ إلغـاء محكمـة القضـاء الإداري، وحوِّلت جميع القضايا الإداريّة موضع النّظر إلى محكمة طوكيـو العليا، وعوملت باعتبـارها قضـايا مـدنيّة. وكنتيجـة لهذا فقـد كسب هونـدا القضيّـة بسهـولـة. ولم يتعـدّ الأمـر ضربـة حظّ، إذ كـان في المكـان المناسب، في الوقت المناسب.

وتـطبيقاً لـلاتفاق الّـذي انتقل عـلى مـدار السّنـين، تلقّى هـونـدا كـأتعاب لـه عن كسب القضيّـة ثلث الأراضي الّتي أعيـدت للقـريـة كلّها. وطرح عليه الخيار بين قبول هـذا العقار، أو تحـويله إلى أموال سائلة بالأسعار الحاليّـة. وقد آثـر الخيار الأخـير. وهكذا حصـل على مبلغ ستّة وثلاثين مليون ين.

غيّرت هذه الواقعة جذور حياة هوندا ذاتها. فخلال الحرب انتابـه تدريجيّاً شعور بالضّجر من حياة المحـاماة، وإذ احتفظ بـاسم «مكاتب هوندا للمحاماة» الّتي تحظى بالتقدير على نطاق واسع، فقد ترك العمل لشركائه الّـذين يصغرونـه، ولم يكن يظهـر في الصّدارة إلاّ بـين الفينة

والأخرى. وتغيّرت حياته الاجتماعيّة، وتغيّر كذلك تفكيره، ولم يكن بمقدوره أن يحمل على محمل الجدّ الحظّ الّذي حالفه على نحو مفاجئ تماماً، فأصبح يمتلك قرابة أربعين مليون ين، كما لم يستطع أن ينظر نظرة الجدّ إلى الأزمنة الّتي جعلت من اجتراح مثل هذه المعجزة أمراً ممكناً، ومن هنا فقد قرّر أن ينظر إلى الأمر بأسره بصورة عرضيّة.

فكّر في هدم مسكنه في هونجو، وكان من الأفضل لو أنّه احترق في الغارات، وإعادة بنائه من جديد، ولكنّه كان قد ضاق ذرعاً للغاية بالمدينة، بحيث لم يكن بمقدوره بناء شيء جديد فيها، وتوقّع أن يدوم إلى الأبد. وعلى أيّة حال فإنّه سيحترق عن آخره في الحرب المقبلة.

كانت زوجته رايي تؤثر بيع العقار، وربّما السكنى في شقّة بدلاً من استّمرارهما وحدهما في سكنى دار قديمة كبيرة. ولكن هوندا تعلّل بمرضها لبناء دارة في بقعة نائية، بعيدة عن الزّحام، يمكنها أن تخلد فيها إلى الرّاحة.

مضى الزوجان لمشاهدة قطعة أرض دلّهما عليها في منطقة سينجوكوهارا، في هاكوني، أحد معارفهما. ولكنّهما عندما سمعا بأمر الرطوبة الشديدة في المنطقة، أحجما عن شرائها. وبإرشاد سائق السيّارة الّتي استأجراها، انطلقا عبر معبر هاكوني، واستكشفا منطقة نينوكا، في قطاع جوتمبا، وهي تستخدم كمنتجع صيفي، وقد تمّ إعمارها قبل أربعين عاماً. كانت هناك دارات عديدة تملكها شخصيّات بارزة سابقة. ولكنّها بعد الحرب أوصدت بوّاباتها، لتجنّب قوّات الاحتلال الأميركيّة قرب منطقة مناورات فوجي، والنّسوة اللاّتي لابدّ أن يلحقن بها. وقد قيل لهوندا إنّ في منطقة تقع إلى الغرب من منطقة الدّارات أرضاً قفراً كانت ذات يوم ملكاً للحكومة، ولكنّها

نقلت دونما مقابل إلى حوزة مزارعين من المنطقة، كنتيجة للإصلاح الزّراعي. وبمقدور المرء إبرام صفقة طيّبة هناك.

لم تكن المنطقة الواقعة عند سفح جبل هاكوني مغطّاة بأسرها بالحمم البركانيّة، على نحو ما هو عليه الحال حول جبل فوجي، غير أنّها كانت أرضاً قاحلة تصلح لغرس أيّ شيء باستثناء أشجار السرو. ولم يدر المزارعون ما يصنعون بها. وقد ابتهج هوندا لمرأى قطعة أرض يكسو فيها عشب البامبا والمريميّة منحدراً يمتدّ في رفق هابطاً إلى غدير من غدران الأوديّة، ويبدو منها جبل فوجي جليّاً للعيان.

ولدى السّؤال، وجد السّعر معقولاً للغاية، ومن ثمّ لم يأخذ باقتراح رايي بإمعان التّفكير في الأمر، ودفع مقدّم شراء قطعة من الأرض تبلغ مساحتها أربعة هكتارات.

قالت رايي إنّها لم تحبّ الخشونة، الكئيبة على نحو يستعصي على الإفصاح عنه، الّتي تتسم بها الأرض، وساورتها الخشية من الإصابة بالاكتئاب، وعرف، على نحو غريزي أنّها لا حاجة بها إلى مثل هذه المشاعر في كهولتها. ولكن بالنّسبة لهوندا الّذي كان يحلم باللّذة، كانت هذه الكآبة بعينها هي الأمر الّذي لا سبيل إلى الاستغناء عنه.

كان قد قال: «لا بأس بالأمر. فلو أنّنا أزلنا النّباتات البريّة، وغرسنا بعض المزروعات، وبنينا منزلاً، فسوف يكون مرِحاً للغاية».

شكّل التعاقد مع نجّارين من المنطقة، وتوظيف أناس هناك للقيام بغرس الأشجار، وتشكيل المعالم الصناعيّة الّتي تضاف إلى الطّبيعة، عمليّة بطيئة، ولكنّها أبقت النّفقات عند مستوى منخفض، فقد احتفظ هوندا، من أيّامه الخوالي، بعادة اعتبار الإنفاق العشوائيّ أمراً مبتذلاً. ورغم ذلك فإنّ السّرور النّابع من اصطحاب ضيف في جولة

بالمكان، وإطلاعه على ممتلكاته الواسعة، كان انفعالاً وُلد منذ زمن طويل في صباه، عندما كان يرتاد ضيعة ماتسوجاي. ولم يكترث ببرد الرّبيع الباكر الّذي يلذع الجلد بصقيع ثلوج هاكوني المتطاولة في هطولها، بعد انقضاء فصلها، لأنّه كان برد حديقته. وبالمثل فإنّ الوحدة الملتصقة بشخصين لا ثالث لهما يرتمي ظلاهما الواهنان على المرجة الرّحبة، كانت مصدر سرور له، لأنّها الوحدة المرتبطة بأرضه. وقد داخله شعور بأنّه يبدو كما لو كان يمسك بناصية الرّفاهية الحقيقيّة، النّابعة من الملكيّة الخاصّة لأوّل مرّة. وفضلاً عن ذلك فقد أسعده أنّها جاءت، لا من خلال نزعة متطرّفة، وإنّما كليّة من خلال تفكيره المنطقيّ وتوقيته الجيّد.

لم تكن صورة كيكو الجانبيّة، البالغة الوسامة، تحمل أثراً من الغنج أو التحفّظ. وكانت تحظى بالمقدرة على جعل أيّ رجل يكون إلى جانبها ـ حتّى هوندا الّذي بلغ السّابعة والخمسين من عمره ـ يشعر بنفسه كما لو كان غلاماً يافعاً في مقتبل العمر. إنّها قدرة المرأة على أن تفرض على رجل في السّابعة والخمسين من عمره المرح والإشراق الجليين لشّاب يكبّله الغرور والنفاق المحض، رجل قد حافظ على المظاهر مهما كلفه ذلك، وإن كان يشعر بعدم الارتياح نحو النّساء ويكن لهنّ الاحترام.

لم يكن العمر من وجهة نظر هوندا بالشيء الّذي ينبغي أن يؤخذ في الحسبان. وإلى أن بلغ الأربعينيّات من عمره كان يلتزم الدّقّة فيما يتعلّق بضروب الإضافة والإنقاص، بالنّسبة لسنوات العمر، غير أنّه الآن تكوّنت لديه فكرة تلتزم بالطّابع العابر والمتساهل فيما يتعلّق بهذه المسألة. ولم يكن يحسّ بالدهشة، عندما يتّفق في بعض الأحيان أن

يكتشف مؤشرات واضحة على الطّفولة الحقيقيّة في نفسه، في جسمه الّذي بلغ السّابعة والخمسين من العمر. وكانت الشيخوخة بشكل ما نوعاً من إعلان الإفلاس.

تفاقم شعوره، على نحو فظيع، بالقلق على صحّته، والفزع من انغماسه في ذاته عاطفيّاً. وإذا كانت وظيفة العقل هي التّحكم، فإنّ الضرورة الملحّة لهذه الوظيفة قد انقضت. ولم تعد التّجارب إلاّ عظاماً أزيل اللّحم عنها في صحفة عشاء.

وقفت كيكو، وسط المرجة، وهي تقارن منظر جبل هاكوني إلى الشّرق بمشهد جبل فوجي إلى الشّمال الغربي. وبدت متوهّجة بجلال خير ما يوصف به أنّه من النّوع الملكي، وأوحى جيدها الأتلع وحاشية سترتها وكلّ شيء فيها بمظهر قائد آمر، ولابدّ أنّ ضابطها الشّاب قد خضع لكافّة أنواع الأوامر، بما في ذلك الأوامر الّتي لا يسهل تنفيذها.

بدا جبل فوجي الّذي كست السّحب شطره شيئاً سريع الزوال بالمقارنة بامتدادات هاكوني الواضحة الّتي رقّشها الثّلج. ولاحظ هوندا أنّ نوعاً من خداع البصر يجعله يبدو حيناً أكثر ارتفاعاً، وحيناً آخر أقلّ في ارتفاعه.

قال هوندا، متطلّعاً من خلال الفروع الهشّة الذاوية لأشجار السّرو النّاصلة الّتي اشتراها من الجوار وغرسها في أرضه.

ـ سمعت اليوم، لأوّل مرّة، شقشقة قُبَّرة.

قالت كيكو:

ـ القُبَّرات تأتي في منتصف آذار (مارس). لسوف يكون بمقدورك أن ترى طيور الوقواق في أيّار (مايو)، وأن تسمعها وتراها، تصوَّر

هـذا. ربّما كـان هذا هـو المكان، الـوحيد الّـذي بمقدور المـرء فيه أن يشاهد طيور الوقواق ويسمع صوتها في وقت واحد.

بادر هوندا باقتراح، قائلاً:

ـ دعينـا ندخـل الدّار، سـأشعـل النّـار في المـدفـأة، وأعـدّ بعض الشّاي.

ـ لقد أحضرت بعض الكعك المحلّي.

قالتها كيكو مشيرة إلى لفافة كانت قد تركتها في الدّهليز قبل قليل. وكان متجر هاتوري للسّاعات عند منعطف أواري تشـو في جينزا قـد حوّل بعد الحرب إلى بي. إكس، وعادة ما كانت كيكـو الّتي يتاح لهـا الدّخول حسبما تشاء تشتري هدايا من هناك. وكـان من الممكن شراء الكعك المحلّي الّـذي اعتادت تنـاوله منـذ ما قبـل الحرب، من هنـاك بسعر معتدل، وشكل مربّى الخوخ الّذي وضـع بشكل طبقـات رقيقة متماسكة بين الكعكات، جسر اتّصـال بين شـاي العصر الّذي كـانت تشربه في طفولتها، وشاي العصر الّذي ترتشفه الآن.

قال هوندا، وهو يشرع في السّير:

ـ لديَّ خاتم أودّ إطلاعك عليه لتقويمه.

- ٢٤ -

أحاط نبات الغار العطر الّذي كان مايزال في مرحلة الإنبات، بالشّرفة. وباستخدام النّوع نفسه من الآجرّ الأحمر الّذي استخدم في السّقف فقد بُني في أحد الأركان مكان للطّيور. وعندما لمحت القُبّرات الصّغيرة الّتي التفّت حول وعاء الطّعام هوندا وكيكو، انطلقت مسرعة وهي تصدر شقشقتها وكأنّما نُخست بإبر دقيقة.

كان في صدر المدخل مباشرة باب آخر زيِّن الجزء الأوسط منه بالزجاج المعشّق، وعلى كلّ من جانبيه نوافذ جمِّلت بأطر خشبيّة، برتقاليّة، تشبه أطر الدّور الهولنديّة المنتمية إلى أواخر عهد إيدو. وكان بمقدور المرء أن يرى ما وراءها على نحو مبهم. وأعجب هوندا الوقوف هنا، والإطلال على الدّاخل الغارق في ألوان الشّمس الغاربة، المترعة بالشّجن، وهو داخل صمّمه بنفسه، بغير قليل من الجهد، بعروقه الخشبيّة الغليظة الّتي ابتاعها من دار ريفيّة، ونقلت سليمة تماماً، والثريّا العتيقة المتألّقة المجلوبة من شمالي ألمانيا. والأبواب المؤطّرة ذات الرّسوم الخطيّة المستمدّة من رسوم أوتسو الشعبيّة، ودرع جندي من جنود المشاة، والقوس والسّهام ـ وكلّها تسبح في نور أصفر، شاحب، وتنقل لمن يراها الشّعور بأنّه أمام لوحة من لوحات الطّبيعة الصّامتة المليئة بالشّجن، أو مشهد هولندي صوّره رسّام هولندي مثل جان تريك.

دعا هوندا كيكو للدّخول، وأجلسها في مقعد مجاور للمدفأة، وحاول إشعال النّار في الضّرم، ولكنّها لم تشتعل. وكانت المدفأة وحدها هي الّتي وضع مخطّطها اختصاصي من طوكيو، وقد أجيد

تصميمها، وما كانت لتترك الدخان يرتدّ ويعود من جديد إلى الغرفة. ولكن هوندا، عندما كان يحاول إضرام النّار، كان يـدرك على الـدّوام أنّـه لم تتـح له الفـرصـة قطّ، طـوال حيـاتـه، لتملك نـاصيــة أبسط الأساليب الفنّيّة أو المعارف، بل لم يقدّر له حقّـاً أن يعالـج أمر المـواد الأساسيّة.

بدا غريباً أن يتعلّم هذا، في تلك المرحلة من عمره، فهو لم يعرف الفراغ أبداً، طوال حياته. وهكذا كان جليّاً أنّه لم يحتكّ أدنى احتكاك بـالطّبيعـة، بـأمـواج المحيط، بصـلابـة الأشجـار، بثقـل الصّخـور، وبـأدوات مثل لـوازم السّفن أو الشباك أو بنـادق الصّيد الّتي يعـرفهـا العـمّال، من خـلال عملهم، والّتي يعـرفهـا الأرستقـراطيّـون، عـلى العكس من ذلك، بفضل بحبوحة عيشهم. ولقد وجّه كيواكي فراغـه لا نحو الطّبيعة، وإنّما نحو عواطفه وحدها، ولو أنّـه بلغ مبلغ النّضج لّما كان مآله إلاّ إلى التبطّل والكسل.

ـ دعني أساعدك!

قالتها كيكو، منحنية بشموخ، بعد أن راقبت بعض الـوقت افتقار هوندا للحذق، وقد نتأ طرف لسانها بين شفتيها الململمتـين. ولاحت عجيزتها، بالنّسبة لعيني هوندا اللّتين رفعهما مطلاًّ، وكأنّها بلا انتهاء، على وجه التقريب. وزاد من رحابـة اللّون الأزرق، المائـل للخضرة، لتنورتها المحكمة على جسمها، والوافرة كأنّها مـزهريّـة من عهد أسرة يي الصّينيّـة المالكـة، نمط تصميم البدلـة الّتي كانت تـرتديهـا، والّتي تميّزت بخطّ وسط بالغ الضّيق.

ولّما لم يكن لدى هوندا ما يقوم بـه، فيما عكفت كيكـو على إضرام النّار، فقد بارح الغرفة لإحضار الخاتم الّذي أتى عـلى ذكره. وعنـدما

عاد كانت ألسنة لهب وحشيّة، ذات لون قرمزيّ، تتواثب متصاعدة على كتل الخشب، وجزئيّات من الضّرم تعمل أسنانها في الدّخان المتصاعد متراقصاً، فيما النّسغ المنساب من الخشب المقطوع حديثاً يصدر أزيزاً مميّزاً. وتوهّج الحاجز الطّوبي للمدفأة في سنى النّار، وأخذت كيكو تمسح يديها في هدوء، وترقب نتاج جهدها بشعور جليّ بالرضا.

ـ كيف ترى هذا؟

ـ مدهش.

قالها هوندا مادّاً يده نحو اللّهب، ثمَّ سلّم الخاتم إلى كيكو، قائلاً:

ـ هذ هو الخاتم الّذي ذكرته منذ لحظة. ما رأيك؟ لقد ابتعته لتقديمه هديّة.

سحبت كيكو أصابعها، بأطرافها المخضّبة بالحمرة، من نطاق ألسنة اللّهب، وتفحّصت الخاتم في الضّوء الخابي المنسلّ من النّافذة. قالت:

ـ إنّه خاتم ممّا يتحلّى به الرّجال.

كان مؤلّفاً من زمرّدة مربّعة، قاتمة الخضرة، يحيطها ذهب صيغ على هيئة زوج من «الياكشا» الحارسة، بوجهين نصف حيوانيين، شديدي التّأثير في النّفس. أبعدته كيكو عن أطراف أصابعها، ربّما لتجنّب انعكاس أظافرها الحمراء، وأمسكته بين أصابعها، ودفعته لتستقرّ أصبعها السبّابة فيه. وعلى الرّغم من أنّه كان خاتماً ممّا يصاغ للرّجال، إلاّ أنّه ناسب، من حيث المقاس، أصبعاً رقيقة خمريّة البشرة، وما كان بالكبير للغاية حتّى بالنّسبة لها.

ـ إنّه حجر جيّد. ولكن في حالة الزمرّدات العتيقة، فإنّ تصدّعـاته الـدّاخليّة تتحـوّل دائـماً في المـدى الـطّويـل إلى ذرور. وهنـاك خـطر الهشاشة، عندما يرتفع الفحام من أسفل. وهذا الحجر تظهر فيه تلك الحالة. ولكنّه مع ذلك حجر جيّـد. والصّقل غـير مألـوف. وسيكون ثميناً كحجر أثري.

ـ من أين تظنين أنّي ابتعته؟

ـ من الخارج؟

ـ لا، في أطلال طوكيو. في متجر الأمير توين.

ـ آه، نعم، تلك الأيّـام... ولكن أيّاً كـانت المتاعب المـاليّـة الّتي ربّما تعرّض لها الأمير، فإنّ افتتاح متجر بالنّسبـة له...! لقـد ذهبت إلى هناك مرّتين أو ثلاثاً. واتّضح لي أنّ كلّ ما يثـير الاهتمام هـو شيء كنت قـد رأيته منـذ وقت طويـل، عند أحـد الأقارب. ولكنّ المتجـر تعيّن إغلاقـه، وقد سمعت أنّ الأمـير لم يذهب إلى هنـاك قطّ. وكان الوكيل السّابق الّذي عمل رئيساً للموظّفين يـدير المتجـر ويختلس كلّ الأرباح. ولم يقدّر لأحد أعضاء العائلة المالكة قطّ أن يستهلّ مشروعـاً ناجحاً، في دنيا الأعمال، بعـد الحرب. وأيّـاً كانت جسـامة الضّرائب العقاريّة الّتي فرضت عليهم، فقد كـان عليهم القيام بحـماية مـا ترك لهم من ممتلكـات، لقـد كـان هنـاك عـلى الـدّوام مـروّج للمشـاريـع الجـديدة، قـادر على تـوريطهم في مشروع مـا. وهذا ينـطبق، بصفة خاصّة، على الأمير توين الّذي كان دائماً رجلاً عسكريّاً. وهو يذكّرني بالسّاموراي التّعساء الّذين أفلسوا بعد عهد الإصلاح.

عندئذٍ أبلغها هوندا بتاريخ الخاتم.

في عام ١٩٤٧ سمع هوندا بأنّ الأمير توين قد جرّد من لقبه، بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وابتاع تحفاً فنّيـة، بأسعـار رخيصة، من

أعضـاء في العـائــلات النّبيلة السّـابقــة، أثقلت كـاهلهم الضّرائب العقـاريّـة. وافتتــح متجـراً للمقتنيــات العتيقـة الثمينــة، مخصّصـاً للأجانب. وما كان الأمير ليتذكّر هوندا، حتّى ولو ذهب هذا لمقابلته. ولكنّ الفضول دفع هوندا لإلقاء نظرة على المتجر، دون الإفصاح عن هويّته. واكتشف في علبة بلّوريّة خـاتم الأميرة تشـانترابـا الّذي فقـده الأمير السّيامي تشاوبي، في القسم الدّاخلي لمدرسة النّبلاء، منذ أربعة وثلاثين عاماً خلت.

بدا جليّاً أن الخاتم الّذي كان من المعتقد في ذلك الوقت أنّه وضع في غير موضعه، قد تمّت سرقتـه في حقيقة الأمـر. وبالـطّبع لم يكشف مـوظّف المبيعات عن المصـدر الأصلي للخـاتم، ولكن من المحتّم أنّـه جـاء من دار نبيل سـابق. ولابدّ أنّ الـرّجل الّـذي اضطّر لبيعـه كان طالباً في المدرسة، عندما كان هوندا يدرس فيها. وحدا بهوندا شعـور قديم بالعدل إلى شراء الخاتم، راغباً في إعادته بنفسه، على نحو مـا، لمالكه الأصلي.

داعبته كيكو، قائلة:

ـ إذن، فإنّك ماضٍ إلى تايلاند لإعادته؟ لتبرئة اسم وطنك الأمّ؟

ـ لقد اعتزمت ذلك يوماً ما. ولكن ذلـك لم يعد ضروريّـاً، الآن، فقد جاءت الأميرة إلى اليابان للدراسة.

ـ فتاة ميّتة جاءت إلى هنا للدراسة؟

ـ لا، لا، إنّها تشانترابا الثّانية ـ أعني ينج تشـان. وقد دعـوتها إلى حفلة غـدٍ، وأعتزم في أثنـائهـا أن أضـع الخـاتم في أصبعهـا. إنّها في السّـابعة عشرة من العمـر، سحـماء الشّعـر، متـألّقـة العينـين، وهي تتحدّث اليابانيّة بطلاقة، ولابـدّ أنّها قد درست بـاجتهاد قبـل مغادرة بلادها.

- ٢٥ -

في صباح اليوم التّالي، استيقظ هوندا فوجد نفسه وحيداً في الدّارة، وللوقاية من البرد التفّ في سترة صوفيّة محبوكة، ولفاع قطنيّ، ومعطف شتوي ثقيل. وسار عبر المرجة إلى التّعريشة، عند الطّرف الغربي للحديقة، فقد كان يتوق، أكثر من أيّ شيء آخر، إلى تأمّل جبل فوجي عند الفجر.

مسَّ اللّون القرمزي الجبل بخفّة عند الشّروق، وتوهّجت قمّته بلون حجرورديّ متألّق، ولاح لعينيه وهماً يشبه ما يتراءى في الحلم، سقفُ كاتدرائيّة تقليديّة، معبدُ فجر ياباني.

ساورت هوندا في بعض الأحيان الحيرة في ما إذا كان قد سعى إلى العزلة، أو إلى لذّة مراوغة. فقد كان يفتقر إلى شيء جوهريّ لكي يصبح ساعياً جادّاً وراء اللّذة.

واستيقظت للمرّة الأولى في مكان ما من أعماقه ـ وفي عمره ذاك! ـ رغبة في التحوّل. فبعد أن راقب، عن كثب، تجسّد الرّجال الآخرين، من جديد، دون أن يطرف له جفن، لم يفكّر قطّ في استحالة حدوث ذلك له. والآن وهو يتسنّم عمراً يكشف فيه التوهّج الأخير للحياة عن امتداد ماضيه، فإنّ يقينيّة تلك الاستحالة تُفاقِم، على نحو إضافيّ، من وهم إمكانيّة حدوث ذلك البعث من جديد.

لربّما قام بدوره بشيء غير متوقّع. فقد كانت أعماله، حتّى هذا اليوم، ممّا يمكن التنبّوء به، وكان عقله، على الدّوام، يلقي بضوئه خطوة إلى الأمام، شأن مصباح نقّال يمسك به سارٍ في درب مظلم

ليــلاً. ومن خــلال الخــطط والتنبّؤات، تمكّن من تجنّب أن يفــاجئ نفسه. وكان أكثر الأمور إثارة للفزع هو أنّ كلّ الألغـاز، بما في ذلـك معجزة التّناسخ، قد انتهت بالقطيعة والجفاف.

ومـا كان بحـاجة إلى أن يفـاجئه ذلـك، فقد أصبـح، عـلى وجـه التّقـريب، من ضرورات الحياة. ولـو أنّه كـان هنـاك حقّ خـاصّ في السخرية من العقل ودهسه بالأقدام، فإنّ لديـه من الغرور العقـلاني ما يدفعه إلى الاعتقاد بأنّ هذا الحقّ لم يمنح إلاّ له وحـده! وكان عليـه أن يغمس عالمه المستقـرّ في جيشان غـير محدّد المـلامح من جـديد، في شيء لم يسبق له قطّ أن ألفه من قبل!.

كان يعلم تمام العلم أنّه قد فقد كلّ المؤهّلات البدنيّة لذلـك. فقد نحـل شعره، وكسـا الشّيب فوديـه بـالبيـاض، وتضخّمت معـدتـه، واكتسب جسمه، دونما هوداة، كلّ خصائص الشّيخوخـة المبكرة الّتي كان يعتبرها في شبابه بالغة القبح. ولم يحدث قطّ بالـطّبع أن نـظر إلى نفســه في شبابـه بحسبانـه إنسانـاً وسيماً، مثـل كيواكي، ولكنّـه لم يـر كـذلك في نفســه قبحاً عـلى وجه خـاصّ. ولم يجـد من الضّروري عـلى الأقـلّ أن يضع نفســه بين الأرقـام السّالبـة في عالم الجـمال، وأن يبني معـادلته عـلى هذا الأسـاس. فما السرّ في أنّـه الآن، وقد غـدا قبحـه جليّاً، مايزال العالم من حوله جميـلاً؟ كان ذلـك أسوأ من المـوت ذاته بكثير، كان الموتَ الأسوأ!.

بلغت السّاعة السّـادسة والثلث. وتملّص جبـل فوجي الّـذي كسا الثّلج ثلثيه، من ألوان الفجر، وشمخ في مواجهة السّماء الزّرقـاء، في جمال حادّ المـلامح. وبـدا جليّاً، بـوضوح أكـثر ممّا ينبغي، عـلى وجه التّقريب. كان الثّلج هشّاً مترعاً بالتوتّر الحسّـاس النّاجم عن تمـوّجه،

فأعاد إلى الذّهن التّلاعب البديع لعضلة لدنة. ولم تكن هناك، باستثناء المنحدرات الدنيا، إلّا ثلاث بقع قاتمة محمرّة قليلاً، قرب السّمت، وقرب قمّة هوي. وكانت السّماء الزّرقاء صلدة، ومجرّدة من السّحب. ولو أنّه ألقى حجراً، لتردّد عائداً صوت ارتطامه بها.

إنّ فوجي هذا يؤثّر في كلّ الأهواء، ويسيطر على كلّ العواطف. وما ينهض أمام هوندا ليس إلّا الجوهر الأشهب الخالص للقابليّة ذاتها للتساؤل.

ازدادت حدّة جوع هوندا، وسط الهدوء، وتاق إلى إفطاره المؤلّف من الخبز المبتاع من طوكيو، والبيضة المسلوقة سلقاً خفيفاً، والقهوة الّتي سيعدّها وهو يصغي إلى تغريد العصافير. وكان من المقرّر أن تصل زوجته مع الأميرة ينج تشان، في الحادية عشرة من ضحى اليوم، لبدء الاستعدادات للحفل.

عاد بعد الإفطار إلى الحديقة.

اقتربت السّاعة من الثّامنة. وشرعت كتل صغيرة من السّحب بالارتفاع وكأنّها ثلج تنثه السّماء على الجانب الآخر من جبل فوجي. وانتشرت متسلّلة كأنّما لتتجسّس على الجانب القريب، مادّةً أطرافها وهي تدنو. وفجأة، ابتلعتها سماء زرقاء بلون الخزف. وما كان بالإمكان تجاهل هذه الكائن الّتي تبدو هيّنة الشأن، فمثل هذه السّحب تميل إلى العودة إلى التجمّع، حتّى الظهيرة، مكرّرة هجماتها المفاجئة، ولا تلبث بالفعل أن تكسو الجبل بأسره.

جلس هوندا، شارداً، في التّعريشة، حتّى حوالي السّاعة العاشرة. وكان قد حفظ، في مكان بعيد، الكتب الّتي لم يقدّر لها قطّ البقاء بعيدة عنه، وراح يحلم بالمواد الخام الّتي لم تصفُ منها الحياة

والعاطفة، جلس بلا حراك، دون أن يفعل شيئاً. رفعت سحابة، ظهرت بخفّة إلى اليسار، وسرعان ما توقّفت عند قمّة هوي، ذيلها، وكأنّها دولفين يتواثب.

وصلت زوجته الّتي كان يصرّ على أن تلتزم بالمواعيد، في الحادية عشرة، مستقلّة سيّارة أجرة صاخبة الضّجيج. ولم تكن الأميرة ينج تشان إلى جوارها. وقال هوندا، في الحال، لهذه المرأة البدينة المتجهّمة، وهي تخرج عدداً من الرّزم من السيّارة:

ـ آه يا عزيزتي، لقد جئت وحدك!

لم ترد رايي للحظة، ولكنّها رفعت جفنيها اللّذين يشبهان ظلّتين ثقيلتين.

ـ سأوضح الأمر فيما بعد، حينما يتاح لي المزيد من الوقت. لقد واجهت متاعب جمّة. ساعدني أوّلاً في نقل هذه الرّزم!

كانت رايي قد انتظرت حتّى الوقت المحدّد، ولكنّ الأميرة ينج تشان لم يبد لها أثر. وكان ذلك بعد مكالمتين أو ثلاث مكالمات هاتفيّة. وأخيراً اتّصلت هاتفيّاً بمصدر الاتّصال الوحيد المتاح، وهو مركز الطلاب الأجانب، وقيل لها إنّ الأميرة لم تعد إلى القسم الدّاخلي البارحة، إذ دعيت لتناول طعام العشاء في دار عائلة يابانيّة ينزل لديها طالب جديد من تايلاند.

ساور رايي شعور بالقلق، وفكّرت في تأخير موعد وصولها إلى الدّارة. ولكنّها لم يكن أمامها سبيل لإخطار هوندا بذلك، إذ لم يكن لديها هاتف. وبدلاً من ذلك سارعت إلى مركز الطلاب الأجانب حيث تركت رسالة بالإنجليزيّة مع المشرف، موضحة فيها بعناية، ومن خلال خريطة، كيفيّة الوصول إلى الدّارة. وإذا ما سار كلّ شيء

على مايرام، فإنّ الأميرة ستصل في الوقت الّذي يبدأ فيه الحفل في المساء.

ـ طيّب، إذا كانت تلك هي المشكلة، فقد كان بمقدورك طلب المساعدة في العثور عليها من ماكيكو كيتو.

ـ ولكن ما كان بمقدوري أن أثقل على ضيفة من ضيوفنا، فحتّى هي سوف تلقى صعوبة في العثور على طالبة أجنبيّة لا تعرفها على الإطلاق، ثمّ إحضارها عبر كلّ هذه المسافة إلى هنا. وبالإضافة إلى ذلك فليس بمقدورك أن تتوقّع من شخصيّة بارزة، مثل ماكيكو، أن تتخلّى عن البرنامج الّذي أعدّته، هي الّتي ربّما ظنّت أنّها تسدي لنا جميلاً بالحضور إلى الحفل.

لزم هوندا الصّمت. وآثر أن يحتفظ بالحكم لنفسه.

عندما تُنحّى صورة عن جدار استقرّت فوقه طويلاً، فإنّها تترك بياضاً حديثاً، بقدر مساحة أطارها وشكله. ومن المؤكّد أنّ الصّورة الّتي ستنتج عن ذلك، ستكون نقيّة، ولكنّها ناتئة عن بيئتها تماماً، فهي بالغة القوّة، وشديدة الإلحاح. والآن، وقد تقاعد هوندا، تاركاً أنشطته المهنيّة وراء منصّة القضاء، فإنّه ترك كلّ الأمور المتعلّقة بالعدل لزوجته. وكان بياض الحائط على الدّوام يطرح دعواه: إنّي عادل، إنّني على صواب، منذا الّذي يمكن أن يوجّه إليّ اللّوم؟

في البداية كانت الثّروة الّتي وصل إليها زوجها على غير انتظار، وقبح الكهولة الّذي بدأت رابي ترصده في نفسها، هما اللّذان أزالا الصّورة المؤطّرة للزوجة الهادئة المطيعة، من فوق الجدار. ومع ازدياد ثراء زوجها، أصبحت رابي تخافه. ولكن كلّما تفاقم خوفها ازدادت صلفاً، مظهرة عداء للجميع، عن غير قصد، وموغلة في الحديث،

على الدّوام، عن علّة كليتها المزمنة، وراغبة، مع ذلك، أكثر منها في أيّ وقت مضى، في أن تُمْحَض العاطفة.

ما إن وصلت إلى الدّارة، ونقلت رزم الطّعام إلى المطبخ، حتّى شرعت، محدثة قدراً من الضّجيج، في غسل الأطباق الّتي استخدمها هوندا في تناول طعام إفطاره. وكانت على يقين من أنّ تعبها سيفاقم مرضها، وراحت تعدّ الحجّة المتمثّلة في أنّها أرغمت على العمل الشّاق، رغم أنّ أحداً لم يأمرها بذلك. وواصلت القيام بما يلحق الضّرر بصحتها، متوقّعة من هوندا أن يوقفها عن ذلك. ولو أنّه لم يقم بذلك لغدت الأمور أكثر صعوبة في المستقبل.

قال هوندا، برقّة:

ـ لم لا ترتاحين قليلاً وتقومين بأداء ذلك فيما بعد؟ لدينا وقت طويل. إنّ ينج تشان تسبّب الكثير من المتاعب أليس كذلك؟ كانت تقول إنّها ترغب بشدّة في تقديم يد العون. وبعد ذلك كلّه يتعينّ عليَّ سدّ هذا الفراغ، في آخر لحظة.

ـ المساعدة الّتي ستقدّمها ستجعل الأمور أسوأ.

عادت رايي إلى غرفة الجلوس وهي تجفّف يديها.

في الغرفة المعتمة الّتي انسلّت إليها بجوار النّافذة لمحة من شمس الأصيل، بدت عينا رايي تحت جفنيها المنتفخين وكأنّهما ثقبان في قناع وجه امرأة، ممّا يستعان به في مسرح النّو[1]. وبدت عليها مشاعر

(١) مسرح النّو: أكثر أشكال المسرح الياباني التقليدي أصالة وإبداعاً. وقد تأثّر بعمق، من حيث المضمون الجمالي والبناء الدرامي، بالفكر البوذيّ الّذي يرى في الواقع العياني وهماً، على نحو ما ازدهر في القرون الوسطى. ومن هنا فإنّ دراما النّو تسعى إلى الكشف عن واقع أسمى وأرقى، من خلال الأساليب الفنيّة المعقّدة لخشبة المسرح، =

الأسى والندم الّتي تعاني منها امرأة عقيم لم تجد لعلّتها علاجاً. وتفاقمت حالتها، عبر السّنين، وانتفخ جسمها، بفعل هذه المشاعر وكأنّه قماش مشمّع امتلأ بالهواء. «إنّني على حقّ، ولكنّي منيت بالإخفـاق». ومن هذا اللّوم للنّفس نبعت الرّقّة الّتي لم تتغيّر، والّتي أظهرتها نحو حماتهـا الـرّاحلة. لـو أنّها أوتيت الأطفـال، لـو أنّها أوتيت فقط كثيـراً من الأطفال لجعلت زوجها يذوب رقّة، من خلال مراكمـة لحمهم الغضّ اللّدن. ولكن التدهور بدأ، منذ زمن طويل، في عالم حرمت عبره من الذريّة، تماماً كـما تفسد تـدريجيّاً سمكـة ألقيت على شـاطئ البحر في أصيل خريفي. وأخذت رابي ترتجف أمام زوجها الثريّ ذاك.

= والتركيز على التّصوير، والنزعة الرمزيّة. ومسرح النّو، على نحو ما نعرفه اليوم وهو شكل آخر من أشكال المسرح التقلدي الياباني، هو من إبداع اثنين من ممثّلي السّاروجاكو حظيا برعاية النّبلاء العسكريين، هما كانامي (١٣٣٣ ـ ١٣٨٤) وولده زيامي (١٣٦٣ ـ ١٤٤٣). ومنذ أيّام زيامي تحديداً، أمكن الحديث عن النّو كفنّ منفصل، على الرّغم من أنّ هذه الكلمة الّتي تعني الإنجاز، أو العمل البارع، قد استخدمت من قبل للإشارة إلى فنّي السّاروجاكو والدنجاكو، ويعزى ثلث المسرحيّات الّتي تُعَدّ اليوم ذخيرة (أو ريبرتوار) مسرح النّو إلى زيامي، كما تتبع كافّة جوانب عروض النّو، منذ عصره، توصيفاته لهذا الفنّ. وبالنّسبة للمشاهد الّذي اعتاد المسرح الغربي فإنّ مسرح النّو قد يبدو ممطوطاً، إلى حدّ بعيد، وربّما مضجّراً، غير أنّه إذا تمّ التركيز على الإيقاعات الّتي تحدثها الطّبول، والتوتّر الّذي يثيره النّاي، فإنّ المرء سيحسّ بالمضمون الدرامي الهائل لحركات الممثّلين، وهؤلاء الأخيرون هم جميعاً من الذكور في مسرح النّو، وتساندهم جوقة مؤلّفة من ثمانية أشخاص، وفرقة موسيقيّة من ثلاثة عازفين. وبقدر ما نعلم فإنّه ليس هناك مرجع واحد مستقلّ في اللّغة العربيّة عن مسرح النّو، ولا بأس من مراجعة كتاب «المسرح في الشّرق»، وليت المكتبة العربيّة تحظى بمن يكفل لها من المؤلّفين أو المترجمين العرب سدّ هذا النقصّ الجليّ. (هـ. م.)

تجاهل هوندا، عن تدبّر، محنة زوجته الّتي كانت تأمل دوماً في تحقيق المستحيل. والآن لم يكن بمقدوره احتمال الحقيقة القائلة بأنّه يتوق إلى المستحيل أيضاً. وفي غمرة توقه هذا، انحدر إلى مستواها. ولكن هذا الاستفظاع الّذي طرأ مؤخّراً جعل وجود رايي أمراً بالغ الأهمّيّة.

حدَّث هوندا نفسه، مسترسلاً في خواطره: «أين أمضت ينج تشان اللّيلة البارحة؟ لم ظلّت بعيداً؟ هناك مشرف على مركز الطلاب الأجانب، وربّما كان الإشراف صارماً. لم فعلت ذلك؟ ومع من كانت؟

كان ما ساوره هو شعور بالقلق، الشّعور اليوميّ المتقلقل ذاته، نوعيّة الانفعال الّتي يستشعرها في الصّباحات الّتي يحلق فيها ذقنه، على نحو سيّئ، أو اللّيالي الّتي يعجز فيها عن الوصول إلى وضع مريح لرأسه على الوسادة. لقد كان ذلك أمراً بعيداً عن الاهتمام بإنسان آخر، فقد كان شعوراً منعزلاً، ولكنّه مع ذلك بدا أنّه يتواءم مع ضرورة ملحّة في الحياة. وأحسّ كما لو أنّ موضوعاً غريباً قد دُسّ في ذهنه دسّاً، شيئاً يشبه أيقونة صغيرة لبوذا نُحتت من خشب الأبنوس الأسود، من الغابات التايلانديّة.

واصلت زوجته الثّرثرة في تفاصيل هامشيّة، مثل كيفيّة استقبال الضيوف، وأيّ الغرف ستخصّص لمن سيمضون اللّيل بالدّارة. ولم تكن لكلّ ذلك أهمّيّة لدى هوندا.

أدركت رايي، تدريجيّاً، أنّ ذهن زوجها قد شرد بعيداً. ولم يكن يحدث قطّ في الماضي أن يساورها أيّ شكّ بشأن زوجها عندما يعتكف في مكتبه؛ فقد كان من المؤكّد أنّ دراساته القانونيّة هي الّتي

تبقيه هناك. وأمّا الآن فإنّ شروده يعني اتّقاد لهب خفيّ، وصمته يشير إلى مكيدة من نوع ما.

تابعت عينا رابي نظرة زوجها المحدّقة، في محاولة لرصد مصدر شروده. ولكن لم يكن هنالك، فيما وراء النّافذة، إلاّ الحديقة بعشبها المتجمّد الّذي أخذ يتقافز فوقه عصفوران أو ثلاثة.

* * *

كانت الدّعوة قد وجّهت للضّيوف للمجيء، في السّاعة الرّابعة، إذ أراد هوندا أن تتاح لهم رؤية المشهد الطّبيعي والشّمس ماتزال عالية في السّماء. وأقبلت كيكو في السّاعة الواحدة، عارضة تقديم يد المساعدة. فابتهج كلّ من هوندا ورابي لهذا العون غير المتوقّع.

من الغريب ألاّ تفتح رابي قلبها إلاّ لكيكو من بين كلّ أصدقاء هوندا الجدد؛ فقد كانت تشعر، بصورة غريزيّة، أنها ليست بالعدو. وتمثّل السّبب في طيبة كيكو، وصدرها الريّان، وعجيزتها الهائلة، وحديثها الهادئ، بل إنّ عبير عطرها كان، فيما يبدو، يمنح تواضع رابي الفطريّ نوعاً من الشّعور بالأمان، مثل خاتم التصديق الرسميّ الأحمر المدبوغ بصورة لافتة للنّظر على الشّهادات الصحيّة المعلّقة في المخابز.

جلس هوندا مبتهجاً إلى جوار المدفأة، وفتح جريدة الصّباح الّتي جلبتها رابي من طوكيو، مصغياً في شرود لحوار المرأتين في المطبخ.

كان العنوان الّذي تصدّر الصّفحة الأولى هو: ملاحق كاملة للمعاهدة الإداريّة، ووفقاً لهذه الملاحق فإنّ ستّ عشرة قاعدة جويّة سيتمّ الإبقاء عليها بعد سريان معاهدة السّلام الأميركيّة ـ اليابانيّة. وقد نشر على أحد جانبي الصّفحة حديث للسناتور سميث، أعرب

فيه عن تصميم أميركا على الـ «التزام بحماية اليابان. لا للاعتداء الشيوعي». وفي الصّفحة الثانية نشر تقرير عن الاتّجاهات الاقتصاديّة الأميركيّة، بعنوان: «زيادة في الإنتاج المدني: نتائج عكسيّة تنجم عن التدهور الاقتصادي في غربي أوروبّا»، وقد طبع بأحرف بارزة، وأفصح عن شعور قاطع بالقلق.

لكن ذهن هوندا كان يرتدّ دائماً إلى غياب ينج تشان. وأخذ يستحضر كلّ أنواع المواقف، وجعله خياله الطّليق يحسّ بعدم الارتياح. ومن الأكثر فظاعة إلى الأشدّ فحشاً، فإنّ الواقع يحظى بالمقطع الرأسي المتعدّد الطّبعات لخشب يكسوه العقيق. وبقدر ما يسعه التذكّر فإنّه لم يسبق له قطّ أن رأى الواقع يتّخذ مثل هذا الشكل.

أجفل هوندا إزاء القرقعة العالية الصّادرة عن الصّحيفة، وهو يطويها، فقد كانت الصّفحة الّتي تواجه النّار حارّة، وجافّة. وفي تكاسل أخذ يحدّث نفسه، متفكّهاً، بأنّه من المستحيل بالنّسبة للصّحيفة أن تكون حارّة على هذا النّحو. وكان هذا الشّعور مرتبطاً، على نحو غريب، بالفتور الّذي تراخى عميقاً في جسمه المتواني، ثمّ ذكّرته فجأة ألسنة اللّهب الملتفّة حول كتلة خشبيّة جديدة بمحارق بنارس الجنائزيّة.

أطلّت كيكو، وقد وضعت ميدعة كبيرة، وقالت:

ـ ما رأيك في تقديم الشري والويسكي والماء وبعض «الدوبونيت» كمقبّلات؟ وأمّا الكوكتيلات فتقتضي عناء كبيراً، فدعنا لا نقدّمها!

ـ إنّي أترك لكما كلّ شيء.

ـ وماذا عن الأميرة التايلانديّة؟ ينبغي أن تكون لدينا بضعة

مشروبات غازيّة، إذا أرادت ألاَّ تتناول المشروبات الروحيّة.

ردّ هوندا، بهدوء:

ـ قد لا تحضر.

ـ آه؟

هتفت بها كيكو، دونما انفعال، وانسحبت. وقد جعلت مجاملتها الّتي لا تشوبها شائبة، من صفاء ذهنها شيئاً رهيباً للغاية. وحدَّث هوندا نفسه بأنّ المرء يبالغ في تقدير امرأة مثلها بسبب رباطة الجأش الرّائعة هذه.

كانت ماكيكو كيتو أوّل الواصلين، وبصبحتها طالبتها السيّدة تسوباكيهارا، وكانتا قد انطلقتا عبر جبال هاكوني بسيّارتها الّتي يقودها سائق خاصّ.

كانت شهرة ماكيكو كشاعرة قد بلغت ذروتها. ولم تكن لدى هوندا معايير للحكم على القيم الشعريّة، ولكنّه عندما سمع اسم ماكيكو يتردّد على ألسنة أناس أبعد ما يكونون عن أن يتوقّع المرء منهم ذلك، أدرك مدى المكانة الرفيعة الّتي تحظى بها. وكانت السيّدة تسوباكيهارا الّتي تنتمي إلى عائلة من عائلات «الزايباتسو» السّابقة، في حوالي الخمسين من العمر، أي في سنّ ماكيكو، ولكنّها كانت تعاملها بإجلال وكأنّها ربّة.

وكانت السيّدة تسوباكيهارا في حداد دائم على ابنها، وهو ملازم في البحريّة كان قد لقي مصرعه قبل سبع سنوات. ولم يكن هوندا على علم بشيء عن ماضيها، ولكنّها بدت كقطعة فاكهة مخلّلة في خلّ الحزن.

لقد بقي لماكيكو حسنها. وقد وشت بشرتها الصّافية بأمارات التقدّم في العمر، ولكنّها احتفظت برونق الثّلج الّذي يهطل متأخراً، وأضفى اللّون الرّمادي الزّاحف إلى شعرها الّذي لم تمسّه الأصباغ الاصطناعيّة، طابع الإخلاص على قصائدها. وكان سلوكها طبيعيّاً، بلا تكلّف، ولكنّها كانت قد أشاعت حولها جوّاً من الغموض. ولم يحدث أن تجاهلت قطّ الهدايا ذات الأهمّيّة الاستراتيجيّة، أو توجيه الدعوات إلى العشاء للشخصيّات ذات المكانة، فاكتسبت إلى صفّها أولئك الّذين كان يمكن أن يتخرّصوا، موغلين في سيرتها. وعلى الرّغم من أنّ كلّ ينابيع المشاعر الحقيقيّة كانت قد جفّت فيها، منذ زمن طويل، إلاّ أنّها احتفظت بلمحة حزن باقية، وبوهم كونها وحيدة.

وبالمقارنة بحزنها فإنّ حزن السيّدة تسوباكيهارا بدا شيئاً يفتقر إلى النّضج. كانت المقارنة قاسية حقّاً. فحزن ماكيكو الجمالي الّذي صفا متحوّلاً إلى قناع، قد أنتج الرّوائع، بينما الحزن المتفجّر الّذي لم يعرف البرء، والّذي تعانيه طالبتها، بقي في حالة بدائيّة، بعيداً عن التشكّل، فلم يقدّم إلهاماً لإبداع شعر مؤثّر. وكان حرياً بالشّهرة المحدودة الّتي تمتّعت بها السيّدة تسوباكيهارا كشاعرة أن تتبدّد في الحال، لولا مساندة ماكيكو لها.

استخصلت ماكيكو الانفعال الشّعري من الحزن الخام الّذي تحسّه هذه الرّفيقة الدّائمة، مقدّمة حزناً مجرّداً لم يعد ملكاً لأحد، وواضعة عليه اسمها. وهكذا فإنّ جوهرة الحزن الّتي لم تصقل اتّحدت بالحرفي البارع ليقدّما روائع لا حصر لها ـ لفاعات أفلحت في إخفاء الجيدَيْن المتقدميْن في العمر اللّذين يلتفّان بها عاماً بعد عام.

ساور ماكيكو شعور بالضّيق لوصولها في وقت مبكر. وقالت ناظرة إلى السيّدة تسوباكيهارا، بجوارها:

ـ لقد انطلق السّائق بالسيّارة بأسرع ممّا ينبغي.

ـ تماماً، فحركة السّير لم تكن مزدحمة كما توقّعنا.

قالت لهوندا:

ـ دعنا نشاهد الحديقة أوّلاً؛ فقد كنا نتطلّع إلى هذا، أرجو ألاّ تهتمّ كثيراً، فلسوف نمضي على مهل في جولة، وربّما نظمنا قصيدة قصيرة.

أصرَّ هوندا على اصطحابهما في الجولة، وحمل معه زجاجة شري وبعض المقبّلات، معتزماً تقديمها في التعريشة، وكان الأصيل قد غدا أكثر دفئاً. وفيما وراء الحديقة الّتي كان يضيق نطاقها وهي تنحدر برفق إلى الوادي، كان بمقدور المرء أن يرى جبل فوجي إلى الغرب وقد اكتسى نقاباً من سحب الرّبيع الّتي تشبه القطن في بياضها. وقد بدت القمّة المتوّجة بالجليد وحدها وكأنّها رسمت بحدّة في مواجهة السّماء اللاّزورديّة.

أوضح هوندا، وهم في الطّريق:

ـ أعتزم، بحلول الصيف، إنشاء حوض للسّباحة، أمام الشّرفة، حيث وكنة الطّيور.

لكن استجابة السيّدتين اتّسمت بالبرودة فساوره، فجأة، شعور بأنّه عامل في نزل يصطحب نزيلتين في جولة، عبر الأراضي التابعة له.

لقد برهن الفنّانون، ومن إليهم، بالنّسبة لهوندا أنّهم أصعب النّاس في التّعامل معهم. وكان قد استأنف علاقاته بماكيكو لدى إقامة الصّلاة التّذكاريّة الخامسة عشرة على روح إيساو، في عام ١٩٤٨،

ولم يكن الشّعر هو السّبب، كما قد يتوقّع المرء. فقد ترعرعت العلاقة الروتينيّة السّابقة بين محام وشاهدة (على الرّغم من أنّها حملت لمسات من التّواطؤ) فأضحت صداقة، ذلك أنّهما كانا يكنّان معاً عاطفة لم يعربا عنها لإيساو. وقد عجز هوندا عن فتح مجال للحديث فطرق موضوع حوض السّباحة الهامشيّ. . ووقفت ماكيكو، وإلى جانبها تلميذتها، وهما تواجهان مشهد جبل فوجي في الرّبيع.

كان يعرف أنّ المرأتين لا تشعران نحوه بالازدراء، ومع ذلك فقد أدرك أنّهما كانتا تحسّان بما يكفي من الارتياح معه للتصرف دونما كبح للنّفس. لقد كان خارج دائرتها، غريباً عن أسلوبها في الحياة. وكان بمقدوره أن يتصوّر في يسر ماكيكو وهي تحادث شخصاً متورّطاً في قضيّة صعبة: «السيّد هوندا صديقي. لا، إنّه لا ينظم الشّعر، ولكنّه قادر على التفهّم، إلى حدّ كبير، وهو ممتاز في القضايا المدنيّة والجنائيّة على السّواء. وسأحدّثه بشأن قضيّتك».

ولكنّ هوندا كان في أعماقه يخشى ماكيكو، وربّما كانت تبادله كذلك خوفاً بخوف. وكانت قد أحيت صلتها به لكيّ تحمي اسمها. ولم يكن هوندا بالّذي تساوره الأوهام عن شخصيّتها الحقيقيّة؛ إذ كان يعرف أنّ بمقدورها الإدلاء بشهادة كاذبة، وطرح أشدّ الأكاذيب قابليّة للتكذيب، في اللّحظة الحرجة.

وأمّا فيما عدا ذلك فقد كان هوندا شخصاً ودوداً، ومقبولاً، بالنّسبة للمرأتين. ولطالما تحدّثتا بحرّيّة أمامه، بينما كانتا تختفيان في الحال وراء ثرثرة اجتماعيّة، لا ضير فيها، عندما تقترب رايي. وقد أحبّ هوندا مراقبة هاتين المرأتين اللّتين كانتا جميلتين يوماً، ولكنّهما ما عادتا في مقتبل العمر، وأحاديثهما الحزينة، المتواصلة، وخلطهما بين

شهوانيّتهما والماضي والذكريات وحقائق الواقع الّتي يجثم بعضها على بعض، وتعوُّدَهما تشويه الطّبيعة والواقع كيفما يحلو لهما. وأحبّ كذلك قدرتهما على إضفاء الطّابع الغنائي التّلقائي على كلّ شيء جميل تريانه، شأن محضر محكمة يوقّع الحجز على كلّ قطعة أثاث يجدها، وكأنّما كانت تلك طريقة لحماية نفسيهما من أيّ جمال قد تلمحانه. وأحبّ هوندا رؤيتهما تلهوان، وتطفران مرحاً، وكأنّهما اثنان من طيور الماء السّابحة الملهمة، ينزلقان عائدين إلى الماء، بعد أن مضيا إلى البرّ متعثّرين، في ارتباك، فيظهران، لدى وصولهما إلى الماء، رشاقة وبراعة غير متوقّعتين وهما يمضيان في السّباحة والغطس. وعندما كانتا تنظمان قصيدة فإنّهما تبديان حرّيّة لا تعرف الحرج، في أخذ حمّام شمسيّ ذهني، دونما خوف من التعرّض للأنظار، النّاجم عن ذلك. وقد أعاد ذلك إلى ذهنه الأميرة الشّابة والوصيفات الكهلات في بانج با إن.

ترى هل ستحضر ينج تشان حقّاً؟ أين أمضت اللّيل؟ لقد دقّ القلق، فجأة، إسفيناً خشبيّاً في ذهنه.

- يا لها من حديقة جميلة! هاكوني إلى الشّرق وفوجي إلى الغرب. إنّها لجريمة أن تضيّع الوقت سدى من دون أن تنظم قصيدة واحدة. وبينما نضطّر نحن إلى نظم الشّعر، تحت سماء طوكيو الملوّثة، تقرأ أنت كتب القانون هنا. يا لها من دنيا ظالمة!

- لقد تخلّيت عن كتب القانون منذ وقت طويل.

قالها هوندا، مقدّماً إليهما بعض الشّري. وكانت حركة أردان الكيمونو، والتحرّك الرّشيق لأصابع المرأتين وهما تتقبّلان قدحي الشّري، بالغي الجمال. وبالفعل فقد قلّدت السيّدة تسوباكيهارا تقليداً حرفيّاً ماكيكو، في ذلك، من الإيماءة المتمثّلة في رفع ردن

الكيمونو عـالياً بخفّـة، إلى الطّريقـة الّتي حنت بها أصـابعها المحـلاّة بالخواتم، لدى التقاطها قدحها.

قالت السيّدة تسوباكيهارا، ذاكرة ولدها الرّاحل:

ـ ما أشدّ ما كان سيحسّ أكيو بالسعادة لرؤية هذه الحـديقة! لقـد كـان يعجب أشـدّ الإعجـاب بجبـل فـوجي، وحتّى قبـل التحــاقـه بالبحريّة، كانت لديه في مكتبـه صورة مؤطّـرة للجبل، لكي يتمكّن، على الدّوام، من التطلّع إليه. يا لها من أذواق شابّة واضحة الآفاق!.

كانت في كلّ مرّة تأتي فيها على ذكر اسمه تترقرق في عينيها دمعتان مواكبتين للنشيج وتمسّان وجنتيهـا، وكأنّ في فؤادهـا آليةُ تـوافقٍ دقيق تنشط لدى كلّ إشارة إليه، مستقلّة عن رغباتها، ومفضية إلى تعبير لا يتغيّر يرتسم على ملامحها. وكما أنّ اسم الإمبراطور يذكر دائـماً، بتعبير متّسم بالتّوقير، فقد كان أثر النّشيج العابر مرادفـاً، على نحـو عمليّ، لاسم أكيو.

فتحت ماكيكو كرّاسة، على حجرها، ونظمت قصيدة.

ـ لقد نظمتِ قصيدة بالفعل!

قالتها السيّدة تسوباكيهارا بـدهشة وقـد تطلّعت عـلى نحو تمـازجه الغيرة إلى رأس معلّمتها المَحْنيّ. وتطلّع هونـدا بدوره فـلاحت لعينيه مؤخّرة عنقها الرّشيقة، البيضاء، المعطّرة الّتي فتنت إيسـاو ذات يوم، وكأنّها قمر آفل.

ـ ذلك هو السيّد إيمانيشي. إنّي على يقين من أنّه هو!

هتفت السيّـدة تسوبـاكيهارا متـطلّعة إلى الـرّجل الّـذي كان يعـبر المرجة. فحتّى من تلك المسـافة، كـان الجبين الأبيض والقـوام المنطلق

بالطّريقة المميّزة غير المتماسكة، جارّاً وراءه ظلّه المترامي، يؤكّدان على نحو واضح أنّه هو القادم في الطّريق إليهم.

قالت السيّدة تسوباكيهارا:

ـ يا للفظاعة! يقيناً أنّه سيسرع في حديثه المبتذل ذلك، لسوف يقضي حالاً على استمتاعنا بوقتنا.

كان ياسوشي إيمانيشي، وهو في حوالي الأربعين من عمره، اختصاصيّاً في اللّغة الألمانيّة، قدّم للقارئ خلال الحرب أحدث الكتّاب الألمان سنّاً، وشرع الآن يكتب دونما تمييز كلّ أنواع المقالات. وهو يعكف حالياً على مطاردة حلمه بكتاب «ألف عام من الجنس» الّذي ينوي تأليفه، غير أنّه لم تظهر حتّى الآن إشارة إلى قيامه بكتابته. وربّما كان قد فقد اهتمامه بكتابته، بعد أن ناقش مع الجميع تفاصيل فحواه. وما كان بمقدور أحد أن يحدّد أهمّيّة هذا الكتاب الغريب، والكئيب، بالنّسبة له. كان ابن رئيس شركة إيمانيشي للإجراءات الأمنيّة، وكان يمضي سادراً في الحياة المريحة الخالية من المنغّصات الّتي يحياها العزّاب.

كان محياه شاحباً وعصبيّاً، ولكنّه كان متجانساً مع نفسه، لا يكفّ عن الثّرثرة، وقد وجده كلّ من العالم المالي وكتّاب الجناح اليساري مسلّياً. فقد كان يشعر حقّاً بأنّه اكتشف للمرّة الأولى في حياته شيئاً يناسب شخصيّته، في مرحلة ما بعد الحرب الحافلة بتحطيم كلّ ما هو تقليدي، المرحلة الموجّهة ضدّ السّلطة والعرف الرّاسخين. وكان هذا هو الصّراع الّذي يخوض غماره المثقّفون الشّاحبون المتجهّمون. وقد قال بالمغزى السّياسي للخيال الجنسيّ المحلّق الّذي تبنّاه باعتباره الجانب الّذي يبرع فيه. وكان حتّى ذلك الوقت رومانسيّاً ينسج على منوال نوفاليس فحسب.

أحبّت النّسوة الطّريقة الّتي اتّبعها في القيام بجرأة بإضافة توابل البذاءات إلى طرقه الأرستقراطيّة في الحديث. وأمّا من وصفوه بأنّه متحلّل فقد كشفوا عن النّهم من بقايا العهود الإقطاعيّة. وفي الوقت نفسه فإنّ إيمانيشي أفلح على الدّوام في إثارة شعور التقدّميين الجادّين بخيبة الأمل، بخريطته السّخيفة الّتي رسمها في «ألف عام من الجنس».

لم يحدث أن تكلّم بصوت عال قطّ، فقد كان ذلك يطرح خطر إبعاد الأمور عن ساحة الشّهوانيّة الرّقيقة، وتحويلها إلى الأيديولوجيا.

أمضى الضّيوف الأربعة وقتهم في التّعريشة، وقد لفّتهم شمس الأصيل وهم ينتظرون مقدم الآخرين. وواصل الصّوت المقرقر للغدير المنساب في الأسفل مباشرة فَرْضَ نفسه على وعيهم. ولم يستطع هوندا إلاّ أن يتذكّر الكلمات: «كلّ شيء في تدفّق دائم كالسّيل».

كان إيمانيشي قد أطلق على مملكته الخياليّة اسم «أرض الرّمّان». خالعاً عليها اسم البذور الصّغيرة، المتدفّقة، الحمراء، كالياقوت، وزعم أنّه قد رحل إلى مملكته في المنام واليقظة، وأخذ الجميع يسأله عن أخبارها:

ـ ما الّذي يحدث في أرض الرّمان هذه الأيّام؟

ـ السّكان، كالمعتاد، تحت السّيطرة تماماً. وتظهر كلّ أنواع المشكلات بسبب النّسبة المرتفعة من الزّنى بالمحارم. وغالباً ما تكون امرأة واحدة عمّةً وأمّاً وأختاً وابنة عمٍ لرجل واحد. وكنتيجة لذلك فإنّ نصف الأطفال الصّغار يتّسمون بجمال يستعصي على التّصديق، بينما النّصف الآخر قبيح ومشوّه.

والأطفال الجميلون من الجنسين معاً يفصلون في الطّفولة عن ذوي القبح، ويتمّ جمعهم في مكان يطلق عليه اسم «حديقة المحبوبين». والتّسهيلات هناك رائعة، فالمكان جنّة فعليّة على الأرض. وتشعّ شمس اصطناعيّة على الدّوام، القدر المثالي من الأشعّة فوق البنفسجيّة، على وجه الدّقّة. وما من أحد يرتدي الملابس، ويكرّس الجميع أنفسهم للسّباحة والتّمرينات الرياضيّة الأخرى، وتتفتّح الأزهار بوفرة، ولا توضع الحيوانات الصّغيرة ولا الطّيور في أقفاص قطّ، ويتناول الأطفال هناك طعاماً شهيّاً، مغذّياً، ولكنّهم لا يميلون أبداً إلى البدانة لأنّ الأطبّاء يفحصونهم، كلّ أسبوع، فحصاً طبيّاً، وليس بمقدورهم إلاّ أن يزدادوا جمالاً على جمال. وأمّا القراءة فمحظورة، على نحو صارم، فهي تفسد الجمال الطّبيعي؛ ولذا فإنّ هذا التّحريم أمرٌ معقول.

ولكنّهم عندما يصلون إلى سنّ المراهقة، يجلبون من الحديقة مرّة كلّ أسبوع؛ ليصبحوا موضوعات للتّرفيه الجنسيّ عن ذوي القبح خارج الحديقة. وبعد عامين أو ثلاثة أعوام من مثل هذا النّوع من النّشاط، يتمّ القضاء عليهم. ألا تظنون أنّه من قبيل الحبّ الأخوي القضاء على الحياة والجميلون مايزالون في مقتبل العمر؟

وتستخدم كلّ القوى الإبداعيّة لجميع فنّاني هذه الأرض في إبداع أساليب متنوّعة للقتل، أي أنّ هنالك مسارح على امتداد البلاد، مخصّصة للقتل الجنسيّ العمد، يقوم فيها الجميلون، من الفتية والفتيات بمختلف أنواع الأدوار الّتي يعذّبون خلالها، حتّى الموت، وهم يعيدون بعث كلّ أنواع الشّخصيّات التّاريخيّة والأسطوريّة الّتي لقيت حتفها على نحو سادي وهي في مقتبل العمر وعلى قسط كبير من الجمال. ولكن، هناك بالطّبع كثير من الإبداعات الجديدة أيضاً،

فهم يقتلون بصـورة نبيلة في مـلابس رائعـة مثـيرة، وتحت إضـاءة خلاّبة، وفي منـاظر مسرحيّـة باهـرة، وعلى أنغـام موسيقى مـدهشة، ولكن يتمّ العبث بهم عادة على يد الجمهور، قبل أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة، وبعد ذلك تُلتهم الأجسام التهاماً.

القبور؟ إنّها خارج «حديقة المحبوبين» مباشرة. وهي مكان جميـل يتريّض فيه ذوو القبح، المشوّهون، وسط المقابر، في اللّيالي المقمـرة، وقـد استبدّت بهم حـالات رومانسيّـة. ولّما كـانت تمـاثيـل الجميلين تنتصب كشواهد للمقابر، فليست هناك مقبرة في العالم تضمّ مثل هذا الحشد من الأجسام الجميلة.

ـ لماذا يتعينّ عليهم قتلهم؟

ـ لأنّهم سرعان ما يضجرون من الأحياء.

ويتّسم النّاس في أرض الرّمان، بحكمة لا نهاية لها، فهم يعـرفون حقّ المعـرفـة أنّ هنـاك دورين فحسب للبشر في هـذا العـالم: الّـذين يذكرون، والّذين يجري تذكّرهم.

الآن، وقد حدّثتكم بهـذا كلّه، يتعينّ عـليّ إبلاغكم بـأمر دينهم. فمثل هذا العرف يقوم على أساس المعتقد الدّيني.

إنّهم، في أرض الرّمان، لا يؤمنون بالبعث. ولأنّ الـربّ يتجلّى في اللّحظة الفائقـة الّتي تمثّلها الـذروة الجنسيّة، فليس هنـاك احتمال لأن يصبح المرء أكثر جمالاً بعـد البعث، وذلك يعني أنّ العـودة للحياة لن يكون لها معنى. وممّا لا مجال للتّفكـير فيه أنّ القميص الخَلَق سيكـون أشـدّ بياضـاً من القميص الجديـد. أليس كذلـك؟ ولذا فـإنّ أرباب أرض الرمّان يُستخدمون مرّة واحدة، ثمَّ يُطاح بهم بعيداً.

ودين هذه البلاد يقوم على تعدّد الألهة، ولكن على نحو دنيويّ، ويبدِّد عدد لا حصر له من الأرباب وجودهم البدنيّ الكليّ، فيختفون بعد أن يعبّروا عن هذه اللّحظة الأسمى في الخلود. وها أنتم الآن تعرفون أنّ «حديقة المحبوبين» هي مصنع لإعداد الأرباب.

ولتحويل التّاريخ في هذا العالم إلى سلسلة من الأحداث الجميلة، فإنّ تضحية الأرباب لابدّ أن تستمرّ بلا انتهاء. ذلكم هو اللاّهوت. ألا تظنونه عقلانيّاً؟ وفضلاً عن ذلك فإنّ النّاس لا يظهرون نفاقاً على الإطلاق، وهكذا فإنّ الجمال والجاذبيّة الجنسيّة يغدوان اسمين لمسمّى واحد. وهم يدركون حقّ الإدراك أنّه من خلال الرّغبة الجنسيّة وحدها يمكن أن يصل المرء إلى الربّ، أيّ إلى الجمال.

يمتلك المرء ناصية ربّ من خلال الرّغبة الجنسيّة، ويحدث التملّك الجنسي في ذروة اللّذّة. ولكن هزّة النّشوة لا تدوم، ومن هنا فإنّ التملّك لا يمكن إلاّ أن يعني شيئاً واحداً: توحّد ما لا يدوم مع سرعة زوال موضوع الرّغبة الجنسيّة. وأضمن الأساليب هو القضاء على هذا الموضوع في لحظة الذّروة، ومن ثمّ فإنّ أبناء البلاد يدركون بوضوح أن التملّك الجنسيّ يكتمل بالقتل والتهام اللّحم البشري.

ومن المؤكّد أنّه من العجيب أن يسيطر لغز التملّك الجنسيّ حتّى على الهيكل الاقتصادي للبلاد، فالقاعدة الرئيسيّة للتملّك هي «قتل المحبوب» وتعني أنّ اكتمال أيّ تملّك مفاده القضاء في الوقت نفسه على عمليّة التملّك، والتملّك المتواصل هو انتهاك للحبّ، والعمل البدني لا يسمح به إلاّ لإبداع أجسام جميلة، ويُعفى ذوو القبح منه. والعمل الصّناعي يتمّ أوتوماتيكيّاً بالكامل ولا يتطلّب قوّة بشريّة. الفنون؟ إنّ الفنّ الوحيد موجود في التنوّع اللاّمتناهي لمسرح القتل

وكذلك في إقامة التّماثيل للموتى الجميلين. ومن وجهة النّظر الدّينيّة، فإنّ الواقعيّة الحسيّة هي الأسلوب الأساسيّ، والتّجريد مرفوض رفضاً تامّاً وإدماج «الحياة» في الفنون محظور على نحو صارم.

إنّ سبيل الوصول إلى الجمال هو الرّغبة الجنسيّة، ولكن ما يسجّل أبد الدّهر في لحظة الجمال تلك لا يعدو أن يكون الذّاكرة... والآن فإنّكم حقّقتم تفهّماً تقريبياً للهيكل الأساسيّ لأرض الرمّان، فيما أعتقد. فالمفهوم الأساسي هو الذّاكرة، وإذا جاز القول، فإنّ الذّاكرة هي سياسة قوميّة.

وهذه النّشوة، وهي ظاهرة تشبه إلى حدّ ما بلورة جسديّة، تزداد تبلوراً في الذّاكرة، وبعد موت ربّ الجمال، يستطيع المرء استعادة ذكرى أسمى درجات الاستثارة الجنسيّة. وما حياة النّاس إلاّ رحلة لبلوغ هذه النّقطة. ومقارناً بهذه الجوهرة السّماويّة فإنّ وجود البشر، سواء أكانوا محبّين أم محبوبين، قتلة أم مقتولين، لا يعدو أن يكون الوسيلة لبلوغ هذه النّقطة. وهذا هو مَثَل البلاد الأعلى.

إنّ الذّاكرة هي المادّة الوحيدة لروحنا. وحتّى إذا قدّر لإلّه أن يتجلّى في ذروة التملّك الجنسي، فإنّ ذلك الربّ يصبح «المتذكّر» ويغدو العاشق هو «الذّاكر». ومن خلال هذه العمليّة الّتي تلتهم الوقت التهاماً فحسب، تتمّ البرهنة حقّاً على وجود الربّ، ويتمّ الحصول على الجمال للمرّة الأولى، وتتحوّل الرّغبة الجنسيّة إلى حبّ مستقل عن التملّك. **ومن هنا فإنّ الآلهة والبشر لا ينفصلون في المكان، ولكنّ هناك فاصلاً زمنيّاً بينهم**. وهنا يكمن جوهر تعدّد الآلهة الدنيويّ. هل تفهمون ما أعني؟

يبدو القتل شيئاً ضارياً، ولكنّه ضروريّ لتطهير الذّاكرة

وتصفيتها، لتغدو العنصر الأقوى تركيزاً. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ هؤلاء السكّان المتّسمين بالقبح والمشوّهين نبلاء، نبلاء حقّاً. فهم خبراء في إيثار الآخرين على أنفسهم، وهم يحيون من أجل إنكار الذّات. هؤلاء العشّاق، القتلة، الذّاكرون، يعيشون أدوارهم بإخلاص، فهم لا يتذكّرون شيئاً عن أنفسهم، وإنّما يحيون فقط في تبتّل وهيام بذكرى الموت الجميل الّذي لقيه المحبوبون. ويصبح التذكّر المهمّة الوحيدة لحياتهم. وأرض الرمّان هي أيضاً بلاد أشجار السّرو، وذكريات الموت الجميلة، والحداد، إنّها أكثر الأمكنة سلاماً وسكينة، في الدنيا بأسرها، إنّها أرض التذكارات.

وفي كلّ مرّة أمضي فيها إلى هناك، أحدّث نفسي بأنني لا أرغب في العودة أبداً إلى مكان كاليابان. فهذه الأرض حافلة بأعذب عناصر الإنسانيّة. وأرقّها. إنّها بلاد النزعة الإنسانيّة والسّلام الحقيقيين، وليست لدى أبنائها عادة وحشيّة كعادة أكل لحوم الثيران والخنازير.

سألته ماكيكو، مداعبة:

ـ أودّ أن أسألك عن شيء واحد. تقول إنّهم يأكلون لحوم البشر، ولكن أيّ أجزاء الجسم البشري يأكلون؟

قال إيمانيشي بصوت هادئ خفيض:

ـ إنّك تعلمين حقّ العلم من دون أن تسألي.

حدّث هوندا نفسه بأنّه أمر أكثر من فكاهي أن يكون بمقدور قاضٍ سابق الاستماع، دون أن يُبدي حراكاً، لمثل هذا النّوع من الحديث. فلم يسبق أن خطر له، حتّى في أحلامه، أنّ رجلاً مثل إيمانيشي يمكن أن يكون على قيد الوجود، ولو أنّ عالِم الإجرام سيزار لمبروزو قابله لأمر بطرده في الحال من رحاب المجتمع.

أصيب هوندا بالتقزّز من اهتمامات إيمانيشي المنصبّة على الجنس، غير أنّه هو نفسه انغمس في نوع آخر من الاهتمامات. ولو أنّ هذا لم يكن نتاجاً لخيال إيمانيشي، فإنّه ينبغي عليهم جميعاً أن يكونوا سكّاناً لأرض الآلهة، ذات الألف عام من الجنس. لقد كانت ملهاة مسرحيّة إلهية أن جعل الله هوندا يواصل العيش، باعتباره من سيتذكّر، وقضى على كيواكي وإيساو جاعلاً إيّاهما من سيكونان موضعاً للتذكّر. ولكن إيمانيشي ذكر أنّه ليس هناك بعث. وربّما تكون السّمسارة فكرة تقف موقف التضادّ مع البعث وربّما تمثّلت خاصيّتها في ضمانها عدم حدوث الحياة إلاّ مرّة واحدة. وبصفة خاصّة أرغمت فكرة إيمانيشي القائلة بأنّ هناك فاصلاً زمنيّاً بين الوجود الإنساني والإله، وأنّه ليس بوسع الإنسان لقاء الإله إلاّ في الذّاكرة ـ هوندا على التطلّع وراءه، إلى حياته ورحلاته، وأثارت فيه شيئاً هائلاً، ومفعماً بالحنين، على نحو غامض.

أيّ رجل هو إيمانيشي ذاك!

لقد عرّى للشّمس عامداً تشوّهات داخليّة، سوداء، بل واستشعر السّرور، في غمرة قيامه بذلك. وراهن بكلّ شيء على تركيب محيّاه اللاّمبالي، واصفاً سواده للآخرين، وكأنّما الأمر لا يعنيه على الإطلاق.

كان هوندا، بعد أن عاش طويلاً جزءاً من عالم القانون، يخفي في قرارة فؤاده احتراماً رومانسيّاً للمجرم الواثق بنفسه. والحقّ أنّ المجرم الواثق بنفسه بالغ النّدرة. إنّه لم يحدث حقّاً أن قابل شخصاً يمكن أن يُصنَّف في هذه الفئة، باستثناء إيساو.

وانبنى على ذلك أنّ هوندا، كان يخفي في أعماقه مشاعر الكراهيّة والازدراء لمرتكبي الجرائم النّادمين عليها.

ترى أيّهم كان إيمانيشي؟

ربّما لم يقدّر له النّدم قطّ، ولكنّه كان يفتقر تمام الافتقار لنبل المجرم ذي المبادئ. وكان يحاول، من خلال غروره وتعقّده الذّهنيّ، أنّ يُضفي الجمال على وضاعة رجل اعترف بجرمه، وسعى على هذا النّحو للحصول على ميزة كلّ من الاعتراف والتعقُّد الذّهني. يا لقبح هذا النموذج التّشريحي الشفّاف! ورغم ذلك فقد رفض هوندا بإصرار الاعتراف بالحقيقة القائلة بأنّه قد اجتذبه إيمانيشي إلى حدٍّ ما، وأنّ الدّعوة الّتي وجّهها إليه للحضور إلى الدّارة تضرب جذورها في نوع من جسده لشجاعته. وفضلاً عن ذلك فإنّ إخفاءه لهذا لم يكن راجعاً إلى غروره وثباته في التدنّي بذاته إلى وضاعة شخص اعترف بجرمه، وإنّما كان، دونما شكّ، بسبب خوفه من عيني إيمانيشي اللّتين تشبهان أشعّة إكس. وكان هوندا قد أطلق سرّاً على خوفه هذا اسم «مرض الموضوعيّة». وكان هذا هو الجحيم المطلقة المترعة بالمباهج السّارة الّتي يتردّى إليها في نهاية المطاف، الإدراك الّذي يرفض التحرّك.

حدَّث هوندا نفسه وهو يتطلّع مراراً وتكراراً إلى صورة إيمانيشي الجانبيّة وكان هذا قد عكف على التحدّث، في ظفر، إلى المرأتين بأن لهذا الرّجل عينين تشبهان عيني السّمكة.

لم يكتمل عقد الضّيوف جميعاً إلاّ بعد أن صبغت الشّمس السّحب الممتدّة إلى يسار جبل فوجي.

وعندما شقّ أربعتهم طريقهم من التّعريشة إلى الدّارة، كان

الملازم، بالجيش، عشيق كيكو، يعكف على مساعدتهم في المطبخ. وبعد وقت قصير، وصل الشّريف والشّريفة شينكاوا اللّذان تقدّم بهما العمر، ثمَّ بفاصل بين أحدهم والآخر، توافد ساكوراي، وهو دبلوماسي، وموراتا، وهو رئيس شركة مقاولات، وأكيكو كايويا، وهو مغنٍّ اشتهر بأداء الأغاني الفرنسيّة، والرّاقصة اليابانيّة التقليديّة إيكوكو فوجيما. وكان تجمّع مثل هذه المجموعة من الضّيوف الّتي لا رابط بين أفرادها أمراً لا يمكن أن يخطر على بالٍ حدوثُه في دار هوندا السّابقة. وكان فؤاد هوندا كذلك مثقلاً، إذا لم يبد أثر لينج تشان.

- ٢٦ -

أفرد للشّريف السّابق شينكاوا مقعد، بجوار المدفأة، فأخـذ يرقب منه الضّيوف الآخرين في فتور.

كـان الآن في الثّانيـة والسّبعين. ومـا إن يُتركُ في داره حتّى يـأخـذ بالتذمّر والشّكوى؛ فلم يكن بمقدوره التخلّي عن متعـة الخروج، وحتّى في عمره ذاك لم يكن عشقه للحفلات قد تـراجع. وقـد شعر بضجـر بـالغ، خـلال عمليّات التّـطهير الّتي أعقبت الحـرب، وسقط فريسـة لعادة قبول كلّ الدّعوات الّتي توجّـه إليه، واستمـرّ هذا متـواصلاً إلى سنوات ما بعد التّطهير.

ولكنّ الجميع، الآن، يعتبرونه وزوجته الثّرثارة أشدّ الضّيوف إثارة للضّجـر، إذ فقدت سخـريته طـابعهـا الـلاّذع، وأصبحت تعبـيراتـه السّاخرة سحطيّة وطويلة إلى حدّ الإملال. ولم يكن بمقدوره قطّ تـذكّر أسماء النّاس.

- ذلك... ماذا كان اسمه؟.. إنّي أتذكّر... كان غالباً ما يُصوَّر في الرّسوم الهجـائيّة السيـاسيّة... ألا تـذكرون؟... رجـل صغير، سمين، مستدير، مثل كرة الزّبـد.. ماذا كـان اسمه؟... إنّـه اسم مألوف تماماً...

ومـا كان بمقـدور من يستمعون إلى شينكـاوا إلاّ أن يتبيّنوا معـركته الّتي يهـزم فيها أمـام وحش النسيان الخفيّ. وبـين الفينـة والأخـرى، ينسحب هـذا الوحش الهـادئ، وإن كان عنيـداً، لا لشيء إلاّ ليعاود الـظّهـور في الحـال، آخـذاً بخنـاق شينكـاوا، مـداعبـاً جبينـه بـذيله الأشعث.

وفي نهاية المطاف، يستسلم شينكاوا، ويواصل سرد حكايته:

ـ . . . أيّاً كان الأمر فقد كانت زوجة هذا السّياسي امرأة متميّزة.

ولكنّ الحدث الّذي يغيب عنه اسم أهمّ الشّخصيّات يغدو بلا طعم. وفي كلّ مرّة كان يلطم الأرض بقدمه، في ضيق بالغ، وقد اشتدّ به الحرص على أن ينقل للآخرين طعم الحكاية، الّذي كان بمقدوره وحده أن يتذوقّه. وعندئذٍ يساوره إحساس يشبه شعور المتسوِّل، وهو إحساس لم يسبق له قطّ أن عرفه. وفي غمرة جهده المحتدم للعثور على من يقدّر نكاته البسيطة القائمة على التّلاعب بمعاني الكلمات، وكأنّه يستجدي التفهّم، أصبح دونما وعي منه خنوعاً ومتذلِّلاً.

لقد اضطر، على نحو يدعو للرثاء، إلى تمزيق الكبرياء الرّفيقة الّتي طالما تميّز بها، وأصبح مناط اهتمامه الرئيسيّ تدريجيّاً أن يعتصم بموقف قوامه الازدراء ـ وهو شيء كان يظهره على نحو عابر على طرف أنفه وكأنّه دخان سيجار في الأيّام الخوالي. ولكنّه تجشّم في الوقت نفسه عناء كبيراً في تجنّب الكشف عن هذا الازدراء الخفيّ لأحد، إذا كان يخشى ألّا يتلقّى دعوات أخرى.

وكان في قلب حفلٍ ما يجذب ردن رداء زوجته، بين الفينة والأخرى، ويهمس في أذنها:

ـ يا لها من شرذمة جديرة بالازدراء، إنّهم لا يعرفون مبادئ كيفيّة الحديث عن الفظّ من الأمور بأسلوب راقٍ. إنّ القبح الياباني بلغ من الكمال حدّاً يؤثّر معه في النّفس تقريباً. ولكن ينبغي ألّا تدعيهم يشكّون في الطّريقة الّتي ننظر بها إليهم.

تألّقت عينا شينكاوا، فجأة، أمام ألسنة اللّهب المتوهّجة، في

المدفأة، فقد استعاد ذكرى الحفل الّذي أقيم في حديقة دار الأمير ماتسوجاي، قبل أربعين عاماً، وتذكّر، في فخر، أنّه هنالك أيضاً لم يساوره إلّا الشّعور بالازدراء لمضيفه.

لكن شيئاً واحداً فقط قد تغيّر، ففي الأيّام الخوالي لم يكن بمقدور من يتّخذه موضعاً لازدرائه أن يلحق الضّرر به، وأمّا الآن فإنّ مجرّد كونه هناك كان يجرحه بعمق.

أمّا السيّدة شينكاوا فقد كانت مفعمة بالحيويّة.

لقد ألفت، في سنّها تلك، اهتماماً غير قابل للتّحديد بالحديث عن نفسها. وتناسق بحثها عن مستمعين لها، على نحو جميل، مع محاولة إلغاء التميّزات الطبقيّة الّتي كانت أسلوباً عصريّاً، في ذلك الوقت. ولم يحدث أن اكترثت قطّ بنوعيّة من يصغون إلى حديثها.

أخذت تكيل مجاملات مثقلة بالمبالغة لمغنّي الأغنيات الفرنسيّة، وكأنّها تحدّث أحد أفراد العائلة المالكة، وفي مقابل ذلك وجدت من يستمع إليها. ومضت، دونما خجل، تكيل الثّناء لقصائد ماكيكو كيتو، ثمَّ فرضت حكايتها الخاصّة على المرأة المسكينة ـ فقد جاملها رجل إنجليزي ذات مرّة، ووصفها بأنّها شاعرة. وقد أدلى بهذا الوصف، عندما قارنت سحب أواخر الصيف، فوق جبل كاريوزاوا، بإحدى لوحات سايسلي.

وشرعت تتحدّث، بدافع من حدس خفيّ رهيب من نوع ما، عن حفل الحديقة الّذي أقيم في ضيعة آل ماتسوجاي، وانضمامها إلى زوجها بجوار المدفأة:

ـ عندما أعود بذهني إلى الوراء، أجد أنّ تلك الأيّام كانت غبيّة، وخالية من التحضّر، فقد كان كلّ ما تعنيه إقامة الحفلات المترفة هو

جلب بضع راقصات من فتيات الجيشا، وعزف الموسيقى في الدّار. ما كان أبعد النّاس عن القدرة على التخيّل وقتذاك! لابدّ لي من القول بأن اليابان قد أحرزت شوطاً على طريق التقدّم. فقد مضى عهد العادات البربريّة، وأصبح من الأمور العاديّة إشراك الزّوجات في الأمور الاجتماعيّة. انظروا إليهنّ! إنّ النّسوة، في هذا الحفل، لم يعدن يلزمن الصّمت. وقد كانت الأحاديث الّتي تدور في حفلات الحدائق في العادة مضجّرة على نحو مؤلم، ولكنّ النّساء الآن يتحدّثن بلمّاحية بالغة.

ولكن كان من المشكوك فيه أن تكون قد أصغت مرّة واحدة إلى حديث جرى به لسان، سواء في الوقت الرّاهن، أو في أيّ وقت خلال الأربعين عاماً الماضية. فهي لم تحاول قطّ الحديث عن أيّ شيء آخر باستثناء ذاتها.

تركت السَّيِّدة شنيكاوا، فجأة، موضعها إلى جوار زوجها، وألقت نظرة على مرآة قائمة معلّقة على الحائط. ولم يحدث قطّ أن أخافها النّظر في المرآة، فقد كانت كلّ المرايا بمثابة سلال مهملات تلقي فيها بتجاعيدها خلال وقوفها أمامها.

وعكف جاك، الملازم الأوّل بسلاح الإمداد والتموين، على العمل بمزيد من الاجتهاد. وأخذ الضّيوف يتطلّعون بسرور إلى هذا العضو في «قوّات الاحتلال» الّذي بدا رقيقاً ومواليًا، ومضت كيكو تعامله بترفّع، وبمهارة ملكيّة لا نظير لها.

وفي بعض الأحيان، كان جاك يمدّ ذراعه، ويحيطها من الخلف، متحسّساً، في خبث، نهدها، فتسمح لنفسها بابتسامة هادئة، ساخرة، وهي تقبض على أصابعه المشعرة المحلاّة بالخواتم.

ـ يا له من طفل! إنّه ممن لا سبيل إلى إصلاح أمرهم.

قالتها بنغمة جافّة، ذات طابع تعليمي، متطلّعة حولها إلى الجميع. وكانت مؤخّرة جاك الّتي يضمّها زيّه العسكريّ، مترامية الأطراف، وقد مضى الضّيوف في مقارنتها بعجيزة كيكو الوافرة، منهمكين في جدال عن أيّهما أكبر.

وكانت السيّدة تسوباكيهارا ماتزال منهمكة في الحديث مع إيمانيشي. وقد أدهشها أن تلتقي للمرّة الأولى بشخص يسخر كلّ السّخرية من حزنها الأثير، ولكنّها لم تغيّر أدنى تغيير من تعبير الحداد الأبله المرتسم على محيّاها.

ـ أيّاً كان مقدار حزنك فإنّ ابنك لن يعود مجدّداً إلى رحاب الحياة، وفضلاً عن هذا، فإنّ في قلبك كيساً مطاطيّاً، مليئاً للغاية بالحزن، بحيث لا يمكن أن يدخله شيء آخر، وذلك يمنحك شعوراً بالأمان. أليس كذلك؟ دعيني أكون أكثر وقاحة: إنّك تعتقدين أنّه ما من أحد يمكن أن يسدي إليك الجميل المتمثّل في ملء كيسك المطاطيّ، وهكذا فإنّك تقومين بملئه بنفسك بغاز الحزن المحضّر منزليّاً، وتضخّينه فيه بلمحة خاطفة واحدة. وذلك يخلّصك من الخوف من أن يضايقك أيّ انفعال آخر...

ـ يا له من أمر فظيع تتقوّله! يا للقسوة...

نظرت السيّدة تسوباكيهارا، رافعة وجهها من المنديل الّذي كتمت فيه نشيجها، إلى إيمانيشي، فحدّث نفسه بأنّ النّظرة المرتسمة في عينيها هي نظرة فتاة بريئة، صغيرة، تتوق إلى أن تُغْتَصَب.

ومضى رئيس شركة موراتا للمقاولات يطرح شكوى تتّسم بالمغالاة على مسامع شنيكاوا، مشيداً به، باعتباره راعياً كبيراً في عالم المال.

وقد أثار ضيق شنيكاوا أن يصنّف في الفئة الّتي ينتمي إليها هذا المقاول المبتذل. وكان موراتا قد أقام لافتات هائلة تحمل اسمه في كافّة مواقع البناء التّابعة للشركة، وكان هذا الإعلان عن النّفس منتشراً في كلّ مكان. ولكنّه كان يبدو أبعد النّاس عن أن يكون خبيراً بأعمال المقاولات. فقد كشف محياه الشّاحب، المسطّح، عن ماضيه، باعتباره بيروقراطيّاً ينتمي إلى مرحلة الإصلاح السّابقة للحرب. وكان مثاليّاً، عاش متطفّلاً على الآخرين. وما إن توقّف عن التشبّث بهم، وحقّق نجاحاً مستقّلاً في مجال الأعمال، حتّى اكتشف محيطاً متألّقاً، رحباً، يمكن لجهله المطبق الكامن أن يطلق فيه لنفسه العنان دونما ضوابط. وقد اتّخذ من الرّاقصة إيكيكو فوجيما خليلة له. وكانت إيكيكو ترتدي كيمونو رائعاً، منسوجاً من الحرير وخيوط اللّك، وقد تألّقت ماسة من ذوات الخمسة قراريط في إصبعها، وكانت عندما تضحك ينتصب عنقها وظهرها متصلّبين.

كرّر موراتا على مسامع هوندا، ثلاث مرّات على الأقلّ، قوله:

ـ دارة بالغة الرّوعة، يا سيّدي، ولكن حبّذا لو أنّك تركتني أشيدها لك، لكان بمقدوري أن أوفّر لك كثيراً من المال. يا للعار!

عكف الدّبلوماسي ساكوراي والصحافي المخضرم كاواجوتشي على مناقشة المشكلات الدّوليّة، وقد توسّطتهما أكيكو كايويا. وقدّمت بشرة ساكوراي، الشّبيهة بجلد الأسماك، وبشرة كاواجوتشي الّتي ترك الزّمن بصمته عليها وأفسدها السّاكي، مفارقة بارزة بين كلّ من الرّجلين ومهنته، فأحدهما بارد، والآخر ناري المزاج، وقد أخذا يناقشان مشكلات ثقيلة العيار، على نحو ما يميل الرّجال إلى فعله بوجود النّساء، في محاولة منهما للتّأثير على المغنيّة أكيكو. غير أنّها كانت، من ناحية أخرى، غافلة تماماً عن هذا التّنافس المراوغ

والغرور الفارغ، عاكفة باستمرار على تناول قطع المقبّلات، متطلّعة بعينيها السّوداوين المترعتين بالاكتئاب مرّة إلى الشّعر الأشيب الأشعث وأخرى إلى الرأس المعتنى به على نحو فائق. ثمّ كانت تحوّل شفتيها لتتّخذا شكلاً دائرياً، وتلقي قطعة مقبّلات إثر أخرى بين شفتيها الشّبيهتين بالسّمك الصّغير الذّهبي.

تجشّمت ماكيكو كيتو عناء الذّهاب إلى إيمانيشي ومحادثته، قائلة:

- إنّ لك أغرب الأذواق.

- هل يتعينّ عليّ الحصول على إذن منك، في كلّ مرّة أضاجع فيها تلميذتك؟ الأمر يبدو كما لو كنت أضاجع أمّي، إذ يساورني شعور بنوع من الهزّة المقدّسة. وعلى أيّة حال فإنّني لن أرتكب غلطة مضاجعتك، فرأيك فيَّ مكتوب على كافّة ملامحك. إنّني من النّوع الّذي يثير تقزّزك أكثر من أيّ شيء آخر. صحيح؟

- إنّك تعرف أنّك تثير تقزّزي.

ساور ماكيكو شعور بالارتياح، وتحدّثت بصوت بالغ الجاذبيّة، ثمّ ضربت بينهما بستار من الصّمت حاكى الحافّة السوداء لحصيرة تاتامي.

- حتّى إذا أفلحت في مضاجعتها، فلن يكون بمقدورك أبداً القيام بدور ابنها. ذلك أنّ ابنها الرّاحل بالغ القداسة والجمال بالنّسبة لها، إنّها كاهنة مقدّسة تعكف على خدمته.

- طيّب، لست أدري، فكلّ شيء يبدو لي مريباً. ومن الهرطقة أن يواصل شخص على قيد الحياة التمسّك بالمشاعر المحضة والإعراب عنها.

- ذلك هو السرّ في قولي إنّها تخدم العاطفة المحضة نحو الميت.

- إنّها تقوم بذلك على أيّة حال استجابة لضرورة الحياة. وذلك يجعل الأمر مريباً بالفعل.

نظرت ماكيكو إليه شزراً، وضحكت بازدراء مطلق.
ـ ليس هناك رجل حقيقيّ في هذه الحفلة.

قالتها ماكيكو وتركت إيمانيشي إذ ناداها هوندا. وجلست السيّدة تسوباكيهارا، على حافّة الأريكة المنحوتة في الجدار، منخرطة في البكاء، وهي تستند إليها بظهرها. وفي الخارج، كان هواء اللّيل بالغ البرودة وقد سالت قطيرات مكثّفة من الرّطوبة على زجاج النّوافذ.

اعتزم هوندا أن يطلب من ماكيكو العناية بأمر السيّدة تسوباكيهارا. فلو أنّ دموعها قد نبعت من ذكرياتها المؤلمة على نحو يقل عن تفجّرها من القدر المحدود الذي تناولته من الشّراب، لكان معنى ذلك أنّها يمكن أن تكون من النّوع الّذي تثور عواطفه بفعل الشّراب.

دنت رايي من هوندا وقد شحب وجهها وهمست في أذنه:
ـ ثمّة ضجّة غريبة بدأت منذ وقت قصير في الحديقة... أتساءل عمّا إذا كنت أسمع أصواتاً وهميّة.
ـ هل تطلّعت إلى الحديقة؟
ـ لا، لقد خفت القيام بذلك.

اتّجه هوندا إلى إحدى النّوافذ ومسح بأصابعه البخار الملتصق باللّوح الزجاجي. وفيما وراء العشب الذي كساه الثّلج، وفوق أشجار السّرو لاح الهلال. ومضى كلب ضال يستطلع، متطفّلاً، جارّاً وراءه ظلّه. ثمّ توقّف، وقد التوى ذيله مرتفعاً إلى أعلى، وبرز صدره الأشهب المشعّث الشّعر الّذي تألّق في سنى الهلال، وأخذ ينبح على نحو يوحي بالحداد.
ـ هذا هو الأمر. أليس كذلك؟

قـالها هـوندا، سـائلاً زوجتـه. لقد تمَّ الكشف عن سبب خـوفها الـطّفولي بسهـولة بـالغة، ولم تـوافق عـلى ذلـك تـوّاً، ولكنّهـا اكتفت بالابتسام ابتسامة غامضة متردّدة.

وفيما أصاخ هوندا السّمع، ترامت إليه استجابة كلبين أو ثلاثة من وراء أجمّة السّرو.

وكانت الرّيح قد اشتدّ عنفوانها.

- ٢٧ -

انتصف اللّيـل. وطفق هونـدا يرقب من نـافـذة مكتبـه، بالطّابق الثّاني، هلالاً شجيّاً يعبر صفحة السّماء. ولم يكن قد ظهر أثر لينج تشان، وإنّما جاء القمر بدلاً منها.

انتهى الحفـل قـرب منتصف اللّيـل، ولم يبق إلاّ الضّيـوف الّـذين سيمضـون اللّيلة بالـدّارة، وقد تجمّعـوا في حلقة صغـيرة، وانسحبـوا تـدريجيّـاً إلى الغـرف الّتي خصّصت لهم. وبعـد غـرفتي الضّيـوف في الطّابق الثاني، هنالك مكتب هـوندا، وتعقبـه غرفـة النّوم الـرئيسيّة. وبعد أن ودّعت رابي الضّيوف حلّ بها الإرهـاق، ساريـاً بنبضاتـه في جسمهـا حتّى أطراف أصـابعها المتـورّمة ذاتهـا. وإذ جلس هونـدا في مكتبـه وحيداً فقد مضى ظهرا يـديها، حيث بلغ التـورّم حدّ صـدور لمعان كئيب عنهما، يتراءيان له. وكانت رابي قد أطلعته عليهـما، وقد غمرها شعور بالظّفر.

كـانت العلّة المنتشرة بالـدّاخل قـد اندفعت إلى الخـارج، فجعلت جلدها يتورّم، وأزالت الزّوايا من يديها اللّتين اتّخذتا مظهراً طفوليّـاً، منتفخاً، على نحو غريب، ظلّ يلازم ذاكرة هوندا وقتاً طويلاً. وكـان قد اقترح احتفـالاً خاصّـاً في غرفتهـما، بمناسبـة تدفئـة الدّارة، ولكن اقتراحه قوبل بالرّفض. ولو أنّ اقتراحه لم يواجـه بالنّقض، فـما الّذي كـان يمكن أن يحدث؟ لابـدّ أنّ شيئاً كئيبـاً يتـدفّق تحت دهن الـرّقـة والتّعاطف ذاك، المثير للغثيان، القابع تحت الجلد.

تطلّع هوندا حوله في مكتبه المصمّم عـلى الطّراز الغـربيّ، بنافـذته

الضخمة وقمطره المتألّق. لم يكن المكتب على هذا النّحو قطّ عندما كان يعمل بجدّ حقّاً، وإنّما كانت به وقتذاك فوضى لا سبيل إلى التحكّم فيها، فوضى تشبه فوضى المعيشة ذاتها، وتفوح برائحة تشبه رائحة خنّ دجاجة. وأمّا الآن فقد وُضع على القمطر ذي التّصميم الفنّيّ المصنوع من كتلة واحدة من شجرة زلكوفا، طاقم أدوات كتابيّة من جلد الماعز ووُضع في المقلمة عدد من الأقلام ذات الأطراف المدبّبة، وكلّها في صفّ واحد. وكان فوقه أوراق رسائل تتألّق في حدّة وكأنّها الشارة على ياقة طالب بكليّة عسكريّة. وهناك أيضاً مثبّتة الورق البرونزيّة، على شكل تمساح أميركي ـ وقد ورثها عن أبيه ـ وحافظة خاوية للرّسائل صنعت من الخيزران المضفور.

نهض من مقعده مراراً وتكراراً عابراً الغرفة ليمسح البخار عن زجاج النّافذة النّاتئة إلى الأمام، الّتي لم تكن ستائرها قد أسدلت بعد، ذلك أنّ القمر الّذي كان يبدو متألّقاً عبر الزجاج ضبّبته وشوّهته الحرارة الجاثمة في الغرفة. وكان على يقين من أنّه ما لم يسمح للقمر بأن يظلّ جليّاً فإنّ الخواء والاشمئزاز اللّذين يغمران فؤاده سيفيضان ويتّسع نطاقهما، ويتحوّل الجيشان القاتم إلى رغبة جنسيّة. وأدهشه أن يكتشف أنّ مثل هذا المشهد الطّبيعي على وجه الدّقّة هو الّذي انتظره عند نهاية رحلة حياته. وتردّد نباح الكلب المفعم بالحداد مجدّداً، وصدر صرير عن أشجار السّرو الهشّة فيما الرّيح تلهو بها.

انقضى بعض الوقت مُذْ أوت زوجته إلى فراشها في الغرفة المجاورة. وأطفأ النّور في المكتب، ومضى إلى رفوف الكتب الّتي تحيط بحائط غرفة الضّيوف. وفي هدوء أنزل عدداً من الكتب الغربيّة وكوّمها على الأرض؛ فقد تغلّب عليه الآن ما أطلق عليه هو نفسه

اسم «مرض الموضوعيّة». وفي اللّحظة الّتي استسلم إليه فيها فإنّه سيرغم على معاداة المجتمع بأسره وكان حتّى هذه اللّحظة يقف إلى جانبه.

ولكن لِمَ؟ لقد كان هذا بدوره جزءاً من الجوانب المتنوّعة للسّلوك البشري الّذي رصده على نحو موضوعيّ من منصّة القضاء، أو من مقعد المحامي، على امتداد سنوات عديدة. فكيف أمكن أن يكون الرّصد من تلك النّقاط المتقدّمة مشروعاً تماماً، بينما التطلّع على نحو ما سيفعل الآن انتهاك للقانون؟ لقد جعله الرّصد بتلك الطّريقة موضع موافقة المجتمع، بينما المراقبة على هذا النّحو موضع لوم وازدراء. لو أنّ هذا كان جريمة، فربّما كان مردّ ذلك إلى أنّه استمدّ كثيراً من اللذّة منه. غير أنّ تجربته كقاضٍ قد علّمته أنّ اللذّة إنّما توجد في الذّهن الصّافي المجرّد من اللذّة الخاصّة. ولئن كانت تلك المتعة نبيلة لأنّها ليست مصحوبة بأيّ تسارع لنبض القلب، فهل يمكن أن يكون جوهر الإجرام كامناً في وجيب القلب؟ هذه الاستجابة الأكثر جوانية من جانب الكائن البشري، هذا الوجيب في مواجهة اللذّة ـ هل يمكن أن يكون ذلك هو المكوِّن الأكثر أهمّيّة في انتهاك القانون؟

كان هذا كلّه من قبيل السفسطة. ففيما كان هوندا يجتذب الكتب من رفّ المكتبة، شعر بخفقان في قلبه يشبه خفقان قلب فتى في مقتبل العمر، فأدرك بحدّة مدى ضعف وجوده وتهافته، في مواجهة المجتمع. لقد كان وحيداً وعاجزاً. والقوى الّتي رفعته عالياً، وكأنّه يقف فوق سقالة، نُحِّيت الآن جانباً. وشأن الرّمال الّتي تنزلق وئيدة في ساعة رمليّة، كان الهبوط الّذي لا يرحم ولا ينتهي قد بدأ، وفي تلك الحالة فإنّ القانون والمجتمع كانا بالفعل عدوّين له. ولو أنّه كان

لديه قليل من الشّجاعـة، ولو أنّ ذلـك لم يكن مكتبه، وإنّما ركن في حـديقة ينمـو فيه العشب الحـديث، أو طريق جـانبيّ مـظلم تـرقشـه أضواء البيوت، لأصبح في حقيقة الأمر أكثر المجرمين تورّطاً في العار، ولهتف النّاس ساخرين: «أصبح القاضي محاميـاً، والمحامي مجـرماً!». ولقالوا إنّه ها هنا رجل لم يكفّ قطّ عن حكم المحاكم طوال حياته!.

ما إن أزيلت الكتب حتّى بدا ثقب صغير أمامـه في الجدار. وكـان الفراغ المترب كبيراً بحيث يتّسع لـوجهه، عـلى وجه الـدّقّة. ومـلأت الرّائحة التّرابيّة فجأة فؤاد هوندا بذكريات قويّة عن الشّباب، مطلقـة الشّرارات الحمراء القليلة النّابعة من مسرّات الطّفولة السريّة. وتذكّر للمس الغـطاء القـطيفي ذي اللّون الأزرق القـاتم الممـتزج بـرائحـة المـرحاض، والكلمـة البذيئـة الأولى الّتي اكتشفها في قـاموس، وكـلّ روائـح الطّفـولة الكئيبـة والمقيتة. اكتشف في قلبـه المتسارع الخفقـان أضعف الصّور الكاريكاتيريّة للعاطفة النّبيلة الّتي دفعت كيواكي نحـو الكارثة النّهائيّة. وكائناً ما كان الأمر فإنّه كان ممـرّاً وحيداً معتـماً يصل كيواكي ذا التّسعة عشر ربيعاً بهوندا في السّابعة والخمسين من عمره. وفيما أغمض عينيه انبعث في ظلمة رفّ المكتبة وصم قـوامه جسيـمات من لحم أحمر تتطاير وكأنّها سرب من البعوض.

شغلت مـاكيكو والسيّـدة تسوبـاكيهارا غـرفـة الضّيـوف المجـاورة لمكتبه، ونزل إيمانيشي في الغرفة الّتي تليها واستشعر هونـدا على نحـو قاطع نوعاً من الاتّصال بين الغرفتين، فقد سمع الأبواب تفتح مـراراً وتكـراراً، ثمّ أصواتـاً تتردّد مكتـومة، وهمسـات مفعمة بـاللّوم تشبـه انتشـارات عـلى سـطح المـاء. وتـوقّف الضّجيـج لحـظة ثمّ انبعث من جديد. كان ثمّة شيء ما يحدث على سطح السّهـل الّذي يميـل متجهاً

إلى عمق اللّيل، وكأنّما انسكبت صبغة عاجيّة فأخذت تنداح على سطح مائل.

كانت لديه فكرة عمّا يجري، ولكن ما صافح عينيه كان أكثر ممّا تخيّل.

وضع في غرفة الضّيوف المجاورة فراشان موازيان للجدار ذي الثّقب السرّيّ. وكان الفراش الواقع أسفل الثّقب مباشرة مختفياً عن النّظر كليّة تقريباً، ولكن الآخر كان جليّاً تماماً. وقد أضيء المصباح، ولكنّ الفراش نفسه التفّ بالظّلال.

أجفل هوندا إذ رأى في الضّوء الشّاحب عينين متّسعتين تحدّقان في عينيه. وما كانتا إلّا عيني ماكيكو.

لقد اقتعدت الفراش البعيد مرتدية كيمونو ليليّاً أبيض. وكانت ياقة الرّداء ملمومة في شكل أنيق، وقد تألّق شعرها الفضيّ، على نحو معتم، في الضّوء الّذي جاء من أحد الجوانب. وكانت قد أزالت مواد التجميل عن وجهها، ولم يتغيّر البياض الّذي كان له في الأيّام الخوالي، وإنّما ظلّ صافياً وبارداً، وتجلّى عمرها في كتفيها المستديرتين، إذ ترهّل اللّحم الممتلئ، ولكن ثقتها في الغالب الأعمّ في مناعة كيانها الّذي لم يتعرّض للتهديد على امتداد الأعوام الطّويلة، كانت واضحة في حركة التنّفس المنتظم الّتي عكسها صدرها. وقد بدا كما لو أنّ جوهر اللّيل جلس هنالك ملتفّاً بالبياض. وساور هوندا شعور بأنّه ينظر إلى جبل فوجي في ليلة مقمرة. وغطّت الانحدار الرّقيق عند سفح الجبل التجعّدات الممتدّة للبطانيّة ذات اللّون الأزرق المخطّط. كان نصف حِجْر ماكيكو محتجباً تحت الغطاء الّذي أمالت عليه ذراعها في فتور.

لم تكن عيناها اللّتان بدتا لأوّل وهلة وكأنّهما التقتا بعينيّ هوندا المتلصّصتين، متّجهتين نحو الثّقب حقّاً، وإنّما كانتا منخفضتين تحدّقان في الفراش الموضوع قبالة الجدار.

وإذا رأى المرء عينيها فحسب اقتنع بأنّها تركّز على إبداع قصيدة، وهي تحدّق في نهر يتدفّق في أسفلها. كان الوقت هو ذلك الجزء من اللّيل الّذي يمكن لروح الإنسان فيه أن ترصد جيشاناً معيّناً، متدفّقاً بالحياة في الهواء وأن تجاهد لبلورته. وفي غمرة قيام عيني المرء بهذا الجهد فإنّهما تصبحان كعيني صيّاد يوشك أن يرمي طريدته. وما كان بمقدور المرء وهو لا يرى سوى عينيها إلاَّ أن يشعر بجلال روحها.

لم تكن ماكيكو تتطلّع إلى نهر أو سمكة، وإنّما إلى قوامين بشريين وهما يختلجان على الفراش الغارق في الظّلال. ورفع هوندا رأسه حتّى ارتطم بأعلى رفّ الكتب، في غمرة الجهد الّذي بذله للرؤية، هبوطاً بناظريه، عبر ثقب التلصّص الصّغير. واستطاع على هذا النّحو أن يلاحظ ما يجري على الفراش الواقع وراء الجدار. كان فخذا رجل ناحلان، شاحبان، يلتفّان على فخذيّ امرأة. وأسفله مباشرة أخذت كومتان من اللّحم الذّاوي، تتفجّران بمشقّة بالقوّة، تتأرجحان في بطء، شأن حيوانين مائيين، وهما تتواصلان. التمعتا على نحو يوحي بالبلّل، في الضّوء الخافت، وكان القائم بالالتهام، على نحو لا تخطئه العين، يتعرّض للالتهام، والخداع الواضح يمضي جنباً إلى جنب مع الاختلاجات المفعمة بالإخلاص. وتماست كتلتان وافرتان من شعر العانة المبتلّ، وانفصلتا، واخترقت عيني هوندا المذهولتين وقد سقط الضّوء على بطن المرأة رقعة من البياض وكأن قطعة من الورق الأبيض قد غرست بين الجسمين.

أيّاً كان الوضع فإنّ إيمانيشي قد عرّى، بلا حياء، الفخذين المثيرتيْن للرثاء لمثقّف استبدّت به الشّهوة. ومصداقاً لنظريّاته فإنّ التذبّذب الكئيب المترجرج لردفيه المسطّحين اللّذين ظهر بينهما عصعص ذاوٍ، ما كان إلاّ وهماً لا يدوم إلاّ لحظة. وقد أثار افتقاره الجليّ للإخلاص غضب هوندا.

وبالمقارنة به فقد كانت السيّدة تسوباكيهارا هي اللّهفة مجسّدة، وكان بمقدور هوندا أن يرى يديها الممتدّتين وكأنّهما يدا امرأة تغرق، وأصابعها المتشبّثة، على نحو يائس، بشعر إيمانيشي. وهتفت في النّهاية باسم ابنها. كانت صيحة خافتة، مقموعة:

- أكيو، أكيو، سامحني...

ابتلع النّشيج كلماتها، ولكن إيمانيشي لم يتأثّر أدنى تأثّر.

أدرك هوندا فجأة جلال الموقف وبشاعته، فعضّ على شفتيه. لقد بدا الأمر واضحاً الآن. وسواء أكانت ماكيكو قد أمرتها أم لم تأمرها بأداء ما قامت به، فقد بدا جليّاً أنّها لم تكن المرّة الأولى الّتي تتورّط فيها السيّدة تسوباكيهارا في هذا النّوع من العروض، من أجل ماكيكو، وربّما من أجلها وحدها. وكان هذا هو جوهر العلاقة الّتي ربطت بين المدرّسة والتّلميذة، بين ماكيكو والسيّدة تسوباكيهارا - الازدراء والتفاني اللّذان يجمعانها.

تطلّع هوندا إلى ماكيكو مرّة أخرى. وكانت تنظر إلى أسفل في وقار، وشعرها الفضّي يلتمع، ويتطاير حول رأسها. ولقد كانا من جنسين مختلفين، ولكن هوندا أدرك أنّ ماكيكو هي نظيرته تماماً.

- ٢٨ -

أطلّ اليوم التّالي جميلاً ومشمساً. وكان الزّوجان هوندا قد وجّها الدّعوة إلى ضيوفهما الثّلاثة الّذين أمضوا اللّيل بالدّارة، وإلى كيكو لرحلة في سيّارتين منفصلتين إلى مزار سينجين في فوجي ـ يوشيدا. وقد اعتزما جميعاً، باستثناء كيكو، الانطلاق من هناك إلى طوكيو. وأوصد هوندا الدّارة، قبل الانطلاق.. وفيما كان يغلق الباب ساوره هاجس مفاجئ قوامه أنّ ينج تشان قد تحضر خلال غيابه، ولكن هذا كان بعيداً تمام البعد عن إمكان الحدوث.

كان هوندا يطالع، منذ وقت قصير، كتاب «الهونتشو مونزوي» ـ أو «موضوعات الإبداع المؤلّفة في اليابان» ـ الّذي أحضره إيمانيشي له. وكان، قد رغب بالطّبع في قراءة «مقالات عن جبل فوجي» من تأليف يوشيكا نومياكو، وقد طلب من إيمانيشي أن يحصل له على نسخة منه.

«يقع جبل فوجي في مقاطعة سوروجا، وتشمخ قمّته عالية إلى عنان السّماء وكأنّها أعدّت لتأخذ شكلاً مستدقّاً». إنّ مثل هذه الأوصاف لا تثير الكثير من الاهتمام، ولكن جاءت، عقب ذلك، فقرة أثّرت في نفس هوندا بقوّة بالغة، بحيث بقيت طويلاً في ذاكرته من دون أن تتاح له فرصة قراءتها مرّة أخرى، منذ ذلك الحين.

«حكى عجوز أنّه: في اليوم الخامس من الشّهر الحادي عشر من عام جوكان، السّابع عشر (٨٧٥ ميلاديّة) تجمّع المسؤولون والعامّة للقيام باحتفال حسبما جرى العرف. وقد علت الشّمس متألّقة في

حوالي الظّهيرة، وكانت السّماء صافية وجميلة كأبدع ما يكون الجمال. وفيما النظارة يتطلّعون عالياً إلى قمّة الجبل، شاهدوا امرأتين جميلتين ترتديان ثياباً بيضاء، وهما ترقصان معاً. لقد كانتا تمضيان معاً على ارتفاع يزيد عن قدم فوق القمّة. وقد شهدهما كلّ سكّان المنطقة».

لم يكن من الغريب أن تحدث مثل هذه الأوهام البصريّة، في جبل فوجي، في يوم جميل، ذلك أنّه غالباً ما يثير في النّفوس أوهاماً عديدة. وفي مرّات كثيرة تتحوّل ريح هادئة عند سفح الجبل المنحدر إلى هبّة قويّة عند القمّة، حاملة غمامة ثلجيّة إلى السّماء الزّرقاء. وربّما كان هذا الغبار الثّلجي هو الّذي لاح في هيئة حسناوين لعيون أبناء المنطقة.

كان فوجي بارداً وواثقاً بنفسه، غير أنّه سمح من خلال ثقته الباردة وبياضه بكلّ الصور الخياليّة الممكنة. ففي البرودة المطلقة هناك الدّوار، تماماً كما أنّ هذيان الحمّى يميّز الحدّ الأقصى للعقل. وكان فوجي هو المطلق الغامض للكمال، وقد اقترب جماله من حوافّ غنائيّة غامضة. كان متناهياً ولامتناهياً في آن واحد. ومن المحتمل تماماً أنّ حسناوين ترتديان ملابس بيضاء قد رقصتا هناك.

وبالإضافة إلى ذلك فقد اجتذبت هوندا الحقيقة القائلة بأنّ الرّوح الّتي تتّخذ من قرار سينجين مستقرّاً لها، هي ربّة تُدعى كونوهانا ساكويا.

استقلّ كلّ من السيّدة تسوباكيهارا وماكيكو وإيمانيشي سيّارة السيّدة تسوباكيهارا، واستقلّ الزّوجان هوندا وكيكو السيّارة اللّيموزين الّتي استدعاها هوندا لإعادته إلى طوكيو. وكان هذا ترتيباً طبيعيّاً، ولكن هوندا رغب، على نحو غامض، في أن يكون في سيّارة

واحدة مع ماكيكو، وأحسّ بلذعة ندم لأنّ ذلك لم يقدّر له الحدوث. لقد أراد أن يجلس إلى جوارها ويحدّق في العينين المتوتّرتين اللّتين رآهما البارحة، عيني الصيّادة الّتي توشك أن تطلق سهمها.

غير أنّ الرّحلة إلى فوجي ـ يوشيدا لم تكن بالأمر اليسير؛ فقد كان الطّريق الوطني السّريع، أي طريق كاماكورا السّابق، يرقى صاعداً عبر ممرّ كاجوساكا من سوباشيري، ويتّجه يساراً على امتداد بحيرة ياماناكا. وكان في غالبه غير ممهّد وجبليّاً، فالحدود الفاصلة بين مقاطعتي شيزوكا وياماناشي تمرّ على امتداد هضبة كاجوساكا.

وبينما جلست كيكو ورابي متجاورتين، وانهمكتا في حديثهما النّسائي عن سفاسف الأمور، أطلّ هوندا عبر النّافذة في لهفة شبه طفوليّة. وكان وجود كيكو مفيداً للغاية في إحباط شكاوى رابي، فقد أصبحت الأخيرة شبيهة بزجاجة جعة تتدفّق فائضة إذا ما نزعت سدادتها. وكانت قد عكفت منذ الصّباح على الاعتراض على فكرة العودة بالسيّارة إلى طوكيو، مشدّدة على أنّه لم يحدث، منذ عهد الطّفولة، أن قامت بمثل هذه الرحلة الطويلة العبثيّة المتضمّنة إسرافاً بالغاً.

وأصبحت رابي هذه بذاتها لطيفة تماماً، بل وجذّابة، وهي تتجاذب أطراف الحديث مع كيكو.

قالت كيكو، بصراحة ووضوح:

ـ ليس هناك ما يدعوك إلى القلق على مسألة كلْيتك.

ـ أتعتقدين ذلك؟ عندما أسمعك تتحدّثين على هذا النّحو فإنّني أستمدّ من ذلك الشّجاعة على نحو فائق. إنّه أمر غريب، فأنا أغضب، عندما يحدّثني زوجي في رقّة بتعاطفه الخادع المبالغ فيه وقلقه المفتعل.

وربّما كان من باب الحذق وسعة الحيلة أنْ لم يحدث قطّ أن دافعت كيكو عن هوندا لدى قيام رابي بشنّ هجوم عليه.

قالت كيكو:

ـ السيّد هوندا لا يكترث بأي شيء إلاّ بالتّفكير المنطقي، وليس هناك ما يمكن القيام به في هذا الشّأن.

ما إن يعبر المرء الخطّ الفاصل، حتّى يكون بمقدوره أن يرى أنّ المنحدر الشّمالي للجبل ملتف تماماً في جليد متجمّد بصلابة وقد اتّخذ لدى تلاصقه شكل جلد الثّعبان، وحاكى ظهري يدي رابي، لدى تراجع التورّم.

غير أنّ رابي كانت قد أصبحت في تلك اللّحظة، محتملة بصورة أكبر بالنّسبة لهوندا، فكونه بصحبة امرأتين تتحدّثان على مسمع منه دونما تملّق على هذا النّحو ـ ولاسيّما أنّ إحداهما زوجته ـ منحه على نحو ما شعوراً عابراً بالرّضا.

وفيما وراء ممرّ كاجو ساكا، كست طبقة ثقيلة من الجليد كلّ شيء، وبدت الأرض في الأجمّة المتناثرة عند بحيرة ياماناكا كما لو كانت مكسوّة بحرير صينيّ متجمّد. ولاحت إبر الصّنوبر صفراء، وفي ماء البحيرة وحده بدا اللّون مشرقاً وصافياً. وفيما هو يتطلّع إلى الوراء، أخذ سطح جبل فوجي الأبيض، أصل كلّ البياض في هذه المنطقة، يتألّق وكأنّه قد جرى تلميعه بالزيت.

كانت السّاعة الثّالثة والنصف عصراً عندما وصلوا إلى مزار سنجين. وفيما هوندا يلقي نظرة عابرة إلى الوراء على الرّكاب الثّلاثة الذين أخذوا يترجّلون من السيّارة الكريزلر السوداء اخترمه شعور حافل بالنّذر، وكأنّما كان يشاهد ثلاث جثث تنهض فجأة من تابوت

أسـود. وكان أمـراً ملحّاً صبيحـة هذا اليـوم أن يمحو الثّـلاثة ذكـرى اللّيلة البارحة، ولكن العكوف في الفراغ الضيّق للسيّـارة اللّيموزين، على كامل امتداد الرّحلة، جعل الـواقعة أشـدّ بشاعـة، شأن مـاء داء الاستسقاء الّذي يتجمّع، على الفور مهما تعدَّدت مرَّات إزالتـه. وشرع ثلاثتهم ينظرون بأعين طارفة، نصف مفتوحة، وكأنّما ضايقهم البريق المنعكس عن الجليـد عـلى جـانب الـطّريق. ورغم ذلـك فقـد وقفت ماكيكو منتصبة القامة في تصلّب، وأثار مرأى بشرة إيمانيشي الشّاحبة، المتصلّبة، تقزّز هـوندا؛ فقـد اقترف تجـديفاً بحقّ جمـال تلك الصّورة الخياليّة المـأساويّـة، عن اللّحم البشري، الّتي تحدّث عنهـا، بابتهـاج بالغ، أمسِ، وقد تمّت البرهنة على ذلـك من خلال افتقـاره الكامـل للمؤهّلات كعاشق. وقد ضاعف من حـدّة الحنق امتناعـه بأنّ قبحـه سيظلّ بعيداً عن أن ترصده الأعين.

وعلى أيّة حـال فإنّ هـوندا قـد رآه رؤية العـين. وقد تـوحّد عنـد أطراف هذا العـالم المزدوج من رأى ومن رُؤي دون أن يعـرف ذلك. وألقت مـاكيكو نـظرة عجلى عـلى «التوري» الحجـري الهـائـل الّـذي نحتت كلمتا «جبل فوجي» على صخرة مؤطّرة قربه، وأخرجت مجدّداً دفتراً تحمله معها دائماً لتدوين خواطرهـا الشّعريّـة، وقد ربط بـه على نحو دائم، بخيط أرجواني، قلم رصاص رقيق.

مضى السّتة يعاون أحـدهم الآخر، عـلى الدّرب الجليـدي الرّطب المفضي إلى المـزار. وقـد انسلّت الشّمس، هنـا وهنـاك، عـبر فـروع الأشجار ملقية نورها على رقع من الجليد. وواصلت الأغصان الهائلة لأشجار السّرو اليابـانيّة العتيقـة إلقاء إبـرها البنيّـة الميّتة الّتي أخـذت تتهاوى على أكـوام الجليد العنيـد الصّغيرة. وكـان ثمّة ضـوء مضبّب

جعل الدّرب يبدو وكأنّ سديماً ضارباً إلى الخضرة يلفّه. وفي نهاية الدّرب لاح للعيان «توري» أحمر يحيطه الجليد.

أثارت شارة القداسة هذه، في هوندا، ذكرى إيسو إينوما. فتطلّع مجدّداً إلى ماكيكو، وأحسّ للحظة بأن بمقدوره نسيان عينيها، في انتصاف ليل البارحة، بعد أن خُلِعت عليها الآن قوّة إلّهيّة. لربّما كان إيساو الّذي عشق هاتين العينين المتقلّبتين، حتّى العبادة، قد لقي مصرعه بهما.

اعتادت كيكو الاحتفاظ بالهدوء ورباطة الجأش، أيّاً كان ما تراه.
قالت، دونما تحفّظ:
- يا للجمال! ما أروعه! يا للروح اليابانيّة!

بدت ماكيكو كما لو كانت قد أجفلت لسماع أسلوبها الحاسم في الحديث، ورمقتها بشيء من الاضطراب. وأمّا رابي فتابعت الأمر في شرود، ومن مكانها في مؤخّرة المجموعة.

خلعت كلّ خطوة مرنّحة خطتها السيّدة تسوباكيهارا على امتداد الدّرب إلى المزار، مظهر طائر تمّ حزين متهالك الرّيش عليها، ورفضت تواً المساعدة الّتي عرضها عليها إيمانيشي، وأسندت يدها على ذراع هوندا. لقد كانت بعيدة عن الحالة المزاجيّة الّتي يمكن أن تميل فيها إلى نظم الشّعر.

كان حزنها أكثر صدقاً من أن يكون مجرّد مظهر تدّعيه. وتأثّر هوندا، على وجه التّقريب، وهو يحدّق في صورتها الجانبيّة المترعة حزناً. والتقت عيناه بعيني ماكيكو الّتي اختارت تلك اللّحظة لتلقي نظرة عابرة، من النّاحية الأخرى، على تلميذتها المكتئبة. وكانت

ماكيكو قد اكتشفت كالمعتاد شعراً في محيا المرأة، الّذي أناره ضوء منعكس عن الجليد، فنظمت قصيدة.

عندما بلغوا الجسر المقدّس الّذي يعبر الطّريق إلى قمّة جبل فوجي، حدّثت السيّدة تسوباكيهارا هوندا بصوت مرتجف:

ـ سامحني أرجوك! عندما أفكّر في أنّ ذلك هو مزار جبل فوجي، أشعر وكأنّما أكيو سيلتقيني مبتسماً، فقد كان مولعاً أشدّ الولع بفوجي.

كان حزنها خاوياً على نحو غريب. وبدا وكأنّه يهبّ عبر المرأة الخاوية، مثلما تدوّم هبّة من ريح في تعريشة فارغة. وكانت هادئة، على نحو جامح تقريباً، هادئة وكأنّما الموقف قد أعقب جلسة لتحضير الأرواح ـ دمار خلّفته روح شبحيّة. ولاحت وجنتاها الجافّتان، في ظلال خصلات من الشّعر، ممصوصتين وكأنّهما قطعتان من ورق قشّ الأرز. وبهدوء، ودونما عوائق، لاح حزنها وكأنّه يتدفّق حرّاً، منهما وإليهما، كما يتدفّق النّفس.

جعلت مراقبة هذا المشهد رايي تنسى مرضها. ولاحت وكأنّها الصحّة مجسّدة. وفي مثل هذه اللّحظات، كان هوندا يشكّ في أنّ زوجته مصابة بوسواس المرض، بل في أنّ تورّمها نفسه قد لا يكون حقيقيّاً.

وصلت المجموعة، في نهاية المطاف، إلى «التوري» الأحمر الّذي يشمخ ليصل ارتفاعه إلى ستّين قدماً تقريباً. وعندما مرّوا من خلاله ألفوا أنفسهم مباشرة أمام صرح المزار حيث تؤدّى الرّقصات المقدّسة، وقد أحاط به الثّلج الأشهب الّذي تكوّم أمام البوّابة الحمراء، وامتدّ حبل مقدّس على امتداد ثلاثة جوانب للمبنى تحت الطّنف. ومن قمم أشجار السّرو اليابانيّة العالية سقط سنى شمس

صافية على شرائح «الجوهاي» الورقيّة الّتي برزت بإزاء مائدة التقدمة غير المطليّة، على الأرضيّة. وأضاء الانعكاس المرتدّ عن الجليد، المبنى، وصولاً إلى سقفه المحلّى بالزّخارف المنقوشة في الخشب. ولكن سنى الشّمس الّذي بلغ الورق، كان متألّقاً، على نحو خاصّ. وتأرجحت الشّرائح بخفّة في النّسيم.

أحسّ هوندا، للحظة، بأنّ الورق الأبيض النّقيّ يتدفّق حياة.

وبدّدت دموع السيّدة تسوباكيهارا السّحر. ولم يدهش أحد على وجه خاصّ حيال إجهاشها بالبكاء.

فما إن لمحت الورق المقدّس حتّى ساورها الخوف، وانطلقت تعدو إلى مقدّمة المزار الرئيسي الأحمر الّذي تحرسه أسود وتنانين صينيّة منحوتة نحتاً نافراً، وجثت غارقة في صلاة حارّة، منفجرة بالدّموع.

لم يعد هوندا يتساءل عن السرّ في أنّ حزنها لم يعرف البرء، بعد كلّ هذا الوقت الّذي مضى على الحرب، فقد كان شاهداً على السرّ الّذي يتجدّد به ذلك الحزن، ويُبعث، كالبارحة، من جديد.

- ٢٩ -

اتّصلت كيكو في اليوم التّالي هاتفيّاً من نينوكا في جوتمبا. وكان هوندا خارج الدّار، في حين أوت رابي إلى الفراش، وهي ماتزال منهكة من الحفل. غير أنّها عندما سمعت بأنّ الاتّصال هو من كيكو، نهضت إلى الهاتف.

وقد جاء هذا الاتّصال من كيكو لتحكي كيف أنّ ينج تشان قد جاءت إلى جوتمبا في ذلك اليوم فحسب.

ـ عندما كنت أنطلق بالكلب، في رياضته اليوميّة، رأيت شابّة تسير حائرة، حول بوّابة دارتكم. وبشكل ما لم تبد يابانيّة الملامح، فناديتها. وقد قالت إنّها من تايلاند. وأخبرتني بأنّها كانت قد تلقّت دعوة من السيّد هوندا، ولكنّها حيل بينها وبين الحضور. وقد وصلت اليوم لأنّها اعتقدت أنّ الجميع مايزال هنا. وقد أدهشني مرحها، ولكنّها جاءت وحدها، عبر كلّ هذه المسافة، وساورني شعور بالأسف لأنّها يتعيّن عليها العودة من جديد. وقد قدّمت لها بعض الشّاي وصحبتها إلى المحطّة. وها أنا عائدة لتوّي من توديعها. وقالت إنّها ستعتذر للسيّد هوندا، بعد عودتها إلى طوكيو، ولكنّها زعمت أنّها لا تحبّ استخدام الهاتف، فالحديث باليابانيّة عبر الهاتف يسبّب لها الصّداع. إنّها جذّابة للغاية، وشعرها فاحم السّواد، وعيناها نجلاوان.

بعد مواصلة الثّرثرة، أعربت كيكو مجدّداً عن شكرها لرابي على الحفل، وأضافت أنّها مشغولة بالإعداد لجلسة للعب الورق، في تلك اللّيلة، لضابطها الأميركي وأصدقائه، ثمّ أنهت الاتّصال الهاتفيّ.

سردت رابي بدقة الحوار بأسره على مسامع هوندا لدى وصوله، فاستمع إليها مكشّراً وكأنّه يستنشق دخاناً. ولم يقل لزوجته بالطّبع إنّ ينج تشان قد تراءت له في أحلامه في تلك اللّيلة.

من مزايا التقدّم في العمر أن يعرف المرء كيف يكون صبوراً. وقد كانت ماتزال له بالإضافة إلى ذلك بعض الالتزامات الاجتماعيّة. ولم يكن بمقدوره أن ينتظر إلى الأبد اتّصالاً من ينج تشان الّتي يستعصي سلوكها على إمكان التّنبؤ به. وقد كان بمقدوره أن يعهد بالخاتم إلى زوجته، ولكنّه لرغبته في تقديمه بنفسه فقد حمله في جيب سترته الدّاخلي.

وبعد عشرة أيّام، أبلغته رابي أنّ ينج تشان جاءت في أثناء غيابه، في زيارة لم يتّضح الغرض منها تمام الوضوح. وكانت رابي، وقد ارتدت كيمونو الحداد، على وشك مغادرة الدّار لتشييع جنازة زميلة دراسةٍ سابقة، عندما رأت ينج تشان تلج البوّابة.

سأل هوندا:

ـ كانت وحدها؟

ـ نعم، بدا أنّها كذلك؟

ـ أمر بالغ السّوء أنّها قامت بتلك الرحلة، سيتعينّ علينا أن ندعوها لتناول طعام العشاء، أو شيء من هذا القبيل، في المرّة المقبلة.

ـ أتساءل عمّا إذا كانت ستحضر!

قالتها رابي وعلى شفتيها ابتسامة غامضة.

كان هوندا يدرك تمام الإدراك أنّ إجراء اتّصال هاتفي سيخلق مشكلات نفسيّة لينج تشان. وهكذا فقد اختار موعداً بشكل عشوائي وبعث إليها ببطاقة دخول لمسرح شيمباشي، تاركاً لها أن

تحضر أو لا. وكانت فرقة الطّريق الّتي تقدّم مسرح عرائس أوساكا، قد أفتتحت عروضها في طوكيو، وأرادها هوندا أن تشهد أحد هذه العروض. وبعث لها بطاقتين ابتاعهما لحضور العرض الأوّل الّذي يسبق عرض السّهرة المسائي، معتزماً أن يصحبها، بعد العرض، لتناول طعام العشاء في فندق الأمبريال الّذي أعادته قوّات الاحتلال مؤخّراً إلى إدارة يابانيّة.

تمثّل عرض ذلك اليوم، على وجه التّحديد، في «جبل كاجامي» قائد قردة هوريكاوا». ولم يدهش، بعد أن جرّب افتقار ينج تشان للمسؤوليّة، عندما لم يظهر لها أثر. وجلس وحيداً، ومضى يشاهد الفصل المعروف باسم «جناح النّساء». وخلال الاستراحة الطّويلة الّتي تسبق تقديم «هوريكاوا» انطلق على مهل إلى الحديقة. كان اليوم صحواً، بديعاً، وقد أقبل كثيرون للاستمتاع بالهواء العليل.

تأثّر كثيراً لتحسّن مظهر الجمهور هنا مؤخّراً، على نحو كبير، بالمقارنة بما كان عليه قبل سنوات قلائل، وربّما كان ذلك راجعاً لوجود كثير من فتيات الجيشا. ولكن أزياء الكيمونو أصبحت أكثر فخامة وتألّقاً، مع تراجع ذكريات الدّمار الرّهيب إلى حدّ التّلاشي وقد أصبحت أذواق النّساء، في أيّام ما بعد الحرب تلك، ميّالة للألوان الزاهية، بصفة خاصّة، بغضّ النّظر عن أعمارهنّ. ومن المؤكّد أنّه كان هناك المزيد من العرض الوافر للأقمشة الوهّاجة عمّا كان وسط الجمهور في المسرح الإمبراطوري، خلال العشرينيّات.

ولو أنّ هوندا كان من ذوي هذه الميول، لكان بمقدوره أن يختار أجمل فتيات الجيشا، وأن يصبح عميلها الدّائم، ولسوف يكون مصدر سعادة له أن يبتاع لها أي شيء تطلبه، وأن يتمتّع بفتنتها

ولمساتها الرّقيقة كسحابة ربيع . . . هاتان القدمان الملتفّتان بأناقة بالغة في «تابي» أبيض، صنع خصّيصاً. ولسوف تبدو في كيمونوها كدمية لا يشوب كمال زيّها نقص. وكلّ ذلك يمكن أن يكون طوع يمينه، ولكنّه كان بمقدوره أن يتنبّأ بالخاتمة، في الحال، فماء العاطفة المحتدم الغليان سيتدفّق منسكباً، ورماد الموت المتراقص سيحلّق عالياً فيصيبه بالعمى.

كمنت فتنة هذا المسرح في النحو الّذي تفضي به الحديقة إلى النّهر، فبمقدور المرء أن يستمتع هنالك في أشهر الصّيف الحارّة بالنّسمات البليلة المتهادية من الماء. ولكن النّهر بدا راكداً الآن، ومضت الزّوارق البخاريّة والغمامة وئيدة مع التيّار باتّجاه المصبّ. وقد تذكّر هوندا جيّداً أنّها طوكيو، خلال الحرب، وجثث القتلى وهي تمضي فيها خلال الغارات مع التيّار. لم يعد هناك أيّ دخان ينبعث من المصانع، وقد أصبح الماء بلا شائبة على نحو يوحي بالنّذير، وهو يعكس على سطحه السّماء الزّرقاء على نحو غريب فوق الرؤوس، تلك السّماء الّتي يقال إنّها تتبدّى للعيان ساعة الموت. وبالمقابل فإنّ هذا الماء الملوّث الممتزج بالطّمي هو رمز الرّخاء بعينه.

انحنت فتاتان من فتيات الجيشا على الدّرابزين، وهما تستمتعان بالنّسيم النّهري. وكانت إحداهما ترتدي كيمونو حريريّاً ذا تصميم فنيّ صغير رُقِّش ببتلات الكرز وزنّارٍ من طراز ناجويا المرقّش بالكرز وسط اللّون الأسود. وربّما كان في الغالب الأعمّ مطبوعاً يدويّاً. وكانت دقيقة الحجم، بدريّة الوجه. وأمّا الأخرى فأفصحت عن ميل إلى الألوان في اختيار ثيابها. وقد تلاعبت ابتسامة فاترة على محياها انطلاقاً من أعلى أنفها الّذي كان عالياً أكثر قليلاً ممّا ينبغي، وصولاً إلى شفتيها الرّفيعتين. وواصلتا ثرثرة لا تنتهي كانت تتخلّلها

صيحات تعجّب مبالغ فيها. وتصاعدت جديلتان متموجتان من الدّخان من سيجارتيهما ـ من أنواع مستوردة ذات أطراف ذهبيّة ـ اللّتين أمسكتا بهما بين أصابعهما الّتي لم تهتزّ قطّ لشعور بالمفاجأة.

سرعان ما أدرك هوندا أنّهما تنظران مراراً وتكراراً إلى الضّفة المقابلة. وكان المستشفى الإمبراطوريّ اليابانيّ البحري السّابق، بتمثاله الّذي يجسّد أدميرالاً ولايزال في موضعه، قد تحوّل إلى مستشفى عسكري أميركي، وامتلأ بالجنود الجرحى في الحرب الكوريّة. وتألّقت شمس الرّبيع على براعم الكرز نصف المتفتّحة في الحديقة الأماميّة، وقد دفع الجنود تحتها في مقاعدهم المتحركّة. وسار بعضهم مستعيناً بعكّازات، وأخذ آخرون يتربّصون وقد وضعت أذرعهم وحدها في عصابة نقيّة البياض مدلاة من العنق. ولم ترتفع أصوات منادية عبر النّهر الشّابتين البديعتي الملابس، كما لم يتردّد صوت صفير الأميركيّين المرح. ومثل مشهد من عالم آخر، كانت الضفّة الأخرى تسبح في شمس متألّقة وقد عمّها الهدوء على نحو تامّ وحفلت بأشكال الجنود الشبّان المعوّقين الذين يتظاهرون عامدين بعدم الاكتراث.

بدا جليّاً أنّ فتاتي الجيشا تستمتعان بالمفارقة، فإذ اكتستا بالحرير والذّرور الأبيض، وانغمستا في كسل ربيعيّ وحياة مترفة، فقد راحتا تمتّعان بصريهما بمشهد أولئك الّذين كانوا، حتّى أمسِ القريب، المنتصرين التيّاهين فخراً، بجروحهم وألمهم وأذرعهم وسيقانهم المبتورة. وقد كان هذا الخبث المراوغ والضّراوة الجهنميّة البديعة هما تخصّصهما الّذي برعتا فيه.

كان بمقدور هوندا أن يرصد من نقطته المتقدّمة، كمراقب تنحّى

جانباً، الإسرافَ في المفارقة بين حديقة المسرح والمشهد المتبدي على الضفّة النائية. فهناك في البعيد الغبار، الدّم، البؤس، الكبرياء الجريحة، البؤس الّذي لا سبيل إلى تداركه، الدّموع، انكسار القلب، النّزعة الحسيّة الذّكوريّة المشتبكة للجنود الّذين سيطروا على اليابان طوال السّنوات السّبع الماضية، بينما أخذت نسوة البلاد المهزومة يستعرضن على هذا الجانب نزعتهنّ الحسيّة المتميّزة بالصّلف والتّعالي، ويستمتعن بمرأى دماء المنتصرين الغارقين في عرقهم. لقد كنّ ذبابات تعكف على الجروح، ناشرات الأجنحة الشفّافة السّوداء لِـ «الهاوري» الخاصّ بهنّ وكأنّها أجنحة فراشات سوداء بديعة. ولم يكن نسيم النّهر كافياً لضمّ الجانبين معاً. وكان من اليسير تصوُّر شعور الأميركيّين بالإحباط، هم الّذين سفكوا دماءهم بلا طائل لكي يخلقوا هذا التألّق الّذي لا جدوى منه، والّذي لا سبيل أمامهم للوصول إليه لكي يُضفوا التّرف والغرور على هذا العرض المفتقر للحساسيّة.

سمع هوندا إحدى المرأتين، تقول:

ـ لا يبدو ذلك فعلاً أمراً حقيقيّاً.

ـ نعم، فهم أكثر بؤساً من أن ينظر المرء إليهم. فالأجانب ضخام للغاية، وهم أكثر إثارة للإشفاق، في تلك الحالة. ولكن البؤس متبادل، فقد عانينا كثيراً.

قالت المرأة الأخرى ببرودة:

ـ طيّب، ذلك هو ما نالهم لقضمهم أكثر ممّا يستطيعون مضغه.

أخذتا تتطلّعان باهتمام متزايد. ولكن ذلك سرعان ما انقضى وتلاشى. فقد قامتا، وكأنّهما في مسابقة، بإخراج علبتيْ تجميل صغيرتين، ونظرتا في شرود إلى المرآتين، وهما تضعان الذّرور على

أنفيهما. وتناثر الذّرور ذو الـرّائحة العـطريّة القـويّة وقـد لامسه نسيم النّهـر، متساقـطاً على امتـداد أطراف «هـاوري» كلّ منهـما لينتقـل إلى فتحة ردن سترة هـوندا. ولاحظ أنّ المـرآتين الصّغـيرتين قـد أفلحتا، على الرّغم من أنّهما مكسوّتان بـطبقة خفيفـة من الذّرور، في أن تلقيـا انعكاساً واهناً على الشّجيرة عند قدميه، تماماً كتذبذب نمال صغيرة.

أوحى الرّنين الواهن لجرس بعيد بأنّ السّتار على وشك أن يرفـع، عن الفـصـل التّـالي، ولم يـكن قـد بـقي إلّا الجـزء الأخـير مـن «هوريكاوا». وفيما هو يتّجه عائداً نحو المسرح، وقد وطّن نفسه عـلى أن ينج تشان لن يظهر لها أثر في مثل هذا الوقت المتأخّـر، أدرك فجأة أنّه قد شعر بلذّة حسيّة في غمـرة غيابهـا الرّائـع. فقد كـانت تقف في الـدّاخل نصف محتجبـة، في ظلّ أحـد الأعمدة، وبـدأ كما لـو كانت تحاول تجنّب الضّوء المنسل.

لم تكن عينا هوندا قد تعـوّدتا العتمـة بعد، وكـلّ ما رآه هـو سواد شعرها، وسواد عينيها النّجلاوين المتألّق وكأنّه ضبابيّة بقعـة معتمة في جسم شفّاف. وانتشر عبق قويّ من زيت شعـرها، وابتسمت مفتـرّةً عن بياض أسنانها الجميلة، وقد لفّه الغموض.

- ٣٠ -

تناولا طعام العشاء، في تلك اللّيلة، بفندق الأمبريال. وكان الفندق قد دمّر، وزعمت قوّات الاحتلال أنّها تتفهّم عبقريّة فرانك لويدرايت المبدعة، ولكنّها لم تتردّد في طلاء المصابيح الحجريّة في الحديقة باللّون الأبيض، بل لقد بدا السّقف شبه القوطي لقاعة الطّعام أكثر كآبة وأسوأ صيانة من أيّ وقت مضى، وتمثّلت بقع الحداثة الوحيدة في المفارش الكتّانيّة البيضاء الّتي تألّقت تيّاهة في صفوف موائد الطّعام.

عندما طلب هوندا أطباق وجبة عشائهما، أخرج على الفور العلبة الصّغيرة من جيبه الدّاخلي، ووضعها أمام ينج تشان مباشرة، ففتحتها، وصاحت مبتهجة.

ـ كان من الحتميّ أن يعاد الخاتم إليك.

قالها هوندا بأبسط الأساليب، وأبلغها بتاريخ الخاتم. ولم تتوافق الابتسامة الّتي توهّجت على ملامحها، وهي تصغي إليه، على الدّوام مع روايته، وخطر له أنّها ربّما لم تفهم كلّ ما كان يقوله.

كان نهداها الظّاهران فوق مستوى المائدة مفارقين تماماً لمحياها الطّفولي، فقد تكورا على نحو بديع وكأنّهما نهدا تمثال يتصدّر مقدّمة سفينة. وقد عرف، من دون أن يرى رأي العين، أنّ جسم إحدى الرّبات الماثلات في جداريّات أجانتا، يكمن تحت القميص الخارجيّ البسيط الّذي ترتديه الطّالبات، والّذي تبدى لعينيه عبر المائدة.

لاح أنّ للّحم الخفيف، على نحو خادع، والصّلب الملمس، الخفّة

الّتي تحظى بها ثمرة فاكهة قاتمة... الشّعر الفاحم، الخانق، على وجه التّقريب، والخطوط الغامضة، الحزينة، الممتدّة من الخيشومين المتفخين قليلاً، نزولاً إلى الشفّة العليا... بدا أنّها غافلة عن الكلمات الّتي يهمس بها جسمها، تماماً كما كانت لاهية عندمااستمعت إلى ما سرده هوندا. وأوحت عيناها النّجلاوان السّودوان بالذّكاء، وخلعتا عليها، على نحو ما، مظهرَ مَنْ لا يرى. يا لغموض الأشكال! ترجع إطلالة ينج تشان أمامه بجسم يشعر المرء بعبقه القوي العطر إلى سحر الأدغال النائيّة الّتي تمتدّ وصولاً إلى اليابان. وساوره شعور بأنّ ما يسمّيه النّاس بصلة الدّم ربّما لم يكن إلاّ صوتاً عميقاً، بلا قوام، يتابع المرء إلى الأبد. ويتناهى همساً عاطفيّاً في بعض الأحيان، ويدوّي في أحيان أخرى صرخة مبحوحة، وهو أصل كلّ الأشكال البدنيّة الجميلة، ومنبع الجاذبيّة الّتي تصدر عنها.

عندما دسَّ الخاتم ذا الزّمردة القاتمة الخضراء في أصبع ينج تشان، خالجه شعور بأنّه يشهد اللّحظة الّتي تواصل فيها أخيراً، وبعد طول انتظار، الصّوت العميق النّائي وكيان الفتاة العضوي.

ـ شكراً لك.

قالتها ينج تشان بابتسامة ودودة ربّما كانت قد أساءت إلى كبريائها. وأدرك هوندا أنّ ذلك هو التّعبير الّذي يتبدّى على الدّوام عندما تشعر يقيناً بأنّ مشاعرها الأنانيّة موضع تفهّم. ولكن ما إن حاول الإمساك بتلك الابتسامة حتّى كانت قد مضت بالفعل وكأنّها موجة تنسحب مسرعة.

ـ كنت تزعمين وأنت طفلة أنّك لست إلاّ تناسخ فتى يابانيّ كنت أعرفه حقّ المعرفة، وقد أثرت ضيق الجميع بالإصرار على أنّ اليابان

هي موطنك الحقيقي، وأنّك تريدين العودة إليها. ومادمت الآن هنا وأصبعك في ذلك الخاتم، فإنّ ذلك يعني بالنّسبة لك أيضاً أنّ أطراف دائرة عظيمة قد اكتملت.

ردّت ينج تشان دون أثر واحد يوحي بالانفعال:

ـ لست أفهمّ الأمر حقّاً. ولا أذكر أيّ شيء عن طفولتي. لست أذكر حقّاً. إنّهم يداعبونني إلى حدّ المضايقة بالقول إنّني كنت مجنونة بعض الشيء، ويضحكون منّي عندما يقولون ما كنت تقوله منذ لحظة. ولكنّي نسيت كلّ شيء تماماً، فقد مضيت إلى سويسرا، فور اندلاع الحرب، وبقيت هناك حتّى انتهت، والشيء الوحيد الّذي أذكره عن اليابان هو أنّني أحببت دمية يابانيّة أرسلها أحدهم إليّ.

شعر هوندا بدافع يدعوه إلى إخبارها بأنّه هو الّذي بعث بالدّمية، ولكنّه كبح جماح نفسه.

ـ قال لي أبي إنّ المدارس اليابانيّة جيّدة؛ ولذا جئت إلى هنا للدّراسة. ومؤخّراً راودتني فكرة بأنّني ربّما كنت في طفولتي كالمرآة الّتي ينعكس على صقالها كلّ ما في أذهان النّاس، وأنّني قد قلت ما حدث لي. وعلى سبيل المثال، لو أنّ فكرة راودتك، فربّما انعكست مجسّدة فيَّ. وربّما كان ذلك هو ما حدث، فيما أتصوّر. ما هو رأيك؟

كان من عادة ينج تشان إنهاء السّؤال بارتفاع في مقام الصّوت على الطّريقة الإنجليزيّة. وقد ذكّرت مقاطعها النّهائيّة هوندا بالذّيول الحادّة الالتواء للثّعابين الذّهبيّة، في الأطراف العليا للسّقوف المصنوعة من الآجر الصينيّ للمعابد التايلانديّة الّتي ترتفع إلى عنان السّماء الزّرقاء.

أدرك هوندا، فجأة، وجود عائلة تجلس إلى المائدة القريبة، وقد

عكف على تناول طعام العشاء ربّ العائلة الّذي ربّما كان من رجال الأعمال، وزوجته، وأبناؤهما الكبار. ورغم ثيابهم القشيبة فقد كان بمقدوره أن يرصد شيئاً سوقيّاً في ملامحهم. وحدس بأنّهم أصبحوا أثرياء من خلال الحرب الكوريّة. وكانت وجوه الأبناء بشكل خاصّ مترهلّة، مثل وجه كلب أوقظ لتوّه، وعكست شفاههم وأعينهم افتقارهم التّام إلى التّربية، وعكفوا جميعاً على تناول حسائهم محدثين ضجّة ملحوظة.

كان الأبناء ينكز أحدهم الآخر بين الفينة والأخرى، ويختلسون نظرة إلى مائدة هوندا. وبدت أعينهم وهي تسخر من رجل عجوز يتناول طعام العشاء مع خليلة تشبه طالبة من طالبات المدارس. ولاح كأنّما ليس لدى عيونهم ما هو خير من ذلك لتقوله. ولم يستطع هوندا إلّا أن يتذكّر عدم ملاءمة إيمانيشي، الّتي تدفع إلى الشّعور بالغيظ، في انتصاف ذلك اللّيل، في نينوكا، وأن يقارنها بنفسه.

هناك قواعد، في هذه الدّنيا، أشد قوّة من قواعد الأخلاق. وقد شعر هوندا بذلك، في مثل هذه اللّحظة. فالعشّاق الّذين لا يلائم أحدهم الآخر يتلّقون عقابهم من خلال الحقيقة القائلة بأنّهم لن يكونوا مصدراً للأحلام أبداً، ولن يثيروا إلّا التقزّز في نفوس الآخرين. ومن المؤكّد أنَّ أهل ذلك الزَّمن الذي لا يعرف فيه الواحد منهم شيئاً عن النّزعة الإنسانيّة كانوا يقيناً أشدّ قسوة بكثير على كلّ المخلوقات القبيحة من الإنسان الحديث.

بعد تناول طعام العشاء، استأذنت ينج تشان للذّهاب لوضع لمسات على زينتها، وظلّ هوندا وحده في بهو الفندق. وشعر فجأة بالاسترخاء. فبعد تلك اللّحظة يمكنه الاستمتاع بغياب ينج تشان دون ندم.

وثب سؤال إلى ذهنه: إنّه لم يعلم بعد أين أمضت ينج تشان اللّيلة السّابقة على تدشين الدّارة.

انقضى بعض الوقت قبل عودتها إلى البهو. وتذكّر هوندا تلك المرّة الّتي قضت فيها الطّفلة الصّغيرة حاجتها، في بانج با إن، محاطة بوصيفاتها، ثمّ تذكّر الأميرة العارية وهي تسبح في النّهر المثقل بالطّمي الّذي التفّت على امتداده جذور أشجار المنجروف. وأيّاً كان العناء الّذي تكبّده في التحديق، فإنّه لم يستطع تبيّن الشّامات الثّلاث السّوداء الّتي توقّع أن يجدها على جنبها الأيسر.

كانت رغبات هوندا بالغة البساطة، ولن يكون من الصّواب وصف عاطفته بأنّها «حبّ». فلم يكن راغباً إلّا في النّظر إلى قوام الأميرة العاري تماماً مدركاً أنّ النّهدين اللّذين كانا مسطّحين ذات يوم، قد نضجا، واندفعا للخارج كرأسي فرخين يطلّان من عشّهما، ليرى كيف نتأت الحلمتان الحمراوان الورديّتان في سخط، وكيف قبع الإبطان السّمروان في الظلّ المعتم، وليشاهد الطّريقة الّتي يحمل بها ما تحت ذراعيها مؤثرات تموجيّة تشبه شاطئاً رمليّاً حسّاساً، وليدرك كيف أنّ كلّ خطوة خطتها نحو النّضج مضت بها في النّور الغسقيّ، وليرتجف عندئذ في حضرة ذلك البدن، مقارناً إيّاه بجسم الطّفلة الصّغيرة. ذلك كان كلّ شيء. في بطنها ستكون السّرة طافيةً في اللّيونة الخالصة، وغائرة القرار وكأنّها جزيرة مرجانيّة صغيرة. ومحميّاً بشعر غزير بدلاً من الياكشا، فإنّ ما كان ذات يوم صمتاً رصيناً، صلباً، سيحول الآن إلى ابتسامات دائبة نديّة. الطّريقة الّتي ستفتح بها أصابع قدميها الجميلة، واحداً إثر آخر، والطّريقة الّتي سيلتمع بها فخذاها، والطّريقة الّتي ستمتدّ بها ساقاها النّاضجتان لتدعما في لهفةٍ

معرفة رقصة الحياة وأحلامها. أراد أن يقارن كلّ ذلك بقوامها، عندما كانت طفلة صغيرة. وكان ذلك من أجل معرفة الزّمن، معرفة ما صاغه الزّمن، ما أنضجه الزّمن. وإن لم يعثر بعد تمحيص دقيق، على تلك الشّامات على جنبها الأيمن، فإنّه سيقع في هواها تماماً، وبشكل نهائيّ. فالتّناسخ يقطع الطّريق على حبّه، والسّمسارة تكبح جماح عاطفته.

أيقظت عودة ينج تشان إلى البهو هوندا من أحلامه، فأفصح فجأة عمّا كان يجول في خاطره. ورغم كلّ شيء فقد كانت كلماته حادّة، بتأثير لذعات الغيرة:

ـ نسيت أن أسألك. لقد سمعت أنّك أمضيت اللّيلة السّابقة للحفل الّذي أقيم في جوتمبا، خارج مركز الطلّاب الأجانب من غير أن تعلمه بالأمر. أكان ذلك في بيت ياباني؟

ـ أجل، كان كذلك.

هكذا ردّت ينج تشان بلا تردّد وهي جالسة في المقعد المجاور لمقعد هوندا، وقد حنت ظهرها قليلاً، وأخذت تفحص ساقيها الجميلتين اللّتين ضمّتهما معاً على نحو رشيق. ثمّ أضافت:

ـ ثمّة شخص تايلانديّ ينزل هناك، وقد أصرّت العائلة على أن أقضي اللّيل معها، هذا ما قمت به.

ـ لابدّ أنّها عائلة مسلّية، تضمّ كثيراً من الشّباب.

ـ ليس على وجه الدقّة، فالابنان والابنة والشّخص التّايلاندي وأنا لعبنا لعبة التّمثيليّات التّحزيريّة. والأب يتولّى رئاسة مؤسّسة أعمال كبيرة في جنوب شرقيّ آسيا، ولذا فهم لطفاء للغاية مع أبناء جنوب شرقي آسيا.

ـ هذا الشّخص التّايلاندي أهو فتى صديق؟

ـ كلا، بل فتاة. لِمَ؟

من جديد رفعت ينج تشان بحدّة مفاجئة مقام صوتها، في المقطع الأخير من سؤالها.

أعرب هوندا عندئذ عن عدم موافقته على أن يكون لها مثل هذا العدد المحدود من الأصدقاء اليابانيّين. وحذّرها من أنّ الحياة في الخارج لا معنى لها، ما لم تتعرّف بكثير من الأشخاص في البلاد الّتي تدرس فيها. وإذ يحتمل ألاّ تكون مرتاحة لتناول العشاء معه وحدهما، فقد عرض إحضار بعض الأصدقاء الشبّان معه، في المرّة المقبلة، معدّاً بذلك، دونما وعيّ منه، لفرصة أخرى لمقابلتها. وانتزع منها وعداً بأن تحضر في اليوم نفسه من الأسبوع المقبل إلى بهو فندق الأمبريال، في السّاعة السّابعة، فقد جعله التّفكير في رايي متردّداً في دعوتها إلى داره.

- ٣١ -

عاد هوندا إلى الدّار. وترجّل من السيّارة فأحسّ بقطرات المطر الّتي تنثها السماء، تبلّل صدغيه. وقابله الخادم في الدّهليز، وأبلغه بأنّ السيّدة هوندا متعبة وقد أوت إلى الفراش مبكرة، كما ذكر له أنّ ضيفاً لحوحاً قد أصرّ على انتظاره أكثر من ساعة، وهو موجود في غرفة الجلوس الصّغرى الّتي اضطر الخادم لإدخاله إليها. وسأله عمّا إذا كان يعرف شخصاً يُدعى إينوما فحدس هوندا، في الحال، أنّ الرّجل قد جاء ساعياً وراء المال.

كانت أربع سنوات قد انقضت منذ أن رأى هوندا إينوما آخر مرّة في الصّلاة المقامة في الذكّرى الخامسة عشرة لإيساو. وبدا جليّاً في ذلك الوقت أنّ إينوما يفتقر تماماً للمال، بعد الحرب. ومع ذلك فقد تأثّر هوندا على نحو إيجابيّ بالصّلاة البسيطة المقامة في أحد المزارات.

حدَّث هوندا نفسه، في الحال، بأنّ الأمر متعلّق بالمال، إذ لم يعد أولئك الّذين لم يزوروه طوال سنوات يظهرون في الأيّام الأخيرة إلاّ لطلب المال. وقد تدفّق المحامون الفاشلون، والمحامون الّذين تركوا المهنة وأصبحوا من المتشرّدين، والصّحافيون الفاشلون ممّن تخصّصوا في تغطية أنباء المحاكم جماعات بكاملها، فكلّ منهم سمع بالحظّ الطّيب الّذي واتى هوندا، وبدا أنّ كلاّ منهم يعتقد أنّ له بعض الحقّ في الحصول على نصيب؛ لأنّ هوندا وصل إلى المال من خلال الحظّ وحده. ولم يستجب هوندا إلاّ لطلبات الّذين ساءت حالتهم حقّاً.

عندما دخل هوندا الغرفة، نهض إينوما من المقعد، وانحنى

انحناءة إجلال عميقة، بدا معها ظهر بدلته الذاوية، وصولاً إلى قفاه الّذي كساه الشعر الأشيب. وبدا أنّ القيام بدور الرّجل الفقير يناسبه أكثر من الفقر نفسه، واستحثّه هوندا على الجلوس، وأمر الخادم بجلب الويسكي.

طرح إينوما كذبة مكشوفة، بقوله إنّه كان مارّاً بقرب الدّار، ولم يستطع مقاومة دافع ملح دعاه لرؤية هوندا. وبعد تناول كأس من الويسكي تظاهر بالسّكر. وفيما شرع هوندا في صبّ كأس أخرى، أمسك إينوما بالكأس بيده اليمنى، وأسند أسفلها في إجلال بيده اليسرى. ولم يبد هذا شيئاً حميداً لهوندا. فالجرذ يمسك غنيمته بهذه الطّريقة، على وجه الدقّة. ثمّ وجد إينوما مدخلاً لإلقاء محاضرته.

ـ طيّب. يبدو لي أنّ «اتّباع الطريق العكسيّ» قد أصبح المقولة المعتمدة اليوم. ولكن الحكومة ستبدأ بتعديل الدّستور، بحلول العام المقبل على أقصى تقدير، فيما أعتقد. والسّبب في أنّ الجميع يتحدّث عن إعادة العمل بالتّجنيد هو أنّ هناك حقّاً أساساً لذلك، ولكن الأمر الّذي يثير الحنق هو أنّ ذلك الأساس لا يمكن طرحه علناً، ومايزال تحت الأرض. وبالمقابل فما هو تقديرك للقوّة الهائلة الّتي يحرزها الحمر؟ وماذا عن الاضطرابات في المظاهرات المعارضة للتجنيد في كوبي مؤخّراً؟ لقد أطلقوا عليها «تجمّع الشّباب المعارض للتجنيد» ولكن الأمر الغريب هو أنّ الكثيرين من الكوريّين قد شاركوا، وقاتلوا الشّرطة لا بالأحجار فحسب، وإنّما بالفلفل الأحمر، وقنابل المولوتوف، وحراب الخيزران، وكلّ شيء. وقد سمعت أنّ حوالي ثلاثمائة طالب وصبي وكوريّ قد اقتحموا مخفر شرطة هايوجو، وطالبوا بالإفراج عمّن تمّ احتجازهم.

حدَّث هوندا نفسه بأنّ إينوما يريد مالاً، ولم يكترث بما كان يقوله، ولكنّه أمعن التّفكير في أنّ عليه أن يعلم إينوما بأنّه أيّاً كانت كيفيّة سيطرة أتباع النّهج الجديد بسياساتهم الاشتراكيّة على الأمور، وأيّاً كانت الضجّة الّتي يحدثها الحمر، فإنّ أساس نظام الملكيّة الخاصّة لن يتزعزع أبداً. وقد بدا أنّ الرّذاذ المتساقط، خارج النّافذة، يزداد انهماراً، وكأنّ ستارة المطر المتعدّدة الطّبقات تلفّ الدّار. وكان قد أوصل ينج تشان إلى مركز الطلّاب الأجانب بسيّارة أجرة. ومنذ ذلك الوقت، لم تفارقه خاطرة قوامها أنّ هذا المطر الرّبيعي قد تسرّب إلى غرفتها، في جناح الطّالبات، وجعلها رطبة. ترى أيّ نوع من التّأثير المراوغ يمكن أن يكون للرطوبة على جسم الفتاة، الّذي نضج في منطقة استوائيّة؟ ترى كيف تنام؟ أتنام مواجهة السقف وهي تتفّس تنفّساً ثقيلاً؟ أم تلتفّ حول نفسها وعلى شفتيها ابتسامة؟ أم على جنبها مثل تمثال شكياموني الذهبي المضطجع، في قاعة النيرفانا، والذّراع تحت الرّأس، مستلقية، وقد ظهر باطنا قدميها الرّائعان؟

واصل إينوما حديثه:

ـ لقد تحوّل إلى العنف أيضاً التجمّع العام من أجل إلغاء القوانين الظّالمة، وقد دعا إليه فرع كيوتو للمجلس العام لنقابات اليابان. وبهذا المعدّل فإنّ عيد أوّل أيّار (مايو) لهذا العام لن يمرّ بسلام بدوره، فليس بمقدورك التنبّؤ بمدى العنف الّذي سيندلع. والطلّاب الحمر يستولون على مباني الكلّيّات في الجامعات ويدخلون في مواجهات مع الشّرطة. ويأتي هذا، يا سيّدي، مباشرة بعد توقيع معاهدة السّلام وميثاق الأمن المتبادل بين اليابانيّين الأميركيّين، فياللمفارقة!

حدَّث هوندا نفسه بأنّ إينوما يسعى وراء المال.

واصل إينوما الحديث:

ـ إنّني أؤيّد كلّ التّأييد فكرة رئيس الوزراء يوشيدا عن إعلان الحزب الشّيوعي تنظيماً غير شرعي، فاليابان في حالة غليان من جديد. وإذا تركنا الأمور تمضي في أعنتها، الآن وقد وقّعت معاهدة السّلام، فسوف نجد أنفسنا وجهاً لوجه مع ثورة شيوعيّة. وسوف ترحل معظم القوّات الأميركيّة، فكيف سنسيطر على إضراب عام؟ إنّ مستقبل اليابان يؤرّقني كثيراً. والحكمة القائلة إنّ ما يُتَعَلَّم في المهد يُحْمَل إلى القبر هي أكثر انطباقاً الآن.

راح هوندا يحدّث نفسه بأنّه يسعى وراء المال، ولكن حتّى بعد كؤوس عديدة إضافيّة، لم يطرح إينوما الموضوع.

تحدَّث، في إيجاز، عن طلاقه قبل عامين، ثمَّ غيَّر موضوع الحديث فجأة إلى الأيّام الخوالي، وشرع باعتراف مثقل بالإصرار على أنه لن ينسى، طوال عمره الدّين الّذي يحسّ أنّ هوندا يطوّق عنقه به، ولاسيّما أنّه تخلّى عن منصبه القضائي، وتطوّع بالقيام بالدّفاع عنه بلا أتعاب. ولم يستطع هوندا تحمّل فكرة حديث إينوما عن إيساو، فسارع بمقاطعته.

نزع إينوما، فجأة، سترته. ولم تكن الحرارة في الغرفة من الشدّة بحيث تبعث على الضّيق، ولكن هوندا افترض أنّ السكر قد أخذ بناصيته. ثمَّ نزع ربطة عنقه، وفكّ أزرار قميصه الأبيض، بل وأزرار قميصه التّحتي، ليظهر صدراً اكتسى بالحمرة بتأثير الشّراب. وكان بمقدور هوندا أن يرى الشعرات البيضاء تماماً الّتي تناثرت على وجه التّقريب كالإبر.

ـ لأكون صريحاً معك، أقول إنّني جئت لأريك هذا. ليس لديَّ عار أعظم منه. ولو أنّ ذلك كان بمقدوري لآثرت أن أحجبه عنك

طوال حياتي، ولكنّي رحت أحدّث نفسي لبعض الوقت بأنّي سأكشفه لك وحدك وأدعك تضحك كثيراً. وقلت لنفسي إنّك أنت وحدك ستفهمني، بل ستفهم فشلي وتعرف أيّ نوع من الرّجال أنا. إنّني بأمانة وصدق أحسّ بأنّني شديد الخجل عندما أقارن نفسي بابني الّذي رحل على مثل هذا النّحو النّبيل. وليست لديّ كلمات تعبّر بصورة مناسبة عن عمق خجلي لاستمرار وجودي على قيد الحياة، على هذا النّحو.

تحدّرت الدّموع على خدّيه، وصدرت كلماته، وقد اختلط حابلها بنابلها:

ـ ذلك هو النّدب الّذي تخلّف عندما حاولت الانتحار بعد الحرب مباشرة. وكانت غلطتي أن ظننت بأنّني قد لا أفلح في الإقدام على السّيبوكو، ولذا قمت بدلاً من ذلك بغرس خنجر في صدري، ولكنّي أخطأت قلبي ونزفت كالخنزير، بيد أنّي لم أمت.

أخذ إينوما يداعب النّدب الّذي التمع بزرقة تميل إلى اللّون الأرجواني وكأنّه يفعل ذلك على سبيل الاستعراض، وفي حقيقة الأمر فإنّه حتّى هوندا كان بمقدوره أن يدرك أنّ شيئاً ما قد انتهى، على نحو لا سبيل إلى تداركه، فجلد إينوما الخشن الضّارب إلى الحمرة قد تغضّن، محيطاً بالجرح، ومؤدّياً إلى التئامه على نحو مرتبك يؤكّد إخفاق محاولة الانتحار.

غير أنّ صدر إينوما الفظّ الّذي اكتسى الآن بالشّعر الأشيب، كان مايزال فخوراً بما كان عليه ذات يوم. وأخيراً أدرك هوندا أنّ إينوما لم يأتِ بسبب المال على الإطلاق. ورغم ذلك فإنّه لم يشعر بالخجل لإساءته الحكم على هدفه. لم يتغيّر إينوما. ووجد هوندا من المفهوم

أن يـرغم حتّى رجل كهـذا على استقـطار عمل يـائس وملطّخ ومـذلّ وبلورتـه، وأن يكافـح، من خلال القيـام بهذا، لكي يحـوّل الشّعـور بالعار إلى جـوهرة نـادرة، وأن يتغلّب تدريجيّـاً على أمـره، تحت تأثـير الرّغبة والحاجة إلى عرضها على شهود موثوق بهم. وسواء أكان جـادّاً أم مدّعياً فحسب، فإنّ الحقيقة تظلّ قائمة لتقول إنّ النّدب الأرجواني على صدره كان، في نهاية المطاف، الشّيء الوحيـد الثّمين الّـذي بقي له في حياته. وقد اختـير هونـدا ليحظى بـالشّرف الّذي لا يـرحّب به أحد، والمتمثّل في أن يكون شاهـداً على هـذه الفعلة النّبيلة الّتي تعود إلى سنوات بعيدة.

أعاد إينوما الّذي يبدو أنّه تمـالك نفسـه سريعاً، تـرتيب ملابسـه، واعتذر عن بقائـه طويـلاً، وأعرب عن شكـره لهونـدا على الشّراب. وكـان على وشـك المغادرة عنـدما استـوقفه هـوندا ولملم أوراقـاً ماليّـة قيمتها خمسون ألف ين، ودسّ اللّفافة في جيب سترة إينومـا المتّسخة، على الرّغم من احتجاجات الزّائر.

قال إينوما، أخيراً، وهو يشكر هـوندا عـلى نحو متّسم بـالرّسميّـة البالغة:

ـ في هذه الحالـة فإنّني أتقبّـل كرمـك بامتنـان، وسيكون شرفـاً أن أستغلّه في إحياء مدرسة سيكين.

رافقه هوندا تحت المطر حتّى مدخل الـدّار. واختفى قوامـه الملتفّ بعباءة اللّيل، عـبر البوّابـة الجانبيّـة، تحت وريقات أشجـار الرمّـان، فذكّره لسبب لم يتبيّنه، بإحدى الجزر اللّيليّـة الّتي ترقّش الميـاه الكثيبة المحيطة باليابان. جزيرة ناتئة، بلا ماء، إلاّ المـطر ـ جزيـرة غاضبـة، بريّة، تتضوّر جوعاً.

- ٣٢ -

امتلأت نفس هوندا بخوف هـو أبعد مـا يكون عن السّـلام الّذي توقّعه، عندما وضع الخاتم في إصبع ينج تشان.

ولقـد اهتمّ كثيراً بـالمسألـة الصّعبـة المتعلّقـة بكيفيّـة إخفـاء نفسـه لرؤيتها عارية. فكم سيكون مدهشاً أن تقوم، دونمـا إدراك لوجـوده، بالتحرّك مترعة بـالحياة، أو تمضي عـلى سجيّتها، كـاشفة عن مكنـون فؤادها، وأن تكون طبيعيّة تماماً، وكم سيكون بديعاً أن يـرقب، مثل عالم أحياء، كـلّ التفاصيـل. ولكن لئن عرف أمـر وجوده لانهار كـلّ شيء.

بلّورة من المرو لا يشوبها نقص. آنية زجـاجيّة مـا من شيء بها إلاّ التّلاعب الحرّ لكيان ذاتي بديع. إنّه يتعينّ أن تكون ينج تشان في مثل هذه الآنية، على وجه الدّقّة.

كـان هونـدا على يقـين من أنه أدّى دوراً في بلورة حيـاتي كيـواكي وإيساو الشفّافتين، ففيهما كان اليد الّتي امتدّت بالمساعدة، على الرّغم من أنّه قد اتّضح أنّها مساعدة لا أثر لها وبلا جدوى. والأمر المهمّ أنّ هوندا نفسه لم يكن مدركاً لدوره. وأنّه قد أدّى دوره على نحو طبيعي تماماً، وأدّاه في حقيقة الأمر بشكل اتّسم بالغفلة، عـلى الرّغم من أنّـه هو نفسه كان مقتنعاً بحذقه في الأمر. ولكن يا لقسوة ما يـرى بعد أن غدا مدركاً للأمر! وبعد أن علّمته الهند المتّقـدة دونما رحمـة، ترى مـا العون الّذي كـان بمقدوره أن يقـدّمه للحيـاة؟ أيّ نوع من التـدخّل، أيّ نوع من الارتباط كان يمكن أن يكون؟

وفضلاً عن ذلك فإنّ ينج تشان امرأة. ها هنا جسم يترع الكأس حتّى الحافّة بعتمة الفتنة المجهولة. لقد أغواه هذا الجسم، اجتذبه على الدّوام نحو الحياة. وشرع يتساءل: من أجل أيّ الأهداف؟ لم يعرف الردّ، ولكن ربّما كان من الأسباب أن قدّر لحياة اجتذب إليها أن تشمل آخرين من خلال الفتنة الّتي تنبعث منها، قدّر لها أن تقضي على جذورها. ويتمثّل سبب آخر في أنّه كان مجبراً على أن يدرك كلّيةً هذه المرّة استحالة الانخراط في حياة شخص آخر.

كان هوندا مقتنعاً بالطّبع بأن وضع ينج تشان في بلّورة شفّافة سيشكّل جوهر متعته، ولكنّه لم يستطع فصل ذلك عن رغبته الفطريّة في التّمحيص. أليس هناك من سبيل يستطيع من خلاله التّوفيق على نحو متناغم بين هذين الذّوقين المتناقضين والتغلّب على ينج تشان، زهرة اللّوتس السّوداء هذه الّتي ترعرعت من طمي دفق الحياة؟

وفي هذا الصّدد، كان يمكن أن يكون من الأفضل لو أنّها أفصحت عن إشارة واضحة لكونها تناسخاً لإيساو وكيواكي، وعندئذٍ ستفتُر عاطفة هوندا. ومع ذلك فإنّها لو كانت من ناحية أخرى فتاة لا صلة لها بلغز البعث الّذي كان هوندا شاهداً عليه، لما انجذب إليها بمثل هذه القوّة الآسرة. ربّما كان أصل تلك القوّة الّتي تكبح في عناد جماح عاطفته، وقوّة الانجذاب الآسر على نحو غريب، موجوداً في سمسارة واحدة بعينها. فمصدر اليقظة وأصل السمسارة والوهم هما معاً سمسارة.

فيما عكف هوندا على التّفكير في الأمر، تمنّى بقوّة لو أنّه كان رجلاً يدنو من نهاية الحياة، شخصاً ذا أملاك راضياً عن نفسه تماماً، وكان يعرف عدداً من الأشخاص ينتمون إلى هذه النّوعيّة. فكثيرون كانوا

تجسيداً للفطنة ذاتها في اقتناص الرّبح، وشقّ طريقهم في الدّنيا، أو في الصّراع من أجل السّلطة، وكانوا حاذقين في تملّك ناصية نفسيّة المتنافسين المقتدرين. ومع ذلك فإنّهم كانوا جهلة تماماً عندما يتعلّق الأمر بالنّساء، رغم أنّهم ضاجعوا مئات عديدة منهنّ. وقنع مثل هؤلاء الرّجال بإحاطة أنفسهم بستائر النّساء والمتملّقين الّذي اشتروهم بمالهم وسلطتهم. وكالمتبطّلين تجلس النّساء حولهم مطلّات بجانب واحد من وجوههنّ. وأخذ هوندا يحدِّث نفسه بأنَّ مثل هؤلاء الرّجال ليسوا أحراراً، وإنّما هم في قفص! إنّهم يجلسون في أقفاص صنعت من الأشياء الّتي تراها أعينهم وحدها فتجعل العالم خواء وتوصد الأبواب دونه فتبقيه خارجاً.

هناك رجال آخرون أكثر حكمة بعض الشيء، فهم أثرياء، وذوو سلطان، وأكثر إدراكاً للطّبيعة البشريّة، وبمقدورهم معرفة كلّ شيء عن الإنسان، وبوسعهم الولوج إلى قلب الأشياء بتفسير أدنى مؤشر على السّطح، أناس تملّكوا ناصية الفهم النّفسي الفائق، يتحكّمون في مذاق الحياة بمرارة خلّ نبات عصا الرّاعي. وحينما يطيب لهم فإنّ بمقدورهم أن يأمروا الأشجار والأحجار والشجيرات بالانتقال، في أفنيتهم الصّغيرة الجميلة، ولهم حدائق صغيرة، فاتنة، أعدّت من منتقيات من الدّنيا والحياة وأجيد ترتيبها وتنظيمها، حدائق خبراء ذوّاقين حقيقيّين. وتتألّف مثل هذه البساتين الصّغيرة من صخور الخديعة ولاجرسميّة العبث، وكنبات الختل، وأحواض التملّق، وشلّالات الولاء الصّغيرة، وأحجار الخيانات الّتي لا تحصى. وهم يجلسون النّهار كلّه أمام هذه الحدائق المجازيّة، مغرقين أنفسهم في اللذّة الهادئة النّابعة من تجريدهم للعالم والحياة من كلّ مقاومة. غير أنّهم يتشبّثون بقوّة بمرارة العارفين وتفوّقهم، مثلما تتشبّث الأيدي

بقدح شاي نادر لا يقوّم بالمال، مليء بشاي أخضر فاتح مزبد السّطح. ولم يكن هوندا بالرّجل الّذي ينتمي إلى هذه النّوعيّة، فهو لم يكن مغتبطاً بنفسه، ولا آمناً. ومع ذلك فإنّه لم يكن بالجاهل أيضاً. لقد رأى فحسب الخطّ الفاصل بين ما يمكن العلم به وما لا سبيل إلى الإحاطة به علماً، ورغم ذلك فقد كان هذا كافياً لجعله واعياً ومدركاً. وكان غياب اليقين كنزاً لا يضاهي، ويمكن أن يسرقه الإنسان من الشّباب. وقد شارك هوندا بالفعل في حياتي كيواكي وإيساو، ورأى تجلّيّات للقدر كان من العبث أن يمدّ فيها يده. وبدا الأمر كما لو كان قد تعرّض للخداع. ومن منظور القدر فإنّ الحياة تشبه تعرّض المرء للخداع. والوجود الإنساني... لم يعنِ شيئاً إلاّ الافتقار للتحقّق، وذلك هو ما تملّك هوندا ناصيته في الهند.

ومع ذلك فإنّ الحياة المستترة على نحو مطلق، أو الشّكل الأنطولوجي على نحو جوهريّ للحياة، وهو لا يكشف عنه للكافّة، قد اجتذب هوندا أشدّ الاجتذاب. وأغواه إلى حدّ الإفساد، المفهوم المتطرّف القائل بأنّه ليست هناك حياة من دون مثل هذه الأشكال. وقد افتقر تماماً لمؤهّلات القائم بالإغواء، ذلك أنّ الإغواء والخداع عبث، وأنّه لا طائل وراءهما من منظور القدر، بل إنّ «إرادة الإغواء» ذاتها باطلة وبلا جدوى. وإذا أدرك المرء أنّه ما من شكل آخر للعيش إلاّ أن يُخدَع بسذاجة على يد القدر وحده فكيف يكون بالإمكان التدخّل؟ وليس بمقدور المرء في الوقت الرّاهن تصوّر مثل هذا الكائن إلاّ في غيابه. ولابدّ أن تعزل عنه يانج تشان الّتي كانت مكتفية بذاتها، في كونها الخاصّ بها، هي الّتي كانت كوناً بذاتها. وفي بعض الأحيان كانت نوعاً من الخداع البصري، قوس قزح جسديّاً. كان محياها أحمر، وجيدها برتقاليّاً، ونهداها أصفرين، ولها بطن أخضر،

وفخذان زرقاوان، وربلتان نيليّتان، وأصـابع أقـدام أقحوانيّـة. وفوق رأسها قلب خفيّ لونه ما دون الأحمر، وتحت قدميهـا الرّاسختـين آثار أقـدام الذّاكـرة الخفيّة ذات اللّون فـوق البنفسجي. واختلط الـطّرف الأقصى لقوس قزح مع سماء المـوت. كانت قـوس قزح يصـل اختيار الموت. وإذا كان «عدم المعرفة» هو العنصر الأوّل في النّزعة الشّهوانيّة فإنّ العنصر المطلق يتعينّ أن يكون مـا لا سبيل إلى معـرفته عـلى نحو أبديّ... الموت.

عندما امتلك هـوندا المبلغ غـير المتوقّـع الّذي صـار لديـه، حدَّث نفسه شأن الجميع بأنه سينفقه في إرضاء نفسه، ولكن مثل هذا المـال كان بلا جدوى فيما يتعلّق بأكثر مُتَعِه جوهريّة. فالمشاركـة، الاهتمام، الحماية، الامتلاك، الاحتكار ـ كـلّ هذه الأشيـاء تقتضي المال، وللمال نفعه، ولكن متعة هوندا كانت ترفض كلّ هذا.

كان يعلم أنّه في المتع غير الباهظة التّكلفة تكمن لذّة مبهجة. ومن هذه المتع تلمّس الأشنة الرّطبة علـى جـذوع الأشجـار، في الأجمة الّتي أخفى نفسـه فيها، والعبق المـراوغ للوريقات الـذّاوية عـلى الأرض، حيث انحنى، في ليلة من ليـالي أيّـار (مـايـو) من العـام المـاضي، في الحديقة. وكان عبق الوريقات حادّاً يلذع الأنف. والعشّـاق يرقـدون على العشب، وقد اضـطربت ملابسهم، ومضت أضـواء السيّارات، وجاءت، بلا هوادة، على الطّريق حول الأجمة. ولقد أضاءت أشعّتها الأشجار الصنوبريّة الّتي شابهت أعمدة أحـد المزارات، ثمَّ انحسرت سريعـة، وعلى نحـو مأسـاويّ، عن جذع شجـرة تلفّه الـظّلال بعـد الآخر. وقد أخذته الرّعدة عندما انطلق الضّوء مسرعـاً على العشب، وللحظة مسَّ، على نحو قاسٍ تقريباً، الجمال المقدّس لمـلابس داخليّة

مرفوعة. وقد حدث مرّة واحدة فحسب أن رأى هوندا شعاعاً من النّور يمرّ مباشرة عبر محيا امرأة حالمة العينين. وبينما لمح انعكاس بقعة ضوء أدرك أنّ العينين كانتا على وجه اليقين مفتوحتين، وإن كان ذلك بصورة جزئيّة فحسب. وكانت تلك لحظة لاهثة يكشف فيها النّقاب، على حين غرّة، عن الوجود الإنساني. ولقد رأى، دونما قصد، ما كان ينبغي ألاّ تقع عليه عيناه.

ولأن يوافق ما بين اختلاجاته واختلاجات العاشقين، وأن يربط وجيب قلبه بوجيب قلبيهما، وأن يشاركهما خوفهما، وأن يظلّ في نهاية مثل هذا التوحّد اللاّمنتميَ الّذي رأى من غير أن يراه أحد. . . فتلك هي المسألة. وقد جثم المحتفلون بهذا التجسّس المختلس، هنا وهناك، تحت الأشجار، وفي الشجيرات، كجنادب اللّيل. وقد كان هوندا واحداً من أولئك الرّجال الّذين لا أسماء لهم.

نساء ورجال في شرخ الشّباب. . . أجساد تتداخل، أجزاء سفليّة بيضاء تعرّى. رقّة الأيدي وهي تتحرّك حيث الظّلال أعمق ما تكون. إليات الرّجال البيّضاء، وهي تتحرّك مثل كرات البينج بونج. الأصالة الشّرعيّة على وجه التّقريب لتنهّداتهم.

نعم، عندما تنزع أضواء السيّارات للحظة قشرة ظلام الوجود، يُضاء محيا المرأة دونما توقّع. ولكن الإجفال لا يكون من نصيب من يجري رصدهم، وإنّما من نصيب أولئك الّذين يعكفون على المراقبة، وراء الأشجار. وعندما تدوّي صفّارة سيّارة الدّوريّة النّائية والغنائيّة خارج الحديقة، الّتي كساها اللّيل، حيث تتوهّج انعكاسات لافتات النّيون كالجمرات، فإنّ النّساء اللاّتي يجري رصدهن لا يدعن

انغماسهنّ، ويرفع رجالهنّ، دونما قابليّة للترجّل، جذوعهم القويّة وكأنّهم ذئاب شابّة.

وفي إحدى المناسبات تناول هوندا طعام الغداء مع محام محنّك، نقل إليه قليلاً من التقوّلات الّتي ترامت إلى سمعه في أحد مخافر الشرطة. ولم يقدّر للفضيحة أن تنشر قطّ في الصّحف، فهي تدور حول رجل جليل يحظى بمكانة بارزة في الدّوائر القانونيّة، ويتمتّع بالمكانة والتّقدير اللّذين يخوّلها إيّاه منصبه الرّفيع. وقد اعتاد التلصّص، وأمسكت به الشّرطة. كان في السّادسة والأربعين من العمر. وطلب منه ضابط شرطة شاب بطاقة هويّته، مطالباً إيّاه دونما رحمة بإعادة أداء ما أقدم على اقترافه. وأخذ المحامي السيّئ الطّالع يرتجف خجلاً، بصورة حرفيّة، وهو يجبر على تقديم صورة مفصّلة لمشهد نزعته التلصّصيّة. وخلال ذلك الوقت ألقى عليه الضّابط محاضرة طويلة في الأخلاق الفاضلة. وما إن علم ضابط الشّرطة الشّاب بمكانة المتّهم الرّفيعة حتّى انبرى يسلّي نفسه بالسّخرية منه، مؤكّداً الهوة الّتي لا تصدّق بين المكانة الّتي يحظى بها وبشاعة جريمته. وكان يدرك تمام الإدراك أنّه من المستحيل إنسانيّاً الرّبط بين جانبي هذه الهوة، ومع ذلك فقد أقدم على تعذيب الرّجل على هذا النّحو. وتحت سوط التّقريع من شابّ صغير في السنّ، بحيث يمكن أن يكون حفيداً له، غدا العجوز خنوعاً، خافض الرّأس، ومضى يجفّف جبينه الغارق في العرق. وبعد إهالة الرّكام عليه على هذا النّحو من شخص خفيض المكانة في سلّم البيروقراطيّة الحكوميّة، تمّ الإفراج عنه، وبعد عامين مات مصاباً بالسرطان.

شرع هوندا يتساءل: ترى كيف كان يمكن أن يتصرّف؟

كان يفترض في هوندا أن يعرف كلّ ما يحيط بسرّ كيفيّة عبور مثل هذه الهوة اليائسة. فالرقية السرّيّة الّتي حصل عليها من الهند، كان يجب أن تبرهن على فعاليّتها.

لماذا لم يتمكّن المحامي العجوز من إيضاح طبيعة لذّته باستخدام لغة القانون؟ ـ لذّة هي من القوّة بحيث تدفع بالدّمع إلى المآقي، أكثر اللّذّات تواضعاً في الحياة. ولكن على الرّغم من أنّ هوندا تظاهر بالاستماع على نحو عابر، واعتبار الأمر ثرثرة مسلّية، إلّا أنّه لم يستطع منع نفسه من التساؤل، على امتداد الوقت الّذي استغرقه تناول الطّعام، عمّا إذا لم يكن هناك دافع أكثر عمقاً وراء الموضوع الّذي طرحه زميله. وحرص على أن يبتسم بازدراء عند المواضع الحرجة، تماماً كما كان محدثه يفعل، ولكن أثارت حيرته المفارقة القاسية بين ثراء اللّذّة والبؤس الّذي جلبته. مثل هذه الفعلة كانت بالنّسبة للعالم شيئاً لا قيمة له، وكأنّه زوج من الأخفاف البالية المصنوعة من القشّ، غير أنّ الثراء احتجب في قرارها ذاته، وذلك أمر ينطبق على أيّ نوع من اللّذّات، وكنتيجة لهذه المحنة الّتي استمرّت ساعة، تخلّى كلّيّة عن البهجة الّتي تبعثها عادته تلك. ومن حسن الحظّ أنّ أحداً لم يكن على علم بهذا الجانب فيه.

لا يمكن أن يكون مردّ الأمر إلى أنّه غفل عن الخطر، لأنّه قد أذلّ منطقه جهاراً. والمغامرة الحقيقيّة لفعلة خطرة هي المنطق، ومن ذلك أيضاً تأتي الشّجاعة.

وإذا لم يكن بمقدور المال أن يضمن الأمن، وأن يبتاع له المباهج الحقيقيّة، فما الّذي بمقدوره إذن القيام به لاجتذاب حياة جديدة في

عمره هذا؟ ومع ذلك فـإنّ سغبه للعيش لم يقـلّ قطّ وإنّما ازداد حـدّة مع الإيغال في العمر.

وهكذا فسوف يكـون من الضّروري، وإن لم يرغب في ذلـك، أن يستخدم نوعاً من الوسيط. وحتّى إذا ضاجعته ينج تشان، من خـلال صدفة من نوع ما، فـإنّه مـادام ما يـريده حقّـاً هو شيء لا يمكنهـا أن تـظهره، فـإنّـه سيكـون من المحتّم أن يستخـدم أسلوبـاً مصـطنعـاً، وملتفّاً، للحصول على ما يحتاج إليه كلّ هذا الاحتياج.

وإذ تعـذّبـه هـذه الخـواطـر، ولا يجـد إلى النّعـاس سبيـلاً، فـإنّـه يستخرج كتاب «سوترا ملك حكمة الطّاووس الذّهبي العظيم» الّذي ظلّ لبعض الوقت على حاله فوق الرفّ، وتراكم الغبار فوقه.

وفي بعض الأحيـان، كـان يغمغم بـالمـانـترا الخـاصّـة بـإنجـاز الطّاووس: مايو كيتسو را تاي شاكا.

لم تكن إلاّ لعبـة أحجيات. فلئن كـان قد بقي عـلى قيـد الحيـاة، بسبب هذه السّوترا، فإنّ الحياة الّتي أبقى عليها بهـذا الأسلوب تزداد افتقاراً للقيمة، وللجدارة بأن تعاش.

- ٣٣ -

أبـدت كيكو اهتـماماً كبيـراً بقصّـة كتـاب «سـوتـرا ملك حكمـة الطّاووس الذهبي العظيم».

- تقول إنّه فعّال ضد لدغة الثّعبان؟ وعليه فإنّني أودّ الإحاطـة به، فهناك كثير من الثّعابين في حديقتي بجوتمبا.

- إنّني أتذكّر القليل، من الفقرة الافتتاحيّة، فهي تمضي عـلى النّحو التّالي: تا دو يا تا إيكيتشي ميتشي تشيري ميتشي تشيريبيري ميتشي.

ضحكت كيكو، قائلة:

- إنّها تبدو مثل أغنية «تشيريبيريبين».

استشعر هوندا ضيقاً طفوليّاً إزاء ردّ فعلها الثّرثار، ولزم الصّمت.

كانت كيكو قد أحضرت معها طالباً من جامعة كيو، قدّمته بوصفه ابن أخيها. وكان يرتدي بـدلة مستـوردة، ويضع سـاعة يـد مستوردة غالية الثّمن. وكان له حاجبان ضيّقان، وشفتان رقيقتان. وقد أجفـل هـوندا لـدى إدراكه أنّ عينيـه قد اتّخـذتا تلقـائيّاً النّـظرة الميّالـة للنّقد القاسي الّتي كانت تميّز أعضاء فريق الكندو القديم.

درجت كيكـو على الاحتفـاظ بربـاطة جـأشهـا في كـلّ الأوقـات. وكانت توجّه تعليماتها إلى الجميع، بلهجة رفيعة، هادئة، وكانت تتبع كلّ طلب من طلباتها تعليمات تفصيليّة.

وقد اكتشف هوندا ذلك، منذ يومين، عندما صحبها لتناول طعام الغداء في «طوكيو كايكان» احتفالاً بعودتها إلى المدينة، فقد ذكر رغبته في أن يقـدّم ينج تشـان لفتى مناسب، و«عـدواني» إن أمكن. وكانت

تلك هي الكلمة الواحدة الّتي أوحت لكيكو بالحيلة بأسرها.
قالت:
ـ فهمت، فليس بالأمر المناسب لك أن تكون عذراء. سأحضر لك في المرّة التّالية الّتي نلتقي فيها، ابن أخي الّذي لا سبيل إلى إصلاح سلوكه، ولن يكون هناك ما يثير قلقك على ما بعد وقوع الأمر، مع هذا الفتى. وفيما بعد سيكون بإمكانك القيام بدور موضع الثّقة الهادئ، اللّطيف، البالغ الطّيبة، وتستمتع بها على مهل... يا لها من خطة رائعة!

عندما تقول كيكو «رائعة» فإنّ الرّوعة تبدو، على الدّوام، وقد تبدّدت. وفي المتعة كانت تفتقر تماماً إلى أيّ انفعال ـ ولو أنّها كانت عاهرة لاضطرت إلى الادّعاء والتّظاهر. فقد كانت أكثر منهجيّة من أن تتّخذ ذلك مهنة لها.

انطلقت كيكو في إيضاح نزعة ابن أخيها لمسايرة الأزياء الحديثة، وكان اسمه كاتسومي شيمورا، وحدّثت هوندا بأنّه بعث بمقاساته إلى نيويورك، ومن خلال صديق أميركيّ لوالده طلب بذلات من إنتاج الإخوة بروكس، تناسب كلّ فصول العام وقد أفصحت هذه الطّرفة وحدها عن كثير ممّا يتعلّق بهذا الشّاب.

وبينما سردت مجدّداً قصّة كتاب «سوترا ملك حكمة الطّاووس الذهبي العظيم»، أخذ كاتسومي يحدّق في البعيد، وقد بدا عليه الضّجر. كان بهو فندق الأمبريال يشبه مدخل مقبرة تقطع فيها الصّخور الخفيضة البارزة الطّريق إلى الطّابق المتوسط، بين الطّابق الأرضي وما يعلوه. وفي الحانوت الّذي يحتلّ ركن البهو تناثرت مجلّات أميركيّة لامعة التّألق، وكتب ذات أغلفة ورقيّة كأنّها زهور ذابلة تركت أمام المقبرة.

تشابه ابن الأخ وعمّته شبهاً كبيراً في عجز كلّ منهما عن الإصغاء بجديّة لما قد يقوله أيّ شخص آخر. وفي حالة ابن الأخ، كان هذا راجعاً لمحض الوقاحة، بينما بدا في حالة العمّة جزءاً من أخلاقها الحميدة، فمن شأنها أن تستمع باللاّمبالاة العرضيّة ذاتها لاعترافات رهيبة أشدّ الرّهبة، بحيث تجمّد نخاع الشّخص العادي.

قال هوندا:

- المشكلة هي أنّني لست أعلم يقيناً ما إذا كانت ينج تشان ستحضر.

- لقد أصبت بهلع مرضيّ من ذلك، منذ تدشين الدّارة. دعنا نهدّئ أعصابنا وننتظر. وإذا لم تحضر فسيكون بمقدورنا، رغم ذلك، الاستمتاع بوقتنا، فسوف نمضي ثلاثتنا لتناول طعام العشاء، وليس كاتسومي على نحو خاصّ من النّوع الّذي يقلق أكثر ممّا ينبغي.

وردّ كاتسومي، على نحو غامض، بالطّريقة المسرفة في الرقّة، الّتي تميّز حديثه:

- آه، نعم... طيّب. هذا صحيح.

أخرجت كيكو فجأة أصبعاً من العطر الصّلب المدمج من حقيبتها، ومسّت به شحمتي أذنيها اللّتين تدلّى منهما قرطان من اليشب.

انطفأت كلّ الأضواء في البهو، وكأنّما كان ما فعلته كيكو بمثابة إشارة لذلك.

- انقطاع كهربائي!

هتفت بها كيكو في دهشة. وحدَّث هوندا نفسه متسائلاً عن جدوى القول بحدوث انقطاع كهربائي، في وقت حصول ذلك. إنّ بعض النّاس لا يتحدّثون إلّا كدفاع عن كسلهم.

لم تقل كيكو، بالطّبع، شيئاً، وأعيد العطر إلى حقيبتها، وقرقع المشبك في الظلام. وبدا الصّوت كما لو كان ينفتح على ظلام أشدّ عمقاً. وفي العتمة لاح لحم عجيزة كيكو الوافر، المتماسك، المسيطر، وكأنّه يمتدّ خلسة، وبلا حدود، مع انتشار عبق العطر.

لم يَسُد الصّمت إلاّ وقتاً قصيراً، فكأنّما، في معرض إزاحة الظلام جانباً، انطلق في الحال الحوار المصطنع الحيويّة للمجموعة الّتي تشبه ركاب سفينة غارقة.

قال هوندا

ـ كانت للقوّات الأميركيّة، خلال الاحتلال، الأولويّة فيما يتعلّق باستخدام الطّاقة الكهربائيّة المحدودة المتاحة؛ ولذا لم يكن هناك مناص من عمليّات انقطاع التيّار. ومع ذلك يدهشني استمرار ذلك.

أضافت كيكو:

ـ كنت، مؤخراً، وخلال انقطاع كهربائي واسع النّطاق أمرُّ بيويوجي، فلاحظت أنّ مرتفعات يويوجي الأميركيّة وحدها تتلألأ بالأنوار، وجعل ذلك القطاع الواحد الطّافي فوق ظلام المنطقة بأسرها الأمر يبدو وكأنّ هناك مدينة تضمّ أناساً من كوكب آخر. لقد لاح المشهد جميلاً، ولكن كان رهيباً.

ساد الظّلام، ولكن أضواء السيّارات الأماميّة خلال حركة المرور، في الشّوارع، فيما وراء البركة الموجودة في الحديقة الأماميّة، عكست نوراً على أبواب المدخل الدوّارة. وكان يتحرّك باب بتأثير قوّة الدّفع النّاجمة عن رحيل أحد الأشخاص، وتلتمع أضواء السيّارات، مثل خطوط مضيئة، وسط ظلام ما تحت الماء. وأحسّ هوندا برعدة خفيفة وهو يتذكّر المشهد في الحديقة العامّة ليلاً.

ـ يمكنك أن تتنفّس بحريّة وسهولة بالغتين.

قالتها كيكو، وأراد هوندا أن يسألها: وماذا عن النّهار؟ وكان ظلّها قد تضخّم مرتفعاً، وارتمى مسرعاً على الجدار. فقد أحضر نادل الشّموع، وعندما وضعت في منافض رماد السّجائر على عدد كبير من الموائد، أصبح البهو مقبرة فعليّة تخفّف فيها الأضواء مرحِّبة بعودة الموتى[1].

دنت سيّارة أجرة من المدخل، ودخلت ينج تشان مرتدية ثوباً جميلاً فاتح الصّفرة، فذهل هوندا إزاء هذه المعجزة، إذ إنّها لم تتأخّر إلّا ربع ساعة.

بدت ينج تشانج جميلة في سنى الشّموع، فقد ذاب شعرها في الظّلمة، بل وبدت ألسنة اللّهب المتراقص في عينيها وتألق أسنانها أكثر جمالاً من نور الضّوء الكهربائي. وراحت مقدّمة الثّوب الأصفر الفاتح تعلو وتهبط مع كلّ نَفَس، مبالغة في الظّلال.

ـ أتذكرينني؟ إنّني السيّدة هيساماتسو. لقد انقضى بعض الوقت منذ التقينا في جوتمبا.

قالتها كيكو، غير أنّ ينج تشان لم تشكرها على تلك المناسبة، واكتفت بالإيماء على نحو فاتن.

قدّمت كيكو كاتسومي الّذي عرض عليها الجلوس في مقعده،

(١) الإشارة هنا هي إلى عيد الموتى الّذي يحتفل فيه اليابانيون بقدوم أرواح الموتى إلى عالم الأحياء، مرّة كلّ عام، ثمّ عودتهم إلى عالمهم، من جديد، وإيقاد الشّموع للأرواح هو أبرز معالم هذا العيد.

(هـ. م.)

ريثما يتمّ إحضار مقعد، وعرف هوندا، في الحال، أنّ جمال ينج تشان قد أثّر بقوة في نفس الفتى.

مدّت، على نحو عرضيّ، يدها الّتي تألّقت فيها الزّمردة، ولكن ذلك لم يكن في إطار أيّ جهد لاستعراضها أمام هوندا. وفي سنى الشّموع، عكست الجوهرة لوناً أخضر يشبه جناحيْ فراشة مضيئة رفرفت محلّقة لتوّها. ولاح وجها «الياكشا» الحارسين الذهبيّين المؤثّرين غاضبين ومترعين بالظّلال. وفسّر هوندا تحلّي ينج تشان بالخاتم على أنّه تعبير عن رقّتها.

لاحظت كيكو الجوهرة في الحال، وجذبت توّاً كفّ ينج تشان نحوها.

- ما أغرب هذه الجوهرة؟ هل هي تايلانديّة؟

لم يكن بمقدورها نسيان تفحّصها الدّقيق للحجر في جوتمبا، ولكن طريقتها كانت طبيعيّة للغاية ومقنعة تماماً بحيث بدا أنّ هذا التفحّص قد انزلق من ذهنها.

راهن هوندا في سرّه، وهو يحدّق في لهب إحدى الشّموع، على ما إذا كانت ينج تشان ستقول إنّ الخاتم هدية منه.

- نعم، إنّها من تايلاند.

قالتها ينج تشان، دونما تكلّف، فأحسّ هوندا بالارتياح حيال الإجابة، وفتنه الطّابع التّلقائي الرّشيق للأمر الّذي كان بأسره من إبداعه.

استردّت كيكو زمام المبادرة، من جديد، وكأنّما نسيت بالفعل أمر الخاتم:

ـ دعونا نذهب إلى ملهى مانـويلا. ولّمـا كنّا سنـذهب إلى نادٍ ليـلي على أيّة حـال، فقد نتنـاول طعام العشـاء هناك أيضـاً، فالـطّعام فيـه طيّب جدّاً.

كان كاتسومي يقود سيّارة بونتيـاك اشتريت بـاسم شخص يابـاني. وما كان وصولهم إلى بغيتهم ليستغرق أكثر من دقيقتين.

جلست ينج تشان إلى جوار كاتسـومي، وهونـدا وكيكو في المقعـد الخلفي. وكان مشهد كيكـو، وهي تدلف من السيّـارة وإليها جـديراً بالمشاهدة. فمنذ عهد لا تعيه ذاكرتها اعتادت على الدّوام الصّعود إلى السّيّـارة قبـل أيّ شخص آخـر، ولم يحـدث قطّ أن تنحّت جـانبـاً، منسحبة على عجيزتها الّتي تلمها تنورتها، إلى المقعد البعيد، وإنّما هي تحدّد، كهدف لهـا، الموضـع الّذي ستجلس فيـه، وبحركـة واحدة، ودونما تردّد، ترسي هنالك إليتيها اللّتين تشبهان قارورة إغريقيّة.

ترامى شعر ينـج تشان الـطّويل، الفـاحم، كالشـلّال، على ظهـر المقعد، وكان مشهـده بديعـاً، على نحـو خاصّ، من الخلـف، وذكّـر هوندا بـاللّبلاب الأسـود المتدلّي من متـاريس قلعة مهجـورة. وخلال النّهار فإنّ العظاءة ترتـاح في الظلّ...

كانت الآنسة مانويـلا تمتلك ناديـاً ليليّاً صغيـراً يجاري الصّرعـات الحديثة، في الطّابق السّفلي من بناية تقع مقابل هيئة الإذاعة اليابانيّة. وقد حيّت الرّاقصة السّمراء ذات الأصل الأوروبي ـ الآسيوي زبونيها المخلصين بمرح، فور تعرفها كيكو وكاتسومي وهمـا يهبطان الـدّرج في طليعة المجموعة الصّغيرة.

ـ آه، مرحباً! كاتسومي أيضاً! جئتما مبكرين اللّيلة، خذا راحتكـما في الجلوس.

لم يكن ثمّة أحد في حلبة الرّقص في هذه السّاعة المبكرة. وتناهت الموسيقى وحدها، عبر فراغ الحلبة، وكأنّها ريح شماليّة تنثر نثار الضّوء من قاعة المرايا وكأنّه مِزَق من ورق أبيض تتطاير في الشّوارع، عند انتصاف اللّيل.

ـ رائع! إنّنا ننفرد وحدنا بالنّادي بأسره!

قالتها كيكو، مادة يديها المتألّقتين على نحو رائع بالخواتم إلى الفراغ المعتم. وتردّد في شجن صوت آلات النّفخ الموسيقيّة، فوق هذه الدّهشة الكاسحة.

ـ آه، لا تكلّفي نفسك العناء!

قالتها كيكو وهي توقف الآنسة مانويلا الّتي أوشكت أن تتلقى بدلاً من النّادل طلبات المشروبات.

ـ اجلسي!

قالها كاتسومي الّذي نهض، وقدّم مقعداً، وبعد قيامه بذلك فحسب قدّمت كيكو ينج تشان وهوندا، وأضافت، مشيرة للأخير:

ـ هذا السيّد الفاضل هو صديقي الجديد؛ لقد اكتسبت ذوقاً يابانيّاً.

ـ ذلك أمر جميل؛ فقد «تأمركت» أكثر من اللاّزم. ومن الأفضل التخلّص من تلك الرّائحة الأميركيّة.

تظاهرت الآنسة مانويلا بأنّها تتشمّم ما حول كيكو، على نحو مبالغ فيه، فردّت كيكو بصورة مسرحيّة بتقليد من تأثّر بالدّغدغة. وضحكت ينج تشان، من قلبها، من هذه المداعبات، وأوشكت أن تسكب محتويات قدح ماء على المائدة. وقد دهش هوندا قليلاً وأخذ

يتبادل النّظرات مع كاتسومي. ولدى التّفكير في الأمر، أدرك أنّ تلك هي المرّة الأولى الّتي تلتقي فيها أعينهما.

استعادت كيكو جدّيتها، وكأنّما تذكّرت فجأة ضرورة ذلك وسألت كيكو مانويلا، دون أن تتدبّر سؤالها:

ـ هل واجهت متاعب عندما انقطع التيّار الكهربائي قبل قليل؟

ـ بالطّبع، لا، فنحن لا نعمل إلاّ على ضوء الشّموع.

قالتها مانويلا بكبرياء، وأسنانها البيضاء تلتمع في العتمة، وحوّلت ابتسامتها الوديّة باتّجاه هوندا.

حيّا أعضاء الفرقة الموسيقيّة كيكو لدى مغادرتهم لمقاعدهم فردّت بالتّلويح بيدها البيّضاء، وكأنّما هي محور كلّ ما يدور حولها.

تناول الأربعة طعام العشاء، ومع أنّ هوندا لا يستمتع بتناول الطّعام في الأماكن المظلمة، فإنّه لم يكن أمامه من بديل. وكان ينبغي أن يكون الدّم المنسرب من شريحة اللّحم الخاصّة به، المعدّة على طريقة شاتوبريان، أحمر فاتحاً، ولكنّه بدا قاتماً على نحو مثير للضّيق.

بدأ عدد الروّاد بالتّزايد. وبدا هوندا مشدوهاً لدى تخيّله كيفيّة نظر الآخرين إليه وهو يقوم بدور الشّاب في مكان للترفيه كهذا. فكلّما اقتربت الثّورة كان ذلك أفضل. والنّاس يقولون إنّ ثورة سوف تنشب.

فوجئ هوندا، عندما نهض رفاقه الثّلاثة، في وقت واحد. فقد وقفت المرأتان للذّهاب إلى حيث تثبتان زينتهما، بينما وقف كاتسومي وفقاً لما تقضي به قواعد السّلوك المهذّب، ثمّ عاد إلى مقعده ثانية. وإذ تُرِك الرّجل ذو الأعوام السّبعة والخمسين، والآخر ذو العشرين

ربيعاً، وحدهما وسط الموسيقى والـرّقص، فقد ظـلّا على صمتهـما وهما يتطلّعان في اتّجاهين مختلفين، دون أن يجدا ما يقولانه.

ثمّ قال كاتسومي فجأة بصوت مبحوح للغاية:

ـ إنّها فاتنة.

ـ أتروقك؟

ـ لقد اجتذبتني دوماً الفتيات السّمراوات الرّائعات الصّغيرات القدّ اللّاتي لا يستطعن التحـدّث باليـابانيّـة بطلاقـة. ترى كيف أعـبّر عن الأمر؟... ربّما كان لي ذوق غريب. بعض الشّيء.

ردّ هوندا، بابتسامة رقيقة، وإن كانت كلمات كاتسومي قد أثـارت شعوره بالاشمئزاز:

ـ حقّاً؟

وأضاف، متسائلاً:

ـ ما رأيك في الجسد؟

وردّ الشّاب. على نحو عفوي، مسـارعاً بـإشعال سيجـارة هونـدا بقدّاحة من طراز دانهيل:

ـ طيّب. لم أفكر به كثيراً. أتعني النّزعة الشّهوانيّة؟

ـ لنفترض، على سبيـل المثال، أنّ لـديك عنقـوداً من العنب، فلو أمسكت به بأقوى ممّا ينبغي فإنّك ستعتصر الحبّات وتسحقها، وأمّا إذا أمسكتهـا بحيث لا تخدشهـا، فـإن امتـلاء الجلد سيقـاوم أصـابعـك مقاومة مراوغة. ذلك هو ما قصدته بالجسد.

ـ أعتقد أنّني فهمت.

قالها الطّالب الشّاب وهو غارق في التّفكير، وتوّاق للتصرّف كرجل ناضج، وقد دعم ثقته بنفسه، دونما شكّ، بثقل ذكرياته.

قال هوندا، منهياً الحوار:

ـ سيكون ذلك جميلاً إذا قمت به. ذلك هو كلّ ما قصدته.

طلب كاتسومي فيما بعد من ينج تشان مراقصته، وعادا إلى المائدة بعد ثلاث رقصات متتابعة.

قال كاتسومي لهوندا، والبراءة في عينيه:

ـ لم أستطع إلّا أن أتذكّر نظريتك عن عنقود العنب.

ـ عمَّ تتحدَّثان؟

قالتها كيكو متسائلة، وتلاشى الحوار في الموسيقى الصّاخبة، وضاع.

لم يملّ هوندا قطّ التّطلع إلى ينج تشان وهي ترقص، وإن كان هو نفسه لا يعرف كيف حدث ذلك. فقد كانت، في غمرة الحركة، حرّة من عوائق الحياة، في بلاد أجنبيّة، وتجلّى استعدادها الطبيعي، على نحو يبعث على الشّعور بالسّعادة. فجيدها الأتلع الصّغير نسبيّاً بالمقارنة بجسمها، كان يتحركّ جيّداً، وكان كاحلاها رقيقين وسريعين، وقد مضت ترقص على أطراف أصابعها. وتحت تنورتها المتأرجحة، تحركّت ساقاها الجميلتان وكأنّهما نخلتان سامقتان، على جزيرة نائية. وتعاقب على الدّوام التّعب والحيويّة، والتردّد والتوهّج بالحياة فأخذا يتبادلان الحلول أحدهما محل الآخر، في كلّ لحظة، ولم تحتجب ابتسامتها قطّ وهي ترقص. وعندما دارت حول نفسها، عند أطراف أصابع كاتسومي، خلال رقصة الجتربج البهلوانيّة، كان جسمها قد سبق إلى الدوّران بالفعل، ولكن تألُّق أسنانها البيضاء ظلّ واضحاً للعيان وكأنّه قمر في منتصف الطّريق إلى الاكتمال.

- ٣٤ -

حفل العالم بنُذُر السّوء، واندلع الشّغب أمام القصر الإمبراطوري في الأوّل من أيّار (مايو). وأطلقت الشّرطة النّار على الجمع، وتدهور الموقف. وشكّل ستة أو سبعة من المتظاهرين مجموعة، وهاجموا سيّارة أميركيّة فقلبوها، وأضرموا فيها النّار. وتخلّى شرطيّ تعرّض للهجوم عن دراجته النّاريّة البيضاء، فأحرقت في الحال، ومضى بحّار أميركيّ سقط في الخندق المحيط بالقصر، يطفو ويغوص في الماء؛ لأنّه ما إن كان يرفع رأسه حتّى يرجمه المتظاهرون بالحجارة. واندلعت ألسنة اللّهب في أرجاء الميدان كافّة، أمام القصر. وخلال الشّغب وقف الجنود شاهرين حراب بنادقهم لحراسة قصر القيادة العامّة في هيبايا، وبناية شركة ميجي للتّأمين على الحياة.

كان ذلك حدثاً غير مألوف. ولم يصدّق أحد أنّ الأمور ستنتهي عند هذا الحدّ، وتوجّس الجميع من أن تندلع في المستقبل أحداث شغب أخرى أوسع نطاقاً.

لم يتّوجه هوندا في ذلك اليوم إلى مكتبه في بناية مارونوتشي، ولم يشاهد المظاهرة بالفعل، ولكنّه عندما سمع بها عبر المذياع، وقرأ التّفاصيل في الصّحف، شعر بأنّ الموقف على قدر كبير من الخطورة. وكان قد أمضى زمن الحرب بعيداً عن التورّط في المتاعب، غير أنّه لم يكن بمقدوره الآن في زمن السّلم تجاهل ما يحدث حوله، وشعر بعدم الأمن حيال الطّرق الثّلاث المعتادة في استثمار المال، وعقد العزم على إجراء مشاورات عن المستقبل مع صديق كان بمثابة مستشار له في الأمور الماليّة.

وفي اليوم التّالي، وحيال عجزه عن الجلوس ساكناً في داره، انطلق للقيام بجولة على الأقدام. وكانت شمس الصّيف المبكر تتألّق، ولم يبد أنّ ثمّة ما هو خارج عن المألوف. وتجنّب دخول المكتبة العتيقة الّتي تباع فيها المواد الجادّة، مثل كتب القانون، ودخل مكتبة عرضت المجلّات أمامها في أكوام عشوائيّة. وكان قد اعتاد بمرور الأعوام الذهاب دائماً إلى المكتبات في أثناء جولاته.

كان حشد الكتب المقلوبة على أغلفتها الخلفيّة يشعره بالسكينة، فكلّ شيء مودع في صورة مفاهيهم مجرّدة. الحبّ الإنسانيّ، الرّغبة، القلاقل السّياسيّة، كلّ ذلك كان مكتوباً ومصطفاً، في هدوء. وفضلاً عن ذلك فإنّ بمقدور المرء أن يجد كلّ ما ينشده، من الكتب المؤلّفة عن الملابس إلى كتب السّياسة الدّوليّة.

لم يكن يدري السرّ في شعوره بالارتياح لدى ولوجه أي مكتبه. وقد كانت تلك عادة درج عليها منذ الصّغر. ولم يكن لدى كيواكي وإيساو ميل من هذا القبيل. ترى كيف حدث ذلك؟ هكذا أخذ يتساءل. أتراه يشعر بعدم الأمان ما لم يطلّ على الدّوام بنظرة شاملة إلى العالم؟ أهو العناد الّذي لا يدع له سبيلاً للاعتراف بالحقائق الّتي لم تسجّل طباعيّاً؟ يقول ستيفان ملارميه إنّ كلّ شيء سيتمّ التّعبير عنه، إن عاجلاً أو آجلاً، بالكتابة. ولئن كان العالم سينتهي أمره إلى كتاب عظيم جميل، فلن يكون الوقت متأخّراً أبداً على الاندفاع إلى المكتبة، بعد أن يكون قد طبع كلّه.

نعم، لقد انتهت أحداث أمسٍ بالفعل. فلا وجود ها هنا لألسنة لهب من القنابل الحارقة، ولا صيحات، ولا عنف، بل ليس بمقدور المرء حتّى مجرّد الشّعور بالعواقب البعيدة المترتّبة على سفك الدّماء.

وقد أخذ مواطن ودود الطّلعة يتبعه طفل ينقبّ وسط الكتب. ومضت امـرأة بدينـة ترتـدي سترة خضراء فـاتحة، وتمسـك بكيس للتّسـوق، تسأل في صلف عمّا إذا كان العدد الأخير من إحدى المجلاّت النّسائيّة قد وصل. وفي مؤخّرة المكتبة وضعت مزهريّـة نُسِّق فيها بعض زهـور السّوسن، وهي هواية صاحب المكتبة، تحت لوحة مؤطّرة كتب عليهـا بخطّ لا يعكس حذقاً: «القراءة غذاء الفؤاد».

تجوّل هوندا في المكتبة المزدحمة مرتطماً بالرّواد، ولمّا لم يجد ما يروقـه فقد اتّجه إلى الـرّفوف الّتي عـرضت عليها المجـلاّت الشعبيّة. وهنـاك عكف شاب يرتدي قميصاً رياضيّاً، وقد بدا أنّـه من الطلاّب، عـلى إحدى المجلاّت. وكان بمقدور هوندا أن يلمح من بعيد أنّـه يحدّق في صفحة واحدة بلهفة غريبـة. ودنا من الجـانب الأيمن للشّاب، وألقى نظرة عرضيّة على الصّفحة.

رأى صورة سيئة الطّباعـة، معتمة، زرقـاء، منفّذة بـطريقة الحفـر الفـوتوغـرافيّ لامرأة عـاريـة، تجلس مقيّـدة بحبـل، وتميـل إلى أحـد الجـانبين. ولم يـرفـع الفتى عينيـه أبـداً عن المجلّة الّتي أمسكهـا بيـده اليسرى.

لاحظ أنّ الشّاب كان متصلّباً، على نحو غريب ـ العنق، الصّـورة الجانبيّة، العينـان، كلّها كـانت مشدودة بعض الشيء عـلى نحو غـير طبيعيّ، وكأنّها تنتمي إلى رسم فرعوني بارز، ثمّ رأى بوضوح أنّ يـد الشّاب الّتي كانت مدسوسـة في جيب سرواله تتحـرّك بعنف وبصورة آليّة.

غادر هوندا المكتبة في الحال؛ فقد أُفْسِدت جولته.

ـ لِمَ اضطر للقيام بشيء كهذا أمام النّـاس؟ أليس لديـه المال لشراء

المجلّة؟ لئن كان الأمر كذلك لابتعتها بنفسي وأعطيته إيّاها. نعم. لماذا لم أقم بذلك على الفور؟ كان ينبغي عليّ ألّا أتردّد حقّاً في إعطائه المال.

لكنّ خواطر هوندا تغيّرت خلال المسافة الفاصلة بين عمودي كهرباء على جانب الطّريق.

ـ لا، لست أعتقد أنّ الأمر كان كذلك، فلو أنّه أراد المجلّة حقّاً لاشتراها، فإنّها من الرّخص بحيث كان بمقدوره ابتياعها بمجرّد رهن قلمه الحبر.

ما كان ينبغي أن تبتاع المجلّة وتؤخذ إلى الدّار. وانطلاقاً من هذه النّقطة مضى خيال هوندا متحرّراً، فلسبب من الأسباب لم يبد تماماً أنّ الشّاب كان غريباً عنه كلّية.

لم يرغب في العودة إلى الدّار ومواجهة زوجته وذهنه في مثل هذه الأفكار، فاختار طريقاً دائريّاً، وواصل مسيرته، بدلاً من الانعطاف لدى وصوله إلى ركن الكنيسة الميثوديّة.

ربّما لم يكن السّبب في أنّ الشّاب لم يأخذ المجلّة إلى داره راجعاً، على الإطلاق، إلى أنّ عائلته متشدّدة، أو أنه ليس لديه مكان يخفيها فيه. وتوصّل هوندا، على نحو تعسّفي، إلى استنتاج قوامه أنّ الشّاب يقطن وحده في دار للغرف المؤجّرة. وكان من الجليّ أنّه بمجرّد عودة الشّاب إلى الدّار فإنّ الوحدة الّتي كانت تنتظره بلهفة ستثب على كتفه، وكأنّها حيوان أليف، وسيخشى فتح المجلّة، على صورة المرأة المقيّدة، ليشارك الوحدة متعته. وربّما جثمت هنالك الحرّيّة المطلقة للسّجن الّذي شاده الشّاب بنفسه. ولابدّ أنّه خائف في الفراغ المحدود، المجدب، المربّع، في الوكر المعتم، المترع برائحة المنيّ، من مواجهة المرأة العارية، الزّرقاء، الّتي تنتفض تحت الحبل الّذي يسحق

نهديها، وقد انتشر خيشوماها كجناحي حمامة. فقد كانت مواجهة امرأة مشدودة الوثاق، بمثل هذه الحرّيّة، شيئاً يشبه ارتكاب جريمة القتل العمد. وهكذا فقد اختار أن يعرض نفسه لنظرة الجمهور المحدّقة، وأراد إبراز نفسه في دور الرّجل المقيّد بحبال من عيون النّاس، وأن يواجه المرأة مقيّداً بالخطر وبالهوان. ومثّلت الظّروف الفظيعة الّتي اختارها، الشّرطَ الضروري، المراوغ، الدقيق ـ كخيط حريريّ ـ الّذي يختفي في قرار كلّ عشق جنسيّ.

يا للإغواءات السّوقيّة العذبة على نحو غريب والبالغة الخصوصيّة! ما كانت لتلتهم الفتى الرّغبة في الفتاة، لو أنّها كانت نموذجاً جميلاً للتّصوير. إنّه النّشاط الجنسي الّذي يعصف ليلاً ونهاراً، كانطلاقة الرّيح في أرجاء المدينة وفرةً هائلة مظلمة. الشّوارع الّتي تنطلق عبرها القنابل الحارقة. قناة العاطفة الجنسيّة الخبيثة الهائلة الّتي تنطلق تحت الأرض. عندما رأى هوندا الأعمدة الحجريّة السّامقة الّتي تنتصب في مدخل داره منذ أيّام أبيه، أدرك أنّه سيرغم على العيش على نحو يختلف إلى حدّ كبير عمّا عاش عليه أبوه في شيخوخته. وعندما دفع البوّابة الجانبيّة، ورأى زهور المجنولية البيضاء الكبيرة في سمت تفتّحها على أطراف أغصانها العالية، أحسّ فجأة بالتّعب من جولته، وتمنّى لو كان بمقدوره أن يكرّس ما بقي من عمره لنظم الهايكو(١).

(١) الهايكو: قالب شعري يابانيّ، متكامل، يعدّ الأكثر شهرة خارج اليابان، ربّما لإيجازه الشّديد، وقدرته على تحقيق سعة المعنى وضيق العبارة، وهو يتألّف من خمسة مقاطع، تعقبها سبعة مقاطع، وأخيراً خمسة مقاطع لاختتام النّصّ، وأشهر من نظموا في هذا القالب هو ماتسيو باشو (١٦٤٤ ـ ١٦٩٤). ويستطيع القارئ أن يقترب من روح الهايكو عبر كثير من النّماذج الّتي يجد أشهرها في: Basho, Matsu - A Haiku Joureny - Kodansha International - Tokyo - 1986.

(هـ . م)

- ٣٥ -

اقترح هوندا تجاذب أطراف الحديث مع كيكو وكاتسومي، إذ كان عليه أن يتسلّم صندوق سيجار طلب منها الحصول عليه. وحضر كاتسومي بالسيّارة لمقابلته، عند البناية الّتي تضمّ مكتبه. كان ذلك في أصيل يوم صيفي اشتدّ فيه عنفوان الشّمس.

لم يكن سيجار هافانا الأصليّ متاحاً، ولكن منتجات التّبغ الفلوريدي كان من الممكن شراؤها في البي. إكس. وبما أنّ كيكو ستقوم بابتياع صندوق السّيجار من متجر ماتسويا السّابق الّذي أصبح الآن البي. إكس، فقد أبلغ كاتسومي هوندا بأنّ عليهما مقابلتها هناك.

لم يكن بمقدور هوندا بالطّبع دخول البي. إكس بنفسه؛ ولذا جعل كاتسومي يقف أمامه، وأخذا يرقبان المخارج من نافذة السيّارة. وخارج البي. إكس، ذي السّتائر البيّضاء، مضى عدد كبير من رسّامي الصّور الفوريّة يتسكّعون مطاردين الجنود الأميركيّين الخارجين منه. ولم يقاوم الجنود الشبّان، العائدون من كوريا فيما يبدو، مقاومة كبيرة، وهم يقفون على نحو ودود لتُرْسَم صورهم. ومن بينهم كانت فتاة أميركيّة ترتدي ملابس الجينز الزّرقاء، ربّما في رحلة تسوّق، تجلس على حاجز نحاسي لإحدى نوافذ العرض، فيما كانت صورتها تُرْسَم.

كان ذلك مشهداً تثير متابعته الاهتمام في أثناء قتل الوقت بالسيّارة، وأخذ الجنود الأميركيون ذوو الملامح الجادّة، وقد بدوا محترفين تماماً، ينتظرون الفراغ من رسم صورهم، من دون أيّ

مشاعر بالخجل، أمام الجمهور. وكان من الصّعب تصوّر أيّهم هو الزّبون، فالمشاهدون يحيطون بهم، وما إن يسأم أحدهم المشاهدة، ويغادر المكان، حتّى يحلّ آخر مكانه فوراً. وبرزت وجوه الأميركيين المتورّدة وكأنّها رؤوس تماثيل تعلو كتلة الواقفين جانباً.

ـ لقد تأخّرت.

قالها هوندا لكاتسومي معقّباً، وهو يترجّل من السيّارة ليمدّد قدميه في الشّمس.

وانضمّ إلى الجمع لإلقاء نظرة على الفتاة الأميركيّة. لم تكن بالجميلة، وقد أخذت ترجّح ساقيها المكسوتين بالجينز الأزرق. وكانت ترتدي قميصاً نسائيّاً، قصير الأكمام، مربّع النّقش، يشبه قمصان الرّجال. وكان دفق من الضّوء السّاقط من بين المباني ينهلّ بانحراف عبر وجنتيها المنمّشتين، وينحسر بانتظام، من خلال حركات فكّها وهي تمضغ قطعة من العلكة. ولم تكن باردة، متعجرفة على نحو خاصّ، ولم تؤثّر النّظرات الفضوليّة المحدّقة أدنى تأثير في مسلكها الطّبيعي، وأخذت عيناها البنيّتان، الغائرتان في محجريهما وكأنّما فتحتا على نحو مسرحيّ، تحدّقان بشرود في الفضاء، ودونما حراك على وجه التّقريب.

ونظرت إلى النّاس وكأنّها تتطلّع إلى الهواء. ربّما كانت مثل هذه الفتاة ممّن يتطلّع إليهنّ هوندا. وعندما أدرك ذلك شعر بانبثاقة اهتمام تشبه الأطراف المتجعّدة على نحو سريع لشعر اشتعلت فيه النّار. وعندئذ، تكلّم رجل كان يقف بجوارها، وقد أخذ يرقب محيا هوندا لبعض الوقت، فقال:

ـ لقد تقابلنا في مكانٍ ما من قبل؟ أليس كذلك؟

رأى هوندا رجلاً يميل إلى القصر، أشبه بالقوارض، في بدلة

متّسخة، وقد قصّ شعره مستقيماً عند الصدغ، والتمع في عينيه القلقتين وميض خنوع يعكس نُذُر شرّ دفينة. وشعر هوندا بعدم الارتياح في الحال.

وقال ببرودة:

ـ من عساك تكون؟ إنّني آسف، ولكن لا يبدو أنّني...

وتطاول الرّجل ليهمس في أذن هوندا:

ـ ألا تذكر؟ إنّنا رفيقان في التلصّص، تحت الأشجار في الحديقة العامّة.

شحب وجه هوندا، على الرّغم من جهوده لمنع ذلك.

وقال في فتور:

ـ ماذا تعني؟ لقد حسبتني ولاشكّ شخصاً آخر.

انتشرت على الفور ابتسامة ساخرة مريرة على محيا الرّجل الضّئيل الجِرْم. وعرف هوندا أنّ هذه الابتسامة السّاخرة تشبه صدوعاً في الطّبقة تحت الأرضيّة الّتي تتمتّع في بعض الأحيان بالقدرة على هدم مبان عظيمة فوراً. ولكن لم يكن هناك في تلك اللّحظة برهان حقيقيّ، والأفضل من ذلك أنّ هوندا لم يعد يتمتّع بمكانة. وبفضل هذه الابتسامة السّاخرة، أدرك بوضوح افتقاره الرّاهن للوضع الاجتماعي المتميّز.

نحّى هوندا الرّجل جانباً وشرع في السّير نحو مدخل البي. إكس، وظهرت كيكو في الوقت المناسب.

خرجت، شامخة النّهدين، وهي ترتدي بدلة أرجوانيّة، وتبعها جندي أميركي كان محتجباً، على وجه التّقريب، وراء كوم شاهق ملء

ذراعيه من الأكياس الورقيّة. وحسب هوندا أنّه قد يكون خليلها جاك، ولكنّه لم يكن كذلك.

في وسط الرّصيف، قدمّت كيكو هوندا للجندي، وأوضحت مشيرة للأخير:

ـ لست أدري ما اسمه، ولكنّه كان من اللّطف بحيث عرض المساعدة في حمل أكياسي إلى السيّارة.

عندما رأى الرّجل الضّئيل الجِرْم هوندا يتحدّث مع الجندي الأميركي أسرع بالابتعاد

تألّق مشبك ذهبي، ضخم، لامع، يشبه وسام الجدارة الأقحواني المعدني، على صدر كيكو. ومضت مباشرة إلى السيّارة، حيث كان كاتسومي ينتظر في إجلال مقدمها، تحت شمس أيّار (مايو) المتألّقة. وفتح لها البّاب، وانحنى بروح مرحة.

سلّم الجندي الأكياس، واحداً إثر آخر، إلى كاتسومي الّذي ترنّح تحت ثقلها وهو يمسك بها بمشقّة.

كان مشهداً بديعاً. ووقف أفراد الجمهور أمام البي. إكس يرقبون ما يجري بأفواه فاغرة وقد نسوا الرسّامين تماماً.

عندما شرعت السيّارة بالانطلاق لوّحت للجندي المجامل فردّ تحيّتها، وكذلك لوّح لها شخصان أو ثلاثة وسط الجمع.

ـ يا لها من شعبيّة!

قالها هوندا، معقباً، بمزيد من ذلاقة اللّسان، ليوضح لنفسه مدى السّرعة الّتي يمكنه بها أن يستعيد رباطة جأشه، بعد تلك الحادثة الجارحة.

ضحكت كيكو، مغتبطة، وقالت:
ـ الطّيبة موجودة في كلّ مكان.

وأخرجت بسرعة بالغة منديلاً مثقلاً بالتّطريز بالأسلوب الصّيني، وتمخّطت بصوت عالٍ، كالغربيين. ولم يبد فيما بعد على الأنف أيّ أثر سلبي، بل كان أشمَّ رائعاً، كالعهد به.

قال كاتسومي الّذي كان يقود السيّارة.
ـ ذلك مرجعه إلى أنّك ترقدين عارية كلّ ليلة.
ـ ما أوقح هذا! كأنّك سبق أن رأيتني يوماً على هذا النّحو. . . وبالمناسبة، إلى أين سنمضي؟

كان هوندا قلقاً، فيما يتعلّق بالسّير في أرجاء منطقة جينزا، خوفاً من أن يقابلوا الرّجل الضّئيل الجرم مرّة أخرى.

وقال في ضيق، عاجزاً عن التّذكر:
ـ دعونا نذهب إلى ذلك الـ . . . الجديد. ما هي البناية؟. . . عند ركن هيبايا.
ـ تقصد فندق نيكاتسو؟

قالها كاتسومي، وعبروا جسر سوكايا وهم يلمحون وسط الحشود لون النّهر الملوّث الّذي يشبه لون الخردل.

كانت كيكو بالغة الطّيبة، وذكيّة أيضاً، ولكن افتقارها للرقّة بدا جليّاً. وإنّها لَتَتَحَدَّثُ في أيّ موضوع ـ الأدب، الفنّ، الموسيقى، أو حتّى الفلسفة ـ، بحماسها الأنثوي المترف العاشق للذّة، وكأنّها تتحدّث عن عطر أو قلادة. ولم يحدث بالفعل أن استعرضت قطّ معرفتها، في الفنّ أو الفسلفة، ولم تكن معرفتها متوازنة بالضّرورة. ولكن كانت معلوماتها في بعض الميادين دقيقة تماماً.

وكما تذكّر هوندا فإنّ نساء الطّبقة العليا في أواخر القرن التّاسع عشر وأوائل القرن العشرين كنّ إمّا سيّدات متجهّمات، داعيات إلى الفضيلة من غير مقتضى، وإمّا نساء وقحات، متنمّرات. وهكذا فقد أدهشه توازن كيكو المتكامل الأبعاد. ولكنّه كان بمقدوره التنبؤ بالمتاعب، بالنّسبة لمن يتزوّجها. ولم يحدث قطّ أن كانت قاسية، ولكن المرء يشعر بأنّ فيها حساسيّة شديدة لا تطاق، فيما يتعلّق بالأمور الصّغيرة.

أيمكن أن يكون ذلك دفاعاً؟ ولكن عن أيّ شيء؟ من المؤكّد أنّها لم تنشأ على نحو تحتاج معه إلى درع تقيها عوادي الأيّام. ولم يحدث قطّ أن وجدت من الضّروريّ أن تحارب الدّنيا، بل لقد أظهرت الدّنيا اهتماماً بها، وإنّ المرء ليحسّ فيها بنوع من النّقاء الدّافق في تسلّطه.

كانت كيكو عاجزة فطريّاً عن التّمييز بين العاطفة وإسداء الجميل. وهكذا فإنّ أيّ شخص تسدي إليه جميلاً قد يفترض أنّها أحبّته.

ولم تكن هذه المناسبة استثناء من تلك القاعدة، ففي الطّابق المتوسط بين الطّابق الأرضي وما يعلوه، والمطلّ على البهو الّذي يشبه ملعب رُجْبي جديداً، شرعت كيكو، وقد وُضع أمامها كأس من الشري، بتوجيه التّعليمات. وأحسّ هوندا بالارتباك؛ فقد بدا الأمر كما لو أنّه كان يصغي، في مساق عن الطّهي الفرنسي، إلى محاضرة عن كيفيّة طهي طائر يُدعى ينج تشان.

سألت كاتسومي أوّلاً:

ـ لقد رأيتها مرّتين، منذ تلك المرّة الأولى. فكيف مضت الأمور؟

إلى أيّ مدى تعتقد أنّ بإمكانك الانطلاق؟

ثمّ اجتذبت صندوق سيجار ضخم بدا أنّها كانت قد نسيته حتّى تلك اللّحظة، ووضعته صامتة في حجر هوندا.

ـ كيف مضى الأمر؟ أعتقد أنّ الوقت قد حان تقريباً.

تتبّع هوندا بأصابعه الشكل التّخطيطي على صندوق السيجار، فذكّره بالعملة الورقيّة في دولة أوروبيّة صغيرة، بزواياها الذهبيّة وشرائطها الحمراء الورديّة المحلّاة بحروف ذهبيّة على خلفيّة خضراء. وأخذ يستحضر في ذهنه عبق السيجار، فلم يكن قد دخّن، منذ بعض الوقت. وفي الوقت نفسه، نفر من كلمات كاتسومي. ورغم ذلك فقد دهش عندما اكتشف أنّه يستمتع بهذا التقزّز، شأن استمتاعه بنذير سوء بوقوع شيء وشيك.

سألت كيكو كاتسومي:

ـ هل قبّلتها على الأقلّ؟

ـ نعم، مرّة واحدة.

ـ وكيف كان ذلك؟

ـ كيف كان ذلك...؟ طيّب. لقد عدت بها إلى مركز الطلّاب الأجانب، وقبّلتها قليلاً، خلف البوّابة

ـ نعم؟ وكيف بدا الأمر؟

ـ بدت مرتبكة للغاية. وربّما كانت المرّة الأولى بالنّسبة لها.

ـ لا يبدو ذلك موافقاً لما تقوم به عادة. ألم يكن بمقدورك المضي أكثر من هذا؟

ـ لكنّها إنسانة متميّزة. إنّها أميرة.

التفتت كيكو لهوندا، وقالت:

ـ أفضل طريقة، بالنّسبة لك، هي أن تصحبها إلى جوتمبا. لم لا تقول إنّك تقيم حفلاً وتدعوها لقضاء اللّيل بالدّارة؟ وذلك في وقت متأخر، بقدر الإمكان. لا يمكنها أن ترفض دعوتك؛ لأنّها، كما تعلم، أمضت ليالي أخرى بالخارج، وبالإضافة إلى ذلك فإنّ عليها أن تعوّض الحفل الّذي لم تحضره. إنّها مدينة لك بذلك. وإذا كانت وحدها مع كاتسومي فإنّها ستلزم الحرص؛ ولذا عليك أن تذهب معها. وبالطّبع سيقود كاتسومي السيّارة. يمكنك أن تقول لها إنّني سأنتظر في جوتمبا. ولن يكون ذلك صحيحاً، ولكن ذلك لن يثير ضيقي... وستجد عندما تصل إلى دارتك من الغريب ألاّ يكون أحد آخر هناك. ولكن رغم ذلك فإنّ أميرة أجنبيّة لا يحتمل أن تسارع بالهرب بعيداً، ولذا ينبغي ترك الأمر لكاتسومي. يمكنك تركها له تلك اللّيلة، وانتظار تجهيز بطّتك المطهيّة بالبرتقال.

انتصف اللّيل في نينوكا بجوتمبا. وبعد إطفاء النّار في المدفأة التقط هوندا مظلّته، ومضى، متمهّلاً، من غرفة الجلوس إلى الشّرفة.

وهناك في الواجهة كان المسبح قد تشكّل بالفعل، وانهمر المطر على الإسمنت الخشن. كان أبعد ما يكون عن الاكتمال، فحتّى الدّرج لم تكن قد تمّت إضافته بعد. وفي الضّوء المنبعث من الشّرفة لاح الإسمنت الّذي غمره المطر في لون سائل ضارب إلى اللّون الرّمادي. وكان عمّال من طوكيو يقومون ببناء المسبح، ومن ثمّ فإنّ التقدّم كان بطيئاً بالضرورة.

وبدا جليّاً، حتّى في ظلمة اللّيل، أنّ المسبح لا يجري صرف مائه بشكل مناسب. وعقد هوندا العزم على إبلاغ المقاول بذلك، لدى عودته إلى طوكيو. فقد أخذ المطر يلطم البريكات العديدة، في قاع المسبح، مفرزاً تموّجات التقطت على نحو بائس انعكاسات الضّوء من الشّرفة البعيدة. وعلا الضّباب اللّيلي من الجانب الغربي للوادي، وجثم بلا حراك في قلب الخضرة. واشتدّ البرد إلى أبعد الحدود.

بدأ المسبح الّذي لم يتمّ الفراغ منه، في الظهور بمظهر حفرة قبر هائل من الضّخامة بحيث تستوعب، وتفيض، حشداً من الهياكل العظميّة. وفي حقيقة الأمر فإنّ المسبح لم يبدأ بالظّهور بهذا المظهر، بل لم يكن قطّ أيّ شيء آخر. وسيتطاير الماء رشاشاً إذا ألقيت الهياكل العظميّة إلى القاع، ثمّ يعود إلى السّكون، وستتشرب العظام الجافّة الماء فتصبح لامعة متألّقة بالجدّة. ولو أنّ يابانيّاً، في الزّمن الخالي،

بلغ عمـر هونـدا لفكّر في معـرض الاحتفـال بـطول العمـر ببنـاء دار يتّخذها مستـودعاً للكنـوز. وأمّا هـوندا، فهـا هو يبني، من بـين كلّ الأشياء، مسبحاً! لقد كانت تلك محاولة قاسية للطفـو بلحمه المـترهل المتخاذل في وفرة من المـاء الأزرق، وقد اكتسب عـادة إنفاق المـاء من أجل ألعاب مليئة بالخبث فحسب. ترى كيف ستجعل جبال هوكوني وسحب الصّيف المنعكسة في ماء المسبح شيخوخته تتوهّـج بالإشراق! ويا لها من تكشيرة تلك الّتي ستعلو ملامح ينج تشان، إذا ما اكتشفت أنّـه بناه تحـديداً لأنّـه يـرغب في رؤيـة جسمهـا العـاري عن كثب في الصّيف!

كان هوندا قد بـدأ يغلق الأبواب عنـدما ألقى نـظرة خاطفـة وهو يرفع المظلّة على أضواء الطّابق الثاني. لقد كـانت أربع نـوافذ مـاتزال تتـألّق بالضّـوء، وكانت تلك النّـوافذ في غـرفتي الضّيوف المجـاورتين للمكتب، وقـد شغلت ينج تشـان الغرفـة الملاصقـة له، بينـما احتـلّ كاتسومي الغرفة الّتي تليها.

وعلى الرّغم من المظلّة فقد بلّلت قطرات المطر سروالـه، وبدا أنّها تتخلّله إلى ركبتيه. وكانت زهيرات ألم حمراء باردة تبرعم في اللّيل سرّاً في شتّى مفـاصله. وتخيّلها شيئـاً يشبه الـ ـ «هيجـان بانـا» المنمنمـة. فالعظام الّتي كانت في شبابـه خبيئة في لحمـه بتواضـع مؤدّية دروهـا، شرعت الآن، بصـورة متزايـدة، تعلن في شيخوختـه عن وجـودهـا، وبدأت تنوح، وتشكو، مخترقـة اللّحم المتهالـك، ومحاولـة الهرب من ظلمة الجسم العنيدة. وكانت ترصد على الـدّوام فرصـاً للانـدفاع إلى العـالم الخـارجي، حيث يمكنهـا أن تستحمّ في الشّمس بحـرّيّـة، كوريقات الأشجار، وكالصّخور والأشّجار الّتي تستمتع بسنى الشّمس

طوال الوقت. ولاشكّ في أنّها كانت تعلم أنّه ليس بعيداً ذلك اليوم الّذي تحقّق فيه أحلامها.

غمر الدّفء هوندا فجأة، وهو يرقب الأنوار في الطّابق الثاني، ويفكّر في ينج تشان وهي تنضو عنها ثيابها. ترى هل تسري الحرارة في العظام؟ هل أصيبت الزّهيرات الحمراء في مفاصله بحمّى القشّ؟ وأسرع بإغلاق الأبواب، وأطفأ الأنوار في غرفة الجلوس، ومضى خلسة إلى أعلى. ولج غرفة النّوم ليتمكّن من المضي عبرها في سكون إلى المكتب. وتحسّس طريقه في الظّلام إلى رفّ المكتبة. ارتعشت يداه وهو يزيل المجلّدات الأجنبيّة السّميكة واحداً إثر آخر، وأخيراً وضع عينه على ثقب التلصّص في مؤخّرة رفّ الكتب.

دخلت ينج تشان دائرة الضّوء الخافت وهي تدندن أغنية. ولم يكن قد حدث أن تاق قطّ من قبل إلى لحظةٍ قدر توقه إلى هذه اللّحظة. إنّه الحنين الّذي يستشعره المرء خلال انتظاره تفتّح زهرة يقطين على حافّة مساء صيفي. وإنّها اللّحظة الّتي تكشف فيها مروحة تنتشر على مهل صورتَها الكاملة. وكان هوندا بسبيله إلى رؤية ينج تشان في وضع لم تقع عليه عين أحد قطّ من قبل. وكان هذا هو ما يريده أكثر من أي شيء آخر في الدّنيا. وبفعل المشاهدة الّذي يقوم به فإنّ هذه الوضعيّة الّتي لم ترها عين تنتفي بالفعل. إنّ كون المرء لا يراه أحد على الإطلاق وكونه غير مستدعٍ رؤية أحد إيّاه هما أمران متماثلان، غير أنّهما مختلفان بشكل أساسي.

كانت ينج تشان قد بدت هادئة على نحو مثير للدهشة عندما وصلت إلى الدّارة وعلمت أنّ الخطط الخاصّة بإقامة حفل غير حقيقيّة.

ومنذ وصولهم إلى الدّارة أحسّ هوندا بالقلق بشأن التّفسير الّذي يتعيّن عليه أن يقدّمه. وكان كاتسومي قد ترك له كلّ ذلك لكي يخلو من اللّوم بشأن هذا الموضوع. غير أنّ التّفسيرات لم تكن ضروريّة. فعندما أضرم هوندا النّار في المدفأة وقدّم لها شراباً، ابتسمت في سعادة ولم تطرح أسئلة، وربّما كانت قد ظنّت أصلاً، أنّها أساءت فهم تعبيراته اليابانيّة عندما دعيت. فالدعوات التي توجّه بلغّة أجنبيّة غالباً ما تؤدّي إلى ألوان من سوء الفهم والاضطراب. وكان السّبب في أنّ ينج تشان قد جدّدت معرفتها بهوندا، عندما جاءت إلى اليابان لأوّل مرّة، هو أنّ السّفير الياباني لدى تايلاند قام، بعد أن سمع من آخرين بأمر صلات هوندا السّابقة بالعائلة المالكة التايلانديّة، بكتابة رسالة تقديميّة طلب فيها أن يتحدّث هوندا اليابانيّة بقدر المستطاع لكي تتمكّن الأميرة من تحسين مستوى تمكّنها من هذه اللّغة.

امتلأت نفس هوندا بالشفقة وهو يرقب ينج تشان الّتي بدت غير متوقّعة أي خطر. فقد كانت جاثمة إلى جوار النّار في بلاد غريبة عنها، منغمسة دونما إرادة من جانبها في مؤامرة للّحم البشري أبعد ما تكون عن الرّقّة. وقد انعكست ألسنة اللّهب على جانبي وجنتيها البرونزيتين، وبدا شعرها كما لو كان يحترق من غير لهب ولا دخان. وأثارت فيه ابتسامتها الدّائمة وأسنانها البيضاء الجميلة شعوراً بالإشفاق لا سبيل إلى وصفه.

ـ عندما كان والدك في اليابان كان يتجمّد دائماً في الشّتاء، وما كان بمقدوره تحمّل انتظار مقدم الصيف. ولابدّ أنّك تشعرين بتلك المشاعر أيضاً.

ـ نعم، إنّني لا أحبّ الطّقس البارد.

ـ طيّب، لن يدوم إلاّ وقتاً قصيراً. وفي غضون شهرين، لن يكون الحال هنا مختلفاً كثيراً عنه في الصّيف في بانكوك. وبينما أنا أنظر إليك الآن أتذكّر أباك في الطّقس البارد، وأتذكّر أيّام شبابي.

قالها هوندا وهو يمضي إلى المدفأة لينفض رماد سيجاره، واختلس نظرة عجلى إلى حِجْر ينج تشان من أعلى، وعند ذلك تضامت ركبتاها اللّتان كانتا مفتوحتين وكأنّهما وريقتا شجرة سنط حسّاستان.

نحّى ثلاثتهم المقاعد جانباً وجلسوا على السجّادة أمام النّار. وكان بمقدور هوندا أن يرى ينج تشان في مختلف جلساتها. فقد كان بمقدورها، على سبيل المثال، أن تجلس مستقيمة الظّهر على نحو نبيل، أو أن تسترخي على جنبيها وساقاها الجميلتان متقاطعتان على الأرض، لاعبة دور المرأة الغربيّة المثيرة. ولكنّها كانت، في بعض الأحيان، تقطع هذه النماذج الثّابتة وتفاجئ هوندا، على نحو ما حدث عندما دنت من النّار لأوّل مرّة فقد حنت كتفيها من جرّاء البرد دافعة ذقنها للخارج، ودافنة عنقها على نحو بائس، وأوحت الطّريقة الّتي تحدّثت بها ولوّحت برسغيها في الهواء، بسطحيّة معيّنة صينيّة الطّابع. ودنت من النّار تدريجيّاً، وجلست في مواجهتها، مثل المرأة الّتي كانت تبيع الفاكهة في الظلّ الأخضر العميق لأسواق الأصيل الاستوائيّة، والشّمس المتّقدة أمامها. وبساقيها المتصلّبتين، وعجيزتها المعلّقة في الهواء، انحنت بحيث اندفع ثدياها النّاهدان وفخذاها الممتلئتان في تدانٍ شديد، وكَمَنَ مركز الجاذبيّة في نقطة الاتّصال بين النّهد المسحوق والفخذ، وهي النّقطة الّتي ترجّح حولها جسمها قليلاً على نحو سوقي يستعصي على التصديق. وفي مثل هذه الأوقات فإنّ توتّر لحمها يتركّز في ردفيها، وفخذيها، وظهرها، وفي كلّ الأماكن

الوضيعة في جسمها، واشتمّ هوندا كذلك عبق البريّة الحادّ الّذي يضوع من أكوام من وريقات الأشجار الميتة في الأدغال.

افتعل كاتسومي الهدوء، وانعكست النّماذج، الزخرفيّة، لكأس البراندي الزجاجيّة على يده البيضاء، ولكنّه كان قابلاً للاستثارة بصورة جليّة. وشعر هوندا بالمقت حيال رغبته الجنسيّة.

قال هوندا مرتّباً إجراءات قضائها اللّيلة في الدّارة، قبل طرحها:

ـ سيكون كلّ شيء على مايرام، اللّيلة، وسأعدّ غرفتك لتكون دافئة للغاية فسوف تكون هناك مدفأتان كهربائيتان كبيرتان، ذلك أنّه بفضل اتّصالات كيكو أعطيت لنا طاقة كهربائيّة في ضخامة الطّاقة المعطاة لمقرّ قيادة قوّات الاحتلال.

ولكنّ هوندا لم يوضح السرّ في أنّ هذه الدّارة، المقامة على الطّراز الغربي، لم تزوّد بنظام تدفئة غربي، أو حتّى بنظام كوري أو صيني. وقد اقترح النّاس نظاماً جداريّاً يقوم على استعمال الفحم بدلاً من النّفط الّذي كان من الصّعب للغاية الحصول عليه. وقد أعجبت زوجته بهذه الفكرة، ولكنّه لم يوافق عليها؛ فالتدفئة الجداريّة تتمثّل في تمرير هواء ساخن خلال جدران مزدوجة. وقد كان من المهمّ بالنّسبة له أن تكون هناك جدران بسمك واحد فقط.

وكان قد تظاهر أمام زوجته بأنّه سيقوم بهذه الرّحلة بمفرده، زاعماً أنّه يريد القيام ببعض الأبحاث من غير أن يتعرّض لأي إزعاج. وظلّت الكلمات الّتي قالتها عندما كان على وشك المغادرة، وهي كلمات عاديّة متعقّلة باقية كاللّعنة في ذهنه:

ـ لا يصيبنك البرد. الجوّ شديد البرودة في جوتمبا، وسيكون الجوّ في يوم مطير كهذا أكثر برودة ممّا تظنّ. أحرص على نفسك جيّداً!

وضع هوندا عينه على ثقب التلصّص فاحتكّت أهدابه الّتي تحوّلت إلى الدّاخل، بجفنيه النّاحلين.

لم تكن ينج تشان قد بدّلت ملابسها بعد. وكان الكيمونو اللّيلي الّذي أعدّ لترتديه موضوعاً على الفراش. جلست على مقعد أمام المرآة، وأخذت تحدّق بلهفة في شيء ظنّ هوندا في البداية أنّه كتاب، ولكنّه كان أصغر حجماً وأقلّ سَمْكاً، وبدا أنّه بالأحرى صورة فوتوغرافيّة. استبدّ الفضول بهوندا لمعرفة صورة من هذه، فجرّب كلّ الزوايا، ولكنّه لم يفلح في تبيّنها.

راحت تدندن لنفسها لحناً متماثل المقاطع. وتردّده كما لو كان لحن أغنية تايلانديّة. وكان هوندا قد سمع مثل هذه الألحان الشعبيّة في بانكوك وهي تعزف بالنّغمة العالية المقعقعة الّتي تصدر عن كمان صيني. وقد أعاد إليه فجأة ذكريات الوصلات المعدنيّة اللاّمعة في السّلاسل المحيطة بالضّفاف ليلاً، أو المشاهد المليئة بالضّجيج لأسواق القنوات المائيّة في الصباحات.

وضعت ينج تشان الصّورة في كيس نقودها وسارت خطوتين أو ثلاثاً نحو الفراش، أيّ نحو ثقب التلصّص. ووثب قلب هوندا في موضعه، فقد بدا أنّها ستخترق الجدار وتهاجمه. ولكنّها بدلاً من ذلك قفزت على الفراش الأبعد الّذي كان مايزال مغطّى بملاءة، وقفزت منه إلى الفراش المجاور للجدار الّذي أعدّ لها بالفعل. فلم يستطع أن يرى غير ساقيها.

تقافزت مرّتين أو ثلاثاً على الفراش، منقلبة مع كلّ قفزة في اتّجاه مختلف، واستطاع أن يرى أنّ خطّي اتّصال جوربيها كانا ملتويين.

كان النّايلون اللاّمع يضمّ ساقيها الجميلتين، وبدت ربلتاها

ناعمتين تفضيان إلى كاحلين مشدودين. وكان باطنا قدميها مايزالان متّصلين بحشية الفراش، وتقافزت في خفّة، وقد ثنت ركبتيها، فعرّت تنّورتها المنحسرة للحظة مساحات موغلة في الارتفاع عن ركبتيها. وعلى الجزء العلوي من جوربيها، حيث كان النّسيج مختلفاً واللّون البيج أكثر قتامة، لاحت أزرار ربط الجورب في لون حبّات البازلاء الخضراء الشّاحبة. وإلى أعلى كانت بشرة فخذيها السّمراء أشبه بسماء لفّها فجر لم ينبلج منظورٍ إليها من خلال خطّ الأفق.

وفيما كانت تثب بدا أنّها تفقد توازنها، وشرعت السّاقان أمامه بالسّقوط إلى الجانب الأيمن وكأنّما هما بسبيلهما للاختفاء ولكنّها هبطت من الفراش من دون أن تصاب بسوء، وربّما كانت تلك هي عادتها الطّفوليّة في اختبار فراش غير مألوف لها.

تفقّدت، بعد ذلك، تفاصيل الكيمونو اللّيلي الّذي أعدّه هوندا لها، وأسدلته فوق ثوبها، ونظرت إلى نفسها من كلّ الزّوايا، أمام المرآة، ثمّ نحّته جانباً، واستقرّت في مقعد أمام المرآة. وأمسكت بكلتا يديها مشبك القلادة الذهبيّة وراء عنقها، وفكّته ببراعة. ورفعت أصابعها أمام المرآة، وشرعت بنزع الخاتم، ولكنّها توقّفت، عندئذٍ. بدت حركات ينج تشان البطيئة والتّعبير المرتسم على ملامحها لهوندا الّذي كان يرقب حركاتها في المرآة، وكأنّ كلّ ذلك كان يجري تحت الماء، أو ربّما كان يتمّ إجراؤه بجهاز التحكّم عن بعد.

وبدلاً من أن ترفع الخاتم، رفعت يدها نحو ضوء السّقف فتألّقت زمرّدة الخاتم الرّجالي جليّة فوق أصبعها، بوهج مخضرّ، وتوهّج وجها وحشي الياكشا الذّهبيين الحارسين.

وأخيراً مدّت كلتا يديها إلى الوراء، وشرعت بحلّ المشبك الصّغير الّذي يعلو مثبّت ثوبها، فحبس هوندا أنفاسه.

أوقفت ينج تشان حركتها، والتفتّت نحو الباب الواقع إلى اليمين، وكان يفتح بالمفتاح الاحتياطي الّذي قدّمه هوندا لكاتسومي. ولو أنّ هذا الأخير جاء بعد ذلك بدقيقتين أو ثلاث لوجد ينج تشان وقد نزعت ثيابها.

تحوّل التوجّس المفاجئ الّذي استشعرته الفتاة البريئة، في الإطار الدّائري المعتم لثقب التلصّص، إلى لوحة تصوّر لحظة حرجة فهي لم تكن تدري بعد من سيأتي من خلال الباب. فربّما أقبل طاووس أشهب، هائل، متبختراً عبر الباب، في مزيد من الخيلاء، مُفْعِماً الغرفة بعبق زهور السّوسن، وحوّل اصطفاقُ جناحيه وصيحاته ـ شأن قعقعة بكّارة ـ الغرفةَ إلى قاعة قصر الورديّة الهادئة، في ذلك الأصيل...

ولكن من دخل الغرفة كان شخصاً متوسّط القدرة، مبالغاً في التكلّف. ولم يكلّف كاتسومي نفسه عناء الاعتذار عن فتحه الباب، بلا استئذان، وإنّما غمغم في ارتباك بأنّه نظراً لعدم قدرته على النّوم جاء ليتحدّث معها. واستردّت الفتاة ابتسامتها، وقدّمت له مقعداً، وشرعا في حوار طويل. وأخذ كاتسومي يتحدّث، متملّقاً باللّغة الإنجليزيّة، وصارت ينج تشان ثرثارة فجأة. وتثاءب هوندا، وهو يتلصّص عبر الثّقب.

وضع كاتسومي يده على يدها فلم تسحبها. وأخذ هوندا يرقب المشهد بانتباه. ولكنّه لم يستطع الاحتفاظ بوضعه ذاك طويلاً، إذ كان يوتّر عنقه إلى الحدّ الأقصى.

مال على رفّ المكتبة، وحاول متابعة ما يجري بالاستعانة بالأصوات، وأطلق الظّلام العنان لخياله. وفي غمرة خواطره تطوّرت الأمور خطوة بعد أخرى، على نحو أكثر عقلانيّة بكثير ممّا كان يجري حقّاً في الغرفة. وفي خياله كان نزع ثياب ينج تشان قد بدأ بالفعل، وأينع عُرْيُها المتألّق. وعندما رفعت ذراعها اليسرى لاحت الشّامات الثّلاث على جنبها الأيسر، شعارات النّجوم في اللّيل الاستوائي الحافل بالغواية، رموز حرمانه. وغطّى عينيه، وفي التوّ تشظّت النّجوم في الظّلام.

كان هناك حراك مفاجئ.

وضع هوندا، مسرعاً، عينه على الثّقب، وفي غمرة قيامه بذلك ارتطم رأسه بركن رفّ المكتبة. وأثارت الضّجة قلقه أكثر ممّا أثاره الألم. لكن الموقف على الجانب الآخر من الجدار تجاوز أي قلق على ضجّة محدودة.

كان كاتسومي متشبّثاً بينج تشان الّتي أخذت تقاومه. وتصارع الجسدان خارجين وعائدين إلى ميدان الرؤية الدّائري الّذي يتيحه ثقب التلصّص. وكان سحّاب ثوب الفتاة مجذوباً للأسفل، وظهرها الأسمر المتعرّق النّاحل ظاهراً للعين، وقد بدت وصلات مشدّ صدرها. وحرّرت يدها اليمنى وأهوت بقبضة يدها المتصلّبة بضربة عنيفة. وقد تألّقت الزمرّدة الخضراء كأنّها خنفساء طائرة، وهوت على وجنة كاتسومي. وتراجع واضعاً يده على وجهه. وسرعان ما تردّدت ضجّة فتحه الباب ومغادرته الغرفة. وبدت ينج تشان متقطّعة الأنفاس، وتطلّعت حولها وجرّت أحد المقاعد لتستخدمه على ما يبدو دعامة لإغلاق الباب.

أصاب الذّعر هوندا، فكاتسومي الّذي تظاهر بأنّه بالغ النّضج، لم يكن في حقيقة الأمر إلّا طفلاً مدلّلاً، ولربّما جاء طالباً حقيبة أدوات الإسعاف الأوليّ لمعالجة وجنته.

انطلق هوندا في الحال إلى العمل فأعاد الكتب السّميكة واحداً بعد آخر إلى رفّ المكتبة. وبحرص مجرم محترف، تيقّن من أنّ أيّاً من هذه الكتب لم يوضع مقلوباً. وتحقّق من أنّ باب المكتب موصد، وأطفأ المدفأة، وانسلّ عائداً إلى غرفة النّوم فبدّل ثيابه، وارتدى منامته، وألقى بملابسه على المشجب، ودلف إلى الفراش. واستعدّ للتصرّف كمن قطع عليه نومه، إذا جاء كاتسومي إلى بابه.

أصبحت تلك تجربة من تجارب «شباب» هوندا المجهول، ويا لبراعة طالب القسم الدّاخلي الّذي انتهك القواعد المعمول بها وزحف عائداً إلى الفراش مدّعياً البراءة! وعلى الرّغم من أنّه رقد في هدوء فإنّ قلبه مضى يخفق سريعاً، بحيث كانت الوسادة، وقد بدت كائناً حيّاً، تقفز ارتفاعاً وانخفاضاً. ولم يعرف الهدوء لبعض الوقت.

ربّما كان كاتسومي متردّداً في المجيء لرؤيته. ولابدّ أنّ هذا التردّد الطّويل جاء نتيجة للتدبّر ولتقدير مزايا زيارة متهوّرة ومثالبها. وفيما كان ينتظر كاتسومي، دون أن يتوقّع حقّاً قدومه، غرق في النّوم.

* * *

انقعشت السّماء بحلول الصّباح، وتماوج خيط ذهبي من سنى الشّمس منهلاً من خلال فتحة بين الستائر المسدلة على النّافذة الشرقيّة.

لفّ هوندا ملفعة حول عنقه، ومضى في ردائه السّميك إلى

المطبخ، معتزماً إعداد طعام الإفطار للشّابين، فألقى كاتسومي جالساً بالفعل في مقعد بغرفة الجلوس، وقد ارتدى ثياباً أنيقة.

كان كاتسومي قد أضرم النّار في المدفأة، ولم يبد أنّه يخفي وجنته. وقد خاب أمل هوندا، إذ لم يجد ندباً كبيراً بادياً في الضّوء الصّادر عن المدفأة، وإنّما كان هناك خدش خفيف يمكن تفسيره بأيّ قصّة بسيطة مختلقة.

قال كاتسومي مشيراً إلى مقعد كما لو كان هو المضيف:

ـ ألا تجلس قليلاً؟

قال هوندا، محيّياً مرّة ثانية، وهو يجلس:

ـ عمت صباحاً.

قال كاتسومي وكأنّه قد أسدى جميلاً كبيراً لهوندا:

ـ أحسست بأنّني ينبغي أن أحدّثك على انفراد، وقد نهضت مبكراً لهذا الغرض بالذّات.

ـ و. . . كيف كان الأمر؟

ـ طيّب.

ـ ماذا تعني بـ «طيّب»؟

ابتسم الشّاب موحياً بشيء مهمّ على نحو بالغ:

ـ تماماً كما كنت أتوقّع، إنّها تبدو كالطّفلة، ولكنّها ليست في الحقيقة كذلك.

ـ هل بدا أنّها كانت المرّة الأولى بالنّسبة لها؟

ـ إنّني الأوّل. . . وأنا على يقين من أنّ من سيجيئون بعدي سيموتون بغيظهم.

بدا ممّا لا ضرورة له متابعة الأمر إلى أبعد من ذلك، فغيّر هوندا الموضوع:

ـ بالمناسبة، هل اتّفق أن لاحظت أنّ بها بعض العلامات المميّزة الغريبة... على جنبها الأيسر... ثلاث شامات رائعة، تكاد تكون اصطناعيّة، وكلّها في صفّ واحد. هل رأيتها؟

لاحت الحيرة العابرة على محيا كاتسومي الموحي بتباهي صاحبه. كانت هناك ردود عديدة ممكنة، وكانت هناك مسألة إنقاذ ماء الوجه أيضاً. وقد وصل سريعاً إلى استنتاج أنّ الإدلاء بالأكاذيب تنبغي التضحية به، وتأجيله إلى مناسبة أكثر أهمّيّة. كان من المثير للاهتمام التكهّن بالرّدود الكثيرة الّتي تدور بخلد الشّاب. وفجأة انحنى إلى الأمام في مقعده بإيماءة دهشة مبالغ فيها.

قال بصوت مرتفع:

ـ الفوز انعقد لك، فأنت رجل تصعب هزيمته، يا سيّد هوندا! إنّ قبضتي تتراخى، وقد خدعتني لغتها الإنجليزيّة عندما بدا أنّها تقول إنّ تلك هي المرّة الأولى. إنّك على علم بالفعل بتفاصيل جسمها.

حان دور هوندا، ليبتسم، على نحو موحٍ بكثير من المعاني.

ـ إنّني أسألك عمّا إذا كنت قد رأيت الشّامات؟

ردّ الشّاب متوتّراً، إذ كان يتعرّض للضغط لاختبار صلابته المدّعاة:

ـ بالطّبع، رأيتها. وقد كانت مبتلّة بالعرق قليلاً، وكلّها تتحرّك معاً في الضّوء الخافت. وبالرّغم من بشرتها الدّاكنة فإنّ لها نوعاً من الجمال الغامض الّذي يستعصي على النسيان.

مضى هوندا إلى المطبخ فأعدّ إفطاراً مؤلّفاً من القهوة والكعك الهلالي الشّكل. وتطوّع كاتسومي بالمساعدة، ولكن حرصه على القيام بذلك لم يكن متّفقاً مع ما درج عليه. وقام، وكأنّما أرغمه على ذلك

شعور بالالتزام بإعداد الأطباق، وسأل هوندا عن مكان حفظ ملاعق الشّاي، ورتّبها على المائدة. وللمرّة الأولى شعر هوندا بشيء يحاكي الصداقة المحوِّمة على حدود الإشفاق، نحو هذا الشّاب.

تجادلا فيمن الّذي ينبغي أن يحمل طعام الإفطار إلى غرفة ينج تشان. وقام هوندا، طارحاً عنصر واجب الضيافة، بوضع الأطباق على صحفة وحملها إلى أعلى على مهل.

طرق باب غرفتها فلم يتلقّ ردّاً. وضع الصّحفة على الأرض وفتح الباب بالمفتاح البديل. وكان من الصّعب فتحه بالقوّة؛ إذ دعم بشيءٍ ما من الجانب الآخر.

تطلّع في أرجاء الغرفة الّتي ملأها نور الصّباح. وكانت ينج تشان قد خرجت.

- ٣٧ -

اعتادت السيّدة تسوباكيهارا في المدّة الأخيرة لقاء إيمانيشي من وقت إلى آخر.

كانت مجرّدة من كلّ بصيرة، عاجزة عن تكوين آراء لمّاحة عن الرّجال، كما لم يكن بمقدورها الحكم على رجل من مظهره، وتحديد النّوعية الّتي ينتمي إليها... وما إذا كان خنزيراً، أو ذئباً، أو شخصاً بليداً. وكانت مثل هذه المرأة تحاول، من بين ما تحاوله من أمور أن تنظم الشّعر.

إذا كان الوعي بالملاءمة مؤشّراً للحبّ الفخور، فإنّه ما من امرأة كان بوسعها التّخفيف من غلواء شعور إيمانيشي بنفسه قدر ما كانت تفعله هذه المرأة الّتي كانت عاجزة عن رؤية أيّ نوع من الملاءمة. وقد شرعت في حبّ هذا الرّجل البالغ أربعين عاماً من العمر، كما لو كان ابناً لها.

لم يكن هناك أحد يمكن أن يفوق إيمانيشي في بعده عن التمتّع بعنفوان الشّباب، أو الجدّة، أو الشّجاعة. فقد كان يعاني من معدته، وله بشرة شاحبة بعيدة عن المرونة، وكان سريع الإصابة بنوبات البرد. وكان جسمه الطّويل المجرّد من أيّ عضلات متطوّرة، يشبه نطاقاً طويلاً مترهّلاً، وكان يترجّح في مشيته، وبتعبير آخر كان نموذجاً مجسّداً للمثقّف.

ولابدّ أنّه كان من الصّعب الوقوع في حبّ مثل هذا الرّجل، ولكن كما أنّ السيّدة تسوباكيهارا كانت تنظم الشّعر الرديء بسهولة

بالغة، فقد وقعت في هوى إيمانيشي، دونما صعوبة على الإطلاق. وكان افتقارها للبراعة في أي شيء وكلّ شيء متألّقاً، وجعلها سهولة انقيادها وحبّها الّذي أقرّت به للنقد تصغي في سعادة إلى توبيخات إيمانيشي الشّخصيّة المستمرّة. وكانت تناصر في كلّ شيء المفهوم القائل بأنّ النقد هو طريق مختصر للتحسّن.

وفي حقيقة الأمر فإنّه كان ثمّة شيء يربط إيمانيشي بها، فهو لم يكن يضيق ذرعاً بنزعتها الصبيانيّة عندما تتحدّث بجديّة بالغة عن الأدب والشّعر، في غرفة النّوم، وقد اختار هو نفسه المكان عينه ساحة للإدلاء باعترافاته الأيديولوجيّة. وكَمَنَ مزيج غريب من النزعة الكلبيّةِ العميقة والافتقار إلى النّضج وراء الصّبا الهشّ الّذي كان يتألّق عبر صفحة وجهه بين الفينة والفينة. والآن ها هي ذي السيّدة تسوباكيهارا تعتقد أنّه يحبّ قول الأشياء الّتي تؤذي مشاعر النّاس؛ لأنّه إنسان نقيّ.

كانا يلتقيان دائماً في نزل صغير أنيق شيّد حديثاً على تلّ شيبويا. وقد شكلّت كلّ غرفةٍ مبنىً مستقلاً يفصله عن المباني الأخرى غدير صغير متدفّق عبر الحديقة. وكانت أعمال النجارة فيه حديثة العهد ومتقنة، والمدخل رائعاً.

في السّاعة السّادسة من السّادس عشر من حزيران (يونيو) توقّفت السيّارة الّتي استأجراها، أمام محطّة شيبويا، ولم يعد بمقدورها التقدّم إلى الأمام؛ إذ أوقفتها الحشود. وكان النّزل على بعد خمس دقائق أو ستّ من المسير على الأقدام، فغادرا السيّارة.

اكتسحهما جمع هائل من النّاس الّذين مضوا يردّدون النّشيد الدّولي. ورفرفت في الرّيح لافتات: «يسقط قانون خطر الأنشطة

التخريبيّة!». وتدلّت لافتة كبيرة من جسر خطّ تاماجاوا «أيّها اليانكي عودوا إلى بلادكم!». كانت وجوه النّاس المتجمّعين في الميدان متوهّجة، ومرحة، ومنطلقة في غمرة اندفاعهم نحو التدمير.

أصاب الخوف السيّدة تسوباكيهارا، واختبأت خلف إيمانيشي الّذي أحسّ، رغماً عنه، بالخوف والقلق يجتذبانه نحو الجمهور. وانسلّ الضّوء، مثل فتحات الشّبكات، خلال أقدام الجمع المتدفّق عبر الميدان. وتزايد لطم الأرض بالأقدام احتجاجاً، شأن دفق مفاجئ من المطر، ثمّ اخترقت الصرخات الجمع، وعلا صوت التّصفيق غير المنتظم ـ حدث كلّ ذلك في وقت واحد مع هبوط ليل حافل بالصّخب على المتظاهرين المتجمّعين. وذكّر ذلك إمانيشي بالرّجفة الغريبة الّتي تعتريه دوماً لدى بدء تعرّضه لنوبات برده العديدة مع احتدام حالة الحمّى المصاحب لذلك. وساور الجميع شعور فظيع بأنّ جلودهم تسلخ كالأرانب، وأنّ لحمهم العاري يعرّض فجأة للهواء.

ـ الشرطة! الشرطة!

انتشر دويّ الأصوات، وتبدّد الجمع باضطراب. وتحوّلت جوقة النشيد الدّولي، الّتي كانت تشكّل موجة هادرة، إلى شظايا متناثرة هنا وهناك، شأن بريكات صغيرة غِبّ المطر. وأحاطت الصرخات بهذه البريكات، كما في ساعة اختناق السَيْر، واختلط بعض من يغنّون ببعض على نحو لا يرجى معه انفصال. وهدرت سيّارات الشرطة البيضاء، متوقّفة عند تمثال الكلب هاتشي الوفيّ، أمام محطّة شيبويا، ووثب أعضاء احتياطي الشرطة معتمرين واقيات الرّؤوس الزّرقاء القاتمة، من السيّارات وكأنّهم سرب من الجراد الصّغير.

أمسك إيمانيشي السيّدة تسوباكيهارا بقوّة، وانطلق يعدو، ناجياً

بعمره، مع الجمع الّذي كان يحاول الابتعاد. وعندما بلغ واجهة متجر على الجانب الآخر من الميدان، والتقط أنفاسه، أدهشته قدرته غير المتوقّعة على العدو. وأدرك أنّه بدوره كان قادراً على الجري. وعند ذلك بدأ فجأة خفقان غير طبيعي في قلبه، وآلمه صدره.

ومقارناً بخوفه فإنّ خوف السيّدة تسوباكيهارا، كان شأن حزنها، نمطيّاً إلى حدٍّ ما. أمسكت حقيبتها بقوّة أمام صدرها، ووقفت إلى جانبه وكأنّما سيغشى عليها في أيّة لحظة. وبدت أضواء النيون الأرجوانيّة المنعكسة على وجنتيها اللّتين علاهما الذّرور، وكأنّها تُحَوِّل خوفها إلى عمل متقزّح اللّون، قوامه القواقع، ولكن عينيها لم تضطربا قطّ.

انسلّ إيمانيشي في حذر على امتداد واجهة المتجر، ونظر عبر الميدان المضطرب أمام المحطّة. ووسط الصرخات والصيحات المتدفّقة سجّلت السّاعة الهائلة المضيئة على مبنى المحطّة الوقت في جلال.

بدا أنّ رائحة تشبه ما يمكن أن يحدث يوم الدينونة تنتشر. وكان العالم ينقلب إلى اللّون الأحمر، شأن عينيْ شخص طالت يقظته، وأحسّ إيمانيشي بأنّه يصغي إلى الضّوضاء الغريبة الّتي تحدثها ديدان القزّ في غرفة تربيتها وهي تقضم وريقات التّوت بعنفوان.

ثمّ علت في البعيد ألسنة اللّهب من سيّارة بيضاء تابعة للشرطة. ربّما بسبب قنبلة حارقة. وارتفعت ألسنة حمراء غاضبة وصرخات مع الدّخان الأبيض. وأدرك إيمانيشي أنّه كان يبتسم.

أخيراً، وفيما هما يشرعان بالسّير، بعيداً عن هذا المشهد، لاحظت السيّدة تسوباكيهارا شيئاً متدلّياً من يد إيمانيشي.

ـ ماذا لديك هنالك؟

ـ لقد قمت بالتقاطه لتوّي.

فتح وهو يواصل السّير ما بدا أنّه خرقة قاتمة وأراها إيّاها. كان مشدّاً للصدر من نسيج محرّم أسود، مختلفاً تماماً عن النّوع الّذي تستخدمه السيّدة تسوباكيهارا. ولابدّ أنّه كان لامرأة شديدة الثّقة على نحو استثنائي بصدرها. كان من مقاس كبير، وبدون حمالتي كتف، وقد بالغ عظم الحوت المتّخذ كمستقرّ للنّهد في ضخامة التجويفين الشّامخين الجديرين بتمثال.

ـ ما أفظع هذا! من أين جئت به؟

ـ هناك، منذ لحظة، عندما بلغت المتجر لاحظت شيئاً عالقاً بقدمي، ولابدّ أنّ أحدهم دهسه، فقد كان ملطّخاً بالطّين.

ـ يا للشّيء القذر! أَلْقِ به بعيداً!

ـ ولكن ما أغربه! ما أشدّ خروجه عن المألوف!

ابتهج إيمانيشي لاهتمام المارّة الفضوليّين، وعرض مشدّ الصدر في تباهٍ وهو يواصل السّير.

ـ ترى كيف يمكن أن يسقط شيء كهذا؟ أتحسبين ذلك ممكناً؟

لم يكن بالطّبع ممكناً، فمشدّات الصدر، حتّى من النّوع المجرّد من حمالات الكتف، تثبت بعدد من المشابك. وأيّاً كان انخفاض مستوى العنق فلا يمكن للمشدّ أن يخلع، ويسقط. ولابدّ أنّ المرأة الّتي أطبق عليها الجمع قد نزعته، أو قام بنزعه شخص آخر. والاحتمال الأخير مستبعد، والأمر الأكثر احتمالاً هو أنّ المرأة قامت بانتزاعه من تلقاء نفسها.

لم تكن لديه أدنى فكرة عن الغرض من قيامها بذلك. وعلى أيّة حال فإنّه وسط ألسنة اللّهب والظّلام والصّياح كان قد تمّ نزع مشدّ

صدر كبير. لم ينتزع إلاّ الهيكل اللاّمع، وأمّا الامتلاء اللدن للحم فقد كانت شاهدة عليه طيّات النّسيج المخرّم الأسود. وربّما كانت المرأة قد تخلّت في كبرياء عن مشدّ صدرها عامدة. لقد نُزِعت الهالة، وبدا القمر الآن في مكان ما من الظّلام العاصف. ولم يلتقط إيمانيشي إلاّ الهالة، ولكنّه بفعلته تلك بدا أنّه أمسك ـ أكثر ممّا كان يمكن أن يفعل لو التقط النّهدين ذاتيهما ـ دفئهما ومراوغتهما الماكرة. وتدافعت ذكريات الشّهوة متزاحمة وكأنّها الفراشات حول مصباح. وضع إيمانيشي، على نحو عَرْضي، المشدّ على أنفه، وكانت رائحة العطر الرّخيص قد تخلّلت النسيج، وظلّت قويّة برغم الطّين. وافترض أنّها كانت بالتأكيد عاهرة متخصّصة في اصطياد الجنود الأميركيين.

ـ يا لك من رجل فظيع!

بدت السيّدة تسوباكيهارا غاضبة غضباً لا ادّعاء فيه. لقد كانت كلماته المترعة بتعمّد الإغاظة تحمل دائماً رنّة الانتقاد، ولكن مثل هذه الفعلة الحقيرة كانت وضيعةً لا تغتفر. ولم يكن الأمر انتقاداً، وإنّما إهانة خسيسة. وكانت قد استوعبت بنظرة خاطفة المقاس وأدركت ازدراء إيمانيشي الضمنيّ لنهديها الذّوايين المكتهلين.

ما إن يبتعد المرء عن الميدان الواقع أمام المحطّة حتّى يجد أنّ شيئاً لم يتغيّر على الطّريق من تلّ دوجين إلى شوتو الّذي أقيمت على امتداده على وجه السّرعة حوانيت متلاصقة في أطلال القصف. وفي هذه السّاعة المبكرة كان السّكارى يصخبون، وأضواء النيون تحوم كمجموعات من السّمك الذهبيّ فوق رؤوسهم.

حدّث إيمانيشي نفسه، قائلاً: «لابدّ من الإسراع إلى الدّمار، ولئن لم أفعل، فسوف تعود جهنّم». وما إن أفلت من الخطر حتّى عاد الدّم

إلى وجنتيه. وكان، دونما مزيد من اللّوم من السيّدة تسوباكيهارا، قد ترك مشدّ الصدر الأسود ينزلق من أصابعه إلى الطّريق حيث كان الهواء الرّاكد حارّاً ورطباً.

استحوذت عليه فكرة أنّه ما لم يحلّ به الدّمار قريباً فإنّ جحيم الحياة اليوميّة ستسارع بابتلاعه. وإذا لم يحلّ الدّمار في الحال فإنّه سيخضع، ليوم إضافي آخر، لصورة خياليّة تلتهمه الكآبة فيها التهاماً. ومن الخير له أن يذهب ضحيّة كارثة مفاجئة وشاملة، بدلاً من أن ينهشه سرطان الخيال. وقد يكون كلّ ذلك إذن خوفاً غير واعٍ من أنّه ما لم يقضِ على نفسه دونما إبطاء، فإنّ عاديته المبتذلة الّتي لا سبيل إلى الشكّ فيها، سوف يكشف النّقاب عنها.

كان بمقدوره رؤية دمار العالم في أقلّ الأشياء أهمّيّة، فالإنسان يجد دائماً النُذُر الّتي ينشدها.

تمنّى أن تندلع الثّورة دون أن يكترث بما إذا كانت يمينيّة أو يساريّة. فكم يكون رائعاً أن تحمل شخصاً مثله، هو الّذي عاش طفيليّاً وعالة على شركة التّأمين الّتي أسّسها أبوه، إلى المقصلة. ولكن أيّاً كان النحو الّذي قد يعلن به عاره فإنّه لم يكن على يقين ممّا إذا كانت الجماهير ستمقته أم لا. ماذا عساه يفعل لو أنّهم فسّروا اعترافه على أنّه مؤشّر للندم؟ لو أنّه مقصلة نصبت في الميدان الصّاخب، أمام المحطّة، وجاءت أيّام يتدفّق فيها الدّم، وسط كلّ هذا النزوع الدنيويّ، فربّما كان بمقدوره، من خلال موته، أن يصبح «من يحظى بالتذكّر». وأخذ يتصوّر نفسه، وهو يوضع تحت حافّة المقصلة القاطعة، وثمّة سقالة من الخشب، ملفوفة بقماش أبيض وأحمر، مثل كشك اليانصيب المزيّن باللّافتات الّتي تعلن عن تصفية صيفيّة

خاصّة، في حيّ تجاري، وقد وضعت على النصّ لافتة أسعار ضخّمة كتب عليها «خاصّ». وأخذته الرّعدة.

أمسكت السيّدة تسوباكيهارا بردن ردائه وهو ينطلق شارداً في رحاب هذه الصّورة الخياليّة، وجذبته لافتة نظره إلى بوّابة نُزُلها. ومضت بهما الخادمة المنتظرة في البهو إلى غرفتها المعتادة، صامتة. وما إن انفرد أحدهما بالآخر حتّى شرع إيمانيشي الّذي مايزال على احتدام أفكاره، في إدراك قرقرة ماء الغدير.

أمرا بطبق من الدّجاج العادي، مع شراب، السّاكي. وكانا ينغمسان عادة في حوار بلغة البدن وهما ينتظران وسط استعدادات النزلِ المعتادة الّتي تستغرق وقتاً. ولكن السيّدة تسوباكيهارا أرغمته اليوم على التوجّه إلى الحمّام، وجعلته يغسل يديه بدقّة، تاركاً ماء الصنبور يتدفّق وهو عاكف على ذلك.

قالت:

ـ استمرّ! استمرّ! استمرّ!

لم يدرك إيمانيشي في البداية السرَّ في إرغامه على غسل يديه مراراً وتكراراً، على مثل هذا النّحو. ولكنّه أدرك، من التّعبير الجادّ المرتسم على محياها، أنّ الأمر راجع إلى المشدّ الّذي كان قد التقطه.

ـ لا. يجب أن تغسلهما على نحو أفضل.

قالتها وهي تكسو باهتياج يديه بالصّابون، وتفتح الصنبور على أقصى طاقته، متجاهلة الضّجيج ورشّاش الماء على المغسلة النحاسيّة. وأحسّ في نهاية المطاف بخدر في يديه.

ـ ألاّ تظنّين أنّ في ذلك الكفاية؟

ـ كلاّ، ليس فيه الكفاية. ماذا تظنّ أنّه سيحدث إن دنوت منّي

بيدين على ذلك النحو؟ إنّ لمسي يعني لمس ذكرى ابني القابعة في أعماقي. لسوف تدنّس ذكرى أكيو المقدّسة، ذكرى إلّه... بيديك القذرتين.

قالتها، وأشاحت بوجهها مسرعة، وغطّت عينيها بمنديل.

مضى يفرك يديه تحت الماء المندفع، ونظر إليها، خلسة. وإذ كانت قد شرعت في البكاء فإنّ ذلك كان مؤشّراً على أنه أيّاً كان الأمر فقد تمَّ تجاوزه، وأصبحت على استعداد لتقبّل أي شيء.

ـ أتمنّى لو متّ سريعاً!

قالها إيمانيشي بنبرة عاطفيّة وهما عاكفان بعد ذلك على احتساء السّاكي.

ـ وكذلك أنا.

قالتها السيّدة تسوباكيهارا، موافقة. وقد وشت بشرتها الشفّافة، كورق الأرز، باللّون القرمزيّ الواهن الّذي سيحمله معه الخمار الوشيك.

في الغرفة المجاورة، حيث كانت الأبواب مشرعة، التمعت الأطراف الخارجيّة المرتفعة والمنخفضة للغطاء الحريري ذي اللّون الأزرق الفاتح وكأنّه يتنفّس في هدوء. وعلى المائدة، كانت شرائح من حيوان أذن البحر الرخوي مع لون أحمر وردي اصطناعي، في طيّات شفقيّة تطفو في وعاء مليء بالماء. وكان الطّعام يتألّق في وعاء فخّاري.

أدرك إيمانيشي والسيّدة تسوباكيهارا، صامتين، أنّهما ينتظران معاً شيئاً ما، ربّما كان الشيء نفسه.

خالجها شعور بالنّشوة مع بهجة الخطيئة، وتوقّع العقاب المصاحب لها على هذه اللّقاءات السرّيّة المختلسة من وراء ظهر ماكيكو.

وتخيّلت ماكيكو وهي تلج الغرفة، ملوّحة بالفرشاة المغموسة في الحبر الأحمر الّتي تصوِّب بها القصائد. «لن يصلح هذا كشعر، سأراقب، الآن حاولي إبداع الشّعر بكلّ كيانك. إنّني هنا لتعليمك، يا سيّدة تسوباكيهارا!»

كان إيمانيشي، كالمتوقَّع منه، قد تمنّى المضي بقصّة الحبّ إلى ذروتها، أمام عينيْ ماكيكو المترعتين بالكره والازدراء. وكانت اللّيلة الأولى تلك في نينوكا بجوتمبا هي ذروة حلمه الّذي يتعيّن على علاقته بالسيّدة تسوباكيهارا أن تبلغه مرّة أخرى. وفي رأس الذروة كانت عينا ماكيكو النّافذتان قد استقرّتا عليهما معاً، كنجمتين باردتين. وكانت نظرتها المحدّقة ضروريّة له بأيّ ثمن.

لم يكن بمقدور إيمانيشي، في غياب عينيها، التخلّص من شعور بالادّعاء في توحّده مع السيّدة تسوباكيهارا. فلم يكن بوسعهما قطّ التخلّص من عقدة كونهما ثنائيّاً محظوراً وغير مشروع. وهاتان العينان تنتميان إلى أكثر صانعي التماثلات سلطة ورفعة شأن، عينا ربّة جليّة تتألّق في ركن مخدع يعمّه نور غسقي، عينان وحّدتهما معاً، ولكنّها رفضتهما، وغفرت لهما، ولكنّها ازدرتهما. ومثل هاتين العينين تسيطران على الخضوع لهما من خلال عدالة غامضة ومتردّدة نحّيت في موضع ما من هذه الدّنيا. وتحتهما فحسب يبدو أساس توحّد هذا الثنائي مبرّراً. وأمّا بعيداً عنهما فإنّ العاشقين ما كانا إلّا عشباً ذاوياً يطفو على ماء الظّاهر. وكان توحّدهما اتّصالاً هامشيّاً، امرأة أسيرة لماضٍ وهمي لا سبيل إلى استرداده، ورجل يتوق إلى مستقبل وهمي لن يحلّ أبداً. كان مثل القرقعة الميتة لأحجار لعبة «الجو»[1] في حافظتها.

---

(١) لعبة الجو: لعبة يابانيّة تلعب بحجارة على رقعة ذات ٣٦١ مربّعاً. (هـ. م.).

ساور إيمانيشي شعور بأنّ ماكيكو تجلس بالفعل ساكنة منتظرة في الغرفة المجاورة الّتي لا ينسل إليها ضوء هذه الغرفة. وأصبح الشّعور بوجودها أكثر احتداماً، وأحسّ بأنّ عليه التأكّد منه، وتكبّد عناء التدقيق في الأمر. ولم تطرح السيّدة تسوباكيهارا أسئلة، ربّما لأنّ الشّعور نفسه قد ساورها. وفي حلية خشبيّة بالرّكن في الغرفة الصّغيرة الّتي لا تمتدّ لأكثر من أربع حصر ونصف، طفت زهور السّوسن المرتّبة وكأنّها قُبّرات محلّقة.

* * *

انغمسا كالعجائز كعادتهما لدى الفراغ من المضاجعة، في حديث حافل بالتّفاصيل الصّغيرة، وهما يتكاسلان. وأخذ إيمانيشي، وقد تخلّص الآن من توتّره الجنسيّ، يتحدّث عن ماكيكو بأسوأ طريقة استهزائيّة ممكنة.

ـ ماكيكو تستغلّك. وأنت تخشين أنّ لا يكون بمقدورك أن تصبحي شاعرة بالاعتماد على نفسك إذا انفصلت عنها. وفي حقيقة الأمر فإنّ هذا ربّما كان صحيحاً حتّى الأن، ولكن عليك أن تدركي أنّك قد وصلت إلى منعطف مهمّ. وإذا لم تتحرّري من تأثيرها فلن تكوني شاعرة جيّدة أبداً.

ـ ولكن إذا بلغ بي الغرور حدّ الاستقلال فإنّني أعرف أن تقدّمي في الشّعر سيتوقّف أيضاً.

ـ لماذا قطعت بذلك؟

ـ لم أقطع بذلك، إنّه أمر حقيقي. ربّما كان محض قضاء وقدر.

أراد إيمانيشي أن يسألها عمّا إذا كان قد حدث يوماً أن تحسّن شعرها، ولكن نشأته الطّيبة ما كانت لتسمح له بمثل هذه الوقاحة.

غير أنّ الكلمات الّتي استخدمها ليحرّرها من قبضة ماكيكو لم تعكس إخلاصاً. وخامره شعور بأنّ السيّدة تسوباكيهارا قد ردّت عليه وهي مدركة ذلك تمام الإدراك.

أخيراً جذبت الملاءة إليها، وبعد تثبيتها حول رقبتها، ألقت إحدى قصائدها الأخيرة، محوّلة عينيها نحو السّقف المعتم، فانتقدها إيمانيشي في الحال.

ـ إنّها قصيدة جميلة، ولكنّني لا أحبّ الشّعور الضيّق الأفق المعتدّ بذاته الّذي تعطيه بالتركيز على العنصر الدنيوي. إنّها تفتقر إلى الشّمول. وربّما كان السّبب هو الفقرة الأخيرة. «زرقة البحيرة العميقة» تفتقر إلى الخيال. إنّها مجرّدة أكثر من اللاّزم، ولا تنطلق من الحياة.

ـ نعم، أحسب أنّك على حقّ. إنّني أشعر بالألم إذا تعرّضت مباشرة للنقد عقب إبداعي قصيدة غير أنّه يمكنني في غضون أسبوعين إدراك نقاط ضعفها. ولكن، كما تعلم، فقد أشادت ماكيكو بهذه القصيدة. وقد قالت على العكس منك إنّ المقطع الأخير جيّد، رغم أنّها تعتقد أنّ من الأنسب القول إنّ «الزرقة هي البحيرة العميقة».

كانت لهجة حديث السيّدة تسوباكيهارا توحي بالكياسة والتلطّف وكأنّها تصنع حجّة في مقابل أخرى. وبمعنويات مرتفعة شرعت في الثّرثرة عن معارفها، وقد كان ذلك على الدّوام يدخل السّرور على نفس إيمانيشي.

ـ قابلت كيكو مؤخّراً، وأبلغتني بأمر مثير للاهتمام.

ـ ماذا؟

قالها إيمانيشي، وقد ثار اهتمامه في التوّ، والتفت في موضعه، حيث

كـان منبطحـاً على معـدته، فـأسقط بارتباكٍ رماد سيجارة عـلى الملاءة الملتفّة حول صدرها.

قالت تسوباكيهارا:

ـ إنّه أمر يتعلّق بالسيّد هوندا والأمـيرة التايـلانديّـة. فقد صحبهـا مؤخّراً خلسة ومعه كاتسـومي، ابن شقيق كيكو وصـديق الأميرة، إلى دارة نينوكا.

ـ أتساءل عمّا إذا كانوا قد اندسّوا في الفراش معاً.

ـ ليس من شأن السيّد هوندا القيام بأي شيء من هذا القبيل! إنّـه من النّوع المثقّف الهادئ. وربّما أراد القيام بدور من يمهّد السّبيـل بين العاشقين الشّابين. والجميع يعلم أنّه مفتون إلى حدّ التدلّه بـالأميرة، ولكنّهما لا يمكنهما مجرّد الانغماس في حـوار معقول مـع وجود مثـل هذا الفارق في السنّ بينهما.

ـ وماذا كان دور كيكو في الأمر؟

ـ لم تكن إلاّ مجرّد مراقب على الهامش، بالفعل، فقد اتّفق وجودها في دارتها بنينوكا. وكان جاك في إجازة، ويمضي اللّيل هناك. وفجأة في الثالثة فجراً دوّى طرق عـلى الباب، وانـدفعت الأميرة إلى الـدّاخل. واستيقظ جاك وكيكو من نوم عميق، ولكن أيّاً كان إيغالهما في محاولـة إقناعها فإنّها رفضت رفضاً تامّاً إيضاح الموقف. فحـارا فيما يفعـلانه. وطلبت الأميرة قضاء اللّيل عندهمـا، فاستجـابا لهـا. واعتزمت كيكـو الاتّصال بالسيّد هوندا في الصّباح، حسبما قالت.

وبسبب هـذا كلّه نهضت من نـومهـا متـأخّـرة، ودفعت جـاك إلى التّعجيل بالعودة إلى معسكره، بعد تناول قدح من القهوة. وفيـما هي تودّعه لدى ركوبه السيّارة الجيب عند البوّابة، وصل السيّد هونـدا إلى

الدّارة، وقد بـدا في شحوب ورقـة بيضاء. وضحكت كيكـو، وقالت إنّها كانت المرّة الأولى الّتي تراه فيها على مثل هذا القدر من الضّيق.

كـانت تعلم أنّـه يبحث عن الأمـيرة، وأرادت أن تـداعبــه قليـلاً فسألته عمّا دعاه إلى الاستيقاظ في مثل هذه السّاعة المبكرة.

قال إنّ ينج تشان ضلّت الطّريق، بـل لقد ارتجف صـوته. وبعـد برهة، وكان السيّد هوندا قـد شرع في العودة إلى دارتـه بعد أن تخـلّى عن البحث، أبلغتـه كيكـو بـأنّ ينـج تشـان أمضت اللّيـل عنـدهـا. وتضرّج وجه السيّد هوندا بالحمرة وكأنّه تلميذ صغير ـ تصوَّرْ في عمره هذا! ـ وقال: «حقاً؟» وبدا أنّه شديد السّعادة.

وعندما صحبته كيكو إلى غرفة الضّيوف وجد الأمـيرة ماتـزال تغطّ في نوم عميق فأوشك على السّقـوط لفرط شعـوره بالارتيـاح. ولم تكن كلّ هذه الضّجة قد أيقظت ينج تشان. لقد كانت غارقـة في شعرهـا الفاحم السّواد، وقد فتحت فمها الجميـل قليلاً، وأغمضت عينيهـا، بأهدابها الوطفاء وتبدّد الإرهاق الّذي كان جليّاً على محياها، قبل أربع ساعات أو خمس، عندما اندفعت إلى الدّارة، وعاد الصّبا الـبريء إلى وجنتيهـا، وبدا تنفّسهـا هـادئـاً ومنتـظماً، وتقلّبت في الفـراش بـدلال وكأنّها في حلم بهيج.

ـ ٣٨ ـ

أصبحت الأميرة ينج تشان، من جديد، بعيدة عن يـدي هونـدا. واستمرّ الموسم المطير المجرّد من البدر متطاولاً.

لم يـرغب في ذلك الصّبـاح، عندمـا لمح وجـه الفتـاة الغـافيـة في إيقاظها. وبعد أن طلب من كيكو أن تعنى بها، عاد إلى طـوكيو. وفي غمرة خجله من نفسه لم يقدّر له أن يراها، كما أنّها لم تتّصل به.

ومع بداية الفترة الهادئة، الآمنـة ظاهـريّاً، بـدأت علامـات الغيرة تظهر على رابي.

ـ إنّنا لا نسمع شيئاً عن الأميرة التايلانديّة هذه الأيّام.

هكذا، كانت تقول، على نحو عابـر، خلال تنـاول وجبة طعـام، وقد حملت كلماتها لمحة من السخرية، ولكن عينيها أخـذتا تتفحّصـان في لهفة.

شرعت في رسم لوحات، بعيدة عن التّرابط، على حائط أشهب لم يكن يعكس شيئاً بالنّسبة لها.

وكـان من عادة هـوندا أن ينـظّف أسنانـه بالفـرشاة، كـلّ صباح ومسـاء. ولاحظ أنّ فرشـاة أسنانـه تتغيّر كثيـراً، قبل أن ينـالها البـلى بوقت طويل، فافترض أنّ رابي ربّما كـانت قد اشـترت مجموعـة كبيرة منهـا، من النّوع نفســه، واللّون عينـه، والصّـلابـة ذاتهـا، وأخـذت تغـيّرها، حسبـما يتراءى لهـا منـاسبـاً. ولكن التغـيّرات كـانت بـالغـة التعدّد، وعلى الرّغم من أنّها كانت ممّـا لا يؤبه لـه، فقد لفت نـظرها إلى الأمر.

ـ ما أشدّ بخلك! أليس من الغريب، بالنّسبة لمليونير، أن يوفّر مالاً من وراء شيء مثل هذا!

هكذا جاءه ردّها الّذي قالته وهي توشك على التلعثم، من فرط الغضب. ودون أن يدرك السرّ في حنقها فقد ترك الأمر عند هذا الحدّ. ولكنّه أدرك فيما بعد أنّ فرشاة الأسنان تتغيّر في الصّباحات التالية لليالي الّتي يعود فيها إلى الدّار متأخّراً. ويبدو أنّ رابي كانت تقوم بتغييرها خلسة، بعد أن يأوي إلى فراشه. وفي اليوم التالي تفحص بدقّة قاعدة كلّ شعرة لامعة في الفرشاة القديمة؛ لتحدّد ما إذا كانت هناك آثار لأحمر شفاه، أو لعطر واهن ممّا تستعمله امرأة في مقتبل العمر، ثمّ تتخلّص منها.

كانت لثة هوندا تدمى في بعض الأحيان، لسبب أو لآخر، وعلى الرّغم من أنّه لم يكن بعد بحاجة إلى طقم أسنان كامل، فإنّه كان يشكو بين الحين والآخر من التهاب اللثة. ترى كيف فسّرت رابي اللّطخ الحمراء الورديّة الّتي كانت تشوب جذور شعرات فرشاته في بعض الأحيان؟

لم يكن تفكيره إلاّ من قبيل الحدس، ولكن أتت أوقات بدت فيها رابي وكأنّها عالِم أخذه هوس العلم، فكرّس نفسه لإبداع مركب جديد من الأوكسجين والنيتروجين في الهواء. وقد بدت ضجرة من وقت الفراغ المتاح لها، ومع ذلك كانت عيناها وحواسها بالغة الحدّة والرهافة. وعلى الرّغم من شكواها دونما توقّف من نوبات الصّداع، فقد كانت تجوب دوماً بخطى عصبيّة الممرّات العديدة في دارها العتيقة.

وعندما اتّفق ذات مرّة أن طرح موضوع الدّار، أشار هوندا إلى أنّه

شيّدها لكي يتاح لها الاستشفاء فيها من حالة كليتها.

وقالت، منخرطة في البكاء، وقد أساءت فهم ما يقصده:

ـ أتقول إنّ عليَّ الذّهاب إلى تلك المقبرة بمفردي؟

كانت على حقّ في إدراكها حبَّ هوندا لينج تشان وكان قد بدأ منذ ذهب إلى جوتمبا وحيداً. وقد وصلت إلى هذا الاستنتاج من التزامه الصّمت حيال الفتاة، ولكنّها لم تفترض قطّ أنّه لم يرها، منذ ذلك الحين. وجانبها الصّواب في اعتقادها أنّه يراها سرّاً، ومن هنا فإنّه يرغب في إزالة ذلك الاسم من ذاكرة زوجته.

بدا هذا الهدوء رهيباً؛ فقد كان له ذلك السّكون الّذي يميّز مخبأ يحتمي به انفعال هارب من مطارديه. وقد أحسّت رايي من خلال حدسها بأنّه قد أعدّت مأدبه سرّيّة خاصّة لن يقدَّر لها أبداً أن تُدعى إليها.

ما الّذي كان يجري؟

وقد أصاب حكمها أيضاً عندما ظنّت أن شيئاً ما قد حدث، على الرّغم من أنّ هوندا نفسه كان يشعر بأنّ كلّ شيء قد انتهى.

ولّما كانت رايي قد توقّفت تماماً عن الخروج من الدّار فقد بدأ هوندا بمغادرتها على نحو يفوق ما كان يفعل من قبل، حتّى وإن لم يكن هناك غرض بعينه من وراء الخروج. وقد أشعره بالاختناق الوجودُ الدّائم لزوجته الّتي بقيت في الدّار متذرّعة بالمرض.

ما إن يغادر هوندا الدّار حتّى تدبّ الحياة في رايي. ومن المفترض نظريّاً أنّها ينبغي أن تقلق على الغرض من خروجه، دونما تفسير، ولكنّها تمكّنت من التعايش مع مخاوفها الّتي أصبحت مألوفة الآن. وهكذا أصبحت الغيرة أساساً لحرّيّتها.

بدا هذا الشّعور مماثلاً للحبّ، وكان قلبها على الدّوام واقعاً في الشَرَك، متخبّطاً في جنباته. وقد حاولت على سبيل التّغيير، ممارسة فنّ الخطّ، ولكن يدها كانت تخط دونما قصد حروفاً ترتبط بالقمر... «ظلال القمر»... «جبل في سنى القمر».

لاح أمراً مقززاً، بالنّسبة لها، أن يكون لفتاة في مقتبل العمر كينج تشان مثل هذين الثديين الكبيرين، فأخذت تؤلّف من الحروف المشكّلة لـ جبل في سنى القمر» الّتي تكتبها من غير أن تقصد جبلين على هيئة نهدين يسبحان في سنى القمر. وقد ارتبط هذا بذكرياتها عن التلين التّوأمين في كيوتو. ولكن مهما كانت براءة الذّكريات فقد كانت رابي تخاف من أي شيء قد يثير هذه الذّكريات. وكانت قد شاهدت التلين التوأمين في رحلة خلال دراستها بالمرحلة الثانويّة، وعندما استعادت ذكرى ترجّح نهديها الصّغيرين المتعرّقين تحت الزيّ المدرسيّ الصّيفي الأبيض، أحسّت بنفسها تتلوّى.

كان هوندا قد شعر بالقلق إزاء هشاشة صحّة رابي، وأراد الاستعانة بكثير من الخدم. غير أنّها تعلّلت بأنّ مشاغلها ستتضاعف إذا اضطرت للإشراف على عدد كبير من الأشخاص، واكتفت بخادمتين في المطبخ. وقد قلّ الآن بشكل كبير العمل الّذي أحبّته هناك على مدار السّنين، وفضلاً عن ذلك فإنّه لم يكن بالأمر المناسب لساقيها أن تقف، ولو لفترة قصيرة، على الأرض الباردة. ولم يكن أمامها من بديل إلاّ المكوث في غرفتها، وأبدت اهتماماً بالحياكة. وكانت ستائر غرفة الجلوس قد نحلت فطلبت أقمشة حريريّة من تاتسومورا في كيوتو. وحاكت ستائر جديدة من القماش بزخارفه المطبوعة الّتي نقلت عن الأصل الموجود في شوسو - إين في نارا.

دعّمت رابي بعناية النّسيج بقماش أسود لتحول دون نفاذ الضّوء لدى إسدال السّتائر، وقد لاحظ هوندا ذلك خلال عكوفها على العمل.

ـ أتظنّين أنّنا مازلنا في زمن الحرب!

قالها هوندا مداعباً، وكنتيجة لهذا فقد أصبحت أشدّ عناداً في إكمال ما شرعت بإنجازه.

لم يكن ما يعنيها هو تسرّب الضّوء من الدّاخل، وإنّما تسلّل ضياء القمر.

قرأت رابي، خلسة، مذكّرات زوجها، خلال غيابه عن الدّار، واغتاظت عندما لم تستطع العثور فيها على ذكر لينج تشان. وكان هوندا قد درج، من باب الحرص، على عادة الامتناع عن كتابة أي شيء عاطفي في مذكّراته.

وعثرت بين وثائق زوجها على سجلّ بالغ القدم بعنوان «يوميّات الأحلام»، وكان اسم كيواكي ماتسوجاي مكتوباً فيه. وكان الاسم مألوفاً بالنّسبة لها؛ فقد ذكره هوندا كثيراً. ولكنّه لم يتحدّث قطّ عن هذه اليوميّات، وكانت تلك بالطّبع المرّة الأولى الّتي يقع فيها نظرها عليها.

وتصفّحتها فأدهشتها الصّور الخياليّة المجرّدة الواردة فيها، فأعادتها في حرص إلى موضعها؛ ذلك أنّها لم تكن في معرض السّعي وراء صورة خياليّة. فقد كانت الحقيقة هي الشيء الوحيد الّذي تؤمن بأنّه يمكن أن يشفيها ممّا بها.

عندما يحدث، لدى إغلاق جارور، أن يعلق ردن كيمونو، فإنّ درزات الرّدن والجزء العلوي لابدّ أن يتمزّق لدى ابتعاد المرء. ومع

تكرار تجارب مماثلة فإن أردان فؤاد رابي تمزّقت إرباً. لقد أسرها شيء ما، ولكن فؤادها كان فارغاً وفاتراً.

تواصل انهمار المطر ليلاً ونهاراً. وكان بمقدورها أن ترى من النّافذة نباتات الكوبية المبلّلة، ولاحت كرات زهور بنفسجيّة فاتحة طافية في النّهار الكابي، فيما كانت روحها تنطلق شاردة في البعيد.

لم يكن ثمّة شيء أدعى للمعاناة من فكرة وجود الأميرة «سنى البدر» على قيد الوجود في هذه الدّنيا. وقد تبدّدت الدّنيا بسبب الأميرة.

عاشت رابي، طوال عمرها، دون أن تعرف، ولو لمرّة واحدة، الرّعب الّذي تثيره الانفعالات. وهكذا فقد أدهشها اندلاع المشاعر العارمة، النّابعة من العزلة، في أعماقها. فقد وَلَدَت المرأة العقيم، ولكن ما وَلَدَته كان مسخاً مروعاً.

وعلى هذا النّحو تعلّمت رابي أنّ لها بدورها خيالاً، وأنّ ما لم يستخدم قطّ، أنّ ما تعرّض للصدأ في ركن من أركان حياتها الطّويلة الهادئة، قد انتزع من الأرض بحكم الضّرورة، وتمّ تلميعه وشحذه. وعلى أيّة حال فإنّ ما يولد بحكم الضّرورة تصاحبه المرارة. ونزعتها الطبيعيّة نحو انطلاقات الخيال لم تكن مقترنة بالعذوبة.

ربّما قُدّر للخيال القائم على أساس من الواقع أن يفتّح الذهن، ويحرّره، ولكن الخيال الّذي حاول أن يقترب من الحقيقة، كأقصى ما يكون الاقتراب، ما كان يمكن إلّا أن يحطّ من قدره، وأن يجعل معينه ينضب. وفضلاً عن ذلك فإنّه إذا لم يكن لهذه الحقيقة وجود بالفعل، فإنّ كلّ شيء يستحيل في التوّ إلى عبث وجهد لا طائل تحته.

ولكن تخيُّل جريمة فيها بعض الحقيقـة لا يلحق ضرراً بأحـد. وقد كـان خيال رابي سيفـاً ذا حـدّين. فقـد آمنت بـأنّ هنـاك حقيقـة في مـوضع مـا، ورغبت في ألاَّ يكون لهـذه الحقيقة وجـود. وهكذا فـإنّ خيالها الغيور وقع في مصيدة إنكاره لذاته، ومع ذلك لم يستـطع تحمّل وجوده هو نفسه. وكما أنّ الحمـوضة الـزّائدة في المعـدة تعمل تـدريجيّاً على تآكل جدرانها، فكـذلك خيـالها جعـل جذر قـدرته على التخيّل يتآكل، ودفعتها في الوقت نفسه رغبة في أن يتمّ إنقاذها، رغبـة كانت بمثابة صرخة بطلب النّجـدة. الحقيقة؟ لـو كانت هنـاك حقيقة لنجت رابي! وقد بدأت، على نحو حتمي، الرّغبة الّتي ظهرت في نهاية مثل هذا البحث الاستحواذي الأحادي الجانب تشبه حافزاً لمعاقبة الذّاتِ، لأنّ تلك الحقيقة ـ إن كانت موجودة حقّاً ـ من شأنها أن تسحقها.

ولكن العقـاب الّذي تمّ السّعي إليـه والوقـوع تحت طائلتـه، على نحو طبيعي، يعكس معنى من معاني غياب الإنصاف. لماذا ينبغي أن يُعاقَب وكيل بدلاً من أصيل؟ من شأن ذلك أن يكـون قلباً لـلأمور. وإذ حدث في نهاية المطاف ما تاقت إليه، فإنّه بـدلاً من بهجة التحقّق سينـدلع السّخط والغضب. وحتّى الآن فـإنّ بمقـدورهـا أن تستشعـر وقدة الخطر الدّاهم. لا ينبغي لها أن تسمح بحلول مثل هذا الظّلم، لا ينبغي أن تعـرّض نفسها لمثـل هذا الألم الفـريد الّـذي لا سبيل إلى مقارنته بغـيره، ذلك أنّ في معـاناة الشـكّ ما يكفي، فلماذا ينبغي أن تراكم عليه ألم إدراك الأمر؟

إنّها الرّغبة في البحث عن الحقيقـة، وإنكارهـا رغم ذلك، الـرّغبة في إنكار الحقيقة والسّعي مـع ذلك نحـو الخلاص وحـده فيها. وقـد مضى هذا الانفعال مدوِّماً للأبد في دوائر، تماماً كالـرّاحل الضـالّ على جبل وهو يمضي إلى النقطة الّتي بدأ منها.

كان الأمر يشبه الانغماس في الضّباب، حيث تبدو التّفاصيل في منطقة واحدة جليّة على نحو رهيب. والمرء يتّبع شعاعاً من نور لا لشيء إلّا ليكتشف أنّ القمر ليس هناك، بل هو بالأحرى وراء ظهره، وأنّ ما يراه أمامه ليس إلّا انعكاساً.

غير أنّ رايي لم تفقد تماماً كلّ مشاعر تمحيص الذّات. فقد كانت تشعر، في بعض الأحيان، بالاشمئزاز من نفسها، وبالرّغبة في أن تخفي وجهها خجلاً وشعوراً بالعار. وقد أحسّت بأنّها لا يد لها في تحوّلها إلى مخلوق قبيح لا يمكن أن يكون موضعاً للحبّ، بسبب زوجها. وساورها شعور بأنّ زوجها قد حوّلها إلى شيء مُحْتَقَرَ لأنّه ليست لديه رغبة في حبّها. وعندما وصلت إلى إدراك ذلك تفجّرت الكراهيّة في صدرها تفجُّرَ النّبع الدّافق.

ولكنّها مالت في حالتها تلك إلى تجنّب حقيقة الأمر القائلة بأنّه حتّى إذا لم تكن الغيرة قد حوّلتها إلى مخلوق مثير للاشمئزاز، على هذا النّحو، فإنّ هناك أسباباً أخرى حوّلتها إلى ما هي عليه الآن، وأنّها حتّى لو ظلّت دونما تغيّر لما بقيت موضعاً للحبّ. وزوجها هو بحكم الظّروف رجل يتعيّن ازدراؤه. ولكنّه، نظراً إلى احتياجه إلى الابتعاد عن مفاتنها، ما كان يمكنه تجنّب تحويلها إلى مخلوق لا سبيل إلى حبّه.

اعتادت على التّحديق لفترات طويلة في مرآتها. وقد أكّدت لها خصلات من الشّعر الأشعث افتقار وجنتيها للوسامة. وكان كلّ ما يحيط بها مصطنعاً، بما في ذلك تورّم وجهها.

درجت منذ إدراكها هذا التورّم، قبل سنوات، على التجمّل المكثّف، فقد كانت تكره النّحو الّذي تبدو به عيناها مختلفتي اللّون عن باقي وجهها، فلجأت إلى استخدام قلم أسود قاتم للحاجبين

وذرور ثقيل. وعندما كانا أصغر سنّاً اعتاد هوندا مداعبتها بمناداتها بـ «وجه القمر». وقد ضايقها أن توجّه لها ملاحظة بشأن علّتها، ولكن في اللّيلة الّتي ناداها فيها بـ «وجه القمر» كانت عاطفته أشدّ حرارة على نحو خاصّ، وظنّت أنّ علّتها ربّما ضاعفت من تأجّج شعوره نحوها، وبدأت تفخر بوجهها. ولكن لدى تأمّل الأمر بدت الرّغبة الجنسيّة الّتي استمدّت وحيها من مرض الاستسقاء الّذي تعانيه، متضمّنة قسوة مراوغة. والحقّ أنّ مضاجعته إيّاها في تلك اللّيالي كانت مشبوبة، ولكن في ضوء تذكيره إيّاها بأنّ عليها أن تظلّ سلبيّة بشكل مطلق، فإنّه ربّما كان يطلق العنان لوهم قوامه أنّه يضاجع جثّة امرأة متورّمة الوجه، مضت عدّة أيّام على موتها.

كان ما انعكس في صقال المرآة حطاماً حيّاً. وتحت شعرها الّذي فقد حيويته، بدت أوتار خبيثة على ملامحها الدّائريّة وكأنّها أضلع مروحة مستديرة. لقد تحوّل وجهها تدريجيّاً إلى وجه لا ينتمي بحال إلى امرأة، ولم يعد للاستدارة الأنثويّة من وجود إلّا في التورّم. وحتّى هذا التورّم بدا استدارة باردة، ناصلة، مرهفة، لقمر في ضوء النّهار.

من شأن وضع مواد التّجميل الآن أن يعطي إشارة على الهزيمة فحسب. ولكن كونها قبيحة أيضاً هزيمة. وقد فقدت كلّ رغبة في إصلاح عيوب وجهها، على نحو ما يتبدّى حاليّاً لها، وهكذا بقي الانبعاج انبعاجاً، والقبح قبحاً، واستمرّ كلّ شيء في هدوء شأن ارتفاع التّلال الرمليّة وسقوطها. وحدّثت نفسها بأنّه ربّما لم يكن الخطأ خطأ زوجها فحسب، فيما يتعلّق بعجزها عن انتزاع نفسها بعيداً عن الغيرة، وإنّما الأمر راجع إلى ضجر هائل احتواها كغطاء فراش ثقيل. وأحسّت بأنّها ستحتاج إلى قدر مخيف من القوّة لإبعاده، وبتراخٍ لم

تفعـل شيئاً في هـذا الصّدد. ولكن إذا كـانت كسـولاً إلى هـذا الحـدّ فلماذا لم تستطع حتّى مجرّد العثور على سلام مؤقّت؟

تذكّرت فجأة الجمال الشّتائي لجبل فوجي الّذي كان بمقدورهـا أن تراه من طابق الدّار الثاني بعد وقت قصير من زواجها. وكانت حماتها قـد طلبت منهـا إنـزال أدوات المائـدة المخصّصـة لاحتفـالات العـام الجديد، ومضت طائعة إلى الغرفة المتّخذة مستودعاً لمثل هـذه الأشياء في الـطّابق الثاني. ولقـد رأت فوجي من هنـاك. وكانت قـد ربـطت خيـطاً أحمر عـبر كمي ردنيها لإبقـائهما إلى أسفـل على نحـو ما تفعـل العرائس الحديثات العهد بالحياة الزوجيّة.

لاحظت أنّ السّماء قـد انقشعت، وأنّ نور المسـاء بدا واهنـاً. وإذ حدّثت نفسها بأنّ التطلّع إلى جبـل فوجي قـد يهدّئ من روعهـا فقد صعدت إلى غرفـة المستودع في الـطّابق الثاني للمـرّة الأولى منذ سنـين عـديدة. واعتلت أغـطية أسرّة الضّيـوف المكـوّمـة، وفتحت النّـافـذة بـزجاجهـا المضبّب. وكانت سـماء ما بعـد الحرب، عـلى عكس سماء الأيّام السّابقة، مضيئة، ولكن غيماً يشبه غـراء السّمك ضرب أطنـابه في كلّ مكان، ولم يتراءَ فوجي للعيان.

- ٣٩ -

استيقظ هوندا، شاعراً بالحاجة إلى التبوّل. يا للأطراف الممزَّقة للأحلام الّتي لم تكتمل!

كان قد شعر بالرّغبة في التريّض في حيّ سكنيّ من أحياء طوكيو، بصفوف حدائقه المحاطة بالأسوار. وبدت الدّور صغيرة، وأمامها وضعت البونسيه على رفوف في الأفنية. ولاحت الحدائق رطبة حافلة بالحلازين الحتميّة الوجود. وقد جلس طفلان أحدهما قبالة الآخر، على حافّة شرفة، يرتشفان الماء المحلّى الدّافئ، ويتذوّقان الرقائق الهشّة ذات الأركان المتكسِّرة. لقد كان الحيّ واحداً من أحياء طوكيو الّتي اختفت منها مثل هذه المشاهد كلّية الآن. ووصل إلى زقاق موصد النّهاية تحيط به الأسوار. وفي النّهاية البعيدة لاح بويب من خشب متهالك.

عندما فتح البويب ودخل، ألفى نفسه أمام الحديقة الأماميّة المتألّقة لفندق عتيق الطّراز، وكان ثمّة حفل مقام بالحديقة يمضي قدماً. وتقدّم المدير ذو الشّارب الشبيه بشارب رونالد كولمان، وانحنى في إجلال.

عندئذٍ، على وجه الدّقّة، صدر صوت أبواق متألّق وخافت متناهياً من خيمة مائدة الطّعام، وانشقّت الأرض فجأة وظهرت الأميرة «سنى البدر» في ثوب ذهبيّ، على الجناحين الذّهبيين لطاووس. وصفّق الجمع فيما كان الطّاووس يحلّق فوق الرّؤوس محدثاً بجناحيه صوتاً يشبه قرع الجرس.

كشفت فخذا الأميرة «سنى البدر» السمراوان المتألّقتان المنفـرجتان، عند اتّصالهـما بالـطّاووس الذّهبي، عن مكنـوناتهـا الخفيّة، وفي وقت قصير اندفق منها إلى أسفل فيض من البول المعطّر فانسفح عـلى وجوه النظارة المتطلّعين إلى أعلى.

تساءل هوندا: لماذا لم تمضِ إلى المرحاض؟ لابدّ أن يوبّخهـا، على مثل هذه الأخلاق غير الحميدة. ودخل الفندق بحثاً عن حمّام.

في الدّاخل، غمر السّكون التامّ المبنى، مفارقاً الضّجيج المدوّي في الخارج. كان كلّ باب من أبواب الغرف مواربًا قليلاً، ففتح هوندا كلًّا منها، ورأى أنّ كلّ غرفة خالية، باستثناء وجود تابوت على الفراش.

وحدَّثه صوت بأنّ ذلك هو الحمّام الّذي يبحث عنه.

وإذ عجـز عن المزيـد من الاحتمال فقـد ولـج غـرفـة من الغـرف وحاول التبوّل في التّابوت، ولكنّه لم يستطع، خـوفاً من ارتكـاب هذا التدنيس للحرمات.

وعند ذلك استيقظ.

كانت مثل هذه الأحلام مؤشّرات مثيرة للشفقة عـلى الشيخوخـة، عندما يتواتر الدّافع إلى التبوّل على فترات أقصر فأقصر. وبعد عودتـه من المـرحاض، في كـامل اليقـظة ووضوح الـذّهن، انشغـل بـإعـادة الإمسـاك بخيوط الحلم المقـطوعة، فقـد كان يعلم أنّ ثمّـة سعادة لا موضع لإنكارها تكمن في القيام بذلك.

تمنّى لـو يعيد الإمسـاك بهذا الشّعـور بـالنّشـوة المتـألّقـة، بجعلهـا تتـواصل، ففي غمـرتها بهجـة نقيّة إلى الحـدود القصوى وعـلى نحـو متألّقٍ، تنطلق دونما تحفّظ. وكانت النشوة حقيقيّة. ولو كان باستطاعة هوندا، حتّى في غمرة حلم، ألَّا يظنّ أنّ نشـوة الإمساك بشريحـة غير

قابلة للتكرار من الزّمن في حياته هي نشوة حقيقيّة فماذا عسى الواقع أن يكون غير ذلك؟ وعندما تطلّع إلى السّماء لمح الشكل المتحوّل لملك حكمة الطّاووس بارزاً في تناسق تامّ من الانجذاب والتعاطف محلّقاً وقد امتطى الطّاووس. وكانت ينج تشان المرأة المقدّرة له.

في صباح اليوم التّالي كان الشّعور بالسّعادة مستمرّاً على نحو مميّز وحتّى بعد استيقاظه، وألفى نفسه في أفضل حالاته المعنويّة.

كان الحلم الّذي تراءى له في غفوته الثانية، بالطّبع، بالغ الغموض والبعد عن التميّز، بحيث لم يكن بمقدوره تذكّره. فلم يستطيع أن يتذكّر إلّا أنّه لم يضمّ شيئاً من سعادة الحلم الأوّل. ولكنّ الضّوء المتألّق في هذا الأخير اخترق تراكم الثاني الّذي كان يشبه ثلجاً كدّسته الرّيح، والّذي بقي في ذاكرته حتّى الصّباح.

مضى يفكّر من جديد طوال اليوم في ينج تشان، مستخدماً غيابها حجّة لذلك، ودهش عندما أدرك أنّ شيئاً يشبه عاطفة الحبّ الأوّل، في صدر الشّباب الّذي لم يعرفه قطّ، قد تدفّق في عروق جسمه، الّذي شهد سبعة وخمسين ربيعاً.

ولدى تفكيره في الأمر، لم يبد له السّقوط في الحبّ شيئاً غريباً فحسب، بل بدا مضحكاً أيضاً. فقد كان يعرف تمام المعرفة من خلال رصد كيواكي ماتسوجاي عن كثب أيّ نوع من الرّجال ينبغي أن يسقط في الغرام.

السّقوط في الحبّ امتياز خاصّ يمنح لشخص يسمح له مظهره الخارجي، وفتنته الحسيّة، وجهله الدّاخلي، وافتقاره للتنظيم، وغياب إدراكه، بتشكيل نوع من الصّورة الخياليّة عن الآخرين. وكان امتيازاً

فظّاً. وكان هوندا يدرك حقّ الإدراك أنّه منذ طفولته كان نقيض مثل هذا الرّجل.

عديدة هي المرّات الّتي لاحظ فيها تضارب مصائر البشر، الّذي يسمح لفرد بأن يساهم في صنع التّاريخ، من جرّاء جهله، بينما لا يحظى آخر بذلك بسبب تلهّفه عليه. وهكذا آمن بأنّ أعظم سبب لعدم حصول المرء على ما يرغب فيه يكمن في رغبته في ذلك الحصول. ولأنّ هوندا لم يرغب قطّ في المال فقد تدفّقت الملايين عليه.

على ذلك النّحو مضى يفكّر. ولم يكن عجزه عن الحصول على أيّ شيء ناتجاً عن أيّ قصور أو عيب فطري كامن فيه، أو سوء طالع ملاصق له. وإنّما كان من عادته أن يصوغ كلّ شيء في صورة قوانين، وأن يفكّر على نحو شمولي. ولذا لم يكن عجيباً أن ينطلق ليطوّق هذا الأمر. وكان من عادته القيام بكلّ شيء بنفسه، وهكذا كان باستطاعته بسهولة أن يؤدّي دور المشرع ومنتهك القانون معاً. وبتعبير آخر فقد قصر ما يريده على ما لا يمكنه قطّ الوصول إليه. ولو أنّه حصل صدفة على مناط رغبته فإنّه يغدو بلا قيمة دونما استثناء. وهكذا فقد كافح ليعزو كلّ أنواع المستحيلات إلى موضوع رغبته هذا، لإبعاده عن مطاله بأقصى ما يستطيع، أيّ أنّه حمل في قرارة فؤاده فتوراً عاطفيّاً.

وفي حالة ينج تشان تحقّق انغماس هذه الوردة التايلانديّة، الكثيفة البتلات، في الغموض على نحو كامل تقريباً، بعد حادثة تلك اللّيلة في جوتمبا، وتمثّل في رفعها إلى مكانة لا سبيل للوصول إليها، إلى موضع لا يستطيع إدراكه التّناهي إليه (كان طول ذراعه، في المقام

الأوّل، هو المدى الّذي يمكن لإدراكه أن يحلّق إليه). واللذّة الّتي يحصل عليها المرء من الرؤية تفترض مسبّقاً بالضّرورة مجالاً لا سبيل إلى رؤيته. وقد شعر هوندا بأنّه رأى نهايات العالم، خلال تجربته في الهند، وأراد أن يعرف الشّعور الّذي يخالج حيواناً متراخياً يلعق فَرْوَه الّذي لطّخه الراتنج، ويسترخي في فيض من سنى الشّمس، باعثاً طريدته إلى مكانٍ لا تستطيع أن تبلغه قطّ مخالب الإدراك. ترى أكان يحاول تقليد الإلّه في محاولته تقليدَ مثل هذا الوحش؟

كان أمراً لا يطاق، بالنّسبة لهوندا، أن تتطابق رغباته الحسيّة على نحو كامل مع رغبته في الإدراك. وكان يعرف حقّ المعرفة أن الحبّ لن يولد في أعماقه أبداً ما لم يستطع فصل هذين الأمرين، فكيف يمكن أن تبرعم وردة بين جذعين عملاقين ملتفّين وقبيحين؟ لا ينبغي أن يتفتّح الحبّ كزهرة أرجوانية متطفّلة على أيّ من هذين الجذعين بجذورهما المتهدّلة الّتي لا تعرف الخجل، ولا من رغبته ـ المجرّدة من الطّعم أو النّكهة ـ في الإدراك، ولا من شهوته الزّنخة الّتي تعكس سبعة وخمسين عاماً. كان من الضّروري أن تبقى ينج تشان بعيداً عن متناول رغبته في الإدراك، أن يتعامل فقط مع استحالة رغبته.

كان الغياب هو الأفضل لهذا. وكان كذلك حقّاً. لقد كان المادّة الوحيدة النقيّة والكاملة لحبّه. ودون هذا الغياب فإنّ وحش الإدراك اللّيلي سيشرع توّاً في التفجّر غضباً، وسرعان ما يمزّق كلّ شيء إرباً بمخالبه الحادّة، مُعْمِلاً أنيابه في المجهول، محوِّلاً كلّ شيء إلى جثث مألوفة، داخلاً مشرحة الإدراك ـ إنّ هذا المرض المضجّر على نحو مخيف كان قد تمَّ شفاؤه ذات مرّة على يد الهند. ألم يحدث ذلك؟ تمثّل ما علّمته إيّاه الهند وبنارس من أنّه ينبغي هرباً من الإدراك المطلق، أن

تُودَع ينج تشان، شأن وردة وحيدة باقية، بعيداً في مؤخّرة رفّ مكتبة أبنوسي مُتْرِب، وأن يكون بمقدوره التّظاهر بأنّه يعرفها بالفعل، حتّى تهرب من عيني إدراكه. وقد حقّق هوندا ذلك، فأودعها رفّ المكتبة بنفسه، وبمحض إرادته لم يرفع عنها المغاليق.

منذ زمان بعيد اقترف كيواكي ما لا يليق، بعد أن فُتِن بالمستحيل على نحو تامّ في استحالته. ولكن هوندا خلق المستحيل حتّى لا يقترف انتهاكاً بحقّه. ذلك أنّه لن يكون بمقدور الجمال في اللّحظة الّتي يحاول فيها اقتراف الانتهاك، مواصلة الوجود في هذا العالم.

تذكّر نضارة ذلك الصّباح الّذي اختفت فيه ينج تشان. لقد كان جانب من نفسه يدفعه الخوف قُدُماً، غير أنّ جانباً آخر استمتع بالموقف. وحتّى بعد أن اكتشف أنّها لم تكن في غرفتها، فإنّه لم يحسّ بالذّعر، ولم يقم باستدعاء كاتسومي في الحال، بل غرق في تنسّم العَرْف الكليّ الوجود الّذي خلّفته وراءها.

كان صباحاً جميلاً، مشرقاً، وقد لاح غطاء الفراش مجعّداً فرصد في الثنايا الدّقيقة بالملاءة دليلاً على الموضع الّذي تقلّب فيه الجسم المحموم وتلوّى، في غمرة ضيقها. والتقط خصلة متجعّدة من الشّعر اختفت تحت طيّات الغطاء الّذي أشبه ملاذاً عانى فيه حيوان صغير، جميل، وتطلّع ليرى ما إذا كانت هناك آثار من رضاب ينج تشان الشفّاف، في التّجويف الّذي أحدثه رأسها بالوسادة الّتي احتفظت بهذا الانبعاج البريء.

وعند ذاك فحسب هبط لإبلاغ كاتسومي بالأمر.

شحب وجه كاتسومي، إلى حدّ البياض. ولم يواجه هوندا صعوبة في إخفاء أنّه لم يفاجأ بالأمر على الإطلاق.

وقرّرا الاشتراك في البحث عنها.

سيكون من قبيل مجافاة الحقيقة، بالنّسبة لهوندا، أن ينكر أنّه قد راودته وقتذاك خاطرة موت ينج تشان. ولم يكن يؤمن بأنّها ماتت، ولكن، في هذا الانقطاع المشمس في الموسم المطير، تهادى الموت حتّى مع عبق قهوة الصّباح الّذي ذهب هدراً. وقد أطبق على الصّباح شيء مأساوي كأنّه إطار فضّي بديع. وكان برهاناً على جمال تراءى لهوندا في أحلامه.

وعلى الرّغم من أنّه لم تكن لديه على الإطلاق نيّة في القيام بشيء من هذا القبيل، فقد أشار لكاتسومي بأنّه ربّما كان من المتعيّن عليهما أن يخطرا الشّرطة. واستمتع بالتّعبير المفعم بالانزعاج الّذي ارتسم على محيّا كاتسومي نتيجة لهذه الإشارة.

تخيّل هوندا بانفعال جثّة ينج تشان طافية في المسبح الّذي عكس زرقة السّماء. ومضى إلى الشرفة، وتطلّع إلى البريكات الّتي خلّفها المطر في موقع الحفر، وأحسّ بأنّ الزجاج الّذي يفصل الواقع عن المتخيَّل قد تشظّى تماماً في تلك اللّحظة، وبأنّه في إمكانه أن يدلف بيسر على هذا النّحو إلى عالم المجهول. ولقد كان يمكن أن تكون الدّنيا أيّ شيء في ذلك الصّباح، فكلّ شيء محتمل الوقوع: الموت، القتل، الانتحار، بل وحتّى الدّمار الشّامل، وسط هذه البانوراما النّافرة المشرقة.

وفيما كان وكاتسومي ينحدران، عبر الطّريق الضيّق الّذي يخترق المرجة المبلّلة، أخذ يستمتع، محلّقاً على جناحي الخيال، بنذير يوحي بانهيار مكانته الاجتماعيّة الّتي كانت ذات يوم شيئاً يعتدّ به، وذلك وسط مشادّة هائلة، إذا ما قُدِّر لفضيحة انتحار أن تظهر في

الصّحف. ولكن تلك كانت مبالغة تدعو للسخرية. فالحادثة وقعت بين كاتسومي وينج تشان وحدهما، ولم يدر أحد في الدّنيا بشيء عن ثقب هوندا المخصّص للتلصّص.

وللمرّة الأولى منذ أيّام عديدة، كان بمقدور المرء أن يرى فوجي فيما وراء الحديقة. كان جبلاً حلّ عليه الصيف بالفعل، وبدت جوانبه مشرعة عالياً، على نحو غير متوقّع، وتوهّج لون الأرض في شمس الصّباح كقرميد غمره المطر.

ألقيا نظرة على الغدير، وبحثا في غابات الصنوبر.

وعندما غادرا الأراضي المحيطة بدارة هوندا اقترح الأخير أن يمضي كاتسومي إلى دار كيكو حيث قد يعثر على ينج تشان، ولكنّه رفض في عناد القيام بهذا، عارضاً بدلاً منه أن يمضي بالسيّارة ليبحث على امتداد الطريق، فقد كان يخشى مواجهة عمّته.

شعر هوندا نفسه بالتردّد فيما يتعلّق بزيارة كيكو في مثل هذه السّاعة المبكرة، ولكنّ الزيارة كانت أمراً لا سبيل إلى تجنّبه في هذه الحالة. وضغط على الجرس فظهرت كيكو على نحو مفاجئ، وقد استكملت زينتها وارتدت ثوباً بلون الزمرّد وسترة.

قالت، على نحو عادي تماماً:

ـ صباح الخير. أتبحث عن ينج تشان؟ لقد جاءت إلى هنا والظّلام مايزال يخيّم على الكون. وهي نائمة الآن في فراش جاك. ولم يكن جاك هنا لحسن الحظّ. ويا له من مشهد ذاك الّذي كان يمكن أن يحدث لو أنّه كان هنا! وبما أنّها بدت منزعجة فقد قدّمت لها بعضاً من شراب الشرتروز، وتركتها تأوي إلى الفراش. وبعد ذلك جافاني

النّوم فلم أعد للفراش. يا لك من رجل فظيع! لكنّي لم أطرح أسئلة عمّا حدث. أتودّ رؤية محياها الجميل وهي غافية؟

كبح هوندا، وهو مايزال يتمسّك بأهداب الصّبر، جماح رغبته في رؤية ينج تشان. فهي لم تتّصل به، ولا اتّصلت كيكو.

أخذ ينتظر أن يتملّك الجنون ناصيته.

وتهدّد قلق جائح عقله، وكما قفز الثّعلب العجوز في مسرحيّة «صيد الثّعلب» السّاخرة على طريدته رغم إدراكه التامّ خطرَ الوقوع في فخّ، أخذ هوندا ينتظر اللّحظة الّتي سيُدفع فيها إلى التدمير الأعمى للذّات، بالرّغم من خبرته ومعرفته وحذقه ومهارته وعقله وموضوعيّته ـ أو بالأحرى كان في انتظار اللّحظة الّتي يؤدّي فيها تراكم هذا كلّه إلى الاندفاع للقضاء على الذّات.

وكما يتعينّ على فتى في مقتبل العمر أن ينتظر النّضج، فقد كان على رجل في السّابعة والخمسين أن ينتظر نضجه، وكان ذلك النّضج باتّجاه الكارثة.

عندما تفقد كلّ الأشجار في أجمات تشرين الثاني (نوفمبر) الذّاوية أوراقها، وتصفرّ الوريقات المتساقطة على الأرض، وعندما يبدو المكان في صفاء شمس الشّتاء أشهب وجافّاً، كالأرض النقيّة، تظلّ بقعة قرمزيّة، واحدة، وسط الكرمات الميّتة، مثل جحر حيّة. ويظلّ ينتظر مثلها نضجه ليصل إلى مرحلة الكارثة.

جعل عمر هوندا من الصّعب عليه أن يعرف ما إذا كان ما يسعى إليه هو افتقار للفطنة يشبه اللّهب، أم أنّه الموت. وفي موضع لم يعرفه على وجه التّحديد، كان ثمّة شيء يُعَدّ على مهل. والآن بدا أنّ الشيء الوحيد اليقيني في المستقبل هو الموت.

غلب شعور حادّ بالوحدة عليه عندما سمع، في مكتبه ببناية مارونوتشي، محامياً شابّاً يتلقّى اتّصالاً هاتفيّاً خاصّاً، محاولاً التستّر حتّى لا يلحظ رؤساؤه ذلك. وكان من الجليّ أنّ الاتّصال من امرأة، وأخذ الشّاب، في ضوء خشيته ممّن حوله، يفتعل التردّد، ولكن كان بمقدور هوندا أن يسمع على وجه التقريب في البعيد صوت الفتاة الرّائق الجذّاب.

ربّما كان الاثنان يتشاركان لغة سرّيّة، ويتواصلان باستخدام تعبيرات مشتقّة من أساليب رجال الأعمال. وأعدَّ هوندا في ذهنه فجأة خطّة للتخلّص من الشّاب الّذي كان شعره الجيّد التصفيف وعيناه الرومانسيتان وشفتاه المفعمتان بالكبرياء أموراً لا تناسب جميعها مكتباً للمحاماة.

إنّ الوقت المناسب للاتّصال بكيكو الّتي تُمضي أيّامها في الذّهاب لموائد الغداء وحفلات الكوكتيل ومآدب العشاء الرسميّة، هو الآن، أي الحادية عشرة من قبل الظّهر. وبعد استراقه السّمع لحديث المحامي الشّاب، كره هوندا إجراء اتّصال هاتفي بها بصوته العالي، من المكتب الصّغير فمضى إلى الخارج قائلاً إنّه ماضٍ للتسوّق.

كان ممرّ التسوّق المقنطر، في مبنى مارونوتشي، من الأماكن القليلة الّتي بقيت فيها أجواء طوكيو ما قبل الحرب. وقد استمتع هوندا بالتسوّق، عبر واجهات المحلّات الّتي تبيع السّلع المخصّصة للرّجال، وباختيار أوراق لممارسة فنّ الخطّ. ومضى سادة مهذّبون، يبدو بوضوح أنّهم ينتمون إلى أنماط ما قبل الحرب، يسعون وراء صفقات معقولة، لا تثقل على جيوبهم، وأخذوا يسيرون في حذر تجنّباً للانزلاق على

الأرضيّة الفسيفسائيّة الّتي كانت زلقة بشكل خاصّ، عقب هطول المطر.

اتّصل هوندا بكيكو من كشك للهاتف.

لم تردّ كعادتها في الحال، ولكنّه كان على يقين من أنّها في الدّار، وقد تصوّر عجيزتها المكتنزة، الرّائعة. لابدَّ أنّها في قميصها التّحتي تستكمل زينتها، بعد أن اختارت الزيّ الّذي سترتديه في مأدبة الغداء، وقد نسيت أمر الهاتف.

قالت بصوتها العذب، المتراخي:

ـ آسفة لجعلك تنتظر، فقد غاب عنّي أن أتصل بك. أكنت في خير حال؟

ـ في خير حال. أشكرك. أتساءل عمّا إذا كان بمقدورنا تناول طعام الغداء معاً، في وقت قريب.

ـ آه. ما ألطف هذا! ولكنّك ترغب في رؤية ينج تشان، لا في رؤيتي.

حار هوندا على الفور فيما عساه يقول، وقرّر انتظار مجيء المبادرة من كيكو، واكتفى بالقول:

ـ آسف لإزعاجك. وبالمناسبة، فهي لم تتّصل بي قطّ بعد تلك اللّيلة. هل رأيتها؟

ـ لا، لم أرها منذ ذلك الحين. أتساءل عمّا يشغلها. أليست تخوض غمار امتحانات أو شيء من هذا القبيل؟

ـ لا أحسب أنّها تدرس الكثير.

دهش هوندا لقدرته على مواصلة الحديث بمثل هذا الهدوء.

ـ ولكنّك تريد أن تراها، على أيّة حال.

كان هذا هو ما شرعت كيكو في قوله، ثمّ فكّرت لحظة. ولم تكن فترة الصّمت ثقيلة الوقع، ولا موحية بالأهمّيّة. وربّما كان الذّرور يتطاير عبر أشعّة شمس الضّحى المنهلّة من نوافذ المخدع. وكان هوندا يعرف أنّها ليست من ذلك النّوع من النّساء الّذي يفتعل الغموض، ولذا مضى ينتظر تاركاً كلّ شيء لها.

قالت:

ـ أحسب أنّني سأضع شرطاً واحداً.

ـ ما هو؟

ـ لقد هربت ينج تشان إلى بيتي، وهي تثق بي تمام الثّقة؛ ولذا فإنّه إذا قلت لها إنّي سأكون حاضرة بدوري فإنّها لن ترفض على الفور دعوتك. أهذا يناسبك؟

ـ ما الّذي تعنينه بقولك أهذا يناسبك؟ لقد كنت بسبيلي إلى أن أطلب منك القيام بذلك، على وجه الدّقّة.

ـ إنّني أريد تركك تراها وحدك، ولكن لبعض الوقت... أين أتصل بك لأبلغك بالردّ.

ـ في مكتبي؛ فقد قرّرت الذّهاب إلى هناك صباح كلّ يوم من الآن فصاعداً.

هكذا ردّ هوندا، وأعاد سمّاعة الهاتف إلى موضعها.

منذ تلك اللّحظة تحوّل العالم عمّا كان عليه. كيف يمكنه احتمال انتظار السّاعة التالية، اليوم التالي؟ راهن نفسه رهاناً صغيراً: إنْ وضعت ينج تشان الخاتم الزمرّدي في يدها لدى مقابلتها إيّاه فمعنى ذلك أنّها قد سامحته، وإن لم تضعه يكن العكس.

- ٤٠ -

كانت دار كيكو تقع في القسم الأكثر ارتفاعاً من أزابـو، موغلة في الحيّ مع وجود ممشى يفضي إلى مدخله، وكان ثمّة واجهة شبه دائريّـة على طراز ريجنسي، بناها والد كيكو تخليداً لذكرى شبابه في برايتـون. وذات أصيل دافئ في أواخر حزيران (يونيو)، قبل هوندا دعوة لتنـاول الشّاي، ودخل الدّار بشعور العائد إلى يابان ما قبل الحرب.

في أعقـاب إعصار ورعـد ومطر، بـدت فجأة في ضيـاء الشّمس، وهـو أمر غـير مألـوف في موسم المـطر، الغابـات الهادئـة في الأراضي الواقعة أمام الدّار وكأنّها تختزن ذكريات عهد بأكمله. وقد أصبح هذا النّوع من الدّور، وهو الآن الوحيـد من نوعـه تقـريبـاً الّذي مـايزال باقياً وسط الأنقـاض المحترقـة، أكثر تميّـزاً وانغماسـاً في الخطيئـة وأشدّ كآبة بفعل عزلته. كان الأمر كما لو أنّ الذّكريات الّتي خلّفتهـا الأزمنة وراءها قد زاد من تأثيرها، فجأة، كرّ الأعوام.

كـانت قد وصلتـه دعوة رسميّـة مفادهـا أنّ دار كيكو قـد أعادتهـا قوّات الاحتلال الأميركيّة، وأنّها ترغب في إقامـة حفل لتقـديم الشّاي احتفـالاً بهذه المنـاسبة، ولم تشر إلى مـوضوع ينـج تشان. وقـد أقبـل هوندا حاملاً باقة من الزّهور. وكانت كيكو تقيم طـوال مدّة مصـادرة الدّار، مع أمّها في مسكن منفصل، كان من قبل سكناً لوكيـل الدّار، ولم تدعُ قطّ ضيوفاً لزيارتها في طوكيو خلال ذلك الوقت.

استقبله عنـد الباب خـادم يضع يـديه في قفـازين أبيضين، وكـان المـدخل الـدّائري مقبّبـاً مرتفـع السّقف، وقـد رسمت عـلى البـابين

المصنوعين من خشب سرو اليابان، صورٌ لطيور التمّ على أحد الجانبين، بينما كانا يفضيان على الجانب الآخر، إلى درج لولبي من المرمر يرقى إلى الطّابق الثاني. وفي منتصف الدّرج، وعند حلية معماريّة معتمة، تمثال برونزي لفينوس، بعينين منكّستين برزانة.

أفضى البابان، اللّذان رسمت عليهما طيور التمّ بأسلوب كانو، وكانا مواربين، إلى غرفة استقبال لم يجد أحداً بها.

كان النّور المنهلّ من صفّ من النّوافذ الصّغيرة يضيء الغرفة. وكانت لزجاجِ هذه النّوافذ أسطح بلوريّة عتيقة الطّراز ينكسر الضّوء عليها مُصْدِراً ألوان قوس قزح. وإلى الدّاخل يتراجع أحد الجوانب إلى حلية معماريّة صُوِّرت على جدرانها سحب ذهبيّة، وتدلّت منها لفائف من شرائح الورق المستطيلة تحمل ألواناً من إبداعات فنّ الخطّ. ومن السّقف المزخرف بالخشب على طريقة موموياما، تدلّت ثريا. وكانت كلّ الموائد والمقاعد من قطع الأثاث المنتمية إلى طراز لويس الخامس عشر. وكان تصميم قماش التنجيد في كلّ مقعد مختلفاً عنه في الآخر، وتشكّل كلّها طاقماً احتفاليّاً من تصميم واتو.

وبينما كان هوندا يلقي نظرة فاحصة على المقاعد تناهى إليه عبق مألوف، وعندما التفت ألفى كيكو واقفة هنالك مرتدية ثوباً عصريّاً للأصيل مزدوج التنّورة من قماش البونجي الحريريّ بلون الخردل.

ـ ما رأيك في المقاعد؟ أليست عتيقة الطّراز؟

ـ يا له من مزج كامل الرّوعة بين الشّرق والغرب!

ـ يتّجه ذوق أبي إلى هذا النّوع في كلّ شيء. ولكن ألا تعتقد أنّها بقيت في حالة جيدة؟ لم يكن بالإمكان تجنّب مصادرة الدّار، ولكنّي تنقّلت هنا وهناك وبذلت ما بوسعي لأتجنّب تدميره على يد من

يجهلون قيمته. ولمّا كانوا قد استخدموا المكان للشّخصيّات المهمّة في الجيش، فقد أعادوه إليّ دون أن يلحقه كبير ضرر، كما يمكنك أن ترى. وهناك ذكريات طفولة لي في كلّ ركن. ومن حسن الطّالع أنّه لم يعهد بإدارته إلى أجلاف ريفيّين من أوهايو. وقد أردتك أن تراه اليوم.

- وأين ضيوفك الآخرون؟

- إنّهم جميعاً في الحديقة. الجوّ حار. ولكن النّسيم يبعث السّرور في النّفس. ألا تصحبني إلى هناك؟

ولم تأتِ كيكو على ذكر ينج تشان.

فتحت باباً في أحد أركان الغرفة يفضي إلى شرفة تؤدّي إلى الحديقة. وفي ظلّ أشجار كبيرة تناثرت مقاعد وموائد خيزرانيّة صغيرة. وكانت السّحب بديعة الجمال، وألوان ثياب النّساء تزيد في ثراء خضرة المرجة، وأخذت القبعات الّتي تشبه الزّهور تتحركّ جيئة وذهاباً.

أدرك هوندا، لدى اقترابه من المجموعة أنّها تتألّف من نسوة عجائز، وأنّه كان فضلاً عن ذلك الضّيف الوحيد من الرّجال بينهنّ. وأحسّ لدى تقديمه بأنّه ليس في المكان المناسب، وفي كلّ مرّة امتدّت فيها الأيديّ الحمراء الورديّة المجعّدة المليئة بالعيوب كان يساوره إحساس بالتردّد في مصافحتها. وقد أثار كآبته تراكمُ الأيديّ فجعل قلبه يسودّ كشحنة من الفواكه المجفّفة في عنبر سفينة.

وأخذت نسوة غربيّات، دونما وعي، بسحاباتهنّ المفتوحة على ظهورهنّ فيما يبدو، يرجّحن مؤخّراتهنّ، وينفجرن بالضّحك، وتركّزت مآقيهنّ الغائرة البنيّة أو الزّرقاء على أشياء لم يكن بوسعه

رصدها. ولـدى نطقهنّ بكلمات معيّنـة كنّ يفتحن أفواههنّ السّـوداء عـلى قدر من السّعـة استطاع معـه رؤيـة لـوزاتهنّ، وقـد انغمسن في الحـديث بنوع من الحـماس السّوقيّ. وقـامت إحداهنّ، وهي تنـتزع شطيرتين أو ثلاث شطائـر رقيقة بـأصابـع صبغت أظافـرها بـالحمرة، بـالالتفـات فجـأة نحو هـوندا، وأعلنت أنّها طلّقت ثـلاث مـرّات، وتريد أن تعرف ما إذا كانت اليابانيّات يطلّقن كثيراً بدورهنّ.

تريّضت الضّيفات ذوات الأثواب الملوّنة، في الأجمـة لتجنّب الحرّ، وبَـدَوْنَ للعيـان من خـلال الأشّجـار. وأقبلت اثنتـان أو ثـلاث من المدخل إلى الأجمة، وحضرت ينج تشان وعند كـلّ جانب من جانبيْها امرأة غربيّة. هذا هو الأمر، كان ذلك الوجيب مهمّاً، فبفضله لم تعـد الحياة مادّة صلبة ميتة، وتحـوّلت إلى السّيولـة بل إلى الحـالة الغـازيّة. كـان مجرّد رؤيتهـا أمراً طيّبـاً بالنّسبـة له. وذابت مكعّبـات السكّر في الشّـاي، في لحظة هـذا الوجيب. ولم تعـد المباني كلّهـا مستقـرّة عـلى حالها، وانحنت الجسور جميعها، كما لو كـانت مصنوعـة من الحلوى، وغدت الحياة مترادفة مع البرق، أو مـع زهرة خشخـاش متراقصـة في الرّيح، أو مع تموّج ستـارة. وتداخـل اغتباط يـدور حول الـذّات مع انكماش لا يبعث على السّرور، كما لو كان ذلك في نوبة من السكـر، الأمر الّذي انطلق بهوندا في رحاب اندفاعه إلى دنيا الأحلام.

بـرزت ينج تشـان فجأة من الأجمـة إلى ضـوء الشّمس مصحـوبـة بامرأتين طويلتي القامة، وهي ترتدي ثوباً بـلا أكمام أحمـر ورديّاً بلون سمـك السلمون، وقـد تهدّل شعـرها المتـألّق الفـاحم عـلى كتفيهـا. وأحسّ هوندا بسعادة مضاعفة إذ جرى تذكيره على هذا النّحـو بنزهـة الأميرة في بانج با إن، عندما كانت الوصيفـات المكتهلات يقمن عـلى خدمتها.

كانت كيكو تقف إلى جواره، دون أن يلحظها.
وهمست في أذنه:
ـ ما رأيك في هذا؟ ألست أفي بعهودي؟

تدفّق شعور طفولي بالافتقار إلى الأمن في أعماق هوندا، وخشي أن لا يكون بمقدوره اجتيازِ هذا المشهد، ما لم يعتمد اعتماداً كاملاً على المساعدة من كيكو. وخطوة خطوة دنت ينج تشان الباسمة من هذا الخوف الّذي لا سبيل إلى فهمه. وأزعجه قلقه، فيما يتعلّق بالسّيطرة على انفعاله، قبل وصول ينج تشان إليه، ولكن كان كلّما اقتربت منه تفاقم هذا القلق، وألفى نفسه مقيّد اللّسان حتّى قبل أن يحاول الكلام.

همست كيكو، في أذنه، من جديد:
ـ كأنّه لم يحدث شيء قطّ. من الخير ألاَّ تذكر أي شيء عن جوتمبا.

من حسن الحظّ أن انقطع تقدّم ينج تشان في منتصف المرجة، عندما استوقفتها امرأة أخرى، لتثرثر معها. وبدا أنّها لم تلحظ وجوده بعد، وعلى بعد عشرة أو خمسة عشر متراً، مضت تتأرجح على غصن الزّمن، وكأنّها برتقالة جميلة يمكن الوصول إليها في ثوان، ناضجة مترعة بالعصير وبالعبق. مضى هوندا يتفحص كلّ شيء فيها، ويدقّق في نهديها وساقيها وابتسامتها وأسنانها البيضاء. لقد تغذّى كلّ شيء تحت شمس حارقة، غير أنّها ـ في أعماقها ـ كانت يقيناً باردة على نحو لا سبيل إلى اختراقه.

وعندما انضمّت في النّهاية إلى المجموعة الجالسة في حلقة المقاعد، كان مايزال من غير المؤكّد ما إذا كانت لم تلحظ وجود هوندا حقّاً، أم أنّها كانت تتظاهر بذلك.

قالت كيكو، مشجّعة:

ـ ها هو السيّد هوندا.

ـ آه؟

نطقت ينج تشان ملتفتة بابتسامة متراخية تماماً. وبدا وجهها في الضّوء الصّيفي متوهّجاً بالحياة، وشفتاها مبتسمتين وأكثر تراخياً. وبدا حاجباها أقرنين، وفي الإشراق العنبري لمحياها لاحت عيناها السّوداوان النّجلاوان مضيئتين. وبدا وجهها مستمتعاً بفصله الأثير، فقد جعلها الصّيف تسترخي وكأنّها متمدّدة عاكفة على ذاتها في حمّام رائع. وبدا الطّابع العضوي لمظهرها كاملاً. وفيها أخذ يتصوّر التّجويف بين نهديها متعرّقاً تحت مشد صدرها، وكأنّها في حمّام بخار، استطاع الشّعور بالصّيف المختفي عميقاً في بدنها.

تجرّدت عيناها من أي تعبير عندما مدّت يدها، فأمسك بها هوندا مرتجفاً بعض الشيء. لم تكن متجّملة بالخاتم الزّمردي. وعلى الرّغم من أنّ الرّهان الّذي دخل فيه كان مع نفسه، إلاّ أنّه أدرك الآن أنّه أراد أن يخسر الرّهان، وأن يتعرّض للنّبذ في فتور. وأدهشه أن يلاحظ أنّه حتّى النّبذ منحه شعوراً بهيجاً، ولم يؤدِّ على الإطلاق إلى انقطاع أحلامه الجريئة.

التقطت ينج تشان قدح شاي فارغاً؛ ولذا مدَّ هوندا ذراعه، ولمس مقبض إبريق شاي فضيّ أثري. ولكن سخونة المعدن جعلته يتردّد، وربّما كان دافعه إلى التردّد هو الخوف من أنّ اتّجاه حركته سيعترضه ضباب من الشّعور بعدم الأمان، وسترتجف يده بالتأكيد، وقد يأتي شيئاً مرتبكاً على نحو فظيع. سارعت إلى إنقاذه على الفور يد خادم مكسوّة بقفاز أبيض، وأعفته من قلقه.

ـ تبدين في خير حال، مع مقدم الصّيف.

أفلح في قول ذلك، أخيراً. ومن دون أن يدرك أصبحت طريقة حديثه معها أكثر تأدّباً من المعتاد.

ردّت ينج تشان، وكأنّها تقرأ من كتاب مقرّر في دراستها:

ـ نعم، فأنا أحبّ الصّيف.

طلبت منه العجائز المحيطات بها، مفصحات عن اهتمامهنّ، أن يترجم الحوار لهنّ. وأثار عبق اللّيمون على المائدة ورائحة الأجساد المكتهلة والعطر توتّراً في أعصاب هوندا، ولكنّه ترجم الحوار، وضحكت العجائز، على نحو عبثي، معقبات بالقول إنّ الكلمة اليابانيّة الّتي تعني الصّيف تجعلهن يشعرن بالدّفء، على نحو حاسم، ورحن يحزرن ما إذا لم يكن هناك أصل استوائي لهذه الكلمة.

استشعر هوندا، من خلال الحدس، ضجر ينج تشان. وتطلّع حوله فرأى أنّ كيكو قد ذهبت بالفعل. كان الضّجر يزداد في نفس ينج تشان وكأنّها حيوان صامت يحكّ نفسه حزيناً بالعشب الشّديد الحرارة والرّطوبة. وقد كان حدسه هذا هو الرّابطة الوحيدة الّتي تصله بها. وتحرّكت في رشاقة مبتسمة ومتحدّثة بالإنجليزيّة، ولكنّه بدأ يشعر تدريجيّاً بأنّها ربّما أرادت أن تحدّثه عن ضجرها، وكان نوعاً من الموسيقى يحدثه تراكم الكآبة الصّيفيّة في لحمها من نهديها الثّقلين إلى ساقيها الجميلتين الخفيفتين. وكانت تلك الموسيقى تتردّد بلا انقطاع في أذنيه، مرتفعة وخفيضة، شأن طنين الحشرات الواهن حين تطير محلّقة في سماء الصّيف.

ولكن ذلك لم يعنِ بالضّرورة أنّها شعرت بالضّجرِ من الحفل، بل ربّما كانت هالة الضّيق الّذي يملأ جسمها هي حالتها الطّبيعيّة الّتي

أعاد الصّيف إحياءها. وقد بدا جليّاً أنّها على سجيّتها في غمرة هذا الضّيق. وإذ تراجعت قليلاً إلى رحاب ظلّ شجرة فقد أخذت تتحدّث بحيويّة، ممسكة بقدح شايها، وقد التفّت حولها العجائز اللّاتي أخذن يخاطبنها بـ «سموّك الموقّرة». ونزعت فجأة فردة حذاء، وبإصبع حادّ يكسوه الجورب أخذت تحكّ على نحو عرضي ربلة ساقها الأخرى بتوازن طائر البشروس الرّائع، دون أن تسكب قطرة واحدة في الطّبق من قدح الشّاي الّذي أمسكته على نحو مكتمل الثّبات.

أحسّ هوندا، للحظة، بالثّقة في أنّ بمقدوره الانزلاق مباشرة، وفي نعومة إلى فؤادها، حتّى ولو لم تكن قد سامحته.

وجد هوندا فترة انقطاع وجيزة في الحوار، فتحدّث باليابانيّة:
ـ كان ذلك مدهشاً.
ـ ماذا؟

رفعت ينج تشان عينين متسائلتين. ولم يكن ثمّة ما هو أكثر جاذبيّة من فمها الّذي كان يستجيب إذا ما طرحت عليها أحجية بـ «ماذا» فوريّة، شأن فقاعة طافية على سطح الماء، دون أن تبذل جهداً لكشف غوامض الأحجية. فلم تكن تكترث بأن تبدو مفتقرة للمّاحية، ولذا كان عليه أن يتحلّى بالنّوع نفسه من الشّجاعة. وكان قد أعدّ ملاحظة مكتوبة بالقلم الرّصاص على ورقة منتزعة من مفكّرة صغيرة.

كتب يقول: «أرجو مقابلتي على انفراد. سيكون مواتياً أن نلتقي نهاراً. وتكفي ساعة واحدة. ما رأيك في اليوم؟ هل يمكنك المجيء

إلى هنـا». سلمها الـورقة وقـد كتب عليها الـزّمان والمكـان المحدّدين للّقاء.

تجنّبت ينـج تشان بـبراعة عيـون السيّـدات الّتي راحت تـرمقهـا، وألقت نـظرة على الـورقة في الشّمس. وأسعـد هذا الجهـد العابـر في المراوغة قلب هوندا.

ـ ألديك وقت فراغ؟

ـ أجل.

ـ هل ستحضرين؟

ـ نعم.

كـانت «نعم» الّتي قالتهـا ينج تشـان بالغـة الوضـوح، عـلى وجـه التّقـريب، ولكنّها صحبتهـا ابتسامـة جميلة جعلت ردّها بـالغ الـرّقّة. وكان من الجليّ أنّها لا تفكّر في شيء.

إلى أين يمضي الحبّ والكره؟ أين تختفي ظلال السّحب الاستـوائيّة والأمطار الهادرة الّتي تنصبّ كالأحجار؟ إنّ جَعْلَه يدرك عبث معانـاته كان أقوى من جَعْلِه يدرك عبث سعادته العابرة.

عادت كيكو الّتي كانت قد اختفت، مصطحبة ضيفتـين من غرفـة الاستقبال إلى الحديقة، على نحو ما فعلت لدى وصول هوندا. ولدى رؤية إحدى العجائز للقوامين الملتفـين في كيمونـوين جميلين، أحدهمـا أزرق اللّون فاتحه، والآخر قاتم الزّرقة، أحدثت بلسانها الّـذي يشبه لسـان ببغاء، أصـوات إعجـاب ذات صريف مـزعـج لـلأعصـاب. والتفت هـونـدا ليلقي نـظرة. كـانت الضّيفتـان مـاكيكـو والسيّـدة تسوباكيهارا.

كان هوندا يحدّق منتشياً في شعر ينـج تشان الفـاحم السّواد الّـذي

تطاير في الرّيح وكأنه شراع، وبدا هذا الوصول في غير وقته، على نحو خاصّ. وإذ اقتربت الضّيفتان فقد قامتا بتحيّة هوندا، أوّلاً.

قالت كيكو في فتور متطلّعة حولها إلى العجائز:

- ما أعظم حظّك اليوم فأنت الشّوكة الوحيدة في باقة من الورود!

وتمّ بالطّبع تقديم المرأتين للغربيّات، وتبادُل عبارات المجاملة، ولكنّهما سرّتا بالعودة إلى هوندا الّذي تحدّثتا معه باليابانيّة.

عندما تحوّلت السّحب، وازدادت الظّلال عمقاً على شعر ماكيكو، قالت:

- هل رأيت المظاهرة الّتي اندلعت في الخامس والعشرين من حزيران (يونيو)؟

- لا، قرأت عنها في الصّحف فحسب.

- وكذلك أنا، لقد ألقى المتظاهرون بالقنابل الحارقة في كلّ مكان في شينجوكو، واحترق عدد من سيّارات الشّرطة. وسمعت بأنّ الأمر كان تظاهرة فظيعة وأتساءل، إذا ما مضت الأمور على هذا المعدّل، عمّا إذا لم يكن الشّيوعيون بسبيلهم إلى الإمساك بمقاليد كلّ شيء.

- لست أظنّ ذلك.

- لكنّ الأمور تتفاقم كلّ شهر، بل ظهرت بنادق مصنّعة منزليّاً. وأتصوّر أنّ الشّيوعيين والكوريين سرعان ما يحوّلون طوكيو بأسرها إلى بحر من اللّهيب.

- ليس بمقدورنا القيام بالكثير في هذا الشأن. أليس كذلك؟

قالت ماكيكو:

- لسوف تحيا حياة مديدة لأنّك لا تشعر بالقلق، ولكنّي عندما أنظر للدّنيا هذه الأيّام، أتساءل عمّا عسى كان سيحدث لو أنّ إيساو

عـاش. لقد بـدأت بكتـابـة سلسلة من القصـائـد بعنـوان «الخـامس والعشرون من حزيران (يونيو)». لقد أردت كتابـة الشّعر، عنـد أدنى المستويات، مستوى يستحيل الإبداع عنده، كنت أبحث عن مـادّة لا يمكن أبدا تحويلها إلى شعر، عندما صادفت هذا في نهاية المطاف.

ـ تقـولين إنّـك صادفت هـذا، ولكنّك لم تمضي لـرؤيـة المـظاهـرة بنفسك.

ـ للشّاعر بصيرة بعيدة المدى، على عكس أناس مثلك.

كـان من غير المـألوف بـالنّسبة لمـاكيكو أن تتحـدّث على مثـل هذا النّحو من التّراخي عن شعـرها. ولكن مـوقفها كـان نوعـاً من تكلّف الجدّ والتأنّق. ولقد تطلّعت حولها وحدّقت باسمة في عيني هوندا.

ـ سمعت أنّك كنت متضايقاً للغاية، في جوتمبا، في المدّة الأخيرة.

وتساءل هوندا، دون أن يبدو عليه الاكتراث:

ـ من الّذي أبلغك بذلك؟

قالت ماكيكو في هدوء:

ـ إنّها كيكو.

واصلت حديثها:

ـ تأمّل الأمر، لربّما كانت في حالة طارئة، ولكن ينـج تشان تتمتّـع بأعصاب قويّة مكّنتها من الاندفاع إلى دار أناس آخرين، في منتصـف اللّيـل، وطرق بـاب مخدع الخليـل. وجاك فتى طيّب، وقـد عـاملهـا برفق. إنّه أميركيّ جذّاب، وحسن التربية.

حار هوندا في الأمر، فهو على يقين من أنّ كيكو قد قالت في ذلـك الصّباح: «لم يكن جاك هنا لحسن الحظّ، ويا له من مشهد ذاك الّذي كان يمكن أن يحدث لو أنّه كان هنا». والآن ها هي ماكيكـو تتحدّث

كما لو كان قد أمضى اللّيل في الدّار. فإمّا أن تكون ماكيكو قد أساءت فهم الأمر، وإمّا أم تكون كيكو قد كذبت. ومنحه اكتشاف كذبة كيكو العبثيّة شعوراً بالتّفوق تردّد في أن تشاركه ماكيكو فيه، وأراد تجنّب عبث الانغماس في أحاديث النّساء الفضوليّة. وفضلاً عن ذلك فإنّ ماكيكو لم ترَ شيئاً إدّاً في الكذب أمام القضاء. ولم يحدث أن كذب هوندا قطّ، ولكنّه كان من عادته في بعض الأحيان تجاهل حقيقة جديرة بالازدراء، وهي تنزلق أمامه كالفضلات المندفعة إلى مجرى صغير. وكانت تلك خطيئة هيّنة تعود إلى الأيّام الّتي كان فيها قاضياً.

وفي خلال محاولته تغيير الموضوع، أقبلت السيّدة تسوباكيهارا سائرة بصورة جانبيّة وكأنّها تسعى إلى حماية ماكيكو. وقد أدهشه أنّ وجهها غدا ناحلاً للغاية، في الفترة القصيرة الّتي انقضت منذ رآها آخر مرّة، وكان للتّعبير الأسيف الّذي علا محياها مظهر يوحي بالذّبول، ولاحت عيناها غائرتين في محجريها. وأمّا شفتاها اللّتان وضعت عليهما لمسات من اللّون البرتقالي المتوهّج إلى حد الإزعاج فقد جعلت مظهرها غريباً تماماً.

وبابتسامة في عينيها، رفعت ماكيكو فجأة بأحد أصابعها ذقن تلميذتها الأبيض المستدير وكأنها تريه لهوندا.

ـ إنّها تجعلني أجتاز وقتاً عصيباً إذ تهدّدني بأفكارها عن الانتحار.

تركت السيّدة تسوباكيهارا ذقنها يرتاح على أصبع ماكيكو وكأنّها ترغب في أن تظلّ إلى الأبد في ذلك الوضع، ولكن ماكيكو سحبت أصبعها في الحال. وتحدّثت السيّدة تسوباكيهارا إلى هوندا، بصوت تناهى بمشقّة إلى سمعه، وقد شابه الثّقل:

ـ ولكن بغير موهبة كيف يمكن للمرء أن يواصل العيش؟

وردّت ماكيكو متفكّهة:

ـ لو أنّ غير الموهوبين كان ينبغي أن يلقـوا حتفهم لمات الجميـع في اليابان.

ولقد تابع هوندا هذا الحوار، وقد أخذته الرّعدة.

- ٤١ -

بعد يومين، وفي تمام السّاعة الرّابعة، وهي السّاعة المحـدّدة، أخذ هوندا ينتظر في بهو فندق طوكيو كايكان. وكان يعـتزم إذا جاءت ينـج تشـان أن يصحبها إلى مـطعم حديقـة السّطح الّـذي افتتـح في ذلـك الصّيف.

كان البهو مكاناً ملائماً للانتظار، عـلى نحو غـير جليّ، ريثـما يصل أحدهم؛ فقد رتّبت فيه على نحو رائع مقاعد وثيرة، مكسوّة بـالجلد، وكان بمقدوره أن يفتح الصّحيفة المطويّة فيحجب بها وجهه. واحتفظ في جيب داخلي بثلاثـة من سيجار مـونت كريستـو الكوبيّـة، الملفوفـة باليد، وكان قد حصل عليها بعد طول انتظار. ولاشكّ أنّ ينج تشان ستصل، قبل أن يكـون بمقدوره تـدخينها جميعهـا. وما إن غـاص في أحد المقاعد حتّى أعتمت النّوافذ، وكان مصدر قلقه الوحيد أن ينهمـر المطر مدراراً فيحـول دون تمكنّهما من تنـاول طعام العشـاء في حديقـة السّطح.

عـلى هـذا النّحـو مضى ثـريّ في السّـابعـة والخمسـين ينتـظر فتـاة تايلانديّة. وقد أنقذه من خوفه إدراك أمرٍ ما بصـورة مطلقـة، فأحسّ بأنّه عـاد إلى رحاب الحيـاة العاديّـة. إنّه بمثـابة نـوع من المرافئ وليس سفينة بطبعه. وقد أعيد إقرار الوضعيّة الطبيعيّة الوحيدة لوجوده، أي وضعيّـة انتظار ينـج تشان. وكـان ذلك عـلى وجه التّقـريب هو هيئـة روحه ذاتها.

إنّه عجوز ثريّ لا يسعى وراء مسرّات الذّكور الأكثر بساطة، وقد

كان مخلوقاً مشاغباً اتّخذ دونما عناء قرار مبادلة الأرض بضجره، ولكنّه كـان ظاهـريّاً تجسيـداً للتّواضـع، ورروحـاً آثـرت أن تنحني في بقعـة جـوفاء جُـرِّدت من الحدود. وقـد تبّنى المـوقف ذاتـه حيـال التّـاريـخ والعصـور والمعجزات والثّـورات. وإذ كان يجلس عـلى هوّة مغـطّاة، وكأنّه يجلس فوق مرحاض، فإنّـه يمضي في تدخـين سيجاره ويمضي في الانتـظار. وهو يعتمـد على إرادة خصمـه في الوصـول إلى قرار، وفي مثل هذه الظّروف فحسب اتّخذ حلمه للمرّة الأولى شكـلاً محدّداً. ثمّ رأى، وإن كـان ذلـك من خـلال ثقب للتّلصص فحسب الشكـل الملتبس للسّعـادة المـطلقـة. أيمكن أن يحمله المـوت إلى السّعـادة القصوى، في هذه الحالة. ولئن كان الأمر كذلك فلابدّ أن تكون ينج تشان هي الموت.

كـان هـونـدا عـلى استعـداد للعب أوراق الخشيـة أو اليـأس الّتي يمسكها في يده. وبدا وقت الانتظار المفعم بالترقّب هذا، مثل صقـال اللّك المطعّم بعدد لا حصر له من قطع عِرْق لؤلؤ الشكّ.

تنـاهى من مطعم المشـويّات الإيـطالي الّذي يشبـه ديكوره القبـو، والواقع في الطّابق نفسه رنين أدوات المائدة خلال إعداد الموائـد تأهّبـاً لسـاعة العشـاء. واختلط العقل والعـاطفة في أعـماق هـونـدا شـأن الشّـوك والسّكاكـين الّتي لم يفصـل بعـد بعضهـا عن بعض في أيـدي النّـادلـين. ولم تكن خـطة واحـدة، (والخـطّة ميـل خبيث من جـانب العقل) قد رُسمت، وكانت إرادته ماتزال بعيدة عن المشاركة، فاللّذة الّتي اكتشفهـا في ختام عمـره تقتضي مثل هـذا التخـلّي الكسـول عن الإرادة. وفيما نحّاها جانباً على هذا النّحو فإن الإصرار على الانغماس بنفسه في التّاريخ الّذي تملّك نـاصيته منـذ شبابـه قد عُلِّق كـذلك في الفراغ وترامى منفصلاً في الهواء.

كان ثمّة فتاة سيرك تحلّق شاهقاً على أرجوحتها، خلال الارتفاع الّذي يخطف البصر للسّاعات المظلمة الّتي تمتدّ منبتّة عن الزّمن، وتنّورة ثوبها القصير الأبيض ترفرف. . . إنّها ينج تشان.

وساد الظّلام خارج النّافذة. ومضى نزيلان وعائلة بتبادل التحيّات المتطاولة إلى حدّ السّأم بجوار هوندا. وقد دامت هذه التحيّات طويلاً حتّى أوشك أن يحسّ بأنّه سيغمى عليه. ولزم فتى وشابّة في مقتبل العمر تربطهما الخطوبة فيما يبدو، صمت الحجارة كشخصين كئيبين إلى حدّ الجنون. وكان بمقدوره أن يلمح عبر النّافذة تماوج أغصان شجرة على امتداد الطّريق، ولكن بدا أنّ المطر لم يهلّ بعد. وأحسّ بواقي الصّحف الخشبي في يده وكأنّه عظمة ساق كبرى بالغة الطّول، ودخّن السّيجار الأوّل فالثاني فالثالث، ولم يظهر لينج تشان أثر.

تناول في نهاية الأمر وجبة بمزيد من التردّد، وشقّ طريقه إلى مركز الطلاّب الأجانب. وكان سلوكه في هذا الصدد مخالفاً لكلّ ما تفرضه الفطرة السّليمة.

دخل المبنى البسيط، ذا الطّوابق الأربعة، الواقع في أزابو. وفي قاعة المدخل كان قد عكف اثنان أو ثلاثة من الشبّان ذوي البشرة السّمراء والعيون الحادّة، وقد ارتدوا قمصاناً ذات أكمام قصيرة ونسيج مربّع النقش، على قراءة مجلاّت من جنوبي آسيا سيّئة الطّباعة. وتوجّه هوندا إلى المكتب الكائن في مقدّمة القاعة وسأل عن ينج تشان.

- إنّها بالخارج.

قالها السّكرتير بشكل تلقائي، فبدا الردّ أسرع من أن يكون إجابة حقيقيّة. وفيما كان هوندا يطرح سؤالين أو ثلاثة مضى الشبّان ذوو

البشرة السّمراء والعيون الحادّة يحدّقون فيه، وجعله هواء اللّيل الخانق يشعر وكأنّه في قاعة الانتظار بمطار استوائي صغير.

ـ هل يمكنك إبلاغي رقم غرفتها؟

ـ هذا مخالف للوائح، وليس بمقدورك مقابلة الطلاّب إلاّ في هذا البهو، وبناء على موافقتهم.

وإذ استسلم هوندا وغادر المكان فقد عاد الشبّان إلى مجلاّتهم، فنتأت بحدّة من السّيقان كواحل سمراء وكأنّها أشواك.

كان بمقدوره السّير كيفما طاب له في الحديقة الأماميّة، ولكنّها كانت خالية. وتناهى صوت قيثارة من غرفة باهرة الإضاءة في الطّابق الثالث، وكانت قد فتحت نوافذها في مواجهة الطّقس الرّطب. وتردّدت أغنية بصوت عالٍ، وإن ناعماً يحاكي فيولاً صينيّاً، حادّ النّغم ملتفّاً مثل كرمة مصفرّة حول أصوات الأوتار. وإذ أصغى هوندا للصّوت المترع بالشّجن فقد تذكّر اللّيالي التي لا تنسى في بانكوك، قبل الحرب مباشرة.

لو أنّه كان بمقدوره فقط أن يتسلّل للدّاخل، فقد أراد أن يمضي عبر كلّ الغرف لأنّه لم يصدّق أنّ ينج تشان خارج المركز. كانت في كلّ مكان في الظّلمة المسائيّة الرّطبة لموسم المطر، في العَرْف الواهن للزّهور الّتي ربّما زرعها الطلاّب الأجانب، في زهرة الجلاديولا المتميّزة الصّفرة، أو في البنفسج الشّاحب لوريقة الزّوجر البرونزيّة المتداخلة في الظّلام... واندمجت تدريجيّاً عناصر ينج تشان الدّقيقة الطّافية في أرجاء المكان، متّخذة شكلاً، وتجسّدت في كيانها. وكان بمقدوره أن يشعر بها حتّى في رفرفة أجنحة البعوض الواهنة.

كان معظم النّوافذ مظلماً، وألقت غرفة واحدة في ركن الطّابق

الثالث ضوءاً متوهّجاً من خلال السّتائر المخرّمة. وإذ استبدّ الفضول بهوندا فقد راح يحدّق في النّافذة. ولاح شخص ما واقفاً داخل الغرفة، مطلاًّ على الحديقة، وداعبت الرّيح أطراف السّتائر محرّكة إيّاها، فاستطاع أن يلقي نظرة عجلى إلى الدّاخل. كانت ينج تشان ترتدي قميصاً تحتيّاً. وانطلق يعدو على نحو تلقائي رغم إرادته باتّجاه النّافذة، ووصل إلى أسفل مصباح الشّارع مباشرة، وبدا أنّ ينج تشان قد صدمت لدى تعرّفها عليه، فقد أطفئ النّور في الحال وأوصدت النّافذة.

استند هوندا على ركن المبنى وانتظر طويلاً، وتساقطت اللّحظات كالقطرات ونبض الدّم في صدغيه. لقد تساقط الزّمن شأن قطرات من دم. وضغط بوجهه على أشنة زرقاء ناحلة نمت على الإسمنت، تاركاً إيّاها تبرّد وجنتيه الحارّتين المكتهلتين.

بعد مرور بعض الوقت، تناهى صوت كالفحيح من نافذة الطّابق الثالث، فقد فتحت على مهل، وسقط منها شيء لدن أبيض اللّون عند قدمي هوندا فالتقطه، وألفاه قطعة ورق مكورة، ففتحها، ووجد بداخلها لفّة من القطن تملأ راحة يده، وقد بدا أنّها ضغطت لتتحوّل إلى كتلة مدمجة، ذلك أنّه بمجرّد إزالة الغلاف الخارجيّ انتفشت كشيء حيّ. وبحث هوندا في طيّات القطن، فوجد الخاتم الزّمردي تحميه الياكشا الذهبيّة.

ألقى نظرة عجلى على النّافذة من جديد، ولكنّها كانت محكمة الإغلاق ولم يكن هناك أيّ شعاع من نور.

أدرك عندما غادر مركز الطلاّب الأجانب، وثاب إلى رشده، أنّه على بعد مجموعة من المباني من دار كيكو. ولم يكن من عادته أن ـ

يستخدم سيّارته في مواعيده الخاصّة. وكان بمقدوره استدعاء سيّارة أجرة، ولكنّه قرّر معاقبة نفسه بالسّير، على الرّغم من الألم الّذي كان يحسّ به في ظهره ومفصلي وركيه. وحتّى لو لم تكن كيكو في دارها فإنّه لم يكن بمقدوره الذّهاب إلى داره مباشرة من دون أن يطرق بابها أوّلاً.

لو أنّه كان في شرخ الشّباب لصرخ عالياً خلال سيره. لو أنّه كان في شرخ الشّباب! ولكنّه لم يكن يصرخ قطّ عندما كان في شرخ الشّباب! لقد كان شابّاً واعداً ظنّ أنّ عليه أن يستخدم العقل ليحقّق النّجاح لنفسه وللآخرين، بدلاً من أن يهدر وقته في سفح الدّموع. يا له من حزن دقيق! يا له من يأس غنائي! إنّه لم يسمح لنفسه بأن يراوده هذا الشّعور إلاّ في صيغة فعل ماضٍ مفترض. وبقيامه بذلك محا كلّ الأصالة عن عاطفته الرّاهنة. آه، لو سُمح للرّومانسيّة العذبة بأن تشقّ طريقها إلى إحدى سنوات عمره! ولكن ـ لم يسمح له تكوينه ـ لا الآن ولا في شرخ الشّباب بشيء من العذوبة مع نفسه. وكان السّبيل الوحيد أمامه هو الانغماس في أحلام اليقظة الّتي تدور حول ذات من نوع آخر مختلف في الماضي. ذات مختلفة إلى أي حدّ؟ لقد كان من المستحيل عليه أن يصبح كيواكي أو إيساو.

لو أنّ خيال هوندا تركه يحلم بأنّه سيغدو هذه الشّخصيّة أو تلك، لو أنّه كان شابّاً فحسب، إذن لخدمه بحمايته عبر السّنين، عند كلّ منعطف عاطفي خطر، فربّما لم يكن تردّده في التّعرف على حالته العاطفيّة الرّاهنة إلاّ نتيجة لمثل هذا الإنكار للذّات في شبابه. وعلى أيّة حال، فقد كان مستحيلاً عليه أن يصرخ عالياً خلال سيره ـ لا في شرخ شبابه، ولا في الوقت الحالي. وكان هذا السيّد المهذّب العجوز

في سترته من طراز بوربري سيبدو في عيني أي شخص سارياً ليليّاً منفرداً أطلق العنان لمزاجيّته.

وهكذا، وكنتيجة للوعي الذّاتي غير السّار الّذي جعله لا يشير إلى كلّ العواطف إلاّ بشكل غير مباشر، فقد أصبح آمنا للغاية، بحيث لم يعد مضطّراً للشّعور بالقلق حيال الوعي الذّاتي. ولقد أصبح من الممكن بالنّسبة له أن يتحرّك بناء على أي دافع أو رغبة، مهما كان تجرّدهما من الحياء. ولو أنّ المرء درس كلّ تصرف من تصرفاته لوصل إلى استنتاج يجافيه الصّواب، قوامه أنّه إنسان يتصرّف وفق نزواته. وقد كانت رحلته المتعجّلة إلى دار كيكو على امتداد هذا الدّرب اللّيلي، وهي رحلة تتهدّدها زخّات من المطر في أيّة لحظة، واحدة من نزواته البلهاء. وفيما هو يمضي قدماً، أحسّ بدافع يدعو إلى أن يدسّ يده في حلقه ويقوم، وكأنه يجتذب ساعة جيب من صدارته، بانتزاع قلبه.

كان من غير المحتمل أن تكون كيكو في الدّار في مثل هذه السّاعة من اللّيل، غير أنّها كانت هنالك.

أُدخِل هوندا في الحال إلى غرفة الاستقبال الرّائعة، وما كان يمكن للمقاعد من طراز لويس الخامس عشر أن تدعه بظهورها المستقيمة يشعر بالاسترخاء، وأحسّ بأنّه موشك على الإغماء من فرط الإجهاد.

كانت الأبواب المصنوعة من خشب شجر سرو اليابان مواربة، كعهدها في ذلك اليوم، وقد عزّز من العزلة اللّيليّة في غرفة الاستقبال الضّوء المتألّق المنهلّ من الثّريا. ومن خلال النّافذة رأى أضواء المدينة تتوهّج من خلال النّهاية القصوى للأجمة في الحديقة، ولكنّه لم تكن لديه الطّاقة للسير إلى النّافذة والإطلال منها إلى الخارج. وكان من

الأفضل تحمُّل الحرّ الّذي يشعر المرء بالانحطاط المعنوي، والتحلُّل في غمرة العرق.

تناهى إليه وقع قدمي كيكو وهي تهبط الدّرج اللّولبي الرّخامي إلى قاعة المدخل. كانت ترتدي ثوباً طويل الذّيل. ودخلت غرفة الاستقبال، وأغلقت وراءها الباب الّذي نقشت عليه طيور التمّ. كان شعرها الأسود المسترسل منتصباً، كأنّما في عاصفة، ومتطايراً ومنفوشاً دونما شكل محدّد، الأمر الّذي جعل وجهها بزينته الخفيفة يبدو صغيراً وشاحباً على نحو غير مألوف. ومضت وسط المقاعد فجلست بمواجهة هوندا أمام الحلية المعماريّة بسحبها الذهبيّة الجداريّة. وكان الكونياك قد وضع على المائدة الصّغيرة بينهما. ومن تحت طرف ردائها أطلّت قدماها العاريتان، وقد اكتفت بدسّهما في خفّين ممّا يستخدم في المخدع زانتهما باقات من صور الفاكهة الاستوائيّة المجفّفة. وكان الطّلاء الأحمر الّذي طلت به أظافر أصابع قدميها ينتمي إلى اللّون الّذي تألّقت به زهور الخبّازى على ردائها الأسود. ورغم ذلك فإنّ فيض الشّعر الأسود المنتصب على رأسها أمام السّحب الذهبيّة أضاف إلى الكآبة السّائدة ما لا سبيل إلى قياسه.

ـ أرجو أن تعذرني، فشعري يبدو موحياً بالجنون. وزيارتك المفاجئة يصل اقتحامها حتّى إليه. ومن سوء الحظّ أنّني غسلته لتوّي، وكنت بسبيلي إلى تصفيفه غداً. إنّكم، معشر الرّجال، لا علم لكم بمثل هذه المحن. ولكن، أهناك ما يسوء؟ إنّك تبدو شاحباً.

أبلغها هوندا بإيجاز ما حدث. ولكنّه شعر بالتقزّز حيال تحدّثه كمحام يدافع عن متّهم، فلم يستطع الهرب من عادة توصيف الأمور

بشكل منطقي استقرائي، حتى في مثل هذه الأمور البالغة التعجّل على نحو خارق. ولم تُفِد كلماته إلاّ في ترتيب الأحداث في إطار نوعٍ من النّظام. وكان قد أراد أن يناشدها بصرخات طلبٍ للنّجدة تنطلق بلا كلمات ودونما معنى. أو كان هذا على الأقلّ هو ما أراده حتّى ولوجه الدّار.

قالت كيكو:

ـ يبدو أنّ الدّرس المستفاد من هذه القصّة هو أنّه ينبغي التروّي في الأمور، كما أنّني لا أعرف أيضاً ما ينبغي القيام به. ورغم ذلك فإنّ ينج تشان كانت شديدة الجلافة، وأتساءل عمّا إذا كان هذا هو النّحو الّذي تمضي به الأمور في الجنوب الّذي جاءت منه، ولكنّي أعرف أنّك مندهش من تقلّباتها المزاجيّة.

وقدّمت له بعض الكونياك، وقالت:

ـ وما الّذي تقترح أن أقوم به؟

لم يبدُ عليها الضّيق على الإطلاق، بل أفصحت عن حماسها الّذي تشوبه الكآبة، والّذي يبدو أنّه من سماتها.

أخذ هوندا يدسّ أصبعه في الخاتم وينتزعه. ثمّ قال:

ـ أودّ أن تعيدي هذا إلى ينج تشان، وأن تطلبي منها قبوله. فانفصاله عن جسمها يجعلني أشعر وكأنّ العلاقة بينها وبين الماضي الّذي أنتمي إليه قد قطعت على نحو دائم.

لزمت كيكو الصّمت، وخشي هوندا أن تكون غاضبة منه. وأمسكت بكأس الكونياك عند مستوى النّظر وأخذت ترقب كيف انزلق السّائل الّذي كان متموّجاً نحو السّطح المقعّر للكأس، مكوّناً أشكالاً سحابيّة شفّافة لزجة. ولاحت عيناها النجلاوان تحت جبل

شعرها الأسود مخيفتين على وجه التّقريب. وكان التّعبير الجادّ المرتسم على وجهها طبيعيّاً للغاية بالنّسبة لشخص يحاول أن يقمع ابتسامة ساخرة. وحدّث هوندا نفسه بأنّ عينيها تشبهان عيني طفل شاهدتا سحق نملة. قال مشجّعاً:

ـ لقد جئت لكي أطلب منك هذا وذلك كلّ ما في الأمر.

كان يراهن على مبالغة تافهة للغاية. أين يمكن أن يجد السّرور إلاّ في نوع من المبدأ الأخلاقي القائل بعدم إهمال المضحك من الأمور؟ كان قد التقط ينج تشان من هذا العالم الّذي يشبه برميل القمامة، وعلى الرّغم من أنّه تاق للاستحواذ عليها فإنّه لم يصل حتّى إلى وضع أصبع عليها. وكان يسعى لمفاقمة هذه البلاهة وصولاً إلى المدى الّذي تتقاطع فيه شهوته مع مرارات النّجوم.

قالت كيكو، أخيراً:

ـ لِمَ لا تنسى الفتاة؟ لقد سمعت، قبل أيّام فقط، أنّها كانت تراقص طالباً سوقيّاً خدّاً لخدّ في ملهى في ميباتسو.

ـ أنساها؟ لست أستطيع ذلك، وتركها وشأنها يعني السّماح لها بالنّضج

ـ وأحسب أنّ لك الحقّ في منعها من النّضج. وماذا عن شعورك السّابق بأنّك لا ترغب في أن تكون عذراء؟

ـ لقد حسبت أنّ ذلك سيغيّرها بين عشيّة وضحاها ويحوّلها إلى امرأة مختلفة تماماً. ولكن ذلك مُنيَ بالفشل بفضل ابن أخيك الغبيّ.

ـ إنّه أحمق تماماً. أليس كذلك؟

قالتها كيكو مغربة في الضّحك. ومضت تفحص أظافرها الطّويلة عبر كأسها في ضوء الثّريا. كانت مطليّة بالأحمر، وأخذت تتألّق عبر

الكأس متوهّجة خلال التقعّر، شأن شروق صغير غامض.

ـ الشّمس مقبلة انظر!

قالتها كيكو مشيرة إلى الكأس. وكانت سكرى.

ـ شمس قاسية.

غمغم بها هوندا، متمنّياً بحماس أن يغمر ضباب التّهلهل واللّاعقلانيّة تماماً هذه الغرفة ذات الإضاءة المكثّفة، حتّى يغدو عاجزاً عن رؤية شيء أمامه.

ـ ماذا تفعل لو رفضت طلبك؟

ـ سيكون مستقلبي مظلماً تماماً.

ـ يالها من مبالغة!

قالتها كيكو ووضعت الكأس على المائدة، وفكّرت في الأمر لحظة أخرى. ثمّ غمغمت بشيءٍ ما عن كونها على الدّوام في وضع تقديم العون للآخرين. وبعد قليل قالت:

ـ المشكلة الحقيقيّة في الأعماق الغائرة هي دائماً مشكلة طفوليّة. وعندما يحسم رجل أمره فإنّه ينطلق في رحلة إلى إفريقيا باحثاً عن طابع يحتوي على خطأ طباعي.

ـ أعتقد أنّني واقع في هوى ينج تشان.

ـ آه، يا إلّهي!

ضجّت كيكو بالضّحك غير مقتنعة تماماً بما سمعت.

وعندما تحدّثت مجدّداً كان في صوتها رنّة حاسمة:

ـ الآن فهمت. إنّك بحاجة الآن للقيام توّاً بشيء بسيط وسخيف للغاية.

ورفعت طرف ردائها وأضافت:

ـ ما رأيك على سبيل المثال في تقبيل باطن قدميّ؟ لسوف ينعشك ذلك. . . دراسة قدم امرأة لا تحبّها على الإطلاق. لا تقلق، فقد أخذت حمّاماً لتوّي، ونظّفت قدميّ تماماً. لن يضيرك ذلك.

ـ إذا كان هذا ردّاً على طلبي فسيسعدني الإذعان في الحال.

ـ ليكن، هلمّ! سيفيدك أن تحاول القيام بشيء كهذا لمرّة واحدة. . . في ضوء كبريائك المعروفة. ولسوف يزيد الجانب الدّائن في حساب سمعتك.

بدا جليّاً أنّ كيكو قد غلبت عليها عاطفتها كمعلّمة. ووقفت تحت الثّريا الرّائعة مباشرة، وأزاحت بكلتا يديها شعرها الوافر، الأمر الّذي جعل الجوانب تترجرج كأذني فيل.

حاول هوندا عبثاً الابتسام، وتطلّع حوله وانحنى على مهل فتفاقم الألم حادّاً في مفصل وركه، ولذا جثا، ومدّد نفسه على السّجادة بعزم صارم. وأشبه خفا كيكو من هذا الموضع أدوات مقدّسة تحرس قوسي قدميها المنغرستين في ثبات والمتوتّرين قليلاً، وتدلّت مجموعات من الثّمار المجفّفة البنيّة والبرونزيّة والأرجوانيّة، فوق أظافر الأصابع القرمزيّة. وإذ قرّب هوندا شفتيه من القدمين المدسوستين في الخفّين فقد ابتعدتا في حذق. وأدرك في النّهاية أنّه ما لم يرفع طرف التنّورة المزخرفة بزهور الخبّازى ويدسّ رأسه تحتها فلن يكون بمقدوره الوصول إلى قوسي باطني القدمين. ووضع رأسه في الدّاخل فألفى الرّداء مترعاً بعَرْف العطر الخفيف الدّافئ. وألفى نفسه فجأة في بلد مجهول. وعندما رفع عينيه، بعد أن قبّل قدميّ كيكو، كان الضّوء كلّه يبدو أرجوانيّاً قاتماً، وهو ينهل عبر الزّهور المطبوعة، وانتصب أمامه عمودان أبيضان جميلان ترقّشهما عروق شاحبة. وفي السّماء

البعيـدة، لاحت شمس صغيرة سـوداء ترسـل أشعّـة مشعّثـة فـاحمـة السّواد.

تلوّى هوندا خارجاً، ووقف بصعوبة:

ـ ها قد أدّيت دوري.

وقالت كيكو متقبّلة الخاتم بابتسامة جادّة تناسب سنوات عمرها:

ـ وأنا سأؤدّي دوري.

- ٤٢ -

صاحت رابي، من الدّار، بزوجها الّذي لم يحضر بعد لتناول طعام إفطاره:

- ماذا تفعل؟

- أتأمّل فوجي.

ردَّ بها من الشّرفة. ولم يكن الصّوت موجّهاً ناحية الغرفة، وإنّما ناحية الجبل المترامي فيما وراء التّعريشة، عند الحافّة الغربيّة للحديقة.

كانت السّاعة السّادسة من صبيحة يوم صيفي، وقد توهّج فوجي بلون النّبيذ وبدت خطوطه الخارجيّة مضبّبة. وشأن ذرور وضع على أنف طفل استعداداً لمهرجان صيفي، لاحت لمسة، كضربة فرشاة من الجليد، حول المحطّة الثّامنة(١).

خرج هوندا مرّة ثانية بعد تناول طعام الإفطار من دون أن يرتدي إلّا سروالاً قصيراً وقميص بولو، ورقد إلى جوار المسبح تحت سماء الصّباح المتألّقة. واحتفن، عابثاً، بعض الماء.

---

(١) المحطّة الثامنة: هي إحدى المحطّات الّتي يقسم إليها الطّريق من سفح فوجي إلى قمّته، تسهيلاً للزوّار والسيّاح ومساعدة لهم على تسلّق الجبل الّذي يعتقد كثيرون أنّ زيارته واجب ديني ينبغي القيام به، ولو مرّة في العمر. وهناك كثير من التّسهيلات في هذه المحطّات، كما أنّها تقوم بوضع علامات معيّنة على العصا الّتي تُعطى للزوّار في سفح الجبل، بما يفيد وصولهم إليها في طريقهم إلى القمّة. وقد كان ميشيما ممّن تسلقوا الجبل، وكتب عن رحلته هذه مطوَّلاً.

(هـ. م.)

ـ ماذا تفعل؟

هتفت به رابي مجدّداً، وهي ترتّب المائدة وتخليها من بقايا الإفطار. ولم تتلقّ ردّاً في هذه المرّة.

وأخذت تتطلّع من النّافذة إلى هذا البرهان على جنون زوجها، البالغ من العمر سبعة وخمسين عاماً. ففي المقام الأوّل لم تعجبها طريقة اختياره لملابسه، فلا ينبغي لرجل يعمل بالمحاماة أن يرتدي سروالاً قصيراً. وها قد برزت منه ساقاه النّاحلتان المتصلّبتان البيضاوان. كما لم يعجبها قميصه أيضاً. وكأنّما عقاباً على ارتدائه قميص بولو، دون أن يمتلك امتلاء الشّباب الرّجولي، بدا الردنان والظّهر في حالة تهالك مزرية. وقد بلغ بها الفضول أن أصبحت مهتمّة برؤية المدى الّذي سيمضي إليه زوجها في حماقاته. وكان ذلك نوعاً من اللّذة المرتكسة، تماماً كالاستمتاع بتحمّل ضرس مؤلم.

أحسّ من دون أن يتطلّع إلى الوراء بأنّ زوجته قد يئست، وتراجعت إلى غرفتها، فأخذ يحدّق، كيفما طاب له، في جمال المشهد الصّباحي المنعكس في المسبح.

شرعت زيزان الحصاد تصدر أصواتها في أجمة السّرو. ورفع هوندا عينيه وكان جبل فوجي الّذي اكتسى بوهج نبيذي، يتحوّل الآن إلى اللّون الأرجوانيّ الثري. وكانت السّاعة قد بلغت الثامنة، وفي خضرة سفوح التّلال المتدرّجة طفت الخطوط الخارجيّة الواهنة الّتي تحدّد الغابات الصّغيرة والقرى. وفيما هو يتطلّع إلى زرقة فوجي العميقة في الصّيف، ابتكر لعبة صغيرة يستطيع الاستمتاع بها وحده. وقد تألّفت من تصوّر جبلٍ منتصفِ الشّتاء وهو في الصّيف. وبعد التّحديق لبرهة في فوجي القاتم الزّرقة، يحوّل نظرته فجأة إلى السّماء

الزّرقاء على أحد الجانبين، فتتحوّل بالتّدريج الصّورة البعديّة المرتسمة على قرنيته لتكتسي باللّون الأبيض كلّية، ويستطيع أن يرى للحظة جبلاً حليبيّاً نقيّاً في السّماء الزّرقاء.

وبعد اكتشافه طريقة خلق هذا الوهم، وصل إلى الاعتقاد بأن هناك جبلين. فإلى جوار فوجي الصّيفي كان هناك على الدّوام فوجي شتوي. وبالإضافة إلى الصّورة الحقيقيّة فقد كانت هناك كذلك خلاصة الجبل النقيّ البياض. وفيما هو ينقل نظرته المحدِّقة إلى المسبح، رأى أنّ انعكاس جبل هاكوني قد احتلّ مساحة أكبر من تلك الّتي احتلّها انعكاس فوجي. وكانت الكتلة الجبليّة المكسوّة بالخضرة حارّة وخانقة. وانعكست الطّيور المحلِّقة في السّماء على الماء، وزارت قُبَّرة مألوفة قفص إطعام العصافير.

نعم، لقد قتل أمس ثعباناً قرب التّعريشة. وكان ثعباناً مخطّطاً يناهز طوله القدمين، وقد قتله بسحق رأسه بحجر، حتّى لا يُفْزِع الضّيوف القادمين اليوم. وقد شغلت المذبحة الصّغيرة يومه بأسره، وتداعت في ذهنه نوابض زرقاء ـ سوداء من الصّلب، ومنحته صورة الجسم الثّعباني النّاعم الّذي كان يدفع الموت متخبّطاً، إدراكاً بأنّ بمقدوره بدوره أن يقتل شيئاً، وأكسبته شعوراً كئيباً بالقوّة.

والمسبح. مدَّ هوندا يده من جديد، وداعب سطح الماء، فتشظّى انعكاس السّحب الصّيفيّة متحوِّلاً إلى نثار من الزّجاج المهشّم. وكان المسبح قد اكتمل، منذ ستة أيّام، ولكن أحداً لم يستخدمه، ولم ينزل إليه هوندا مرّة واحدة، متذرِّعاً ببرودة الماء، رغم وجوده مع رابي في الدّارة لمدّة ثلاثة أيّام.

لقد كان السّبب الوحيد الّذي حدا به لإقامة المسبح هو رؤية ينـج تشان عارية، ولم يكن لغير ذلك أي أهمّيّة.

دوّى صوت المطارق في البعيد؛ فقد كان يجري تعديل دار كيكـو، ومنذ أعادت إليها قوّات الاحتلال دارها في طوكيو أصبحت أقلّ تردّداً عـلى جوتمبـا، وفترت عـلاقتها بجـاك بعض الشيء. وقد أثـارت دار هوندا الجديدة شعورها بالمنافسة، فشرعت في تعديل دارها على نطاق كبـير، حتّى أوشكت على الـوصول إلى مستـوى إقامـة مبنى جـديـد. وذهبت إلى القول بأنّه لن يكون بمقـدورها سكنـاها خـلال الصّيف، وربّما أمضت هذا الفصل في كارويزاوا.

غادر هونـدا موضعـه بجوار المسبـح ليتجنّب الشّمس الّتي اشتدّت قوّتها تـدريجيّاً، وبصعـوبة فتـح مظّلة الشّـاطئ المثبّتة وسط المنضـدة. واقتعد كرسيّاً في الظّل، وحـوّل نظرتـه المحدِّقـة من جديـد إلى سطح الماء.

كانت قهوة الصّباح ماتـزال تثير شعـوراً بالخـدر في مؤخّرة رأسـه. وفي قـرار المسبح الممتـدّ بعرض سبـع وعشرين قـدمـاً وطـول ستـين قـدماً، لاحت خـطوط بيضاء من خـلال تمـوّجـات الـطّلاء الأزرق، مـذكّرة إيّـاه بالعـلامات الجيـريّة ومـرهم السّارو ميثيـل ذي الرّائحـة الشّبيهـة بالنّعنـاع المرتبط عـلى نحو لا سبيـل إلى فصمه بـالمسـابقـات الرياضيّة في شبابه البعيد. وقد رُسم خطّ أبيض نظيف باستقامـة على كـلّ شيء، ومنه بـدأ شيء وانتهى آخر. ولكن الـذّاكرة خـانته. فلم تكن له صلة بالمنافسات الرياضيّة في شبابه.

لقـد ذكّره الخطّ الأبيض، بـالأحرى، بعـلامة الـوسط الممتـدّة في منتصف طريق سريع في اللّيل. وتذكّر فجأة الـرّجل العجـوز الضّئيل

الجرم الّذي كان يحمل على الدّوام عصا في جولاته اللّيليّة بـالحديقـة. وكانت المرّة الأولى الّتي قـابله فيها عـلى ممشى جانبي تكتسحـه أضواء السيّارات الباهرة. وكان الرّجل العجوز سائـراً، وقد دفـع صدره إلى الأمام، وتدلّت على ذراعه عصا ذات مقبض من العاج. ولو أنّه كـان يسير بطريقة عاديّة لسحب العصا عـلى الأرض. كان قـد رفع ذراعـه المنحنية عالياً على نحـو غير طبيعي، بحيث بـدا وضعها أكـثر تصلّباً. وكانت غابات أيّار (مايو) المفعمة عطراً تقع على أحد جانبي الممشى، وبدا الرّجل الضّئيل الجرم وكأنّه ضابط متقاعد بالجيش يخفي أوسمته الّتي لم تعد لها قيمة الآن، في الجيب الدّاخلي لسترته.

والتقاه في المرّة الثانية في ظلمة الغابات، وكان قد لاحظ بالتّفصيل الوظيفة الّتي تؤدّيها العصا.

لدى لقاء العشّاق في الغابات، يدفع الرّجل عادة بـظهر المـرأة إلى شجرة، ويشرع في مداعبتها، ونادراً مـا كان العكس صحيحـاً. ولذا فإنّه مع انهماك عاشقين، على هذا النّحو، يحتلّ الرّجل الضّئيل الجـرم موقعه، على الجانب المقابل من جذع الشجرة.

وفي الظّلام، غير بعيد عن المكان الّذي اتّفق أن كان فيه هونـدا، كان بمقدوره أن يرى مقبض العصا الّذي بشكل حرف (u) وهو عنـد حـافّة جـذع الشجرة. وقـد تطلّع في الـظّلام مراقبـاً الشكل الأبيض الـطّافي عبر الهـواء، وعنـدمـا اكتشف أنّ المقبض من العـاج، عـرف صاحبه في الحال. كانت ذراعا المرأة تلتفّان حول عنق الـرّجل، بينـما تشابكت ذراعاه وراء ظهرها. والتمع الشّعر المـدهون بـالزّيت، عـلى مؤخّرة رأس الرّجل، في أشعّة السيّـارات العابـرة. وبدت يـد العصا البيضـاء تائهـة للحـظة في الـظّلام، ثمّ مسّت، وكـأنّها حسمت أمـر

مسارها، ذيل تنورة المـرأة وما إن اشتبكت بـالرداء حتى رفعتـه بمهارة وسرعـة بـدفعـة واحـدة، علواً حتّى خصرهـا، فتعـرَّت فخـذا المـرأة البيضاوان، ولكنّه لم يرتكب خطأ التعرّض للانكشاف بلمسهما بالعاج البارد.

وعندئذٍ همست المرأة: «لا ، لا» وقالت أخيـراً: «الجوّ بـارد هنا». ولكن الرّجل الّذي كان يحلّق في السّماء السّابعـة لم يحر ردّاً، وبـدا أنّ المرأة لم تلاحظ أنّ ذراعيه مشغولتان تماماً باحتضانها.

لقد طالما دفع هـذا الخبث الكلبي المتدّني بصـاحبه، هـذا التّعاون الدّؤوب النّاكر للذّات، الابتسامة إلى شفتي هوندا لدى تـذكّره إيّـاه. ولكنّه عندما تذكّر الرّجل الّذي حـادثه في ضـوء النّهار، عنـد مدخـل بي. إكس ماتسويـا، حلّ محـل الحافّـة الرّقـراقة للمـرح شعور ثلجي بالخوف. فقد كان شيئـاً لا يطاق أن تثـير لذّتـه تقزّز الآخـرين، وأن تعرّضه بالتالي لاشمئزازهم الّذي لا يزول، ولاسيما أنّ هذا التقزّز قد ينمو ذات يوم فيغدو عنصراً لا غنى عنه من عناصر اللّذة.

امـتزج هذا التقـزُّز الفاتـر من النّفس بالفتنـة العـذبـة... إنكـار الوجود نفسه متداخلاً مع مفهوم الخلود الّذي لا سبيل إلى سدّ الثّغـرة بينه وبين إنكار الوجود. وكان هذا الوجود الّذي تستعصي ثغراته على السدّ الجوهرَ الفريد للخلود.

عاد إلى حافّة المسبح، واغترف في يديه الماء المـترجرج. وكـان هذا هو الشّعور بالثّروة الّتي أحرزها في نهاية حياته. وفيما هو يحسّ بالسّهام المنـطلقة من شمس الصّيف، وهي تصيب عنقـه المنحني، بدا الأمـر وكـأنّه هـدف للخبث والسّخريـة الهائلين من فصـول الصّيف السّبعة والخمسين الّتي ضمّتها حياته. لم يكن وجوداً تعساً، فكلّ شيء أرشده

مجداف العقل، وتمّ في حذق تجنّب صخور الدّمار. والزعم بأنّه لم ينل لحظة سعيدة واحدة هو من قبيل الغلو المحض. ورغم ذلك فكم كانت مضجرة تلك الرّحلة! سيكون أقرب إلى مشاعره الحقّة أن يجرؤ على المبالغة والقول بأنّ حياته قد انقضت في ظلام سادر.

بدا أنّ إعلان حياته سواداً حالكاً أمر يعبّر عن تقمّص معيّن حادّ نحوها (لم يكن ثمّة تعويض، ولا متعة في ارتباطي بك. وعلى الرّغم من أنّني أطلبك مرّة واحدة فقد فرضت عليّ صداقتك العنيدة وأجبرتني على السّير الفظيع على حبل مشدود هذا السّير الّذي يدعونه العيش. جعلتني مقتصداً في ما أنا مولع به، ومنحتني مقتنيات زائدة على نحو يثير السّخرية، وحوّلت العدل إلى ورق جديد بسلّة النّفايات، وقلبت العقل إلى مجرّد أثاث، وقصرت الجمال على أشدّ أشكاله تهلهلاً). فالحياة تجهد بقوّة لتنفي استقامة الرأي، ولتعالج البدعة، ولتوقع الإنسانيّة في فخّ الغباء. لقد كانت تراكماً للأربطة المستخدمة الّتي لوّثتها طبقات من الدّم والصّديد. والحياة هي التّغيير اليومي لأربطة القلب الّتي جعلت المريض الّذي لا برء له، شابّاً وعجوزاً على السّواء، يصرخ من فرط الألم.

كان هوندا يعرف أنّه موضوعي بما فيه الكفاية حيال نفسه. وكان بالنّسبة للآخرين، في عداد أكثر المحامين ثراء، وفي وضع يتيح له أن يستمتع بكهولة مترفة. وكانت تلك مكافأة لرفعه لواء العدالة المطلقة. ولم يكن هناك سجلّ للكسب غير المشروع يشوب نقاء حياته الطّويلة قاضياً ومحامياً. وهكذا نظر إليه، وإن كان ببعض الحسد، دونما لوم أو انتقاد. وكانت تلك إحدى المكافآت المتأخّرة عن موعدها الّتي يمنحها المجتمع أحياناً لمواطن مثابر. وعند هذا المنعطف في الحياة

فإن خطيئته الصّغيرة إذا ما ظهرت للعلن تجاهلها النّاس بابتسامة، ناظرين إليها على أنّها إحدى نقاط الضّعف الإنسانيّة الّتي لا ضير منها وهي موجودة في الجميع. وباختصار فإنّه يحظى بكلّ ما هو مرغوب فيه في عيني الدّنيا، باستثناء أنّه لم ينجب أطفالاً.

لقد سبق أن تحدّث مع زوجته عن تبنّي طفل، واستحثّهما الآخرون على القيام بذلك، ولكن رابي تزايد تردّدها في مناقشة الأمر، وفقد هوندا بدوره اهتمامه بالموضوع بعد وصوله إلى ثرائه الرّاهن. فقد ساوره الشكّ في أنّ النّاس يسعون وراء ماله فحسب.

تناهت أصوات من الدّار فأصاخ السّمع، وتساءل عمّا إذا كان أحد الضّيوف قد وصل، في هذا الوقت المبكر من الصّباح، ولكنّ الأمر لم يتجاوز حديث رابي مع ماتسودو. وسرعان ما قدما إلى الشّرفة وأطلّا على تموّجات المرجة.

قالت رابي:

ـ انظر، المرجة هناك متفاوتة في ارتفاع العشب. وعندما تنظر إلى فوجي فإنّ ذلك المنحدر وراء التّعريشة يغدو المنطقة الأكثر روعة، وسيكون منظر العشب غير المتساوي محرجاً لنا أمام الضّيوف، وكما تعلم فإنّ أميراً سيزورنا.

ـ نعم، يا سيّدتي. هل أجزّ العشب هناك ثانية؟

ـ أرجو ذلك.

مضى السّائق الّذي يكبر هوندا بعام واحد إلى نهاية الشّرفة ليجلب مجزّة العشب من المخزن الصّغير الّذي أودعت به أدوات العناية بالحديقة. وكان هوندا قد قام بتشغيل ماتسودو لا لأنّه أحبّه، وإنّما

لأنّه قدّر الخبرة الّتي حظي بها السّائق في قيادة السيّارات الحكوميّة طوال سنوات الحرب، وحتّى بعد ذلك.

كان كلّ شيء فيه يثير سخط هوندا ـ أسلوبه المتّسم بالكسل البالغ، وطريقته في الحديث الّتي تعكس صلفاً خفيّاً، والموقف المطلق الهدوء لرجل تقوم حياته اليوميّة بالكامل على مبدأ القيادة الآمنة للسيّارة (تحسب أنّ بمقدورك النّجاح في الحياة بمجرّد حرصك حيال الأمور على نحو ما تفعل في قيادة السيّارة. أليس كذلك؟ طيّب. إنّك مخطئ في هذا). وبينما هو يرقب السّائق العجوز، أدرك أنّ ماتسودو ربّما كان يعتقد أنّ الرّجل الّذي يعمل عنده ينتمي إلى النّوعيّة الّتي ينتمي إليها هو من الأشخاص الحذرين. وأحسّ هوندا بالضّيق، وكأنّ السّائق يقوم برسم صورة كاريكاتوريّة له.

هتف هوندا برايي:

ـ تعالي اجلسي، فلديك الكثير من الوقت!

ـ نعم، ولكن رئيس الطّهاة والنّادلين سيصلون عمّا قليل.

ـ سيصلون متأخّرين كالمعتاد.

بعد أن تردّدت رايي قليلاً، شأن خيط يتفكّك في الماء، عادت إلى دخول الدّار لتجلب وسادة، فقد كانت تخشى أن تصاب كليتاها بالبرد من ملامسة المقعد الحديدي.

قالت وهي تقتعد الكرسي المجاور لهوندا:

ـ رئيس الطّهاة والنّادلون... لا أستطيع احتمال هؤلاء النّاس وهم يلحقون الدّمار بالدّار.

ـ كم كنت سأستمتع بنمط الحياة هذا لو كنت أحبّ التألّق كالسيّدة كينكين!

ـ إنّك تطرح موضوعات قديمة للغاية!

كانت السيّدة كينكين زوجة أبرز المحامين في اليابان، بعد نهاية القرن بوقت قصير. وباعتبارها فتاة جيشاً سابقة فقد كانت مشهورة بجمالها وإسرافها. وغالباً ما كانت تشاهد وهي تمتطي صهوة جواد أشهب. وطالما أثارت الدّهشة بارتداء كيمونوهات الجيشا الضّافية الطّول في الجنازات. وعندما مات زوجها انتحرت ليأسها من استطاعتها مواصلة الحياة بالرّفاهية الّتي اعتادتها.

ـ إنّني أسمع أنّها كانت تربّي ثعابين مدلّلة، وتحمل على الدّوام ثعباناً صغيراً في حقيبتها. آه، لقد نسيت. قلت إنّك قتلت ثعباناً أمس، وسيكون أمراً فظيعاً لو ظهر ثعبان والأمير هنا.

قالتها رايي وهتفت بماتسودو الّذي كان يمضي مبتعداً بمجزّة العشب:

ـ ماتسودو! إذا عثرت على ثعبان فتخلّص منه، ولكن أرجو ألاّ تدعني أراه.

وفيما كان هوندا يرقب حركة بلعومها وهي تصيح هنالك حيث أضاء انعكاس البحيرة بلا رحمة الإيغال في العمر، تذكّر فجأة تاديشينا الّتي كان قد قابلها، وسط أطلال شيبويا خلال الحرب، واستعاد ذكرى كتاب «سوترا ملك حكمة الطاووس» الّذي أعطته إيّاه.

ـ إذا لدغك ثعبان، فما عليك إلاّ ترديد هذه الرقية: ما يا كيتو را تاي شا كا.

ـ حقّاً؟

تراجعت رايي بلا أدنى علامة على الاهتمام، بظهرها في الكرسي

من جديد. وسمح لهما صوت محرّك المجزّة الّذي بدأ للتوّ، باختيار الصّمت.

اعتبر هوندا أنّ من الأمور المسلّم بها سرور زوجته العتيقة التّفكير بزيارة الأمير الوشيكة، ولكنّه دهش حيال هدوئها فيما يتعلّق بوصول ينج تشان المتوقّع. وبدورها كانت رابي تأمل في أن تنتهي معاناتها الطّويلة إذا ما قُدِّر لها أن ترى ينج تشان إلى جوار زوجها.

كان هوندا قد قال على نحو عرضي:

ـ غداً ستحضر كيكو ينج تشان معها لحضور افتتاح المسبح، وستقضيان اللّيلة معنا.

واستشعرت رابي سروراً ممتزجاً بوخز مؤلم، فقد كانت غيرتها ممزوجة بعمق بالشكّ، حتّى إنّ أساها الّذي أخذ يتبدّد مع كلّ ثانية كان يشبه انتظار الرّعد بعد رؤية لمع البرق. وتداخل ما خشيته مع ما انتظرته بقلق بالغ، وأسعدها إدراك أنّها لم تعد بحاجة إلى الانتظار.

شابَهَ فؤاد رابي نهراً ينساب وئيداً عبر سهل فسيح مهجور، ناحتاً الضّفتين، وها هو الآن يُلقي راضياً وهو يوشك على بلوغ البحر المجهول، إرسابه الطّميّ عند المصبّ. وسيكفّ ها هنا عن كونه ماء عذباً ويتحوّل إلى بحر أجاج. وإذا زاد المرء من دفق عاطفة ما، لتصل إلى حدودها القصوى، فإنّ طبيعتها تتغيّر من تلقاء ذاتها، ولا يلبث تراكم المعاناة الّذي بدا أنّه يقضي عليها، أن يتحوّل فجأة إلى قوّة على الحياة ـ مريرة على نحو متزايد، جهمة بصورة متفاقمة، ولكنّها تغدو على حين غرّة قوّة زرقاء رحبة المدى.

لم يكن هوندا قد لاحظ أنّ زوجته مضت في التحوّل إلى امرأة شكسة وممرورة، على نحو يستحيل معه التعرّف عليها. ورابي الّتي

عـذّبته بسعيهـا الجهم الصّامت لم تعـد، في حقيقـة الأمـر، أكـثر من حشرة في الطّور الّذي يعقب اليرقانة.

وفي هذا الصّباح المشرق كانت تشعر بأنّه حتّى حالة كليتهـا المزمنـة قد تحسّنت بصورة كبيرة.

جعل الصّوت المتـواني البعيد الصّـادر عن مجزّة العشب طبلتي أذني كـلّ من الزّوجـين الصّامتـين تتذبـذب. كان صمتـاً غريبـاً تمامـاً عن الصّمت الّـذي يلزمـه زوجـان رائعـان لم يعـودا بعـد في حـاجـة إلى التّحاور. وفسّر هوندا الموقف مع بعض المبالغة على هـذا النحو: إنّهما حزمتان من الأعصاب تستند إحداهما عـلى الأخرى، وبقيـامهما بهـذا تفلحان في تجنّب الانهيار إلى الأرض في اصطدام معدني الـرّنين. بـدا الأمر وكأنّهما يذعنان لـوضعهما معـاً، بصعوبـة، وفي صمت. ولو أنّـه كان قد ارتكب جريمة متألّقة لكان بمقدوره عـلى الأقلّ أن يشعـر بأنّـه يحلّق عنـد مستوى أعـلى بقليل من مستـوى زوجتـه. ولكن كـبريـاءه جرحت بعمق عندما أدرك أنّ لكلّ من معاناة زوجتـه ونشوتـه الحجم نفسه.

كانت نوافذ غرفة الضّيوف الواقعة في الطّابق الثاني والمنعكسـة على سطح الماء قد فتحت لتجديد الهواء، وراحت السّتائر البيضاء المخرّمة ترفرف أطرافها في الهواء. اللّيلة يتوقّع أن تكون ينـج تشان وراء تلك النّـافـذة، تلك الّتي تسلّقت منهـا ذات مـرّة إلى السّقف في منتصف اللّيل، وقفزت بـرشاقـة إلى الأرض. وقد جعله هـذا التّصرف يعتقد أنّه ما كان هناك من سبيل إلاّ أن تنمو لها أجنحة. ألم تحلّق بعيداً بالفعل فيـما كانت عينـاه غافلتـين عنهـا؟ وكيف يمكن أن يتيقّن المـرء من أنها لم تنطلق ممتطية طاووساً ودون أن تقع عيناه عليها لتحرّر نفسها من قيـد

هذا الوجود وتتحوّل إلى كائن متجاوز للزّمان والمكان؟ وفتنه على نحو جليّ غياب أي دليل على أنّها لم تقم بذلك ، واستحالة التيقّن من أنّها لم يكن بمقدورها اجتراحه. وعندما بلغ هـذا الاستنتاج أدرك الـطبيعة الصّوفيّة لهواه.

بـدا سطح المسبـح وكأنّ صيّـاداً ألقى عليه شبكـة من نـور. وقـد لزمت زوجته الصّمت، ويداها الصّغـيرتان المتـورّمتان اللّتـان تشبهان إلى حدّ كبير يدي دمية يابانيّة، ممدّدتان على حافّة المنضدة، وقد غطّى ظلّ مظّلة الشّاطئ نصفهما.

كان بمقدوره الغرق في أفكاره.

وقد قيّدت واقعيّة ينج تشان بقيود من ينج تشان الّتي كـان بوسعـه أن يرصدها. إنّها فتاة ذات شعر أسود جميل وابتسامة لا تحتجب وولع بعدم الوفاء بالوعود، ولكنّها شابّـة قويّـة الإرادة للغايـة ولا سبيل إلى سبر أغوار عواطفها. وكان من المؤكّد أنّ ينج تشان الّتي تـتراءى لعيني المرء ليست كلّ ما هنالك. وبالنّسبة لهوندا فإنّ الحنـين إلى ينج تشـان الّتي لم يكن بمقدوره أن يراهـا هو الحبّ الّـذي اعتمد عـلى المجهول، والإدراك عـلى نحو طبيعي وقـد ارتبط بمـا هـو معلوم. تـرى هـل في وسعـه تحقيق حبّه؟ لا، لن يستقيم الأمـر على هـذا النحو؛ لأنّ حبّـه مضى يكافح للإبقاء على ينج تشان بعيدة، بقدر الإمكان، عن مخالب الإدراك.

منـذ شباب هـوندا، كـان كلب الصيد المتمثّـل في إدراكه حـاذقـاً للغاية. وهكذا فإنّ ينج تشان الّتي عرفها بالرّؤية تطابقت مـع قدرات إدراكه. وما من شيء غير قدرته عـلى الإدراك جعل وجودها ممكناً.

ومن هنا فإنّ رغبته في رؤية ينـج تشان عـارية، ينـج تشان الّتي لا

يعـرفهـا أحـد، أصبحت رغبـة لا سبيـل إليهـا، وتتمـزّق عـلى نحـو متنـاقض بـين الإدراك والحبّ. والـرؤيـة تكمن بـالفعـل في رحـاب الإدراك، وحتّى إذا لم تكن ينج تشان واعيـة الأمر فـإنّها منذ اللّحـظة الّتي حدَّق فيها عبر الثّقب المضيء في مؤخّرة رفّ المكتبـة غدت قـاطنة في عالمٍ خلقه إدراكها. وفي عالمها الّذي لـوثه عـالمه منـذ اللّحظة الّتي وقعت فيها عيناه عليها، فإنّ ما أراد أن يراه حقّاً لن يظهر أبداً. ومـا كـان من الممكن تحقيق حبّه. ومـع ذلك فـإنّه إذا لم يـرها فـإنّ الحبّ سيظلّ مستبعداً دوماً.

أراد أن يرى ينج تشان محلّقة، ولكنّها إذ قيّدتها إدراكاته، لم تحلّق. ومـادامت قد ظلّت مخلوقـة من مخلوقـات إدراكـاتـه فليس بمقـدورهـا انتهـاك القوانـين الطبيعيّـة الّتي تحكم هذه الإدراكـات. وباستثنـاء ما يتراءى في الأحلام، فربّما كـان العالم الّـذي تحلّق فيه ينـج تشان عـلى ظهر طاووس يمتدّ على بعد خطوة ولا يتجسّـد لأنّ إدراك هونـدا نفسه أصبح ستاراً ـ وكان معيباً ـ هائلاً يمتدّ بلا انتهاء. فكيف يكون الأمـر إذن لو أنّه تخلّص من هذا الحائل وغير الموقف؟ إنّ ذلك سيعني إزاحة هوندا من العـالم الّذي يتقـاسمه مـع ينج تشـان، وبتعبير آخـر موت هوندا نفسه.

غدا جليّاً الآن أنّ رغبة هوندا المطلقـة في ما أراد حقّـاً وصدقـاً أن يراه، لا يمكن أن تكون إلّا في عالم لا يكون هـو فيه. ولكي يـرى ما رغب فيه حقّاً فـإنّه ينبغي أن يمـوت. وعندمـا يدرك متلصّص أنّـه لا يمكن أن يحقّق غاياته إلّا بالقضاء على فعل المراقبة الأساسي ذاته، فإنّ هذا يعني موته باعتباره كذلك.

وللمـرّة الأولى في حياة هـوندا، اكتسب مغـزى الانتحـار ثقـلاً في عيني رجل عالم بالأمور مثله.

لو أنّه أنكر الإدراك على نحو ما يوجهه إليه هواه، وجرّب الهرب من الإدراك بصورة لانهائيّة، محاولاً أخذ ينج تشان إلى أرض يمكنه بلوغها فإنّ المقاومة الّتي تعني من جانب الإدراك انتحاراً مؤكّداً، ستعني خروج هوندا من عالم لوّثه الإدراك، تاركاً وراءه ينج تشان. ولكنّها ستقف في لحظة رحيله ذاتها متألّقة أمامه، وما من شيء كان قابلاً للتّنبؤ به للغاية قدر هذا.

كان العالم الرّاهن عالماً من خلق إدراكات هوندا، وهكذا فقد سكنته أيضاً ينج تشان. ووفقاً لمفاهيم مدرسة اليويشيكي فإنّه كان عالماً من خلق وعي الألايا عند هوندا. ولكن السّبب في إنّه كان مايزال عاجزاً أن يمنح نفسه بصورة كاملة لهذا المبدأ يرجع إلى أنّه كان مرتبطاً أكثر ممّا ينبغي بإدراكاته، وكان عاجزاً عن الموافقة على اعتبار جذرها وعيَ الألايا الخارجيّ الّذي ينحّي العالم لحظة دونما ندم ويجدّده في اللّحظة التالية.

فكّر هوندا، بالأحرى، في الموت على أنّه لعبة، وفتنته عذوبته. وإذ أغوته إدراكاته فقد حلم بالقداسة المطلقة للحظة الانتحار، عندما تتجلّى بكلّ تألّقها ينج تشان الّتي لم يقع عليها طرف شخص آخر، وتبدو عرياً من عنبر نقي، مثل قمر لامع يشرق.

ألم يعنِ «تحقّق الطاووس» على وجه الدّقّة هذا؟ فوفقاً لما جاء في «قواعد تصوير ملك حكمة الطاووس» فإنّ «السّمايا ـ جايو، أو الرّمز المميّز الّذي يمثّل قسم الربّ الرئيسي، يوصف بأنّه هلال يعلو ذيل طاووس، وفوق ذلك فقد رسم بدراً في ليلة تمامه. وكما أنّ الهلال يتحوّل إلى بدر فإن تعلّم القانون يتحقّق بصورة كاملة.

ربّما كان ما أراده هوندا حقّاً هو تحقّق الطاووس هذا. وإذا كان

كلّ ما في الدّنيا من حبّ بعيداً عن الكمال كبعد الهلال عنه، فمنذا الّذي لن يحلم ببدر يشرق فوق ذيل الطاووس؟

توقّف صوت مجزة العشب، وسمع صوت يتناهى من بعيد:

ـ أهذا يكفي؟

التفت الزّوجان بارتباك، شأن زوج من الببغاوات الضّجرة على مجثمها، متطلّعين إلى مصدر الصّوت. وقد وقف ماتسودو هنالك في زيّ عمله الخاكي اللّون، ولاح فوجي نصف محتجب بالفعل وسط السّحب المترامية وراءه.

قالت رابي لزوجها، بصوت خفيض:

ـ طيّب، ألا ترى أنّ ذلك كافٍ؟

ردّ هوندا:

ـ أحسب ذلك. فليس بمقدورنا أن نطالب العجوز بأكثر من اللاّزم.

شكّل بذراعيه دائرة كبيرة تعني الموافقة، وإذ فهم ماتسودو ذلك فقد مضى بمجزّة العشب عائداً إلى الدّار على مهل. وتناهى صوت محرّك من ناحية البوّابة الواقعة على جانب جبل هاكوني، ودخلت سيّارة ذات حقيبة أمتعة خلفيّة كبيرة إلى الأراضي الملحقة بالدّارة. وكانت السيّارة الآتية من طوكيو، حاملة رئيس الطّهاة وثلاثة من النّادلين ومؤونة وفيرة من الطّعام.

لم يكن هوندا قد دعا بعدُ أقدمَ السكّان في دُور الحي، على الرّغم من الحقيقة القائلة بأنّه أحدث الوافدين إلى الدّارات الّتي يستمتع أصحابها بمشهد جبل فوجي في نينوكا. وكان أولئك السكّان القدامى قد ابتعدوا عن داراتهم إذ أخافتهم الشّائعات الّتي تردّدت عن تعرّض أخلاق الجمهور للفساد من خلال المشارب الّتي فتحت تلبية لاحتياجات الجنود الأميركيّين قرب جوتمبا. وقد جلبت هذه المنشآت في أعقابها العاهرات الرّفيعات المستوى والقوّادين والدّاعرات الوضيعات اللاّتي يضربن في أراضي التّدريب وقد تسلّحن بالبطانيّات. وفي هذا الصّيف شرع ملاكو الدّارات بالعودة على مهل، وقد وجّه هوندا الدّعوة إلى بعضهم بمناسبة إنشاء المسبح.

كان أقدم مالكي الدّارات هم الأمير والأميرة كاوري وأرملة كانزايمون ماشيبا، مؤسّس بنك ماشيبا، الّتي تقدّم بها العمر. وكانت السيّدة ماشيبا قد أعلنت أنّها ستصحب معها أحفادها الثّلاثة. وكان هناك كثير من الضّيوف الآخرين من المنطقة. وبالإضافة إلى كيكو وينج تشان فقد كان من المتوقّع وصول إيمانيشي والسيّدة تسوباكيهارا من طوكيو، وقد ردّت ماكيكو في وقت مبكر للغاية بأنّها ستسافر إلى الخارج. وكانت ماكيكو تصحب في الظّروف العاديّة السيّدة تسوباكيهارا في رحلتها، ولكنّها في هذه المرّة اختارت تلميذة أخرى، كمرافقة لها.

ما إن تصبح خادمةٌ ما من العاملين الدّائمين لدى آل هوندا حتّى

تجد رابي نفسها قادرة، على نحو ما لاحظ هوندا متفكّهاً، على طردها في قسوة بالغة، رغم أنّها لم تتخلّ قطّ عن ابتسامتها العذبة في مواجهة المساعدة من الخارج، كتلك الّتي يقدّمها رئيس الطّهاة والنّادلين. وكانت تتحدّث في دماثة وتظهر التّقدير لكلّ شيء حريصةً على أن تثبت لنفسها وللآخرين أنّها محبوبة من الجميع.

سأل أحد النّادلين، وقد ارتدى زيّه الرّسمي الأبيض:

ـ سيّدتي، ماذا نفعل بشأن التّعريشة؟ هل أعدّ المشروبات هناك أيضاً؟

ـ أرجو أن تقوم بذلك!

ـ ولكن سيكون من الصّعب، بالنّسبة لنا وحدنا نحن الثّلاثة أن نقطع كلّ هذه المسافة. هل يكون مرضياً أن نترك بعض الثّلج في الدّلو المبرّد ونطلب من الضّيوف أن يعدّوا المشروبات بأنفسهم.

ـ بالتّأكيد. فالضّيوف الّذين يبتعدون إلى التّعريشة قد يكونون على أيّة حال أزواجاً من الشبّان، وربّما كان من الأفضل، على وجه الدّقّة، عدم إزعاجهم. تأكّد، على نحو قاطع، من عدم نسيان طارد البعوض حينما يبدأ الظّلام بإسدال ستره.

صدم هوندا، بصورة حقيقيّة، لسماع زوجته تتحدّث على هذا النّحو، فقد كان صوتها مرتفعاً، بصورة غير طبيعيّة، وطفت كلماتها محلّقة في الهواء. فالطّيش الّذي كان يفترض أنّها تزدريه أكثر من أيّ شيء آخر في العالم على امتداد سنوات طويلة امتزج الآن إلى حدّ كبير بكلماتها وصوتها بحيث جعله يشكّ في أنّها تتعمّد السخرية.

بدا أنّ الحركات النشطة الّتي يقوم بها النّادلون في ملابسهم الرسميّة قد شحنت الدّار بخطوط مستقيمة، فستراتهم المنشاة جيّداً،

وكفاءتهم المترعة شباباً وحيويّة في الحركـة، والاحترام البـادي عليهم، وتألّقهم المهني، كلّ ذلك حوَّل الدّار إلى عالم غـريب يبعث الانتعاش في النّفس. وقـد نحّيت كلّ الأمـور الخاصّـة جانبـاً، وطارت في كـلّ مكـان التّرتيبـات والمشاورة والأوامـر والتوصيّـات، وكـأنّها فـراشـات طويت مناديل المائدة على غرار شكلها.

وضعت مائدة حافلة بألوان الطّعام بحوار المسبح لتسمح للضّيوف بتنـاول طعامهم وهم في مـلابس الاستحمام. وتغـيّر في الحال مـظهـر الدّار المألـوف، واستخدم مكتب هـوندا الثّمـين بعد تغـطيته بمفـرش مائدة كمشرب في الهواء الطّلق. وعلى الرّغم من أنّـه هو نفسـه الّذي أصـدر التوجيهـات بإجـراء هذه التّغيّـيرات، إلاّ أنّها تحوّلت بعـد أن نفّذت إلى نوع من الانقلاب العنيف.

وإذ دفعته إلى الوراء أشعّة الشّمس الآخذة بالاحتدام تدريجيّاً فقـد أخـذ يـرقب كـلّ شيء في دهشـة. من الّـذي أعـدّ كـلّ هـذا؟ ولأيّ هـدف؟ لإنفاق المـال؟ لدعـوة ضيوف يـتركون أثـراً قويّـاً في النّفس؟ للقيـام بدور الـبرجوازيّ المجـامل؟ للتّبـاهي بـالمسبـح الّـذي اكتمـل إنشـاؤه؟ وفي حقيقة الأمـر فإنّ هـذا هو أوّل مسبـح خاصّ في نينـوكا سواء قبل الحرب أو منذ قيامها. وهناك في هذا العالم كثير من الكرماء الّـذين يغتفرون لشخص آخر ثـراءه، إذا ما وجهت إليهم الـدّعـوة لزيارة منزله.

ـ أرجو أن ترتدي هذه الملابس، يا عزيزي!

قالتها رابي وقد أحضرت سروالاً من الغزل الصّوفيّ البنّي القاتم، وقميصاً أبيض ورباط عنق على شكل فراشة مرقّشاً بنقاط بنيّة دقيقة، ووضعتها على المنضدة تحت مظلّة الشّاطئ.

ـ أتريدينني أن أبدّل ثيابي هنا؟
ـ ولم لا؟ ليس هناك إلاّ النّادلون. وبالإضافة إلى ذلك فسوف أطلب منهم الآن أن يأخذوا فترة راحة ليتناولوا طعام الغداء.

التقط ربطة العنق الّتي أخذت أطرافها القصوى شكل ثمار اليقطين، فأمسك أحد الأطراف بأصبعيه، ورفعها عالياً على نحو عابث لتواجه ضوء المسبح. كانت قطعة غير رسميّة وبائسة ومتهدّلة من النّسيج، ذكّرته بـ «الأمر العاجل» الّذي تصدره محكمة التحقيق «إخطار بإجراء عاجل واعتراض المتّهم». لقد كان هوندا نفسه هو الّذي يمقت أشدّ المقت الحفل الوشيك الإقامة... باستثناء جوهر واحد مطلق، نقطة واحدة تومض يأساً.

كانت السيّدة ماشيبا أوّل من وصل مع أحفادها الثّلاثة، وهم فتاة عَزَبة وشقيقان أصغر منها عاديان تماماً، يضعان العوينات ويبدو عليهما الاجتهاد، وأحدهما طالب في السّنة الرّابعة بالكليّة والثّاني طالب بالسّنة الثّانية. وقد توجّه الثّلاثة من فورهم إلى غرف تغيير الملابس حيث ارتدوا ملابس الاستحمام. وأمّا الجدّة الّتي كانت ترتدي كيمونو فقد بقيت تحت المظلّة.
ـ خلال حياة زوجي، ولاسيّما بعد الحرب، كنّا نخوض غمار كلّ الانتخابات واقترع دائماً ـ لمجرّد معارضته ـ للحزب الشيوعي. ثمّ أعجبت أشدّ الإعجاب بكويتشي توكودا.

مضت العجوز ترتّب ياقات كيمونوها، بلا توقّف، أو تجذب في عصبيّة ردني الرّداء وكأنّها جندب يخفض خطمه ويحكّ جناحيه. وكانت قد اشتهرت بأنّها إنسانة غير تقليديّة ومسلية. وكانت عيناها المحتجبتان وراء عوينات بنفسجيّة، والمتألقتان اللّتان لا تكفّان عن

التّمحيص، تمضيان في التّحديق، في حين توغل صاحبتهما في التكهّن بالأحوال الماليّة للجميع. وكان الجميع يشعرون لدى التعرّض لنظرتها الفاحصة الباردة وكأنّهم تابعون لها.

كانت للفتاة والشّابين، وقد عادوا مرتدين ثياب الاستحمام، الأجسام الّتي تميّز أبناء العائلات الكريمة المحتد، والأطراف الرّقيقة المعتنى بها عينها. وقفزوا إلى الماء واحداً بعد آخر، فشعر هوندا في المقام الأوّل بالأسف لأنّه لم يقدّر لينج تشان أن تكون أوّل من ينزل إلى الماء في مسبحه.

سرعان ما عادت رايي من الدّار مصطحبة الأمير والأميرة كاوري اللّذين كانا يرتديان ملابس الاستحمام بالفعل. واعتذر هوندا عن عدم إدراكه لوصولهما وعدم مجيئه لتحيّتهما، ولام رايي على عدم تنبيهه إلى ذلك، ولكن الأمير اكتفى بهزّ رأسه طالباً تجاوز الأمر برمّته، ومضى إلى الماء. وقد تابعت السيّدة ماشيبا هذا الحوار بنظرة من بدا له الأمر طريفاً، وكأنّها ترقب أناساً يتّصفون بالجلافة. وبعد أن قام الأمير بدورة في المسبح، وصعد معتلياً الحافّة، حادثته من موضعها بصوتها الحادّ:

ـ ما أشدّ فتوّتك ورجولتك، أيّها الأمير! كان حريّاً بي قبل عشر سنوات أن أتحدّاك لدخول سباق معي.

ـ قد لا أكون نِدّاً لك حتّى في الوقت الحالي، يا سيّدتي! فقد جعلتني السّباحة لمسافة لا تتجاوز خمسين متراً ألهث، كما ترين. وعلى أيّة حال فما أروع أن نستطيع الاستحمام في مسبح في جوتمبا رغم أنّ الماء بارد قليلاً.

نثر قطرات الماء عن جسمه وكأنّه يتخلّص من التّباهي فتناثرت نقاط سوداء على الإسمنت.

لم يكن الأمير نفسه قد لاحظ أنّ النّاس ينظرون إليه في بعض الأحيان باعتباره مخلوقاً فاتراً بسبب جهوده الكبيرة للتصرّف في كلّ المناسبات باللّامبالاة والطّابع غير الرّسمي اللّذين حلّا بعد الحرب. وعندما لم يعد من الضّروريّ الحفاظ على المكانة، أصابته الحيرة فيما يتعلّق بالعلاقات الإنسانيّة. ولثقته، بسبب انتمائه إلى النّخبة، بأنّ له الحقّ في كراهية التّقاليد أكثر من أيّ شخص آخر، فقد نظر باستخفاف إلى من يقدِّرونها في هذا اليوم والعصر. وربّما كان هذا أمراً لا بأس به لو أنّه كان يعني، وهو يشير إلى أنَّ شخصاً ما لم يفصح عن نزعة للتقدّم، ما لم يكن يعنيه عندما كان يعقب في الأيّام الخوالي بأنّ شخصاً ما وضيع المنبت للغاية. فقد كان الأمير يصف كلّ التّقدميّين، كما يصف نفسه، على أنّهم «المعذَّبون في أغلال التّقاليد». وهكذا كان من المحيّر أن تمضي به الخطوة التّالية إلى النّظر إلى نفسه على أنّه أحد عامّة النّاس.

عندما نحّى الأمير عويناته، قبل الاستحمام، رأى هوندا وجهه من دونها للمرّة الأولى، فقد كانت بالنسبة إليه جسراً بالغ الأهمّيّة إلى العالم، وعندما أزيح هذا الجسر بدا محياه العادي مكتسياً بقدر من الكآبة الغامضة. ويرجع ذلك في أحد جوانبه إلى وهج الشّمس. ولقد كانت كآبة يحيط الاضطراب في غمرتها بالهوّة بين النّبل الّذي طال العهد بذهابه والوقت الحاضر، فتبدو بعيدة عن بؤرة النّظر.

وبالمقابل فإنّ الأميرة الّتي بدت بدينة قليلاً في ملابس استحمامها، كانت تشعّ بالجاذبيّة الطّبيعيّة. وعندما طفت على ظهرها، ورفعت

ذراعهـا، وابتسمت، بدت كـطير ماء بـري جميـل يسبـح بسعـادة في خلفيّة صنعها جبل هاكوني. وما كان بوسـع المرء إلاّ أن يفـترض أنّها واحدة من أناس قلائل عرفوا معنى السّعادة.

أحسّ هـوندا بـالضّيق، إلى حدّ مـا، حيال أحفـاد ماشيبـا الّـذين التفّوا الآن بعد خروجهم من الماء حول جدّتهم ومضوا يتحدّثـون على نحو مهذب مع الأمير والأميرة. وكان موضوع حـديثهم مقتصراً عـلى أمـيركا وحـدها، فقـد تحدّثت الفتـاة الكبرى عن المـدرسـة الخـاصّـة العصـريّـة الّتي كـانت تـدرس فيهـا، ولم يتحـدّث شقيقـاهـا إلاّ عن الجـامعات الّتي سيمضيان إليها فـور إنهائهـما دراستهـما في اليـابـان. وكانت أميركا هي كلّ شيء. فالتلفزيـون منتشر هناك... ومـا أجمل أن ينطبق ذلك عـلى اليابـان... ولكن، بالمعـدل الحالي، قـد يقتضي الأمـر عشر سنـوات قبـل الاستمتـاع بـالتلفـزيـون هنـا... ومـا إلى ذلك...

لم تكن السيّدة ماشيبا ممّن يحبّون الأحاديث عن المستقبل، فقاطعت حديثهم على الفور.

ـ إنّكم جميعاً تضحكون منّي معتقدين أنّني لن أكون عـلى أيّ حال موجودة لأراه. طيّب، إذن، لسوف أظهر في هيئة شبح على شاشاتكم وانتم تشاهدون التلفزيون كلّ ليلة.

كـانت الطّريقـة الّتي سيطرت بهـا الجدّة دونمـا هوادة عـلى حديث الشبّان غير مألوفـة، تمامـاً كما كـان أسلوب الشبّان في الـتزام الصّمت والإصغاء إليها، في أثناء حديثها. وحدَّث هوندا نفسه بأنّهم يشبهـون ثلاثة أرانب ذكيّة.

مضى المضيف باكتساب المهارة في تحيّة ضيوفه مع ظهورهم واحـداً

إثر آخر في ثياب استحمامهم لدى مدخل الشرفة. وعلى الجانب الآخر من المسبح، ووسط زوجين من أصحاب الدّارات المجاورة، رفع إيمانيشي والسيّدة تسوباكيهارا، وقد ارتديا ملابس الخروج، يديهما محيِّين. وكان إيمانيشي يرتدي قميصاً مستوحى من أجواء هاواي، ذا تصميم زخرفي مطبوع بدا مجافيا تماماً لطابعه، بينما كانت السيّدة تسوباكيهارا ترتدي كيمونوها الأسود المعتاد من النّسيج الحريريّ الّذي يشبه زيّ الحداد. وكانت تجاهد محاولة ترك تأثير محدّد: إنّها بلّورة سوداء وحيدة موحية بالنّذر وسط تألق المسبح. وقد استشفّ هوندا ما في أعماقها على الفور، واستنتج أنّ إيمانيشي قد ارتدى قميصه المثير للسخرية ليهزأ من خليلته السّاذجة الّتي كانت تحاول على الدّوام أن تلعب أدواراً لا تناسبها.

تخلّف إيمانيشي والسيّدة تسوباكيهارا وراء الضّيوف المفعمين بالحركة والنّشاط في ملابس استحمامهم، ومضيا على مهل يسيران على امتداد حافّة الماء الّذي جعل انعكاس لوني ملابسهما، الأصفر والأسود، يترجرجان.

كان الأمير والأميرة يعرفان إيمانيشي والسيّدة تسوباكيهارا معرفة جيّدة، فقد شهد الأمير كثيراً من اجتماعات ما بعد الحرب الّتي عقدتها النّخبة الثّقافيّة، كما كانت تُدعى، وكان على علاقة ودّية بما فيه الكفاية بإيمانيشي، علاقة تتيح له الحديث دونما التزام بالرّسميّات معه.

قال محدّثا هوندا:

ـ لقد وصل ذلك الرّجل المسلّي.

ما إن جلس إيمانيشي حتّى انتزع الغلاف المجعّد عن صندوق من

السّجائر المستورد، ، وألقاه بعيداً، واجتذب علبه جديـدة. وبعد أن جـرّدها من غـلافها ربّت عـلى أسفلها، واستـلّ في حـذق سيجـارة، وقال، على نحو يفتقر للحماسة:

ـ لست أستطيع النّوم في هذه اللّيالي.

ـ هل هناك ما يثير قلقك؟

قالها الأمير متسائـلاً، وقد وضـع على المنضـدة صحفة كـان يتناول الطّعام منها لتوّه.

ـ ليس بشكل خاصّ، ولكن لابـدّ لي من شخص أجاذبـه أطراف الحـديث في منتصف اللّيل، ونمضي في ذلـك الحديث حتّى الصّبـاح، وعندما تشرق الشّمس نشعر بالرّغبة في الانتحار، ثمّ نتناول في جـدّيّة الأقــراص المنـوّمــة، ولكنّنـا نستيقظ، فنجــد أنّ شيئـاً لم يحــدث، فالصباحات كلّها سواء.

ـ أيّ نوع من الأحاديث هو الّذي تنغمس فيه ليلة بعد أخرى؟

ـ هنـاك الكثير ممّـا يمكن الحديث عنـه إذا علمت أنّ هذا سيكـون آخـر حديث لـك. ونحن نتناول كـلّ موضـوع ممكن في الدّنيـا، مـا فعلناه، وما فعله الآخرون، وما عايشه العالم، وما اجتازته البشـريّة، أو أشياء حلمت بها قارة منسيّة على امتداد آلاف عديدة من السّنـين. وسيكـون أيّ شيء مناسبـاً، فهناك أنـواع عديـدة من الموضـوعـات، وسينتهي العالم اللّيلة.

بدا الأمير شديد الاهتمام، وواصل طرح الأسئلة.

ـ ولكن إذا ألفيت نفسك حيّاً في اللّيلة التّالية، فعمَّ تتحدّث إذن؟ لقد تناولت كلّ شيء.

ـ ذلـك ليس مشكلة، فـما عليـك إلاّ الحـديث عنهـا جميعهـا من جديد.

لزم الأمير الصّمت وقد أذهلته هذه الإجابة الّتي بدت وكأنّها تشير إلى أنّ إيمانيشي يتلاعب به.

وقف هوندا جانباً مصغياً للحديث، ولم يدرِ مدى جدّيّة إيمانيشي، ثمّ تساءل متذكّراً حكاية إيمانيشي الغريبة الّتي سمعها ذات مرّة.

ـ بالمناسبة، ماذا حدث لأرض الرمّان؟

قال إيمانيشي، محوّلاً عينين باردتين إليه، وقد بدا وجهه موحياً بالانغماس في الذّات أكثر من ذي قبل، وشكّل مفارقة على نحو غريب مع قميص هاواي الملوّن والسّجائر الأميركيّة، معطياً الانطباع، فيما أحسّ هوندا، بأنّه مترجم يعمل مع قوّات الاحتلال:

ـ آه، لقد قضي عليها، ولم يعد لها وجود.

كانت هذه هي طريقته العاديّة في الحديث، ولم يثر ما قاله في حدّ ذاته دهشة هوندا. ولكن إذا كانت الألف عام من الجنس الّتي دعيت ذات يوم بأرض الرمّان قد فنيت في أوهام إيمانيشي، فإنّها ينبغي كذلك أن تختفي في ذهن هوندا الّذي كره هذه الصّور الخياليّة. لم يعد لها وجود. ارتكب إيمانيشي جريمة ذبح هذه الصّورة الخياليّة، وكان بمقدور هوندا تخيّل انتشائه بسفك الدّماء الفاتن في غمرة القضاء على المملكة الّتي أبدعها. كان بوسعه تصوّر المشهد المعذّب تلك اللّيلة. لقد أبدع بالكلمات، ودمّر بالكلمات، وعلى الرّغم من أنّ المملكة لم تظفر قطّ بالواقعيّة، إلاّ أنّها رغم ذلك تجلّت في موضع ما، والآن قضت عليها نزوة قاسية. وإذ رأى هوندا لسان إيمانيشي الّذي خشّنته المخدّرات وغدا لونه بنّياً ضارباً إلى الصّفرة وهو يلعق شفتيه، فقد تصوّر على نحو متوهّج جبالاً من الجثث وأنهاراً من الدّماء.

ولو قورنت رغباته برغبات هذا الضّعيف الشّاحب لَبَدَتْ أكثر

هدوءاً وتواضعاً، غير أنّها كانت بالمثل مستحيلة التّحقيق. وإذ رأى إمانيشي الّذي لم يظهر أدنى أثر للنّزعة العاطفيّة، وإذ سمعه يعلن بلامبالاته المصطنعة المميّزة دمار أرض الرمّان فقد أحسّ بأنّ عبث الأمر يخترقه حتّى النّخاع.

ولكن استرسال خواطره قطعته في الحال السيّدة تسوباكيهارا الّتي انحنت تهمس في أذنه. وأفصحت حقيقة همسها في أذنه بصوت خفيض على نحو خاصّ عن الحقيقة القائلة بأنّها ليس لديها شيء مهمّ تفضي به.

ـ هذا حديث بيني وبينك وحدنا. إنّك تعلم بأنّ ماكيكو في أوروبا. أليس كذلك؟

ـ هذا هو ما سمعته.

ـ إنّني لا أتحدّث عن الرّحلة ذاتها. وإنّما أردت إبلاغك بأنّها لم توجّه لي الدّعوة للذّهاب معها هذه المرّة، بل اصطحبت تلميذة سوقيّة مجرّدة من الموهبة معها. ولكنّني، لا أنتقد ذلك بالطّبع. وكلّ ما في الأمر أنّها لم تخبرني بشيء عن رحيلها. هل يمكنك تصديق ذلك؟ لقد ذهبت لتوديعها في المطار، ولكن مشاعري غلبتني فلم أستطع التّلفّظ بكلمة واحدة.

ـ ترى لماذا لم تذكر الأمر. لقد كنتما لا تنفصلان عمليّاً.

ـ إنّنا لم نكن بعيدتين عن الانفصال فحسب، وإنّما كانت معبودتي. وقد هجرتني معبودتي. والحكاية طويلة، ولكن عندما واجهت عائلتها صعوبة كبيرة بعد الحرب، وكان أبوها، وهو شاعر أيضاً، ضابطاً في الجيش، ساعدتها قبل أيّ مخلوق آخر. ولم أخف عنها شيئاً. وأظنّ أنّني قد عشت ونظمت الشّعر على نحو ما أرادت

منّي فحسب، وقد أبقاني على قيد الحياة الشّعور بـالجسم والرّوح وقـد ارتبطا بمعبودة، على الرّغم من أنّني كنت مجرّد قوقعة بعد أن فقـدت ولدي في الحرب. ومشاعري لم تتغيّر على الإطـلاق، حتّى وإن طارت شهرتها، ولكن الأمر السّيئ الوحيد هو أنّه كانت هناك هوّة أوسـع ممّا ينبغي بين موهبتها وموهبتي، أو بالأحرى أصبح أكثر وضـوحاً من ذي قبل بالنّسبة لي، بعد أن تعرّضت للهجران، أنّني منذ البدايـة لم أحظ ولو بقسط ضئيل من الموهبة.

قـال هونـدا، تعبيراً عن مجـاملته، وهـو يضيّق عينيه في مـواجهـة الضّوء المرتدّ عن المسبح:

ـ إنّني على يقين من أنّ ذلك ليس صحيحاً.

ـ لا، إنّني أعلم ذلـك تمـام العلم الآن. ولا ضرر من مـواجهـة الأمر، ولكنّه من الجـليّ بالنّسبـة لي أنّها لابدّ أن تكـون قد علمت من البـداية بجليّـة الأمر. أيمكنـك أن تتصوّر شيئـاً أشدّ قسـوة من هذا؟ كانت تعرف أنّني مجـرّدة من الموهبـة تمامـاً، وقد قـادتني من خطمي، وجعلتني أذعن لكـلّ أوامرهـا، وكانت تـربّت في بعض الأحيان عـلى كتفي، ولقـد استغلتني كيفـما طـاب لهـا، ثمّ نبـذتني كحـذاء عتيق، ومضت إلى أوروبا مع تلميذة ثريّة أخرى متملّقة.

ـ دعينـا نضع جـانباً مسـألة مـوهبتك. إنّ مـاكيكو تحـظى بقـدرة متميّـزة، وتعلمين أنّ ذلـك تصحبه دائـماً قسوة لا تعـرف السّبيل إلى الرّحمة.

ـ تمـامـاً كـما أنّ المعبـودة قـاسيـة... ولكن كيف يمكنني يـا سيّـد هـوندا، مـواصلة الحياة بعـد أنّ هجرتي معبـودتي؟ وبـدون تلك الّتي كانت تعرف كلّ خلجاتي وأعمالي فما الّذي أستطيع عمله؟

ـ ماذا عن الدّين؟

ـ الدّين؟ لا طائل وراء الاعتقاد في كيـان خفي لا يعكس مخاطـرة الخيانة. لن يمضي الأمر قدماً إذا لم يكن بمقدوري أن يكـون هناك من يـرقبني، من يأمـرني بأن أفعـل هـذا وأتجنّب ذاك، من يمسـك بيـدي ويقودني إلى كلّ عمل أقوم به، من لا أستطيـع أن أخفي عنه شيئـاً، من أتطهّر أمامه ولا يساورني الشّعور بالخجل.

ـ لسوف تكونين على الدّوام طفلة وأمّاً.

ـ نعم، يا سيّد هوندا، لسوف أكون كذلك حقّاً.

كانت الدّموع تتألّق في عيني السيّدة تسوباكيهارا، بالفعل.

في تلك اللّحظة كان في المسبح أبناء ماشيبا وزوجان وصلا حديثاً، وانضمّ إليهم الأمير كاوري، وأخذوا يتقاذفون كرة مطّاطيّة كبيرة ذات خطوط طوليّة خضراء وبيضاء. وأضاف صوت الماء المتطايـر والصياح والضّحـك المرح تـألّقاً إلى الضّـوء المنتشر في المسبـح، وراح السّـطح الأزرق، المتأرجح يتقافز متحوّلاً إلى دفق من الرّؤوس البيضاء، والماء الّذي كان يلحق بهدوء أركان المسبح، حفل الآن بـظهور المستحمّـين الّذين جعلوا يحدثون فتحات عميقة في سطحه لتعود فتلتئم في الحـال وتتحـوّل إلى مويجـات تعمّ المنتشرين في المسبح. والـرّذاد الّـذي يعلو وسط المتصـايحين في أحـد الجوانب يفـرز دوائر زيتيّـة لا حصر لها من الضّوء على الجانب الآخر فتتشابك كلّهـا، ويتسع نـطاقها، عـلى نحو متزايد.

تبدّت الكرة المخطّطة باللّونين الأبيض والأخضر وهي تعلو طائـرة وسط السّابحين، وقد تناهبهـا انقسام النّـور والظّل. وكـان لون المـاء ودرجات ألوان ملابس الاستحمام، وحتّى النّاس الّذين يلهون هناك، كلّ ذلك كان غير مرتبط بمشاعـر إنسانيّـة من أيّ عمق. غير أنّ هـذا

القدر من الماء وحركته، والضّحك، وصيحات النّاس، أثار بشكل من الأشكال شعوراً بالمأساة في ذهن هوندا. وجعل يتساءل عن السّرّ في ذلك.

هل يرجع الأمر إلى الشّمس؟ تطلّع إلى السّماء، حيث بدا عمق الزّرقة وكأنّه يشوه الضّياء، وشرع بالعطس. وعند ذلك على وجه الدّقّة خاطبته السيّدة تسوباكيهارا بصوتها الباكي المألوف الّذي كتمه المنديل الحتمي الوجود الّذي غطّت به وجهها:

ـ يا له من وقت جميل ذلك الّذي يقضونه! منذا الّذي كان يتخيّل خلال الحرب أنّ هذا سيكون ممكناً على الإطلاق، لقد أردت بشدّة أن يعايش أكيو هذا. . . لمرّة واحدة على الأقلّ.

كانت السّاعة قد تجاوزت الثانية عندما اصطحبت كيكو ينج تشان إلى الشّرفة، وهما في ثوبي استحمامهما. وبعد أن انتظر هوندا وقتاً طويلاً جدّاً بصبر نافد للغاية بدا له ظهور ينج تشان روتينيّاً أكثر ممّا ينبغي.

بدت كيكو عبر المسبح وهي ترتدي ثوب استحمام ذا خطوط رأسيّة سوداء وبيضاء مبجهة للحواس. وكان من المتعذّر تصديق أنّها في حوالي الخمسين من عمرها؛ فقد ساعدتها الحياة ذات الطّابع الغربي الّتي عاشتها، منذ طفولتها، على أن تكون لها ساقان طويلتان، بديعتان، تختلفان تماماً عن سيقان النّساء اليابانيّات. كانت حركتها بديعة، ولدى النظر إليها من منظور جانبي، وهي تتحدّث مع رابي بدت تقوساتها متدفّقة بجلال تمثال شامخ. وبدا شموخ اللّحم اللّدن في تكامل وتناسق الثديينّ الناهضين والرّدفين المتراميين.

شكّلت ينج تشان مفارقة مثاليّة إلى جوارها، فقد كانت ترتدي

ثوب استحمام أبيض، وتمسك بإحدى يديها غطاء رأس مطّاطيّاً أبيض ممّا يستخدم في السّباحة، وتدفع شعرها إلى الوراء باليد الأخرى في استرخاء، وقد مدّت ساقاً وراء أخرى. ولاح في طريقتها الخاصّة بوضع ساق أبعد إلى الأمام قليلاً عن الأخرى، وقد بدت جليّة عن بعد، نوع من اللاّتساوق الاستوائي فأثار النّاس. ووشت فخذاها القويّتان ـ رغم نحولها ـ الممتدّتان اللّتان تحملان جذعاً بالغ النضج، بشعور بالتقلقل. وقد كانت في هذا مختلفة أشدّ الاختلاف عن كيكو. وبالإضافة إلى ذلك فقد أبرز ثوب الاستحمام الأبيض سمرة بشرتها. وذكّر هوندا النّهدان المكّسوان بالثّوب، ونضجهما الّذي أوحت به البشرة القاتمة، بالجداريّة المرسومة على جدران المعبد الكهفي في أجانتا، وكانت تصوّر الرّاقصة المحتضرة. وكان بمقدوره أن يرى بوضوح من هذا الجانب من المسبح أسنانها المتألّقة أكثر بياضاً من ثوب استحمامها عندما تبتسم.

ولدى دنوّها نهض هوندا لتحيّتها، بعد أن انتظرها بشغف بالغ كلّ هذا الوقت.

ـ الجميع هنا الآن.

قالتها رابي مسرعة، ولكنّه لم يحر ردّاً.

وحيّت كيكو الأميرة ولوّحت للأمير في المسبح.

وقالت بصوتها النّاعم المترع بالثّراء، من دون أن يبدو عليها ما يشير إلى التّعب:

ـ أشعر بالإرهاق، بعد هذه التّجربة، إنّني أقلّ إتقاناً للقيادة من أن أمضي بالسيّارة من كاريوزاوا إلى طوكيو، وأُقِلّ ينج تشان وأقطع الطّريق كاملاً إلى جوتمبا. نحن محظوظتان تماماً لوصولنا إلى هنا. ترى

لماذا تبتعد السيّارات كلّها بوضوح عندما أقود سيّارتي. الأمر يشبه قيادة السيّارة في أرض يتجنّبها الجميع.

ـ من الواضح أنّهم قد تأثّروا بمكانتك الرّفيعة.

قالها هوندا، ولسبب غير واضح ضحكت رايي بعصبيّة.

وقفت ينج تشان في غضون ذلك لاهية عن الجميع، وظهرها إلى المنضدة، وهي تعبث بغطاء رأسها الأبيض، منتشية بتلاطم الماء في النّور. وتألّق السّطح الدّاخلي بغطاء الرأس المطّاطي الأبيض وكأنّه دهن بالزّيت، فيما كانت تعبث به. وافتتن هوندا تماماً بمرأى جسدها، وبعد وقت ليس قطّ بالقصير لاحظ شيئاً أخضر يتألّق في أحد أصابعها. وكان الخاتم الزمرّدي الّذي تحيطه الياكشا الحارسة.

في لحظة رؤيته للخاتم حلّقت نشوته بلا حدود. فقد كان ذلك مؤشّراً على أنّها سامحته، وأنّ ينج تشان الّتي تتحلّى بالخاتم قد أصبحت ينج تشان الأيّام الخوالي: حفيف أوراق الغابة في مدرسة النّبلاء في يفاعة هوندا، الأميران السّياميّان، والكآبة المرتسمة في أعينهما، إعلان وفاة الأميرة تشانترابا الّذي بلغهم في حوالي نهاية الصّيف في حديقة الدّارة الجنوبيّة، التدفّق الطّويل للزّمن، لقاء الأميرة الصّغيرة سنى البدر في بانكوك، الاستحمام في بانج با إن، الخاتم الّذي عاود الظّهور في يابان ما بعد الحرب ـ لقد نسج الماضي بأسره، متحوّلاً إلى سلسلة ذهبيّة ترتبط بحنينه إلى المناطق الاستوائيّة. وعندما تحلّت ينج تشان فقط بالخاتم شكّلت سلاسل من النّغمات الدّالة الحزينة المتألّقة الّتي أخذت تتقلّب على الدّوام في ذكرياته المتشابكة.

سمع طنين النّحلات قرب أذنيه، واشتمّ عبقَ النسيم الّذي ذكّره

بالحنطة المشويّة، عَرْفَ الصّيف الّذي لا سبيل إلى الخطأ بشأنه. لم يكن الزّوجان هوندا مغرمين على نحو خاصّ بالزّهور، ولم تتّسم الحديقة بشيء من جمال سهول فوجي الصّيفيّة الّتي تزدهر فيها الزّهور الحمراء الورديّة والجنطايان الصّفراء الفاتنة. ولكن امتزج في الريح المترعة بالعبق عَرْفُ هذه الحقول على نحو رقيق بالغبار الّتي أثارتها مناورات الجيش الأميركي وصبغت السّماء عند الأفق باللّون الأصفر في بعض الأحيان.

تردّدت أنفاس ينج تشان إلى جوار هوندا. وجعل جسمها يرحّب بالصّيف وكأنّه شديد الحساسيّة لعدواه الخاصّة. ولقد اعترتها عدوى الصّيف من قمّة رأسها إلى أخمص قدميها. وشابَهَ نسيج بشرتها وهج ثمرة فاكهة تايلانديّة غريبة بيعت في السّوق في ظلّ شجرة سنط. كان جسماً عارياً، نضج مع الوقت، واكتمل، مشيراً إلى إنجاز ما، أو وعد.

وفيما هوندا يتأمّل الأمر أدرك أنّ المرّة الأخيرة الّتي رآها فيها عارية كانت وهي في السّابعة من عمرها، أي قبل اثنيّ عشر عاماً. وقد تسطّح البطن الطّفولي شبه الممتلئ الّذي يذكره على نحو متدفّق بالحيويّة. ولكن، وكأنّما في معرض التّعويض، نما الصدر الصّغير على نحو يُبهج الحواس. وفيما كانت مشغولة بضجّة المسبح وقد وقفت وظهرها إلى المنضدّة، استطاع هوندا أن يلاحظ بالتفصيل الخيوط الّتي عقدت عند قفاها وتدلّت إلى الجانبين، وربطت الوركين. فقد شكّلت المساحة الممتدّة بين هذين الحدّين خطّاً مستقيماً جميلاً من الظّهر العاري إلى مفترق ردفيها. وإلى أعلى من ذلك مباشرة كان بمقدوره أن يرى المنحنى الهابط وهو يتردّد قليلاً عن عصعصها، شأن

الحوض الهادئ لشلّال صغير، وخطي الرّدفيْن المكسوّيْن باستدارة بـدر ينهض وروعته. وبدت برودة اللّيل متضمَّنة في اللّحم المعرّى، بينما لاح الألق مشعّاً من اللّحم المحتجب. وقد رقشت المـظلّة النّسائيّـة الصّغيرة بشرتهـا النّاعمـة بالنّـور والظلّ فبـدت ذراع في الظلّ كـالبرونـز، وأمّا الأخـرى الّتي في الشّمس فكـانت تشبـه السّطح المصقـول لخشب السّفرجل الصّيني. ولم تكن البشرة الّتي تقاوم الهواء والماء معاً، ناعمة فحسب، وإنّما كانت لها طراوة بتلات زهور الأوركيد العنبريّـة. وكان الـتّركيب العظمي الّـذي بدا رقيقـاً عن بعد، قـويّاً في حقيقـة الأمر، ومتناسق الأبعاد، رغم صغره.

قالت كيكو:

ـ طيّب. هل ننزل إلى الماء؟

ـ نعم، دعينا ننزل.

قـالتهـا ينـج تشـان وهي تنـظر إلى الـوراء بمـزيـد من الحيـويّـة، وابتسمت، فقد كانت تنتظر هذه الكلمات.

ثمَّ وضعت غطاء الرأس الأبيض على المنضدة، ورفعت ذراعيهـا، لتدفع بشعرها الجميل إلى أعلى. وأتاحت الحركـة السّريعة الّتي أُديت بإهمال بالغ، الفرصة لهوندا الّذي كان في وضع جيّد لكيّ يـرى تحت ذراعهـا الجـزء الأسفـل من جـانبهـا. كـان الجـزء العلويّ من ثـوب الاستحـمام مصمّماً عـلى غرار ميـدعـة، وفي الجـزء الّـذي يعلو ثـدييهـا خيط يمرّ من خلاله، ثمَّ حول قفـاها حيث يـربط الطّرفـان، ثمَّ يعقد بأكثر من أنشـوطة عنـد الظّهـر. وقد صمّم خطّ الصـدر منخفضاً بمـا يكفي للكشف عن منبت الثديين، وحجب جانباها بالنّهايات الضيّقـة الّتي تشبـه الحزام، والّتي شكّلت الأنشـوطات للخيـوط عند الـظّهر.

ومن هنا فإنّه على الرّغم من أنّ أسفل الجانب كان بادياً للعيان على الدّوام، إلاّ أنّها عندما رفعت ذراعيها انتقلت شرائح النسيج الضيّقة من موضعها، كاشفة تماماً عن أجزاء كانت محتجبة في السّابق. ورأى هوندا أنّ الامتداد المتماسك للبشرة هناك لم يكن يختلف عن المساحات الأخرى، فلم تكن هناك شائبة أو نقيصة واحدة. ولم يبد أنّ هناك ما يعيبها، حتّى في الشّمس، وما من إشارة إلى شامة كان يمكن للعين أن ترصدها، فاندلعت النّشوة في أعماقه.

دفعت ينج تشان بكتلة الشّعر تحت غطاء الرأس الخاصّ بالسّباحة، وانطلقت إلى المسبح مع كيكو. وفي الوقت الّذي أدركت فيه كيكو أنّها ماتزال ممسكة بسيجارتها فعادت إلى المنضدة، كانت ينج تشان قد نزلت عمليّاً إلى الماء. وبعد أن تأكّد هوندا من أنّ رابي ليست على مقربة، همس في أذن كيكو وهي تنحني لتسحق سيجارتها في منفضة السّجائر.

ـ أرى أنّها تتحلّى بالخاتم.

ولزمت كيكو الصّمت، ولكنّها أومأت إيماءة العارف بالخبايا، وقد بدت تجاعيد صغيرة، كانت خفيّة في العادة، عند ركنيْ عينيها.

بينما كان يحدّق منتشياً في المستحمّين، عادت رابي وجلست إلى جواره، وراحت ترقب عامدة ينج تشان وهي تتواثب كالدّلفين، خارجة من الماء المتألّق وتنغمس فيه من جديد، وقد علت شفتيها ابتسامة. وقالت رابي وهي تصرف بأسنانها:

ـ بجسم كهذا ينبغي لها أن تتجنب كثيراً من الأولاد.

لم يستطع هوندا في تلك اللّيلة الاهتمام بالكتب المعتادة في المكتبة.

وعثر في جارور بالمكتب، نادراً ما يفتح، على نسخة من «وقائع المحكمة». ولعدم وجود ما هو أفضل للقيام به فقد شرع في القراءة. كانت المادّة تدور حول الحكم الّذي صدر في يناير ١٩٥٠ وجعل من هوندا المالك القانوني لمقنياته الحاليّة.

وفتح الملفّ الضّخم الّذي يضمّ أوراقه خيط أسود على مكتب إنجليزي بجزء خاصّ بالكتب مكسو بالجلد المراكشي.

«البند الأساسي: يُلغى بمقتضى هذا الحكم القرار رقم ٩٠٦٥ الصّادر في ١٥ آذار (مارس) ١٩٠٢ من قبل وزارة الزراعة والتّجارة والغابات الوطنيّة، والقاضي بعدم جواز إعادة الأراضي المملوكة على المستوى الوطني. وعلى المدّعى عليه أن يعيد إلى المدّعي تلك الغابات الوطنيّة الموضحة في موضع آخر من هذه الأوراق، ويتحمّل المدّعى عليه النّفقات القانونيّة».

لا شيء أكثر إعجازاً من الحقيقة القائلة بأن الغابات والجبال في منطقة بمقاطعة موشيما الّتي لا صلة لها أصلاً على الإطلاق بهوندا تشكّل الآن الجسم الأساسيّ لثروته وتدعم تحلّل شيخوخته. وعلى الرّغم من أنّه أحرز الفوز على هذا النّحو فإنّ ذلك لا علاقة له بالقضيّة الأصليّة الّتي أقيمت في عام ١٩٠٠ ورفضت في عام ١٩٠٢ ثمّ دفعت قُدُماً بعناد على امتداد نصف قرن، بغضّ النّظر عن تقلّبات التّاريخ. فلقد كرّرت غابات أشجار سرو اليابان الّتي لا يطرقها

النّاس ليلاً قطّ والنّباتات الرّطبة النّامية أسفلها دورةَ حياتها الطّبيعيّة مراراً وتكراراً لتتيح له نمط الحياة الّذي يعيشه الآن. تُرى كيف كان يمكن أن يكتشف غريب مار عبر الغابة في صدر هذا القرن، إذا ما أثّر فيه نبل قمم الأشجار الطّالعة إلى السّماء، أنَّ السّبب الوحيد لوجودها هو أن تدعم حماقات رجل بعد نصف قرن من الزّمان.

أصاخ هوندا السّمع. كانت أصوات الحشرات ماتزال نادرة. وقد أوت زوجته إلى فراشها، في الغرفة المجاورة، وتغلغلت في الدّار البرودة الّتي تتّبع فجأة حلول اللّيل.

كان الحفل الّذي أقيم لتدشين المسبح قد انتهى في حوالي السّاعة الخامسة، وكان من المقرّر أن يعود كلّ الضّيوف إلى بيوتهم، باستثناء كيكو وينج تشان. ولكن إيمانيشي والسيّدة تسوباكيهارا رفضا في عناد الرّحيل، فقد جاءا عاقدين العزم على قضاء اللّيلة. وكنتيجة لهذا فإنّ ترتيبات طعام العشاء والإيواء جميعها تعينّ الإعداد لها من جديد، وكانت السيّدة تسوباكيهارا غافلة عن الإزعاج الّذي خلقته.

شقّ الزّوجان هوندا وكيكو وينج تشان وإيمانيشي والسيّدة تسوباكيهارا طريقهم إلى التّعريشة، حيث أمضوا بعض الوقت.

كان مشروع هوندا الأصليّ هو أن يخصّص لكيكو غرفة الضيوف الأبعد، ويحتجز غرفة الضّيوف الأقرب المجاورة للمكتب، لينج تشان، ولكن تغيير الخطط اقتضى أن يخصّص الغرفة الأبعد لإيمانيشي، وأن يضع كيكو مع ينج تشان. وقد عاق ذلك خطّة استخدام ثقب التلصّص لرصد ينج تشان خلال نومها بمفردها. فمن المؤكّد أنّها ستكون أكثر تحفّظاً بوجود كيكو هناك.

بدت كلمات وثائق المحكمة وعباراتها بلا معنى بالنّسبة له.

«سادساً: في الفقرة ١٥ من الأمر ٤ فإنّ عبارة «سيعترف بآخرين باعتبارهم المالكين الفعليّين وفقاً للوائح حكومة توكوجادا ولوائح كلّ إقطاعيّة» تعني أنّه بالإضافة إلى حالات الملكيّة المعترف بها والمحدّدة في الفقرات من ١ إلى ١٤، عندما يمكن التيقّن من أنّ الملكيّة كان معترفاً بها، بصفة عامّة، فإنّ العقار يمكن أن يعاد إلى المالك المعترف به. و«الاعتراف العام» يعني....».

تطلّع إلى السّاعة فأدرك أنّها تشير إلى الثانية عشرة وخمس دقائق أو ستّ. وتوقّف قلبه عن الخفقان فجأة وكأنّه تعثّر بشيء في الظّلام. وبدأ وجيب حار عذب على نحو لا سبيل إلى وصفه.

كانت ضربات القلب تلك مألوفة له. وعندما كان يجثم في الحديقة ليلاً ويوشك ما كان ينتظره مترقّباً على الحدوث أمام عينيه، فإنّ قلبه كان يأخذ بالخفقان المتسارع وكأنّما غزته فرقة من النّمال الحمراء.

تيهور. تيهور قاتم من الشّهد كاسحاً كلّ شيء بحلاوته الخانقة، سحق أعمدة العقل، فاستحالت كلّ الانفعالات إلى هذه الخفقات الميكانيكيّة المتسارعة. وذاب كلّ شيء. وكان من العبث مقاومة الخفقات.

من أين جاء هذا التيهور؟ في موضع ما، هنالك يوجد مستقرّ الرّغبة الحسيّة المنعزل، وعندما يبعث بأوامر من بعيد فإنّه أيّاً كانت الهوائيّات قاصرة فإنّ الرّغبة تتحرّك بحساسيّة، ويستجيب المرء متخلّياً عن كلّ شيء. فما أشدّ تشابه صوتي الرّغبة والموت! عندما يستدعى المرء فإنّ كلّ الأعمال تغدو بلا أهمّيّة. وكما هو الحال على سطح سفينة شبحيّة هجرها طاقمها، وسواء أكان العمل مداداً في دفتر

السفينة أو طعاماً لم يؤكل، أو أحذية نصف ملمّعة، أو المشط المتروك أمام المرآة، أو حتّى الحبال نصف المعقودة ـ فإنّ كلّ شيء يتنفّس بالرّجال الرّاحلين، على نحو غامض، كلّ شيء كان قد ترك على ما هو عليه في عجلة الرّحيل.

كانت الخفقات المتداركة علامات على الرّغبة المنبثقة. فليس ثمّة ما ينتظر بجلاء إلّا القبح والعار، ومع ذلك فإنّ هذه الخفقات العجلى كانت تحظى بثراء قوس قزح وألقه، وثمّة شيء لا يُميَّز عن الجلال يتدفّق مندفعاً.

شيء لا يُميَّز عن الجلال! ها هنا مربط الفرس. فلا شيء أبعد عن الجاذبيّة من الحقيقة القائلة بأنّ القوّة الّتي تدفع المرء قُدُماً نحو ما هو أكثر نبلاً وإنصافاً من الأعمال، وتلهم أشدّ الملذّات وضاعة وأكثر الأحلام قبحاً، إنّما تنبع من المصدر ذاته وتصحبها خفقات القلب المتداركة المحذِّرة عينها. والرّغبات الوضيعة تلقي ظلالاً وضيعة لا غير. وإذا لم يلتمع إغواء الجلال والسّموّ في هذه الدقّات الأولى فإنّ بمقدور الإنسان مع ذلك أن يحتفظ بكبرياء هادئة في الحياة. وقد لا يكون جذر الإغواء في الرّغبة الحسيّة وإنّما في هذا الوهم الحافل بالادّعاء بالجلال أو السّموّ الفضيّ، هذه الذّروة الغامضة الملتبسة الّتي تحجب الغيوم جانباً منها. ولقد كان شرك «الجلال» هو الّذي اجتذب الإنسان أوّلاً، ثمَّ جعله يتوق بنفاد صبر لا يحتمل إلى الضّياء الرّحيب.

نهض هوندا واقفاً إذ عجز عن مواصلة احتمال الأمر. وحدّق في عتمة غرفة النّوم المجاورة ليتأكّد من غرق زوجته في النّوم. ووقف وحيداً في المكتب المضاء. فمنذ فجر التّاريخ كان وحيداً، في هذا

المكتب، ولسوف يكون وحيداً فيه عند نهاية التّاريخ.

أطفأ النّور. وكان القمر متألّقاً فاتّخذ الأثاث أشكالاً غامضة، وتألّق المكتب المصنوع من كتلة واحدة من شجر الزلكوفا، وكأنّما سطحه مكسوّ بالماء.

مال على رفّ المكتبة، على الجدار الّذي يفصل المكتب عن الغرفة المجاورة، وأصاخ السّمع ليرصد مؤشّرات الحركة، فاستطاع سماع شيء، ولكن لم يبد أنّهما مستيقظتان، وأنّهما تتبادلان الحديث. وكان من المتصوّر أنّهما، إذا عجزتا عن النّوم فربّما انهمكتا في الحديث، ولكن لم تتسرّب إليه كلمة واحدة واضحة.

نحّى هوندا حوالي عشرة كتب غربيّة من الرفّ ليخلي مجال ثقب التلصّص. وكان عدد الكتب والعناوين دونما تغيير على الدّوام. وكانت في كلّ الحالات المجلّدات العشرة التي ورثها عن أبيه في القانون باللّغة الألمانيّة وهي مغلّفة بالجلد وتحمل أحرفاً مذهّبة. وكان بمقدوره بالتلمّس أن يحدّد كلّ عنوان من خلال سمكه. ولم يكن يختلف النّظام الّذي ينحّيها به قطّ. وكان بمقدوره أن يخمّن ثقل كلّ مجلّد، وعبق رائحة الغبار الّذي يصاحبه. وكان ملمس هذه المجلّدات الجليلة المؤثّرة في النّفس وثقلها ودقّة ترتيبها بمثابة شكليّات لذّته الّتي لا سبيل إلى الاستغناء عنها. ولم يكن هناك احتفال أكثر أهمّيّة من التّنمية المصحوبة بالوقار لهذه الجدران الحجريّة من المفاهيم، وتحويل اللّذّة الكابية الّتي سيستشعرها في غمرة مطالعتها إلى افتتانه التّعس. وأنزل بعناية، ودونما صوت، كلّ مجلّد إلى الأرض. وازدادت مع كلّ كتاب دقّات قلبه. وكان المجلّد الثّامن

ثقيلاً، على نحو خاصّ، وعندما جذبه استشعرت يده خدراً من الثّقل الذهبيّ المترب للذّة الّتي عايشها.

أتمَّ المهمّة، دونما أخطاء، وعندئذٍ وضع عينه على ثقب التلصّص من دون أن يرتطم رأسه برفّ المكتبة. وكانت للبراعة في القيام بهذا تبعة كبيرة. فما أعظم الأهمّيّة الّتي بدت مكتسية بها كلّ جزئيّة من هذه الأمور التّافهة. وكما في طقس يؤدّى فإنّه لا سبيل إلى حذف أيّة جزئيّة لكي يستطيع الإطلال على هذا العالم الآخر المتألّق. لقد كان كاهناً وحيداً تُرِك في الظّلام، ملتزماً أشدّ الالتزام بالإجراءات المراسيميّة الّتي تدرّب عليها كثيراً في ذهنه ـ غزاه الاعتقاد بأنّه إذا نسي أي جزء من الطّقس فإنّ البناء بأسره سينهار ـ وضع عينه اليمنى، في حرص على الثّقب.

بدا أنّ أحد المصابيح المجاورة للفراش مضاء، ورقش الغرفة ضوء خافت. كان من الحذق بحيث جعل ماتسودو يحرّك الفراش المجاور للحائط بحيث كان الفراشان معاً في مجال رؤيته الآن.

تلوّت في الضّوء الخافت أطراف متشكابكة، على نحو لا سبيل إلى انفصامه، على الفراش، الممتدّ أمامه مباشرة. وامتدّ جسم أبيض ممتلئ، وآخر أسمر، والرأسان في اتّجاهين عكسيّين، وهما يشبعان رغباتهما الشّهوانيّة. كان وضعاً اتّخذ بصورة طبيعيّة، عندما حاول الذّهن المقيّد إلى اللّحم والمخّ الّذي يحدث الحبّ تحقيق التّوازن بالامتداد إلى أقصى نقطة، لكي يرتشفا النّبيذ الّذي عتّقه ذلك الحبّ. وكان رأسان غرق شعرهما في الظّلال السّوداء مُنضغطينْ على نحو حميمي إلى كتلتين من الشّعر العاني امتلأتا أيضاً بالظّلال. كانت الخصلات الباعثة على الضّيق من الشّعر المهوش الممتدّ عبر الوجنات

قد أصبحت آيات حبّ. وامتدّت أفخاذ ناعمة متّقدة في اتصال حميم مع وجنات ناعمة متّقدة، بينما تـراجع البـطنان اللّدنـان وكأنّهما بـاطنا هلالين وليـدين. ولم يستطع سماع أصوات واضحـة، ولكن نحيباً لا ينتمي إلى اللّذّة، ولا إلى الحـزن، راح يـذبـذب امتـداد الجـذعـين. وحوّلت النّهود الّتي تخلّى عنها الطّرفان، حلماتها في براءة نحـو الضّوء، مرتعشة، بين الفينة والأخرى وكأنّما بتأثير شحنة كهربيّة. شهـد عمق اللّيل المختفي في الهالات المحيطة بالحلمتين وشوط اللّذّة الّـذي جعل النّهـود ترتجف عـلى الحقيقة القـائلة بأنّ كـلّ ذرّة من ذرّات الجسـدين كانت ماتزال معزولة في الوحدة الباعثـة على الجنـون. وكانتـا تجهدان على نحو محموم لتقتربا، لتتّجها نحو حميميّة أكبر، لتنصهر إحداهما في الأخرى، ولكن بلا جدوى. وفي البعيد، راحت أصابع قـدمي كيكو المـطليّة أظـافرهـا بالحمـرة تتلوّى وكأنّها تـرقص على لـوح من حديـد ساخن، ومع ذلك فإنّها ما بلغت إلّا الخطو على غسق خاوٍ.

أدرك هوندا أنّ الغرفة مترعة بهـواء جبليّ بـارد، ولكنّه شعـر وكأنّ مـركز أتـون يكمن فيـها وراء ثقب التلصّص. أتـون متـألّق. وأحسّ بالأسف لأنّ ظهر ينـج تشان الّـذي فحصه بعنـاية خـلال النّهار عنـد المسبح كان باتجاهه والعرق يتدفّق وئيداً على امتداد العمـود الفقري. وسرعـان ما تحـوّل العرق عن مجـراه وتقاطـر على الجانب الأسمر إلى الفراش، وبدا كـأنّ بمقدوره أن يشتمّ عبق فـاكهة استـوائيّة، غنيّـة، ناضجة، فتحت لتوّها.

نقلت كيكو جسمها بخفّة لتكون في وضع الاعتلاء، وحزمت ينج تشـان عنقها، دافعـة رأسها بـين فخذيْ كيكـو الملتمعتـينْ. وكـان من الـطّبيعي أن يظهـر نهداها واضحـين. وأحاطت ذراعهـا اليمنى بورك

كيكو، بينما راحت يدها اليسرى تـداعب بطنهـا بدقّـة. وأمكن سماع لعقات ليليّة صغيرة على نحو متقطّع، وهي تمسّ حافتي المرفأ.

كـان إخلاص ينـج تشان فيـما تعكف عليه جميـلاً للغايـة، إذ كان هـوندا يـراه للمرّة الأولى، حتّى إنّـه نسي أن يدع الشّعـور بالـدّهشـة يداهمه إزاء هذه الخاتمة الخؤون لحبّه.

كـانت عينـاها المغمضتـان متجهتين نحـو السّقف، وجبينهـا نصف مدفون بين فخذي كيكو المتقلّصتينْ بين الفينة والأخـرى. وقد غـطّى شعـر كيكو الشّبيـه بشجر السنط كليّـة على وجـه التّقريب خيشـوميها الجميلين الـوديعين اللّذين لم يعـودا باردين ولا ضيّقـين. وبدت شفّـة ينج تشان العليـا الّتي تشبه القـوس مفتوحـة ومبلّلة، وامتدّت حـركة امتصاص منهمكة من ذقنها الرّقيق إلى وجنتيها المتوهّجتـين بالسّمـرة. وفي التوّ لمح هوندا خطّاً من الدّمـوع يسترسـل وكأنّـه حيوان حيّ من ظلّ أهدابها الوطفاء على امتداد عينيها المغمضتين بإحكام إلى وجنتها.

كان كلّ شيء خلال حركة الأمواج الممتدّة بلا حـدود موجّهـاً نحو ذروة ماتزال في غمـرة المجهول. وبـدت المرأتـان وكأنّهما تجهـدان، في يـأس، للوصول إلى حـدود قصوى، مـطلقـة، لم تحلم أيّ منهـما، أو تأمل، ببلوغها. وأحسّ هوندا وكأنّ هناك قمّة مستـدقّة، مجهـولة، في فـراغ الغرفـة المظلم، تنتصب، مثـل تاج متـألّق. وربّمـا كـان التّـاج التّايلاندي البدري معلّقاً هنالك فوق المرأتين المتلويتينّ، وكان بمقدور عينيْ هوندا وحدهما تصوّره.

أخـذ كلا جسمي المـرأتين ينقبضـان وينبسـطان عـلى التّـوالي، ثمّ يتداعيان، وهما تدفنان نفسيهما من جديد في التنهّدات والتعرّق. وطفا التّاح بلا مبالاة في الفضاء الّذي أوشكت أصابعهما المتشبّثة أن تمسّـه.

وعندما تجلّت القمّة المتصوّرة، ذلـك الحدّ الأقصى الـذّهبي المجهول، تحوّل المشهد تماماً، واستطاع هوندا أن يرى المرأتين متشابكتين، تحت نظرته المحدّقة، في غمرة معانـاتهما وعـذابهما وحـدهما. ولقـد سحقهما عـدم ارتواء اللّحم، وكـانت حواجبهـما المقعودة مـترعة ألماً، وبـدت أطرافهما الحـارّة كأنّها تتلوّى في غمـرة محاولـة للهرب ممّـا يحرقهـا. ولم تكن لهما أجنحة، فواصلتا ارتطامهما العبثيّ، للهرب من أغلالهما، من معـاناتهـما، ولكن لحمهما عـرقلهما بقوّة، وما كـان يمكن إلاّ للنّشوة أن تجلب الانعتاق.

غرق نهدا ينج تشان الجميلان الأسمران بالعرق،، وقد بـدا النّهد الأيمن مسحوقاً، ومتلويـاً، تحت جسم كيكو، بينـما جثم النّهد الأيسر الّذي أخذ يرتفع وينخفض، بقـوّة، على نحـو مبهج للحـواس، على ذراعهـا اليسرى الّتي جعلت تـداعب بهـا بـطن كيكـو. وعـلى النّهـد المرتجف على الدّوام سكنت الحلمة، ومع التعرّق توهّج السّطح وكأنّـه التمع بتأثير المطر.

في تلك اللّحظة، قامت ينج تشان، وكأنّما أخـذتها الغـيرة من تمتع فخذ كيكو بحرّيّة الحركة، برفع ذراعها اليمنى عالياً، وأمسكت بها وكأنّها تعلن ملكيتها لها، ووضعتها بقوّة على رأسها وكأنّ بوسعها الاستغناء عن التنفّس، فغطّت الفخذ الهائلة وجهها تماماً.

تعرّى جانب ينج تشان بكـامله. وإلى اليسار من نهدهـا العاري، وفي منطقة كـانت ذراعها تغـطيها في السّـابق، بدت بـوضوح ثـلاث شامات بالغة الصّغر، كنجمات الثّريا في السّماء الغسقيّة الّتي شكّلتهـا بشرتها السّمراء الّتي شابهت وهج المساء.

صدم هوندا. وبدا الأمر وكأنّ أسهماً اخترقت عينيه اختراقاً.

وما إن حنى رأسه، وأوشك على مبارحة رفّ المكتبة، حتّى شعر بنقرة خفيفة على ظهره. وعندما سحب رأسه اكتشف رابي وهي تقف هناك، في منامتها، وقد شحب محياها على نحو مخيف.

ـ ماذا تفعل؟ لقد شككت في وصولك إلى هذا المدى.

لم يساور هوندا شعور بالذّنب وهو يلتفت بجبينه المكسو بالعرق إلى زوجته. فلقد رأى الشّامات بالفعل.

ـ انظري! انظري إلى الشّامات...

ـ أتقول إنّ عليّ أن أطلّ؟

ـ هلمّي! الأمر كما ظننت.

وإذ وقعت رابي بين الكبرياء والفضول فقد تردّدت لبعض الوقت. وتجاهلها هوندا، ومضى نحو النّافذة النّاتئة، وجلس هناك على الأريكة الدّاخلة في التّصميم المعماري للمكان. وضعت رابي عينها على ثقب التلصّص. وإذ لم يكن في وسعة رؤية وضعه هو عندما كان يفعل الشيء نفسه فإنّه لم يستطع تحمل مشاهدة الوضع المُنْتَقِص من القدر الّذي اتّخذته زوجته. ورغم ذلك فقد بلغا موضع المشاركة في إتيان الفعلة ذاتها.

تطلّع من خلال السّتار المعدنيّ في النّافذة النّاتئة إلى القمر الّذي حجبته سحابة. ووراء السّحابة الّتي أخذ الضّوء بأكنافها، بعث القمر بأشعّته في كافّة الاتّجاهات، ومضى حشد من السّحب مبتعداً بالبهاء ذاته. وكانت النّجيمات قليلة العدد، ولم يرَ إلاّ نجيمة واحدة تتألّق على نحو وهّاج حتّى ليوشك سناها أن يمسّ قمم أشجار السرو.

عندما اكتفت رابي من التلصّص أضاءت النّور في الغرفة، وقد تألّق وجهها بالنّشوة.

ومضت إلى الأريكة فجلست. وكانت قد شفيت بالفعل ممّا بها.
قالت بصوت دافئ خفيض:
- إنّني مذهولة... أكنت تعلم ذلك؟
- كلا، لقد اكتشفته لتوّي.
- لكنّك قلت حالاً إنّ الأمر كما ظننت
- ليس هذا ما عنيت، يا رابي، فقد كنت أتحدّث عن الشّامات. فلقد نقّبت منذ بعض الوقت في مكتبي بطوكيو وقرأت مذكّرات ماتسوجاي. ألم تفعلي ذلك؟
- أنا، نقّبت في مكتبك؟
- لا يهمّ. إنّني أسألك عمّا إذا كنت قد قرأت مذكرات ماتسوجاي.
- أنا... أنا لا أذكر. إنّني لست مهتمّة بمذكّرات أناس آخرين.
عندما طلب منها هوندا أن تحضر له سيجاراً من المخدع، نفذّت أمره بإذعان، بل أشعلته له، واقية إيّاه بكفّها من الرّيح الّتي جاءت من ستارة النّافذة.
- المفتاح المفضي إلى التّناسخ في مذكّرات ماتسوجاي. لقد رأيتها بدورك. ألم تريها؟ الشّامات الثّلاث السّوداء على جنبها الأيسر. لقد كانت هذه الشّامات أصلاً على جنب ماتسوجاي.
لم تُعِرْ رابي الّتي انغمست في التّفكير بأشياء أخرى، اهتماماً لما يقوله هوندا، وربّما ظنّت أنّ زوجها يبحث عن أعذار. وجعل هوندا يلحّ عليها، راغباً في أن تكون لهما هذه الذّكرى معاً.
- طيّب. لقد رأيتها. ألم تفعلي؟
- لا يمكنني القول. ولكن المشهد كان فظيعاً. لا يمكنك العلم ببواطن النّاس. أذلك ممكن!

ـ ذلك هو السّبب في أنّني أقول إنّ ينج تشان هي تناسخ لماتسوجاي.

مضت رابي تحدّق في زوجها بإشفاق. وكان من الطّبيعي أن تحاول امرأة تعتقد أنّها قد شفيت التصرف باعتبارها لم تعرف العلّة. وكانت هذه المرأة الّتي أكدّت الواقع بمثل هذه الضّراوة البالغة على استعداد الآن لأن توصل إلى زوجها العدوى بالخشونة الّتي حرقت جلدها كالماء المالح. فرابي لم تعد رابي الزّمن القديم. وعلى الرّغم من أنّها رغبت في تحويل الواقع فإنّها تعلّمت عن حكمة أن تؤمن به، تعلّمت أنّه يمكن تحويل العالم من خلال الملاحظة. وقد نظرت من عل إلى عالم زوجها دون أن تدرك أنّها في حقيقة الأمر قد أصبحت شريكة في التّآمر من خلال تحوّلها بدورها إلى متلصّصه.

ـ ما كلّ هذا الّذي تقوله عن التّناسخ؟ كم هو مثير للسخرية! إنّني لم أقرأ أيّ مذكّرات. وعلى أيّة حال، فقد هدأت نفسي في نهاية المطاف. ولا بدّ أنّ عينيك قد فتحتا بدورهما، ولكنّي كنت أعاني من شيء لا وجود له على الإطلاق، كنت أصارع وهماً. والآن وأنا أدرك جليّة الأمر، أشعر بالتّعب فجأة. ولكن كلّ شيء انتهى إلى الأفضل. ولم يعد ثمّة ما يثير القلق.

جلس كلّ منهما على طرف من طرفي الأريكة، وبينهما منفضة سجائر. وأوصد هوندا النّافذة إذ قلق من أن تشعر رابي بالبرد، فتصاعد الدخان من سيجاره وئيداً تحت الضّوء. ولزما الصّمت، ولكنّه لم يكن الصّمت الّذي ساد بينهما في الصّباح.

لقد ربطت بين قلبيهما فظاعة ما رصداه، وأحسّ هوندا للحظة بأنّه كم يكون أمراً طيّباً لو أنّهما كانا مثل كثير من الأزواج الآخرين في

العالم، لو كان بمقدورهما استعراض استقامتهما الأخلاقيّة الّتي لا تشوبها شائبة، والجلوس إلى المائدة ثلاث مرّات يوميّاً وتناول الطّعام على هواهما بفخار، لو كان بمقدورهما أن ينتزعا في مقت أشياء أخرى في العالم. ولكنّهما كانا قد تحوّلا في الواقع إلى زوجين من المتلصّصين فحسب.

غير أنّ كلاً منهما لم يكن قد رأى الشيء عينه، فحيثما اكتشف هوندا الواقع، لم تكتشف رابي إلاّ أوهامها. وقد كانت العمليّة الّتي وصلا بها إلى هذه النّقطة المشتركة واحدة بالنّسبة لهما، من حيث أنّهما لم يفيقا بعد من التّعب، وأنّ عملهما كان عبثاً وبلا طائل. وكان ما بقي الآن هو العزاء المتبادل.

بعد قليل تثاءبت رابي، في مبالغة، حتّى ليوشك المرء أن يرى قرار فمها.

وقالت، على نحو موات للغاية، وهي تُرجع شعرها المشعّث إلى الوراء:

- ألا تعتقد أنّنا ينبغي أن نجدّ في التّفكير في تبنّي طفل؟

كان الموت قد حلّق بعيداً عن فؤاد هوندا، في اللّحظة الّتي شاهد فيها كيكو وينج تشان معاً. والآن كان هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنّه ربّما كان خالداً. وقال بإصرار، منحّياً قطعة من الطباق عن شفته:

- كلاّ، من الأفضل أن نحيا بمفردنا، إنّني أفضّل ألاّ يكون لي وريث.

ما إن أيقظ طرق عنيف على الباب هوندا ورابي حتّى اشتما رائحة الدّخان.

- حريق! حريق!

راحت امرأة تصرخ محذّرة. وعندما ضمّ الزوجان أيديهما، واندفعا، عَدْواً عبر الباب، ألفيا رواق الطّابق الثّاني مليئاً بالدّخان المتكاثف، وقد اختفى من أيقظهما. وغطّيا فميهما بردني ردائيهما واندفعا هابطين الدّرج وهما يسعلان ويوشكان على الاختناق. والتمع المسبح بمائه في ذهن هوندا، فلن يكونا بمأمن إلّا إذا استطاعا بلوغه دونما تأخير.

وفيما هما يندفعان إلى الشّرفة ويطلّان على المسبح، شاهدا كيكو ممسكة بينج تشان، وهي تصرخ بهما من الجانب البعيد. بدا جليّاً أنّ النّار تكتسح الدّار، فعلى الرّغم من أنّ الأضواء لم توقد فإنّ انعكاس شكلي المرأتين كان رغم ذلك بادياً للعيان بوضوح على سطح الماء. وقد دهش هوندا حيال المظهر الشّخصيّ لكلّ من كيكو وينج تشان، فقد كان شعرهما مهوشاً، وكانتا ترتديان المبذلتين اللّتين جلبتاهما معهما. ولم يكن هوندا مرتدياً إلّا منامته، فيما كانت رايي ترتدي كيمونوها اللّيلي.

قالت كيكو:

ـ استيقظت وقد أخذ السّعال بخناقي بسبب الدّخان، لابدّ أنّه قد تسرّب من غرفة السيّد إيمانيشي.

ـ من الّذي طرق بابنا؟

ـ أنا. وقد طرقت باب غرفة السيّد إيمانيشي كذلك، ولكنّه لم يهبط. ماذا ينبغي علينا أن نفعل؟

ـ ماتسودو! ماتسودو!

صاح هوندا منادياً فأقبل السّائق عَدْواً على امتداد حافة المسبح.

ـ السيّد إيمانيشي والسيّدة تسوباكيهارا في الدّاخل هناك. ألا يمكنك الذّهاب لمساعدتهما؟

تطلّعوا إلى أعلى، وشاهدوا ألسنة اللّهب مندلعة من نوافذ الطّابق الثّاني جنباً مع الدّخان الأشهب الكثيف.

قال السّائق، متمعناً في الموقف بعناية:

ـ ذلك مستحيل، يا سيّد هوندا؛ فقد فات الأوان الآن. لماذا لم يخرجا؟

ـ لابدّ أنهما قد تناولا أكثر ممّا ينبغي من الأقراص المنوّمة.

قالتها كيكو فدفنت ينج تشان وجهها في صدر كيكو، وشرعت بالبكاء.

تداعى السّقف، فيما يبدو؛ ذلك أنّ ألسنة اللّهب اندلعت عالياً إلى عنان السّماء الّتي امتلأت بالشّرر المتطاير.

ـ ماذا علينا أن نفعل بالماء؟

قالها هوندا، في عجز، ناظراً إلى المسبح الّذي بدا محمرّاً للغاية بألسنة اللّهب والشّرارات الّتي انعكست على سطح الماء، حتّى ليحسب المرء أنّه ما إن يمسه حتّى تحترق يده.

قال ماتسودو متسائلاً:

ـ نعم، أعتقد أنّ الوقت قد فات على إطفاء الحريق، ولكن ربّما كان علينا أن نضخ بالماء القطع الثّمينة الموجودة في غرفة الجلوس. هل أحضر دلواً؟

كان هوندا يفكّر بالفعل في شيء آخر.

ـ ماذا عن دائرة الإطفاء؟ ترى كم السّاعة الآن؟

لم تكن مع أحد ساعة؛ فقد تركوا السّاعات كلّها وراءهم.

قال ماتسودو:

ـ إنّها السّاعة الرّابعة وثلاث دقائق. سرعان ما تشرق الشّمس.
ـ كم هو حكيم منك أن تفكر في إحضار ساعتك.

قالها هوندا ساخراً، مستعيداً ثقته، فيما هو يكتشف أنّه قادر على السخرية حتّى في مثل هذه الظّروف.

قال ماتسودو بهدوء، وكان يرتدي ملابسه على نحو لائق:
ـ إنّها عادة قديمة، فأنا أنام ومعي ساعتي على الدّوام.

جلست رابي إذ شعرت بالدّوار، في مقعد إلى جوار مظلّة الشّاطئ المطويّة.

شاهد هوندا ينج تشان وهي تبعد وجهها عن صدر كيكو، باحثة بعجلة واضطراب في جيب الصّدر بمبذلتها، وأخرجت صورة وكانت ألسنة اللّهيب قد زادت من بريق الصّورة، فألقى نظرة عجلى على نحو شارد إليها، ورأى أنّها صورة لكيكو عارية تماماً وهي تنحني على مقعد.
ـ إنّني سعيدة لأنّ هذه لم تحترق.

قالتها ينج تشان مبتسمة. وفيما هي ترفع ناظريها إلى كيكو التمعت ابتسامتها في ضوء ألسنة اللّهب. ودارت رحى ذاكرة هوندا وسط حشد من الأفكار، فتذكّر المشهد السّابق مباشرة لدخول كاتسومي غرفة نومها. لقد كانت هي نفسها الصّورة الأثيرة الّتي جعلت ينج تشان تنظر إليها وقتذاك.

قالت كيكو، وهي تلّف ذراعاً، في رقّة، حول كتفها:
ـ يا للسّخف! ماذا فعلت بالخاتم؟
ـ الخاتم! آه! لقد تركته في الغرفة.

سمع هوندا ذلك بوضوح فاستبدّ به الخوف من أن يظهر شبحا صديقيه الملتفين باللّهب من النّوافذ البعيدة بالطّابق الثّاني، صارخين في فزع. ومن المؤكّد أنّهما يحتضران الآن، ولربّما لقيا حتفهما بالفعل. وربّما كان ذلك هو السّبب في أن توحي النّار بالهدوء على الرّغم من الصّرير والأزيز.

لم يكن قد ظهر أثر لعربة الإطفاء بعد. وفكّر هوندا في الهاتف الموجود في منزل كيكو الّذي يجري تعديله، وبعث بماتسودو سريعاً لاستدعاء فريق محطّة إطفاء جوتمبا الموجود في نيمايباشي.

شملت المحرقة الطّابق الثّاني بأسره وامتلأ الطّابق الأوّل بالدّخان. وإذ اتّفق أن كانت الرّيح تهب من فوجي إلى الشّمال الغربيّ فإنّ الدّخان لم يزحف نحو المسبح. ولكن برد الفجر زحف حتّى أصاب نخاع النّاظرين.

مضت النّار تتغيّر في كلّ لحظة، وتناهى الضّجيج المتقطّع للأشياء وهي تنفجر مختلطاً بأصوات تشبه خطوات عملاقة وسط اللّهب. وربط هوندا بكلّ صوت شيئاً يحترق: الآن كتاب، الأن مكتب، وأخذ يتصوّر الصّفحات تتقلّب، وتتفتّح كالورود.

تزايد حجم النّيران بالمقارنة بالدّخان. وكان من الممكن الشّعور بالحرارة، حتّى على هذا الجانب من المسبح، وحمل الهواء السّاخن المتصاعد الجمراتِ والشّررَ. وخلال الوقت السّابق لتحوّل الجمرات إلى رماد كانت تبدو ذهبيّة اللّون، وتذكّر المرء برفرفة الأجنحة الذهبيّة لأفراخ تغادر عشّها. وبدا كأنّ الأشياء ترحل. وفي جانب من السّماء أضاءته ألسنة اللّهب المحلّقة عاليا، تحدّدت الخطوط الخارجيّة لكتل السّحب المحتجبة في نور الفجر الوليد.

ارتفع من الدّار صوت يشبه الزّئير، صوت ربّما سببته عروق الخشب المتساقطة على الطّابق الثّاني، ثمّ صدّعت ألسنة اللّهب قسماً من الجدار الخارجيّ وسقط في المسبح إطار نافذة وقد عمّه اللّهب. وأضفت ألسنة اللّهب الزخرفيّة المراوغة على الجسم الأسود المتهاوي الوهمَ العابر المتمثّل في كون هذا الجسم نافذة في المعبد المرمريّ في سيام. واخترق الهواءَ أزيزٌ فيما كان إطار النّافذة يغوص في الماء، فوثبوا متراجعين بعيداً عن المسبح.

اتّخذت الدّار الّتي شرعت تفقد جدرانها الخارجيّة تدريجيّاً، مظهر قفص طيور عملاق يحترق. وراحت ألسنة رقيقة من النّار تندلع من كلّ شقّ وصدع. وكانت الدّار تتنفّس وكأنّ في قلب ألسنة اللّهب مصدر تنفّس عميق قويّ. وبين الفينة والأخرى كان شكّل قطعة أثاث مألوفة، ظلّ يشبه حياة سابقة، يظهر وسط اللّهب، ولكنّه يتهاوى في الحال وقد كساه التألّق، ويعود إلى ألسنة اللّهب المتراقصة بانتشاء. ثمّ تندلع النّيران المتصاعدة إلى أعلى فجأة وكأنّها لسان أفعى، لتعود إلى الاختفاء من جديد في غمرة الدّخان، بينما تبدو فجأة وجوه اللّهب الحمراء من الأدخنة السّوداء الكثيفة. وقد حدث كلّ شيء بسرعة لا تصدَّق، واستعانت النّار بالنّار، والتفّ الدخان على الدخان، والكلّ يحاول الوصول إلى ذروة واحدة. وأسقطت الدّار المشتعلة علوا وسفلاً أخلاطاً من اللّهب إلى عمق المسبح، ولاحت السّماء، المتّشحة بالفجر المتهافت، للعيان من خلال أطراف أصابع النّيران.

غيّرت الرّيح اتّجاهها، واندفع الدّخان نحو المسبح فأبعد النّاظرين مسافة إضافيّة أخرى عن الماء. وعلى الرّغم من أنّه لم يكن بمقدورهم

أن يرصدوا بالتّأكيد رائحة اللّحم البشريّ المحترق فقد كانـوا يعلمون علم اليقين أنّ هذه الرّائحة ماثلة في الدخان، فغطّوا أنوفهم بأيديهم.

أشـارت رايي إلى أنّـه سيكـون من الأفضـل المضي إلى التّعـريشـة حيث شرع ندى الفجر بالتّساقط. وأدارت النّسـوة الثّلاث ظهـورهنّ إلى الحريق، وشرعن بالسّير إلى التّعريشة عبر المرجة الّتي اجتزعشبها أمس، وظلّ هوندا وحيداً.

ساوره شعور على نحو ملحّ بأنّه سبق أن شاهد هذا في مكان ما.

ألسنـة لهب تنعكس في الماء... جثث تحـترق... بنـارس! كيف تأتّى أنّ لا يحلم باستعادة المطلق الّذي رآه في تلك الأرض المقدّسة؟

تحوّلت الدّار إلى كتلة من الضّرم، وأصبحت الحياة ناراً. وعاد كلّ ما هو هامشي إلى الرّماد، وما من شيء كان مهمّاً إلّا الأكثر جوهـريّة، وتطلّع وجه خفيّ عمـلاق رافعاً رأسـه فجأة من اللّهب. الضّحـك، الصّرخـات، النهنهـات امتصّت كلّهـا في صخب اللّهب، وقـرقعـة الخشب وألـواح الزّجـاج المهشّمة، وصريـر المفصـلات ـ وتمّ احتـواء الصّـوت ذاته في هـدوء مطلق. وتصـدّعت أحجار القـرميد المحـترقة وهوت، وانحلّت القيود واحداً إثر آخـر، واستحالت الـدّار إلى عري متـألّق كان قـد ظـلّ مجهـولاً حتّى الآن. وفجـأة تجعّـد الجزء الحليبيّ الشّـاحب من الجـدار الخـارجيّ في الـطّابق الأوّل الّـذي لم يكن قـد احـترق، واستحال إلى اللّون البنّي، وانـدفعت في الوقت نفسه النّار بعنف من خلال لسان خفيف من الـدّخان. وكـانت السّرعة النّـاعمة للتحوّل إلى ألسنة لهب وتقلّباتها في غمـرة السّعي إلى منفذ شيئـاً رائعاً على نحو لا يصدّق.

أزاح هوندا بضع شرارات عن كتفيه وردني ردائه. وبدا سطح المسبح مكسواً ببقايا الجمر المنطفئ والرّماد الّذي تدفّق كالطّحلب. ولكن ألق النّار تغلغل مخترقاً كلّ شيء، وانعكس تطهير غوط ماني كارنيكا ـ كما على صقال مرآة ـ على هذه الرقعة الصّغيرة المحدودة من الماء، على هذا المسبح المقدّس الّذي أنشئ لاستحمام ينج تشان. ما الّذي يختلف هنا عن المحارق الجنائزيّة المنعكسة على سطح نهر الجانج؟ ها هنا أيضاً نار وحطب، ولاشكّ أنّ الجثّتين اللّتين احترقتا على مهل تتقلّبان وتتلوّيان في اللّهب. ما عادتا تحسّان بالألم، وإنّما اللّحم يقلّد ويكرّر فحسب أشكال المعاناة وهو يقاوم الدّمار. وهكذا كان حال الجثّتين. وهذه النّار كانت هي ذاتها النّار الجليّة في المساء الغسقي عند الغوط الطّافي، فكلّ شيء يتمّ تدنّيه سريعاً إلى العناصر المكوّنة. وجعل الدخان يتصاعد إلى عنان السّماء.

كان الشيء الوحيد الغائب هو وجه البقرة الشّهباء المقدّسة الّتي التفتت وأخذت تحدّق في هوندا مباشرة، من الجانب الآخر لألسنة اللّهيب.

وعندما وصلت عربة الإطفاء كانت النّيران قد خمدت بالفعل. ورغم ذلك فقد استجاب رجال الإطفاء لنداء الضّمير، وغمروا الدّار بالماء، وتمّت محاولة إنقاذ، ولكنّهم عثروا على الجثتين وقد احترقتا تماماً. ووصل رجال الشّرطة، ووجّهوا الأسئلة إلى هوندا للتأكّد من ملابسات الوفاة. ولكن لّما كان الدّرج قد انهار، فقد تعذّر الوصول إلى الطّابق العلوي، واستسلم هوندا للأمر الواقع. وبعد إبلاغ الضّابط المنوّب بعادات إيمانيشي والسيّدة تسوباكيهارا، سجّل أنّ سبب الحريق ربّما كان قيامهما بالتّدخين في الفراش. وإذا كانا قد

تناولا الأقراص المنوّمة في حوالي السّاعة الثّالثة، فإنّ وقت الفعاليّة القصوى للعقار سيتزامن مع وقت اندلاع الحريق الّذي لاشكّ أنّه بسقوط سيجارة مشتعلة على الغطاء. ولم يتقبّل هوندا فكرة الانتحار. وعندما تحدّث الضّابط عن «انتحار مزدوج»، أغربت كيكو الّتي كانت تصغي للحديث في الضّحك.

كان يتعيّن عندما تهدأ الأمور بعض الشيء، أن يقدِّم هوندا نفسه إلى مخفر الشّرطة للإدلاء بإفادة شاملة. وكان على يقين من أنّ اليوم سيكون حافلاً بالمشاغل، وأنّه لابدّ له من أن يبعث ماتسودو لشراء طعام لوجبة الإفطار، ولكن لابدّ أيضاً من الانتظار بعض الوقت لتفتح المتاجر أبوابها.

التمّ شمل الجميع في التّعريشة إذ لم يكن هناك مكان آخر يتوجّهون إليه، وطرحت ينج تشان، بلغتها اليابانيّة المتعثّرة، موضوع ثعبان كانت قد رأته وهي تجري بعيداً عن النّار. وكان قد ظهر في المرجة وتلوّى مبتعداً بسرعة غير مألوفة، والنّار البعيدة تلتمع على حراشيفه البنّيّة الزيتيّة.

وإذ راحوا يصغون إليها فقد شعروا جميعاً، ولاسيّما النّساء، ببرودة الهواء تزداد تغلغلاً في عظامهم.

عندئذ على وجه الدّقة، لاح لهم فوجي وقد كساه الفجر بلون القرميد الأحمر، وكانت لمسة متألّقة من الثّلج الأبيض قرب قمّته. وحتّى في هذه الظّروف، انتقلت عينا هوندا، كأنّما رغماً عنه، من الجبل الأحمر إلى سماء الصّبح، إلى جواره مباشرة، فقد كانت هذه العادة تتمّ بغير وعي تقريباً. واستطاع أن يرى بوضوح الشكّل الحليبيّ لجبل شتائيّ.

- ٤٥ -

في عام ١٩٦٧ ، اتّفق أنّ وجّهت إلى هوندا دعوة إلى حفل عشاء في السّفارة الأميركيّة بطوكيو. وهناك التقى برئيس المركز الثّقافيّ الأميركيّ في بانكوك. وكانت زوجته الّتي تجاوزت الثّلاثين من العمر، تايلانديّة، وقد قال أناس إنّها أميرة. وكان هوندا على يقين من أنّها ينج تشان.

كانت ينج تشان قد عادت إلى بلادها، بعد وقت قصير من الحريق الّذي شبّ في جوتمبا في ١٩٥٢ ، ولم يسمع هوندا شيئاً عنها، منذ ذلك الحين. وللحظة اعتقد بأنّها عادت إلى طوكيو بعد خمسة عشر عاماً زوجة لأميركيّ. ولم يكن هذا بالأمر المستحيل، وسيكون سلوكاً يتوافق تماماً مع ما درجت عليه ينج تشان من التّظاهر بأنّها لا تعرفه على الإطلاق لدى تحيّتها له، عند تقديم أحدهما للآخر.

تطلّع إليها عدّة مرّات، خلال العشاء، ولكنّها أصرّت على على عدم التّحدث باليابانيّة. وكانت لغتها الإنجليزيّة لغة امرأة ولدت في أميركا. وإذ شغل الأمر هوندا بعمق فقد ردّ بإجابات لا قيمة لها على الإطلاق، في مرّات عديدة، على أسئلة المرأة الّتي جلست إلى جواره.

بعد تناول طعام العشاء، قدّمت المشروبات الرّوحيّة في قاعة أخرى، ودنا هوندا من السيّدة الّتي كانت ترتدي ثوباً ورديّ اللّون من الحرير التّايلانديّ، وأتيحت له فرصة محادثتها على انفراد للمرّة الأولى.

سألها عمّا إذا كانت تعرف ينج تشان.

- إنّني أعرفها حقّ المعرفة، فقد كانت شقيقتي التوأم. ولكنّها ماتت.

قالتها بالإنجليزيّة، على نحو متألّق، فسألها باندفاع عن كيفيّة موتها، ومتى كان ذلك.

قالت السيّدة إنّه بعد عودة ينج تشان من دراساتها في اليابان، اكتشف أبوها أنّها لم تستفد إلّا قليلاً من إقامتها هناك، فحاول إرسالها إلى الولايات المتحدة للدّراسة، ولكنّها لم توافق على ذلك، واختارت الإقامة في مقرّها المحاط بالزّهور في بانكوك. وقد ماتت فجأة في الرّبيع، وهي في العشرين من عمرها.

قالت الوصيفة إنّ ينج تشان كانت واقفة بمفردها في الحديقة تحت شجرة فونيكس تتميّز بزهورها القرمزيّة الّتي يشوبها لون الدخان. وعلى الرّغم من أنّه لم يكن هناك أحد فقد سُمعت وهي تضحك. وحدّثت الوصيفة نفسها بأنّه من الغريب أن تضحك، وهي منفردة بنفسها. ثمّ تردّدت أصوات صافية بريئة مرتفعة إلى السّماء الزّرقاء المشمسة. وتوقّف الضّحك. واستحال فوراً على وجه التّقريب إلى صرخات حادّة. وهرعت الوصيفة لتجد ينج تشان على الأرض، وقد لدغت كوبرا فخذها.

انقضت ساعة قبل أن يحضر الطّبيب، وفي غضونها تراخت عضلاتها، وفقدت السّيطرة على كلّ حركاتها، وأخذت تشكو من نعاس مداهم، وازدواج في الرّؤية. وجثم عليها شلل العمود الفقريّ، وانثال اللّعاب من فمها، وأخذ تنفّسها بالتّباطؤ، في حين تسارع نبضها، وأصبح غير منتظم. وانغمست ينج تشان في تقلّصات النّهاية، وماتت قبل وصول الطّبيب.

«معبد الفجر» هي الرواية الثالثة من رائعة ميشيما النادرة المثال، في الأدب العالمي كلِّه، رباعيّة «بحر الخصوبة». وكما في «ثلج الرَّبيع» و«الجياد الهاربة»، نجد أنَّ البطل لا يعدو أن يكون البطل الأوَّل نفسَه، ولكن بعد انتقاله من خلال تناسخ الأرواح، ليبدأ دورةَ وجودٍ جديدة، وليتاح لـ «هوندا» وحده أن يعرف الرابطة التي تصل أبطال الرباعيّة، وذلك من خلال عنصرين محدّدين: هما ثلاث شامات يحملها الأبطال جميعاً، ومجموعة الأحلام العجائبيّة...

إنَّ ميشيما على يقين من أنَّ رباعيّته إنَّما هي نقطة الوصول لكلِّ ما تعلَّمه بوصفه كاتباً. فقد لفت انتباه أصدقائه إلى أنَّه عندما ينتهي من كتابتها، لن يبقى له سوى عمل شيء واحد: «الانتحار»، وهو ما حدث بالفعل.

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

دار الحصاد
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ
ص ب ٤١٢٣ ـ ١